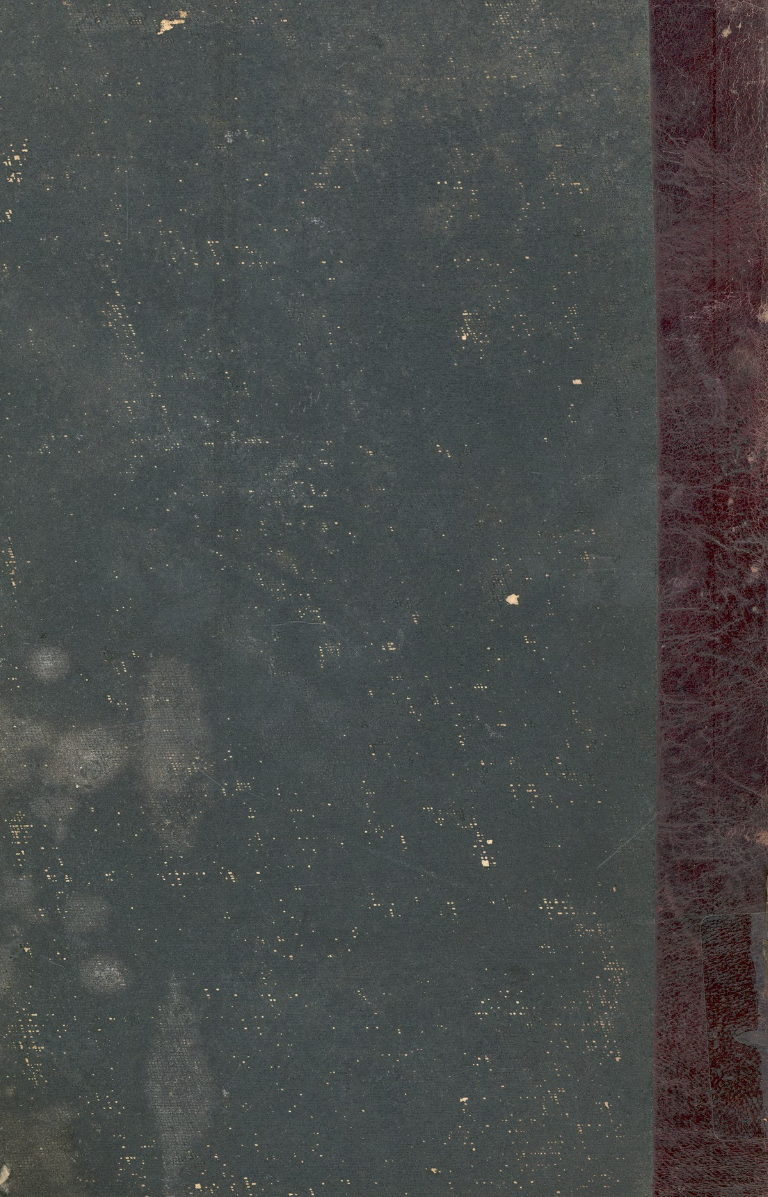
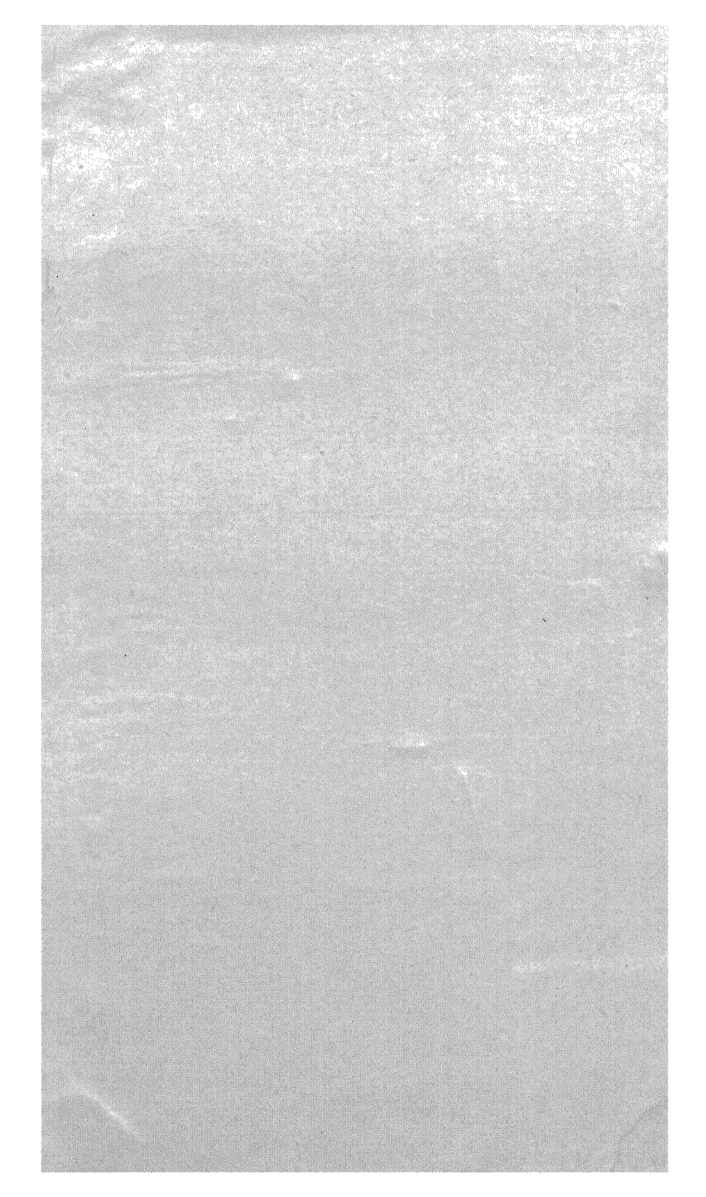
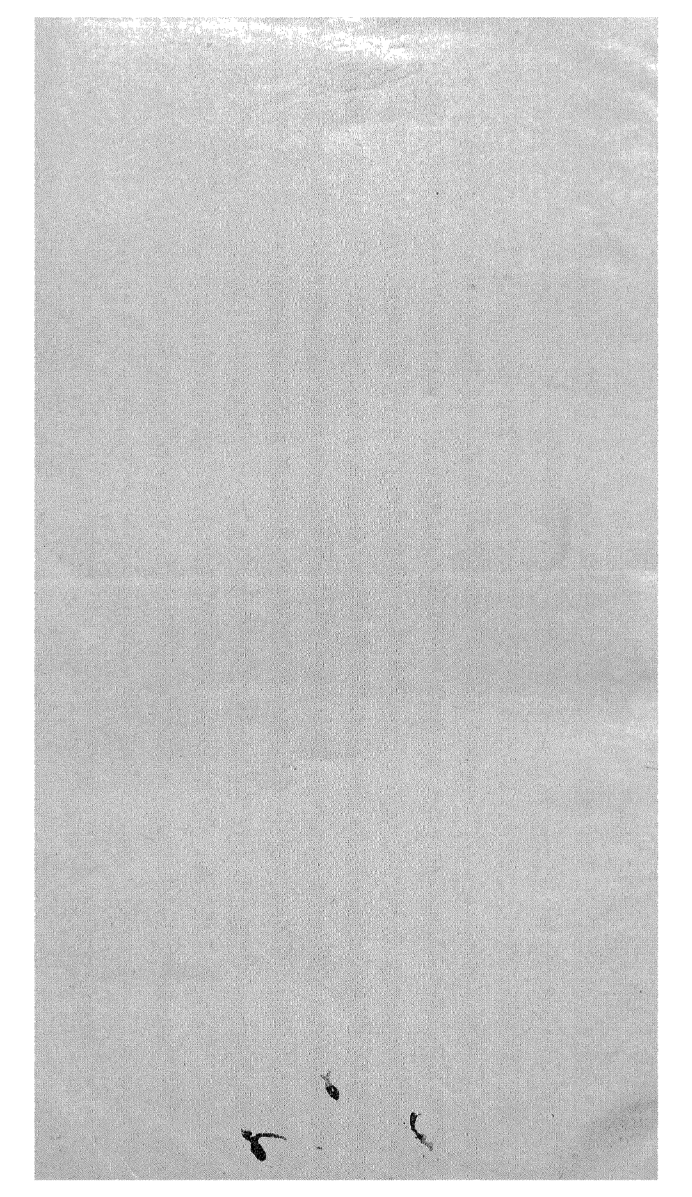
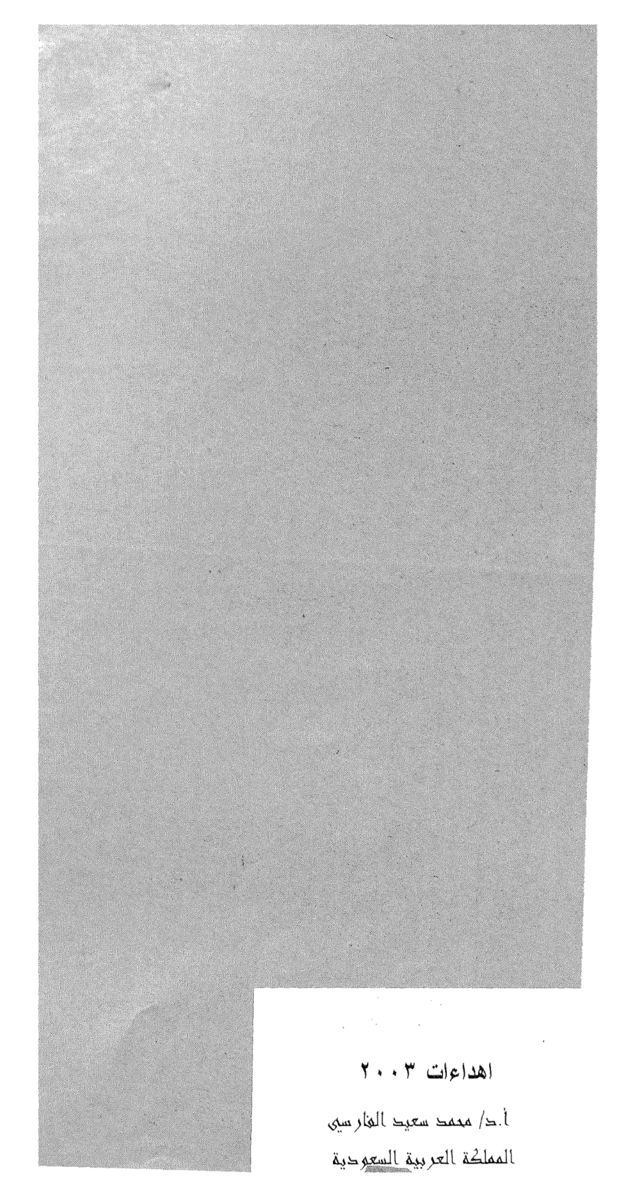








اهداءات ٢٠٠٣

أ.د/ محمد سعيد الفارسي

المملكة العربية السعودية

فهرس التربية الاستقلالية

صفحة

١ مقدمة ناشر الكتاب

٧ مقدمة مترجم »

﴿ الكتاب الاول في الام ﴾

١٧ (الرسالة ـ ١) وصف حال المسجون

٢٠ (٢) خبر سار من المسجون لزوجته

٢١ (٣) تسلي المسجون بتعرف اماكن السجن

٢٢ (٤) السجن قيد للاشباح لا للارواح

٢٣ (٥) مواساة الاصدقاء الخاملين في حال الشدة

٢٤ (٦) قول الطبيب في الحمل (باميل)

٢٥ (٧) تأثر الزوجة بزيارة سجن زوجها ومشقة الرجوع منه وتخوفها من ثقل فروض التربية

٣١ (٨) نقل الزوج من سجن الى آخر

٣١ (٩) خيبة الزوجة في زيارة السجن وعزمها على اتباع زوجها

٣٢ (١٠) نهي الزوج زوجته عن السفر رعاية للجنين وما يلزم له

٣٤ (١١) تفضيل الأمومة على الزوجية واماني الام في الولد

صفحة

٣٥ (١٢) وصف الزوجة للوندرة وسفرها الى بنزانس

٤٢ (١٣) جبل القديس ميكائيل والمنزل الذي يصلح للتربية

٤٨ (١٤) محافظة الحامل على سلامتها

٥٢ (١٥) التربية الاولى من خصائص الام

٥٤ (١٦) تشابه السجون في جميع البلدان وتسريتهم المسجون بالمطالعه

٥٤ (١٧) المسكن الجديد ومجيء قويدون وزوجته جورجيه من فرنسا والمقارنه بين الفرنسيات والانكليزيات في تربية الاولاد

٦٦ (١٨) موافقة الزوج لزوجته في انتقادها التربية عند الفرنسيس

٦٨ (١٩) تسمية المولود وانتقاد طريقة التربية في فرنسا

٧٩ (٢٠) وصية الدكتور للحامل بالرياضة والتنزه والبعد عما يثير الانفعالات وباختلاف المناظر الرائعة

٨٤ (٢١) وصف تعويد الانكليز

صفحه

اطفالهم الاستقلال والحرية

٩٣ (٢٢) انتقاد اخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد اسلافهم

٩٥ (٢٣) اخبار الزوجة زوجها باقتراب ساعة الوضع وبرؤيا رأتها

﴿صحف مقتطفة من يومية الدكتور اراسم﴾

٩٧ اقل العقبات المعنويه يعوق العقل عن الانبعاث في سبيل الحريه

٩٧ لا بد يوماً ان يدال من المستبدين وان ترد الحقوق المغصوبه الى اهلها

٩٨ من اعجب الظلم ان يداس العدل والحريه وتهضم حقوق الامم في سبيل تحصيل لذة الملك لرجل هالك

٩٩ تمثيل الحكومه المستبدة في الامم الراقية بالدجاجه مع افراخها

٩٩ تمثل زوجه المسجون له في اليقظه

١٠٠ (٢٤) البشارة بوضع « اميل »

١٠١ (٤٥) القابلات والعنايه بالمولود

١٠٥ (٢٦) مشابهه « اميل » لابيه وحكاية في التماثل بين الاحياء والاموات

١٠٦ (٦٧) ظن الام ان وليدها انشأ يعرفها وبيان فضله عليها في تحسين خلقها

١٠٨ (٢٨) سؤال الزوج عن حقيقه التربيه وبدايتها ونهايتها

صفحه

﴿الكتاب الثاني في الولد﴾

١٠٩ (الرسالة ـ ١) تعريف التربيه وعسر تحديد زمني بدايتها ونهايتها

١١٢ (٢) عمل الام في الشهور الاولى من حياة الطفل وانتقاد ما يفعله الامهات باطفالهن

١١٤ (٣) اول علوم الطفل تأتيه من طريق الحواس وتربيه الحواس وتأثير التمدن في قواها وتفضيل التربيه في الريف وعمل الام في تمرين حواس الطفل

١٢٢ (٤) شعور الطفل من أول نشأته بأنه ارقى من الحيوان واستخفافه بالعالم واستعراف طباعه وذكر اهمال المربين

١٢٤ (٥) حسن رأي الزوجه في ولدها وسياسته ووصف الاقليم والاشجار

١٢٧ (٦) تلقيح الجدري ووهم عوام الانكليز فيه وذكر الام لأحوال ولدها

١٣٠ (٧) بيان ان سبب فتور مشاعر الطفل عدم التفاته الى المحسوسات لا ضعف المشاعر نفسها ووجوب تنبيهه اليها وتدريبه الطفل على المحافظه على نفسه بنفسه

١٣٥ (٨) تعرّف اذواق « اميل » وانتقاد الوالدين اللذين ينشئان الطفل

صفحة

على مثالها في الطباع والاذواق و بيان ماهية الطبع وانفعالات الطفل واسبابها ودوائها و وجوب مقاومة التربية لأهوائه الفاسدة من طريقين إلهاؤه عنها وجعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها
١٤٣ (٩) استعمال السلطة في سياسة الاطفال بقدر الضرورة و بيان ضرر قهر الطفل على الامتثال
١٤٧ (١٠) اجتناب تخويف الطفل بالعقوبات الالهية والخوض معه في المسائل الدينية وتركها له لينظر فيها متي كبر بفكر خال من المؤثرات
١٥٢ (١١) بيان عدم فائدة أصول علم الاخلاق في التربية
١٥٦ (١٢) بيان قلة نفع القدوة ومطالعة قصص الحيوانات في تربيــة الاطفال ووجوب استقلال طبع الطفل وتعلم سير الحيوانات بنفسه
١٥٩ (١٣) بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة
١٦٤ (١٤) تربية النفس و بيان ان في التبكير بالقاء النصائح والمواعظ على الاطفال حطا من كرامتهم وان

صفحة

للاطفال حاسة يميزون بها بين الحب الصحيح والمموه
١٦٦ (١٥) تفاهم الأم مع ولدها بالاصوات وظنها انها أصل اللغات
١٦٨ (١٦) استعداد الأم لتعليم ولدها بالبحث في أحوال النباتات
١٧٠ (١٧) تسنين إميل
١٧٠ (١٨) في تفكر الطفل. وأصل اللغات وفي تعليم اللسان للاطفال وسوء طريقة المربين في ذلك
١٧٧ (١٩) التفكر مما يتعلمه الطفل خطأ المربين بعنايتهم بالالفاظ دون المعاني ووجوب تعويد الاطفال النظر والملاحظة تمرنا على التفكر
١٨٠ (٢٠) محاولة إراسم الهرب من السجن وخوفه انقطاع المراسلة
١٨٠ (٢١) بيان شغل « اميل » وان الاعمال الصبيانيــة ليست باطلة
١٨٢ (٢٢) انس «اميل» بالدواجن وأنسها به وتعليل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة
١٨٨ (٢٣) تأثير الجمال في الاطفال واحتياجهم إلى كثرة التعلم
١٨٨ (٢٤) اخبار الزوج زوجته بنقله

صفحة

إلى سجن آخر واقناعها بالعدول عن السفر اليه

١٩٠ (٢٥) تعليم الاطفال الصدق والاحسان والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام الزمنى بحسن المعاملة

٢١٤ (٢٦) وجوب اعتراف المربي للطفل بجهل مايجهله وانتقاد المربين في دعواهم العلم بكل شي وانتقاد التعليم الديني والسياسي والطريقة المستحسنة في التربية وبعض شروطها كنسيان المربي ما تعلمه ليتعلم مع الطفل

٢١٩ (٢٧) التدرج في تعليم العلوم للاطفال بلفت اذهانهم الى ماحولهم وانتقاد الكتب التعليمية ماحولهم

٢٢٦ (٢٨) فوائد التصوير والمعارض في التربية

٢٣١ (٢٩) التربية والتعليم بالفانوس السحري والتمثيل والمعارض

٢٣٧ (٣٠) السفر بالاطفال ومعرفة الارض بالعمل وتعليمهم الصناعة بمعالجة اللعب

٢٤٦ (٣١) تعليم القراءة والخط والرسم

صفحه

٢٥٤ (٣٢) التدرج الفطري في تعليم الرسم والخط والقراءة

٢٦٧ (٣٣) تربية الخيال والتلطف في محاورة الاطفال

٢٦٥ (٣٤) خطاب الاب لابنه وحثه على تعلم الكتابة

٢٦٥ (٣٥) الصحه في تغيير الهواء وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء

٢٧٤ (٣٦) تعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل الفانوس السحري

٢٨٢ (٣٧) بقية اخبار السفينة الغريقة وسرعة تفاهم الاطفال

٢٨٣ (٣٨) السباحة وتربية العضلات

٢٨٧ (٣٩) اخبار المسجون بالعفو عنه

٢٨٨ (٤٠) بشرى الحرية (خروج اراسم من السجن)

﴿ الكتاب الثالث في اليافع ﴾

شذرات مقتطفة من جريدة الدكتور أراسم

٢٨٩ (الشذرة الاولى) حب الزوجة والولد والوطن

٢٩١ (ش ٢) تعليم المسميات قبل الاسماء

٢٩٤ (ش ٣) تربية الذكور مع

صفحة

الاناث وتعليمها معا

٢٩٨ (ش ٤) الجزيرتان والتعليم بضرب الامثال

٣٠٣ (ش ٥) الخط الديواني

٣٠٦ (ش٦) مذهب تشغيل المتعلمين بالاعمال المادية الشاقة

٣٠٩ (ش ٧) رؤيا تمثل التربية الكاملة وآثارها في سعادة الامة

٣١٧ (ش ٨) تجلي العلم في العمل

٣٢٣ (ش ٩) انتقاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتنية

٣٣٠ (ش ١٠) التقليد والذاكرة

٣٣٦ (ش ١١) المؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها

٣٣٨ (ش ١٢) لا يسلم وجه الشمس من كلف وانتقاد اللغتين اليونانية واللاتينية

٣٤٨ (ش١٣) السفر من اركان التربية

٣٥٨ (ش١٤) التربية بركوب البحر

٣٦٢ (ش ١٥) مايتعلم في السفينة

٣٦٦ « ش١٦» التربية بسفر البحر

٣٦٨ «ش١٧» طريقة صيد خنازير البحر

٣٦٩ « ش ١٨ » وصف مايرى في

صفحة

البحر من المشاهد الطبيعية

٣٧١ « ش ١٩ » الاسماك الطيارة، وصيد كلاب البحر، والضوء الذي يرى في المياه ليلا

٣٧٤ « ش ٢٠ » صيد السلاحف البحرية

٢٧٤ (ش ٢١) فخامة منظر الشروق والغروب قرب خط الاستواء

٣٧٥ « ش ٢٢ » افاعيل الملاحين عند الاقتراب من خط الاستواء

٣٧٦ « ش٢٣ » سرعة تغير الاقليم بخط الاستواء والاعاصير المائية

٣٧٦ « ش ٢٤ » تبادل السفن صنائع المعروف

٣١٧ «٢٥» موت ملاح والاحتفال بجنازته في السفينة وحقيقة سبب تأثر الاطفال بفاجعة الموت

٣٨٢ « ٢٦ » اقاليم البلاد فصول ثابتة فصول السنة اقاليم مرتحلة

٣٨٢ « ش٢ » وصف بعض طيور بوغاز ماجلان وصيد نوع منها

٣٨٣ (ش٢٨) كثرة الزوابع في رأس القرن

٣٨٣ «ش٢٩» الشجاعة في الملاحين

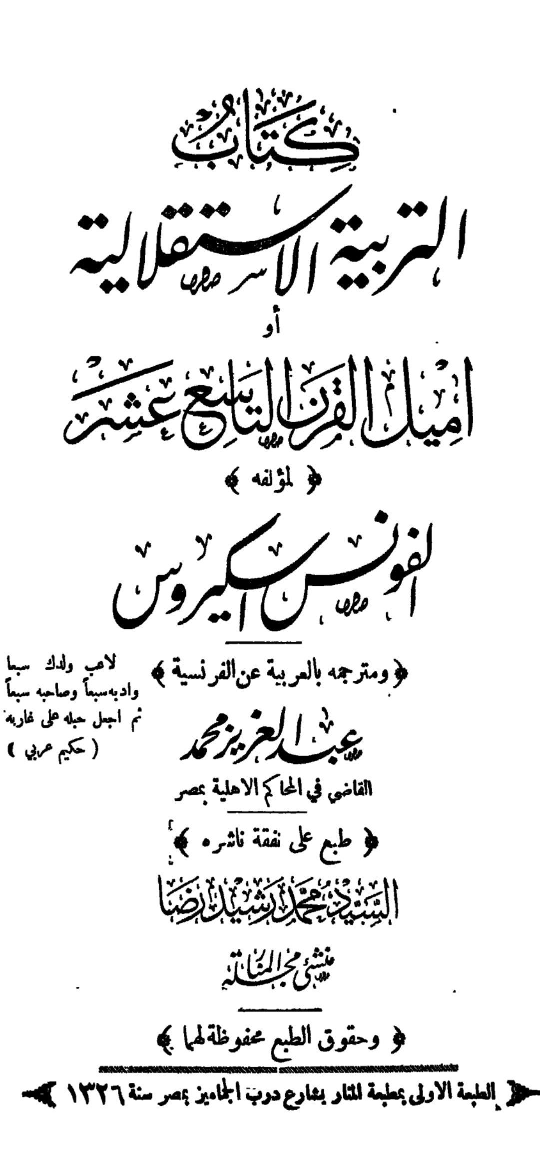
صفحة

والجنود وكونها كسبية وشجاعة النساء المحمودة
٣٨٧ « ش ٣٠ » مرح « لولا » في السفينة بعد زوال الخطر
٣٨٨ « ش ٣١ » وصف جزر فرناند التي كتبت عن احداها قصة قصة روبنسن كروزو المشهورة
٣٧٩ وصف « ش ٣٢ » خليج قلاو وذكر نوع من الطير هناك
٣٩٠ « ش ٣٣ » فوائد العقبان
٣٩١ (ش ٣٤) التربية بالمعاينة
٤٩٥ « ش ٣٥ » اخلاق اهل ليما واحوالهم واهل بيت «لولا»
٣٩٨ (ش ٣٦) فوائد الشدائد وبذل النفس للمحبوب اول الحب
٤٠١ « ش ٣٧ » الآثار والمدن المجهولة في البيرو والموازنة بين القوى والاعمال
٤٠٢ (ش ٣٨) التربية بالتأثيرات الطبيعية
٤٠٦ « ش ٣٩ » فخامة مشاهد الجبال
٤٠٧ « ٤٠ » انتهاء قضية « لولا » والعودة الى اوربا
٤٠٨ « ش ٤١ » بيان ما عاد على اميل من الفوائد في هذا السفر

صفحة

﴿ الكتاب الرابع ﴾
(في تربية الشاب)

٤٠٩ (الرسالة — ١) « اميل » في مدارس المانيا . معيشته . ووصف نادي الطلبة ومحاوراتهم وتهافتهم على خدمة الحكومة وتعلمه اللغة الالمانية وذكره « لولا » واستيحاشه من غربته
٤٦٥ « ٢ » فراق الولد لوالديه سنة فطرية . العلم في المانيا . نقد الطالب ما يقرؤه من افكار غيره ـ القصد في علوم المعقولات ـ نفع الامة بالقيام بالواجب على قدر الطاقة ـ اختيار الشاب العمل الذي يشتغل به بعد ـ لا حرية لامة يتكالب شبانها على تولي اعمال الحكومة ـ التحذير من الملحدين لا قيمة للرأي العام الا اذا كانت الحكومة شورى ـ خدمة الامة لذاتها لا للجزاء
٤٢٤ «٣» عشق «اميل» قينة ممثلة ومكاشفة امه بذلك
٤٣١ « ٤ » شأن الوالدين مع الولد العاشق وتلطف الام في نصحه
٤٣٤ «٥» المدارس الجامعة في المانيا
٤٣٨ « ٦ » التربية الدينية والفلسفية



كتاب

التربية الاستقلالية

أو

أميل القرن التاسع عشر

﴿ لمؤلفه ﴾

الفونس اسكيروس

لاعب ولدك سبعا
وادبه سبعاً وصاحبه سبعاً
ثم اجعل حبله على غاربه
(حكيم عربي)

﴿ ومترجمه بالعربية عن الفرنسية ﴾

عبد العزيز محمد

القاضي في المحاكم الاهلية بمصر

﴿ طبع على نفقة ناشره ﴾

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

﴿ الطبعة الاولى بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر سنة ١٣٢٦ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

هوَ الذي بَعثَ في الأُميين رَسولاً مِنهمْ يَتلو عَليهمْ آياتهِ ويُزَكّيهم ويُعلّمهمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ *

فلله الحمد والشكر والثناء الحسن ، وعلى نبيه ورسوله الصلاة والسلام ، والرحمة والبركات لمن تزكوا بالتربية العالية ، وتعلموا الكتاب والحكمة السامية ، فكان لكل منهم نصيبه من السعادة في نفسه ، والسيادة في أبناء جنسه ، ومنهم من أعدته هذه التزكية للسعادة الآجلة ، كما أعطته السيادة العاجلة ، ١٧ : ٢٠ كُلاً نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ٢١ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرةُ أكبرُ درجات وأكبرُ تفضيلاً

فبالتربية والتعليم سعادة الدنيا، وبهما سعادة الحياة الأخرى، والأمور بمقاصدها

للانسان استعداد لا يعرف له حد ولا نهاية ، ولا تظهر ثمرات استعداده الا بالتعاون ، ولا يكون التعاون الا بالعيشة الاجتماعية ، وشؤون الاجتماع لا ترتقي الا بالنظام ، وإنما يقوم النظام بالحكام ، والحكام عرضة للبغي والأثرة لا يصدهم عنهما الا سيطرة الأمم عليهم ، والأمة لا تصلح للسيطرة على حكامها الا اذا كان افرادها احراراً في انفسهم ، مستقلين في افكارهم وارادتهم ، فالحرية والاستقلال ، هما القدمان اللذان يسير بهما الانسان الى منازل الكمال ،

لا يصل الانسان الى الكمال في شيء من مقاصد الحياة الا بالسير التدريجي على سنن الفطرة . والسير بطيء وسريع ، فمنه الدَّجان والدليف ، والدألان والوجيف ،(١) بل منه القهقرى ، والرجوع الى الوراء ، فاذا هو أرشد الى الغاية في البداية ،

---

(١) الدرجان مشية المثقل والدليف مشية الشيخ رويدا ومقاربته الخطو . والدألان مشية النشيط والوجيف السريع .

وأمدّ بما يوافق الفطرة من ضروب الهداية ، يكون أبعد عن التخبط في سيره ، والضلال في طريقه ، وأقرب وصولاً إلى المقاصد ، بالسفر القاصد ،

ولكن مضت سنة الأولين بما أبان لنا أن الانسان لا يرتقي في المقاصد الاجتماعية الا بتوزيع الاعمال ، ونوط كل عمل بطائفة من الناس ، يصرفون همتهم اليه ، ويعوّلون في معايشهم عليه ، ومن هذه الأعمال حفظ الأمن وحماية النظام ، ومنها الارشادوالتعليم ، والتربية والتأديب، — وأن الصنفين القائمين بهذين العملين — ولهما القيامة على سائر الأصناف — قد يسيئون التصرف، ويتبعون الهوى، فيعبثون بالحرية والاستقلال، فيحولون دون ما توجه اليه الناس من الكمال، — وأن الاول منهم (وهو صنف الحكام) كثيرا ما يمعن في الاستبداد، ويغلو في الاستعباد، حتى يفسد على الناس ما ارتقى به الاجتماع قبله، ويخرب ما أقامه من معالم العمران من سلفه، وقد يستعين بصنف المعلمين والمربين ، على إفساد النفوس والأفكار من الناشئين، بتنشئتهم على الخنوع للمستبدين ، وتقليد الميتين ، فيرجع قومه القهقرى ، ويسيرون في اجتماعهم إلى الورا ، حتى تكون البداوة خيراً من مدنيتهم ، لأنها على إقفارها من نتائج العقول في الفنون والصناعات، تكون عامرة باستقلال الفكر والإرادة وحرية التصرف، وما يتبع ذلك من عزة النفس والتحلي بكثير من الفضائل التي هي من طبيعة الفطرة ولوازم تلك المعيشة

فالكمال الاجتماعي الذي يُطلب بالمدنية عرضة لنقائص يجلبها للبشر استبداد الوازع من الامراء والسلاطين ، وفساد القوّام على التربية والتعليم ، وسوء اختيار الافراد الذين يعيشون في كنف السلطة والحكم ، وينامون على مهاد الراحة والترف، فتفسد فطرتهم ، وتهي عزيمتهم ، ويرضون ان يكونوا عالة على غيرهم ، وعبيداً للقوّام عليهم ، بما فقدوا من الحرية والاستقلال ، بل يقول الحكيم ابن خلدون ان التأديب والتعليم الصناعي يذهب بالبأس وعزة النفس لان الوازع فيهما أجنبي ، وأما الادب الشرعي فليس كذلك لان الوازع فيه نفسي ، وهو موافق لقول علماء العصر إن كمال الانسان في ان يكون حراً مستقلاً تصدر أعماله بإرادته واختياره عن اعتقاده ووجدانه، ولا يحكم عليه إلا الشرع والقانون الذي رضيه لنفسه ، وكان له رأي في اختيار القائمين بتنفيذه

هذا المقصد العالي لا ينال في الحضارة الا بتربية وتعليم تتبع فيهما سنة الفطرة

وتتقى فيها اهواء الوازعين الذين يرون من مصلحتهم ان يصبغوا نفوس النابتة بصبغة خاصة يستديمون بها السيادة عليهم ، وقودهم كالانعام الى مايريدون منهم

اسرف الوازعون من رؤساء الدين والدنيا في الجور على الخاضعين لهم في اوربا زمنا طويلا حتى لم يعد للطاقة البشرية قبل باحتمال جورهم ، فأحدث ذلك الضغط انفجاراعظيما اهتزت له الارض ، وزلزل ذلك القهر والجبروت ، بل زال واندك بهمة دعاة الحرية والاستقلال ، ولكن حدث عنه بمقتضى السنة الالهية التي يعبرعنها « بردالفعل» اسراف في مقاومة تينك السلطتين الجائرتين — سلطة الحكومة وسلطة الكنيسة — فحدثت المذاهب المادية والاشتراكية المتطرفة والفوضوية وكانت فرنسا اشد الشعوب والاجيال غلوا في ذلك وانكلترا أشدها اعتدالا فيه لما جرت عليه من المحافظة على التقاليد القديمة، والتثبت في النزوع الى الآراء والاعمال الجديدة ،

انبثت آراء الغالين في مقاومة السلطة والدين في كتب التربيـة والتعليم التي ألفها كبار الحكماء والكتاب من الاوربيين لا سيما الفرنسيين منهم حتى صار حقها مشوباً بباطلها ، ونفعها معارضا بإثمها ، وكان من اشهر كتب التربية (كتاب اميل القرن الثامن عشر) للحكيم الفرنسي الشهير (جان جاك روسو)ثم ارتقت المعارف، وزخرت بحار العلم ، فصار الآخرون ، يستدركون على ما مضى عليه الأولون ،كما فعل (ألفونس أسكيروس) في كتابه الذي سماه(اميل القرن التاسع عشر)إشارة الى ماينبغي أن يكون عليه فن التربية فى ذلك القرن وما بعده . وهو الكتاب الذي نشرنا ترجمته في بضعة مجلدات من المنار ،في كل مجلد منها رسائل معدودة، نشرت في اجزاء متصلة او متفرقة ، وقد جمعنا شمل هاتيك الرسائل والشذرات كلها اليوم لننشرها في هذا السفر على قراء العربية عامة ، وأرباب البيوت منهم خاصة ، لما في قراءتها متصلة من تمام الفائدة بما يكون القارئ اوعى للمسائل واضبط، وارغب فى تتبعها وانشط،

لم أر في المصنفات الحديثة ولا القديمة مصنفاً كهذا الكتاب جمع بين اللذة والفائدة في انفع العلوم التي تتفاضل فيها عقول البشر وهو علم تربية الانسان جسماً وعقلاً ونفساً ليكون سعيداً في نفسه، نافعاً لأبناء جنسه ، ولهذا رغب في نشره الاستاذ الامام ، قدس الله روحه في دار السلام، وعهد الى مريده ذي الفطرة السليمة، والآداب

القويمة ، صديقنا عبد العزيز افندي محمد القاضي بالمحاكم الاهلية المصرية، بأن يترجمه بالعربية، لينشر في مجلة المنار الاسلامية، وحسبي من بيان مزية الترجمة عرضها على القراء العارفين بقواعد العربية وأساليبها، فهم الذين يشهدون لها بأنها في الذروة العليا بين المصنفات المترجمة في هذا العصر، فالكتاب بهاعون للنابتة على إحكام ملكة الانشاء والترجمة ، كما انه بمعانيه يطبع في النفوس ملكات استقلال الفكر والارادة ، وحب الحرية، والرغبة في خدمة الامة، وغير ذلك من الفضائل، ويهدي العقول الى امثل طرق التربية والتعليم

ألا إن غرض المؤلف من كتابه هذا هو هداية قارئيه الى الحياة الزوجية الفضلى ، ومحبة الزوجين، ووفائهما في القرب والبعد، والسراء والضراء، ومكان الأم من قلب الهيئة الاجتماعية ، وتربية جسم الطفل على سنة الفطرة ليكون بدنه سليما قويا، وتربية حواسه وخياله وفكره ، ووجداناته وعواطفه ، كالرحمة والاحسان والعدل والمساواة والايثار وغير ذلك من القوى والصفات الروحية مهتديا في ذلك كله بالعمل والاحتكاك بالحوادث ، وإلى تعليم الناشئ العلوم الكونية بعرض المعلومات على مشاعره وارشاده الى كيفية النظر فيها، والحكم الصحيح عليها، واعداده للعلوم النظرية في الدين والفلسفة ليحكم فيها بنفسه، بعد بلوغ رشده، وغاية ذلك كله ان يخرج المربى حرا مستقلا خيرا فاضلا لا يحكم ولا يقول الا عن علم و بصيرة ، ولا يعمل الا ما يرى ان فيه الخير والمنفعة

ولما كان قوام التربية العملية القدوة والتأسي اختار المؤلف ان يجعل تربية « اميل » في بلاد الانكليز لأنهم ارقى الشعوب أخلاقا واعرقهم في الحرية والاستقلال

ولما كانت العلوم لا تبلغ كمالها الا حيث يكثر الإخصائيون جعل المؤلف التعليم العالي لإميل في مدارس ألمانيا العالية لان الالمانيين أرقى شعوب العالم في تحرير العلوم

هذا الضرب من التربية والتعليم على سنة الفطرة موافق لهداية القرآن الذي هو دين الفطرة . وما أنكره المؤلف من تلقين الدين للناشئ كما يلقن الفنون وإلزامه بالتقليد فيه، ومن حمله على الآداب وعمل الخير خوفا من العذاب في الآخرة وعدم النجاة فيها له وجه وجيه فان النبي (ص) لم يعلم ولدان أصحابه ولا كبارهم الدين كما تعلم الفنون وإنما أدبهم وزكاهم بتلاوة القرآن عليهم ، و بسيرته (سنته) الحميدة فيهم ، دعاهم بالدليل وعلمهم بالدليل وأدبهم بالدليل وليس في الاسلام شيء تقليدي لا يستند الى دليل .

فلاغرواذا كنانسلم للمولف مااختاره من جعل قوام التربية الادبية الاعتبار بما في الفضيلة والخير من المنفعة وما في ضدهما من المضرة بالاختبار لا بمجرد القول فان ذلك معقول في نفسه وموافق لهداية الاسلام .ونعذره في نهيه عن دعمها بنصوص الدين لان مايعرفه من هداية الأديان ينافي اتباع طريقته فالجمع بينهما جمع بين الضدين . على أنه على اعتداله لم يسلم من السخط على دين الكنيسة بمقتضى سنة رد الفعل التي اشرنا اليها من قبل

ولكن طريقته تنطبق على هداية القرآن لانها موافقة للفطرة ويزيدها الاسلام قوة وتمكينا ببيان ان الآثار الطبيعية للخير في الدنيا وهي منافعه التي يؤتى لاجلها لاتذكر بالنسبة الى الآثار الطبيعية التي تكون له (اي الخير) في الحياة الآخرة وهذه قضية بيناها بالدلائل والنصوص في مواضع كثيرة من تفسير القرآن الحكيم ومن المنار

فلم يبق بعد هذا الا أن أنصح لقراء العربية بأن يجعلوا هذا الكتاب ركناً للتربية والتعليم مع مراعاة المسلم منهم لهداية القرآن التي أجزم بأن المصنف لو علمها لجعلها ركناً للتربية فوق هدايات الحواس والعقل والوجدان

أنصح للمتعلمات من البنات ومن ربات البيوت بأن يقرأنه المرة بعد المرة . وانصح للرجال أن يقرءوه لنسائهم ويفسروه لهن تفسيرا . وأنصح للنابتة الجديدة من تلاميذ المدارس الدنيوية، وطلاب المدارس الدينية، بأن يقدموا العناية بمطالعته على جميع ما يطالعون من الكتب للاستعانة على تأديب النفوس واحكام صناعة الإنشاء وإتقان أساليب الترجمة. وإني لعلى علم بأن الاقبال على هذا الكتاب وتوخي العمل به سيكون مبدأ لعصر جديد تربيي في نفوس قراء العربية الحرية الذاتية والاستقلال الشخصي والنوعي ومتى كثر الاحرار المستقلون في شعب فانهم يحيون شعبهم حياة استقلالية يستحيل ان يعبث بها مستبد ، او يفسدها عليهم مفسد، ولهذا سميت الكتاب بالتربية الاستقلالية ، وجعلت تسمية المؤلف له ثانوية ، فالاسم الاول يدل على موضوعه وغايته ، والثاني يشير الى منهجه وطريقته ، وهي تمثيل فن التربية بالعمل في شخص المربى ، وهو المنهج السوي والطريقة المثلى ،والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ، .

محمد رشيد رضا الحسيني

كتبت في غاية جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ منشئ المنار

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على ينبوع الحكمة ، ونبي الرحمة ، الذي أدبه ربه فاحسن تأديبه ، واتم له من مكارم الاخلاق وجلائل الشيم نصيبه ، فصارت سيرته المحمودة اكمل مثال للمربين ، وأفضل هدي للمرشدين ، وعلى آله واصحابه الهادين المهتدين ،

اما بعد فقد مضت سنة الله سبحانه في الانسان ان يخلق عاجزا جاهلا محتاجا الى الكافل الذي يحوطه برعايته ، ويقيمه على الصراط السويّ في معيشته ، ثم يتدرج في القدرة والعلم حتي يبلغ ماأعد له من الكمال الحسي والمعنوي بحسب استعداده ، وعلى مقدار عناية قيمه بتربيته

من أجل هذا تفاوتت درجات الناس تفاوتا عظيما في القدرة والعجز والعلم والجهل وتنوعت آثار هذه الصفات فيهم تنوعا لا يحده وصف ولا يشمله حصر وتبع ذلك اختلاف الامم بالترقي والتدلي والعزة والذلة .

فمن أمة عنيت بتربية ابنائها وتهذيب اخلاقهم وتثقيف عقولهم وانشائهم احرارا عشاقا للعلم يخدمونها ويخدمونه مختارين كما يخدمون انفسهم فاشرقت في ربوعها شمس العلم وكشفت لها الحجاب عما سخر لها من قوى الكون فاستخدمتها في حاجاتها وحاجات نظرائها واستعانت بها على تحسين احوالها وترقية معايشها .

لان لها الحديد على صلابته وشدة بأسه فاتخذت منه سجنا حصينا لعدوين

متعاندين هما الماء والنار فكان من كفاحهما فيه ان تصاعدت زفرات الماء وغلت مراجل غيظه، فالتمس الخلاص فلم يسعه الا ان طار بسجنه، فكان ذلك سببا لاستعمال هذه القوة الفائقة في طي المسافات السحيقة، وتقريب الامم المتنائية، وكسر نخوة البحار والتخفيض من غلوائها بامتطاء ظهورها وشق احشائها والاخذ بشكائمها. نعم وفي تحريك دواليب الصناعات المختلفة تحريكا خفف من أوصاب الصناع ومتاعب العمال وغمر أسواق التجارة بضروب المصنوعات البديعة فأصبح الفقير شريكاً للغني في الاستمتاع بها، بعد ان كان محروما منها، واتخذت لها من الحديد أيضاً قذافات للموت، جلابات للدمار والخراب، لا تردها شجاعة الشجعان، ولا تغني منها مصاولة الفرسان، فملكتها نواصي الاعزاء، و بسطت لها السلطان في جميع الارجاء.

لفتها قصيف الرعد ووميض البرق وغيرهما من آثار القوى الكونية التي طالما مر عليها من غبروا من اجيال البشر وهم عنها معرضون فحدست ان فيها قوة عظيمة لم تخلق سدى وانها لو ملكت تصريف زمامها لاستفادت منها ما استفادته من البخار فانبرى طلاب الحقائق من أبنائها الذين اثمرت فيهم التربية الصحيحة للبحث عنها في مكامنها وما زالوا يصلون الليل بالنهار في تتبعها حتى اهتدوا الى ينابيعها وجمعوا شتاتها بعد ان كانت شعاعاً هملاً وحصروها في سبل ضيقه لاقبل لها بتعديها ثم ألقوا مقاليدها الى الأمة فكان من تصريفها في مرافق الانسان ومنافعه ما ترى من الآيات الكبرى على كمال قدرة الخالق وسعة امكان عقل المخلوق: رعدة تحيل الماء هواء، وتقلب الليل نهارا، ونبض اقرب من لمح البصر، يصير تارة مناجاة كتابية بين مطوحين في مطارح الغربة، تستنجز بها الامور وتقضى بها المآرب، وطورا يكون مخاطبة شفهية تميز فيها أصوات المتخاطبين على ما يكون بينهما من بعد الشقة، وكرة تدفع جاريات تطير طيرانا على سطح الارض مقلة ماشاءت ان تقل من الناس والمتاع.

ولو رحت اعدد لك آثار التربية المثلى والعلم النافع في الامم الراقية لاحتجت في تفصيل ذلك الى مجلدات فاجتزئ عنه بما لمحت اليه تلميحا.

وامة أخرى لم تبلغها دعوة العلم ولا رأت آثار التربية في غيرها فلازمت حالتها الفطرية ومعيشتها الوحشية فكان ذلك مدعاة الى وقوف نمو العقل في ابنائها وانمحاء مافيهم من ضروب الاستعداد وكان مصيرها خسران وجودها الذاتي وفناؤها في غيرها من الامم الحية ·

وامة ثالثة خلقت مستعدة للرقي وسارت في سبيله شوطا بعيدا بما نشأت عليه من الحرية وتحققت به من أصول التربية الدينية الصحيحة فنالت في الزمن اليسير من العزة والمجد و بسطة السلطان مالم ينله غيرها من الامم في الزمن الطويل·

ر باها مرشدها الا كبر بسيرته السنية على حب العدل والايفاء بالعهود وانفاق الاموال في وجوه الخير والتآخي في نصرة الحق والترفع عن سفساف الامور واوجب طلب العلم من المهد الى اللحد على أفرادها نساء ورجالا غير مخصص علما بعينه فنبغ فيها رجال لم تسمح الايام بنظائرهم ولن تلد الوالدات امثالهم — منهم من ساسوا الرعية أفضل سياسية لم يعهدها التاريخ في غيرهم من السواس حرموا أنفسهم فيها من ملاذ العيش وصبروها على مصلحة الناس وحاسبوها على القيام بها أشد محاسبة — ومنهم من قادوا الجيوش وفتحوا البلاد ودوخوا اكبر دول الارض لعهدهم مع تمام العدل في معاملة المغلوبين و بذل الامان للمستأمنين — ومنهم العلماء والحكماء الذين صدقت عزائمهم في طلب الحقائق فلم يدعوا بابا من ابواب العلم الا دخلوه علي ما كانوا يلاقونه في ذلك من صعوبة التحصيل لندرة الكتب وتباعد معاهد التعليم يشهد لهم بذلك ماخلفوه من آثارهم التي تزدان بها دور الكتب في معظم البلدان — ومنهم مهرة الصناع الذين اقاموا من معالم الحضارة ما يحكم لهم بالتبريز على مناسبيهم و يوجب لاخوانهم حق المفاخرة بهم ·

وا أسفي على هذه الامة أسفا يبخع النفس أسى و يذيب القلب حسرة! مالبثت ان بطرت معيشتها وكفرت بأنعم ربها ، فوجد عليها الزمان، وانتابتها نوائب الحدثان، طال عليها أمد هداية الدين ، و بعد عنها عهد المرشدين ، فقست القلوب وفسدت الاخلاق ، واستحكمت علة الترف من النفوس ؛ فملكها الطمع ، وتولاها الحسد ،

ومنيت الحكام المستبدين ، والامراء الغاشمين، فرقوا وحدتها ، وملكوا عليها أمرها، وصرفوها فيما تهوى انفسهم، فاستحالت حريتها رقا ، وانقلب عزها ذلا، وعدلها ظلما وانسها بالعلم وحشة.

لم يغب سوء حالها عمن يجاورونها من الامم القوية بل كانوا يراقبونها مراقبة الصائد الذي يتحين الفرص لصيده وما عتموا ان ناصبوها العداوة وكادوا لها المكايد فوقع معظم بلادها في قبضتهم وتغلغلوا في احشائها واصبحوا لها حكاماً يديرون شؤونها على حسب ما تقتضيه مصالح بلادهم وفتحوا عليها ابواباً من الترف وفساد الاخلاق ألهتها عن الشعور بألم العبودية وصرفتها عن النظر في مصالحها القومية .

لم يصبها كل ذلك الا من عدم محافظتها على حريتها باغفالها التربية الصحيحة وهجرها العلم النافع.

واذا كان هذا شأن التربية في رفع الامم وخفضها كان حقاً على العقلاء من كل أمة ان يعنوا بها ويفكروا في الوصول اليها من اقوم طرقها و يبينوا أصولها ويدونوا فيها الكتب النافعة ويحثوا قومهم على الأخذ بما فيها . وقد خرج من عهدة هذا الحق علماء الامم الحية في اوربا وامريكا فوضعوا من قواعدها ما ظهرت آثارها في اقوامهم ، واكسبتهم حسن الذكر في بلادهم ، وغفل عن ذلك غيرهم من خواص الامم التي تتنازعها الحياة والموت لغلبة القنوط عليهم فلم يوجد لديها من الكتب الحديثة في موضوع التربية الا بعض رسائل لاغناء بها فيه .

كان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراه برًّا بقومه غيوراً على حياتهم حريصاً على إيقاظهم من سبات الجهل ، وانهاضهم من حضيض الذل ، فكان دائم التصفح لما كتبه الاوربيون والامريكيون في التربية والحكمة وكان من كثرة اهتمامه بالتربية ان ترجم فيها كتاباً مفيداً للحكيم الانكليزي هربرت سبنسر غير انه لم يتسع وقته لتصحيحه وتهذيب ترجمته ونشره فبقي كما هو وقد وقع له كتاب آخر فيها عظيم النفع لمؤلف فرنسي اسمه ألفونس اسكيروس فاعجب بما فيه من الافكار الصحيحة والمعاني الشائقة فعهد الي بترجمته ونشره تدريجا في مجلة المنار الجليلة فوفقت للايفاء بعهده مساعدة له على ما كان بسبيله من خدمة المصلحة العامة وقياما بعض

المفروض عليّ منها . فالكتاب اذن أثر من آثار سعيه في ترقية بلاده ، ويد من أياديه الكثيرة عند قومه ، سيشكرها له منهم الشاكرون ، ويغمطها على ديدنهم فيه الجاحدون ، اجزل الله له المثوبة على حسن مقاصده ، وغمره برحمته واحسانه على مجاهدته في اعلاء شأن أمته .

هذا الكتاب الذي اتقدم بترجمته لقراء العربية يرمي مؤلفه الى غاية واحدة هي إنشاء الطفل حرًّا مستقلاً تصدر أعماله وآراؤه عن اختيار وعلم لا عن اضطرار وتقليد . ومن أصوله في التربية ان لا تحشر اليه قواعد العلم حشراً ويرغم على حفظها بل يجعل له الدرس من وسائل التسلية بأن يخلى بينه وبين ما حوله من الاشياء والحوادث ويلفت ذهنه اليها لينتزع منها بنفسه ما تؤديه مراقبتها اليه من العلوم .

تمكن هذا الاصل من نفس المؤلف تمكنا حمله على ان يبعد في تأليفه عن اساليب الكتب التعليمية المعهودة : وضعه على أسلوب يقرب من اسلوب القصص ليكون اشهى للنفوس ، وانفى للملل عن القلوب ، تخيل زوجين سمى احدهما الدكتور اراسم والثاني هيلانة ، منيا بالفراق ، لأول عهدهما بالاقتران ، لاتهام الزوج بجريمة سياسية سجن من اجلها . ولم يلبثا بعد افتراقهما ان احست الزوجة بالحمل فجرت بينهما رسائل في مواضيع شتى ادمجت فيها اصول التربية الصحيحة ادماجاً وسنحت للزوج اثناء سجنه سوانح افكار ومرت بذهنه شوارد خواطر كان يقيدها في جريدته اليومية فاجتمع للمؤلف من الرسائل والصحف والشذرات المقتطفة من جريدة الزوج هذا السفر الذي وسمه « باميل القرن التاسع عشر » وقسمه اربعة اقسام سمى كلا منها كتاباً اولها في الأم وثانيها في الطفل وثالثها في اليافع ورابعها في الشاب .

فأما كتاب الأم فمسائله هي : — ماينبغي عليها مراعاته في طور الحمل من العناية بصحتها وتوفير عافيتها وملازمة السكينة والاستقرار والبعد عن كل ما يثير انفعالاتها وترويح نفسها بالمناظر البديعة والمشاهد الرائعة ، وبيان ان التربية الأولى من شؤون الام خاصة — وما يجب عليها من العلم بتدبير صحة المولود بعد الوضع وارضاعه بنفسها وتعويده من نعومة أظفاره على الاستقلال في حركاته وسكناته ، ووصف ما للنساء الانكليزيات من الفضل على الفرنسيات في ذلك ، وانتقاد طريقة التربية الأولى

في فرنسا ، وانتقاد اخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد اسلافهم ٠

***

واما كتاب الولد فمسائله هي : — تعريف التربية و بيان الصعوبة فى تحديد زمني بدايتها ونهايتها ، و بيان عمل الأم في الشهور الأولى من حياة الطفل ، وانتقاد ما يفعله الامهات باطفالهن في هذه السن ، و بيان ان اول علوم الطفل تأتيه من طرق الحواس ، وطريقة تربية الحواس ، وتأثير التمدن فى قوى الحواس وعمل الام في تمرينها ، ووجوب تعرف طباع الطفل و بيان اهمال المربين لهذا الواجب ، وما يلزم اتباعه في سياسة الطفل ، ووجوب لفته الى المحسوسات وتدريبه على وقاية نفسه بنفسه ، و بيان خطاء الوالدين في انشاء اولادهما على مثالهما في الطباع والاذواق وكون هذا هو السبب في ندرة الرجال المستقلين استقلالاً حقيقياً ،و بيان ماهية الطبع ، وهل الارادة خلقية او كسبية ،

و بيان ان ما يبديه الطفل في حال غضبه او تألمه من الاصوات والحركات لازمة لشفاء ما به وان الواجب فى حمله على الكف عنها اخذه بالتسلية والتلهية لا بالتسلط والقهر ، ووجوب مقاومة التربية لاهواء الطفل الفاسدة وذلك بطريقتين احداهما إلهاؤه عنها والثانية جعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها ، وضرورة استعمال السلطة في سياسة الاطفال ووجوب التعجيل بالكف عن استعمالها متى تيسر ذلك ،

و بيان ضرر قهر الطفل على الامتثال ووجوب اجتناب تخويفه بالعقوبات الالهية والخوض معه في المسائل الدينية ووجوب تركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات ، و بيان عدم الفائدة فى اصول علم الاخلاق للاطفال وقلة جدوى القدوة ومطالعة قصص الحيوانات لهم وضرورة استقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه ،

و بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة ،و بيان ان فى التبكير بإلقاء النصائح والمواعظ على الاطفال حطاً من كرامتها ، وكيفية تفاهم الأم مع ابنها بالاصوات ، وربما كانت الاصوات اصل اللغات ، ووجوب استعداد الام للتربية بالتعلم ، وتفكر الاطفال ، واصل اللغات وتعليمها لهم وسوء طريقة المربين فى ذلك ، وان

التفكر مما يتعلمه الطفل ، وخطأ المربين في عنايتهم بالالفاظ دون المعاني ، وتعويد الاطفال على النظر والملاحظة ليتمرنوا على التفكر وبيان ان الاعمال الصبيانية ليست باطلة برمتها بل منها ما يكون مفيدا ، وانس الطفل بالحيوانات وانسها به وتعليل انقطاع تانس الحيوانات المتوحشة بزوال سذاجة الانسان الفطرية التي كانت تدعوها الى الثقة به ، وتأثير الجمال في الاطفال ، واحتياجهم الى كثرة التعلم ، وتعليمهم الصدق والمواساة والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام الدين بالعمل والممارسة دون الحفظ والتلقي ، ووجوب اعتراف المربي للطفل بجهل مايجهله وانتقاد المربين في دعواهم العلم بكل شيء امام الاطفال ،

= وانتقاد التعليم الديني والسياسي ، وان من شروط التربية ان ينسى المربي ماتعلمه ليستأنف تعلمه مع الطفل ، ووجوب التدرج في تعليم العلوم للاطفال بلفت اذهانهم الى ما حولهم وانتقاد الكتب التعليمية ، وفوائد التصوير والمعارض في التربية ، والتربية والتعليم بالفانوس السحري والتمثيل والمعارض ، وتعليم الاطفال الضرب في الأرض ومعرفه جهاتها بالعمل وتعليمهم الصناعة بما يشتري لهم من اللعب ،

= وتربية خيال الصغير بالقصص والاساطير ، وتعليم القراءة والخط والرسم والتدرج الفطري في تعليمها ، وان الصحة في تغيير الهواء وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء ، وتعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل الفانوس السحري ، وسرعة تفاهم الاطفال باليسير من الكلم ، وتعليم السباحة وتربية العضلات .

***

وأما كتاب اليافع فمسائله هي : — حب الزوجة والولد والوطن ، وتعليم المسميات قبل الاسماء ، وتربية الذكور مع الأناث وتعليمهما معا ، والتعليم بضرب الامثال ، والكلام على الخط الديواني ، وتمرين المتعلمين على الاعمال المادية الشاقة ، وما يجب ان تكون عليه التربية وآثارها إذا كانت كما يجب ، وتجلي العلم في العمل ، وانتقاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية واقرائهم كتبهما ، والكلام على التقليد والذاكرة ، والمؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها ، وكون السفر من اركان التربية ،

والتربية بركوب البحر، وما يتعلم في السفينة، وشجاعة النساء المحمودة، والتربية بالمعاينة، وفوائد الشدائد، وكون بذل النفس للمحبوب أول الحب، ووجوب الموازنة بين القوى والاعمال، والتربية بالتأثيرات الطبيعية.

***

واما كتاب الشاب فمسائله هي: — ، انتقاد حال الطلبة في ألمانيا، و بيان حال العلم فيها، ووجوب نقد الطالب ما يقرأه من أفكار غيره. ووجوب القصد في الاشتغال بعلوم المعقولات، وان نفع الأمة يحصل بالقيام بالواجب على قدر الطاقة، ووجوب اختيار الطالب للعمل الذي يشتغل به في حياته، وان لا حرية لأمة يتكالب شبانها على تولي أعمال الحكومة، وان الرأي العام لا قيمة له الا إذا كانت الحكومة شورى، ووجوب ان تكون خدمة المرء لا متة لذاتها لا للجزاء، والكلام في الحب وابتدائه وغرور الشبان بالمعشوقات ووجوب عدم تداخل الوالدين مع أولادهما في شؤون الحب وترك الفصل في تمحيص صحيحه من فاسده للتجربة، والكلام على المدرسة الجامعة في ألمانيا، والاستقلال في العلم، وفلسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية، ووجوب الاعتماد على البراهين العقلية دون الخطابة، وحب الوطن، ووجوب ان يكون للشاب المتعلم رأي في سياسة بلاده، وان تربية الرجال الأحرار تجتث بها جراثيم الشرور المحزنة للامة.

هذه هي أقسام الكتاب ومقاصده وأمهات مسائله أجملتها للقارئ اجمالاً حتى إذا قرأها حركه الشوق الى استشفافها في مواضعها منه فحصل الفائدة المقصودة لمؤلفه ومترجمه ان شاء الله.

لم يعن المؤلف بتلقيب مباحث كتابه فاضطررت الى ان أضع لها ألقاباً استنبطتها من سياق كل مبحث وشاركني في وضعها الاستاذ الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية عند نشر الكتاب في مجلته كما انه حفظه الله كان يصحح ما كان يعثر عليه من الاغلاط وأنا شاكر له هذا الصنيع.

حرصت غاية الحرص على عدم التصرف في الترجمة وقوفا بها عند حد المعاني التي قصد المؤلف ان يعرضها على قومه وتحاشيا من ان يتسرب اليها بالتوسع ماليس

مقصودا له وهذا هو سبب ما يجده القارئ في بعض المواضع من عجمة الاسلوب ولم أشذ عن هذا الا فى تغيير لفظ الطبيعة بلفظ الجلالة أو الفطرة على حسب الاحوال مراعاة لعرف التخاطب بين المتكلمين بالعربية ·

للمؤلف رأي في التعليم الديني مبني على أحوال خاصة بالمكان الذي عاش فيه والقوم الذين نشأ بينهم لا محل لذكرها هنا. فلا أعيبه عليه ولا أوافقه فيه ولا ولا سيما ان في مطاوي كلامه في هذا الموضوع وفي موضوعات أخرى مغامز تبين عن سوء عقيدته وذلك الرأي هو : ان لا يتكلم مع الصبي في شيء من الدين فى صغره وان يتربص به حتى يكبر ويدرس المذاهب الدينية بنفسه فيعتقد منها ما يشاء. و يكفيني هنا ان أقول ان كثيراً من ابناء من يشايعونه في رأيه لا يبلغون سن الشباب حتى تحتوشهم اهواؤهم عن النظر فى الدين وتصرفهم شهواتهم عن اتباع هدي النبيين فينبذوا الدين وراء ظهورهم ويفشو فيهم الالحاد وما ينجم عنه من الاباحة والفساد كما هو مشاهد معروف

وعندي انه لا شيء أمثل في هذه المسألة من اتباع هدي الدين نفسه ومن الخطل في الرأي ان يؤخذ فيها بقول غير المتدين ·

بدأت في ترجمة الكتاب في اليوم الرابع من جمادى الآخرة سنة ١٣١٧ ﻫ الموافق لليوم التاسع من اكتوبر سنة ١٨٩٩ م وفرغت منها فى أول جمادى الثانية سنه ١٣٢٤ ﻫ الموافق للثالث والعشرين من يوليه سنه ١٩٠٦ م ومعذرتي فى ذلك الابطاء المفرط اني انما اختلست الساعات التي قضيتها فى ترجمته اختلاساً من أوقات فراغي من عملي القضائي وقد كانت هذه الاوقات كثيرة تسع اضعاف هذه الترجمة لولا اني كنت كثير الضن بها على صرفها فيما ينفع كغيري من الناس فى مصر ·

كنت أحسب ان نشر الكتاب فى المنار يكفي فى تحقيق الانتفاع به ولكني رأيت كثيرا من الاخوان الذين كانوا يوالون مطالعة ما كان ينشر منه فيها شديدي الميل الى رؤيته مطبوعاً على حدة واتفق لي أن زرت صاحب الدولة الوزير الجليل رياض باشا في شهر رمضان الماضي مع الاستاذ السيد محمد رشيد فألفيته معجباً بالترجمة أشد الاعجاب حاثا على نشرها مجموعة فكان كل هذا باعثا لي على نشره الآن

جملة واحدة تعميما لفائدته وموافاة لرغائب الكثيرين ممن طالعوه منجما .

وجل ما أبتغيه ممن أقدمه اليهم من إخواني قراء العربية ان لا يكون حظي عندهم من عنائي في ترجمته اطراحه واغفاله بل أرجو منهم ان يأخدوه بقوة ويقبلوا على مطالعته بتأمل لقارنوا بيننا وبين غيرنا في العناية بتربية الناشئين ويعلموا أين نحن من قوم هذه افكارهم فيها حتى إذا آلمهم النقص الفاضح وأخجلهم التقصير الفاحش هبوا الى مجاراة غيرهم من الامم الراقية وفكروا طويلا في تربية ابنائهم وتخيروا عن بصيرة وعلم لا عن تقليد محض كل الطرق لانشائهم احرارا جامعين بين ملكات العلم وفضائل الدين ولن يتم لهم ذلك الا بالاخلاص والصبر ودوام الاشتغال والله المستعان وبه الحول والقوة

المترجم

تحريراً في ٢٥ المحرم سنة ١٣٢٦ — و٢٧ فبراير سنة ١٩٠٨ عبد العزيز محمد

﴿ تنبيه ﴾ جميع الهوامش المتضمنة تفسير ما ورد في غضون الكتاب من أسماء الاشخاص والاماكن ومن الاشارات الى بعض الوقائع التاريخية والقصص الخرافية هي من كتابة المترجم خاصة وأما الهوامش الاخرى فبعضها له و بعضها للناشر

الكتاب الاول

(في الألم)

الرسالة الاولى

(من الدكتور اراسم الى زوجته في ٣ يناير سنة ١٨٥— [1])

في وصف حاله في السجن

قد مضى عليّ يا عزيزتي هيلانة ثمانية أيام طوال عجزت فيها عن الكتابة اليك وأعوزتني العبارة التي أرضاها لوصف ما اعانيه من مضض الألم . ليس مايقاسيه الاسير من عذاب الأسر هو الحرمان من الغدو والرواح والعجز عن المشي مطلق السراح بل عذابه الاكبر هو ضيق الصدر وابتئاس النفس . تلك القباب والاعمدة والدهاليز الدائمة التي التي لا تنفك عن مواجهة المسجون هي التي تبلبل منه الافكار، وتوقعه في الدوار، حتى يقذفه هذا العناء، في مهواة الفناء، وهذه الاحجار أحجار البناء تمسخه فتحيله حجرا مثلها . في أول عهدي بالسجن كنت صنما لا ارجع للناس قولا ، ولا أملك لهم ولا لنفسي ضرا ولا نفعا ، وكدت أعدم الحركة والفكر بل كان يخيل لي أني قد فقدت وجودي

(١) عن يمين رقم ٥ في الأصل الفرنسي نقطة لابهام السنة والاكتفاء ببيان أن ذلك كان في النصف الثاني القرن وقد جعلنا بدل النقط خطا عرضيا .

وفنيت عن نفسي وانتقلت حياتي الى السجن نفسه لحصره اياي في دائرة من الوجود مشؤمة صناعية لا جولان للفكر فيها . واني اؤكد لك أن من هذه حاله يلزمه عمل كبير للرجوع الى وجوده وهذا العمل قد قمت اثابه والآن قد ثابت اليّ نفسي واصبحت مالكا لحسي . لا ترجن مني أن أصف لك ... فان المسجون قلما يعرف ما يسكنه من المحال واني قد نقلت من ... في غروب الشمس ولما وصلنا الى السجن كان الليل قد أرخى سدوله ولم يبق لي من الضياء الا بقية لا اكاد أميز بها في ظلمات الجو غير الاشباح السوداء لبروج السجن الصغيرة واسهمه واسنته الحجرية وكان يخيل لي ان البناء قصر متين شيد بالظلمات . نزلنا من العجلة وصعدنا مشاة الى طريق مدرج منحوت في الصخر يفضي الى سجن الحكومة وكنت أمشي في هذا الطريق كأني في حلم على اني قد راعني منظر شيئين في هذا المكان أولهما جمال ذلك البناء الباهر ووقوعه من قمة الجبل المظلم موقع التاج من الرأس ثانيهما اصطخاب البحر وتلاطم امواجه .

وليست تلك القمة في الحقيقة الا قطعة من الصوان برزت من صحراء رملية ورمل هذه الصحراء يمتد الى البحر تعلوه الكآبة والحزن وكنت اميز المحيط من بعد في ضوء الصفائح المائية المضطربة وليس الحال كذلك في جميع الاوقات لان المحيط في إبان المد يغمر الساحل ويعلو ويصطخب ويحدق بالجبل من كل جانب فتغمره زخرة امواجه المتزاحمة .

يصل النور الى مخدعي من السجن وهو مقابل للمحيط من كوة صغيرة ككوى الاسلحة النارية في المعاقل أو كالذي يسميه المهندسون « بربخا » على انها مع ضيقها مسرح للنظر لا نهاية له . وهي من الارتفاع

بحيث لا اشاهد منها سطح البحر الا قائما على اطراف اصابع الرجلين فاذا جلست لا يبقى لي ما امتع به نظري الا السماء ولا بأس في ذلك عليّ فان لي في السماء ناحية من الكون اشاهد فيها ساعات كاملة طائفة من ظواهر هذا العالم لم تكن تسترعي نظري الى هذا العهد وهي ألوان الضوء المتغيرة والصواعق والبرد والضباب وبالجملة ما للاحداث الجوية من الجمال الخيالي اذا برزت من حجب الظلام . غيري من الناس يحب ان يشاهد السماء في البحر حيث يتراءى السحاب في مرآته واما انا فاخالفهم في ذلك لان البحر بالنسبة اليّ هو الذي ينعكس على السماء فأراه في مرآتها .

قد رأيت مما ذكرتُ ان لي مرقبا للعالم وحظا منه فما الذي يمنعني ان اتخيل في السحب سلاسل جبال وفي سهول الاثير ارياقا ومزارع جميلة . تلك المناظر الخلوية المعلقة في الهواء ليست كما اعلم الا خيالات سابحة لافكاري وما اتذكره من معلوماتي . قد تبعث الانسان وحدته على البحث في مخيلته عن صور ما عرفه من الاماكن ومن احبهم من الناس فأنا الآن بسبب استحضاري لمرائي ماضيّ الجميلة في حيز من النور قد انفتح فوق رأسي أرى مثالك فيه .

ان كان قدر عليّ ان اصير خياليا كان ذلك آخر عقاب لعقل لم يشتغل منذ عشرين سنة بغير العلوم الحقيقية

على اني لست اشكو من شيء فطوبى لمن يصح له عند سقوطه ان يعتمد على فكرة انه دافع عن حوزة القانون وذب عن الحق واني اذا كنت اتألم فليس ذلك الا لاني كنت سببا في تألمك . اهـ

الرسالة الثانية

(من أراسم الى هيلانة في ٦ يناير سنة ـ ١٨٥)

اتحافه اياها على بعده من العالم بخبر سار

حدث بالامس بين الساعة العاشرة والحادية عشرة صباحاً ضباب كثيف غمر الشاطئ كله والعادة في مثل هذه الحالة ان تدق الاجراس ايذانا بالخطر فلذلك طفقت اجراس القرية القريبة من السجن تطنطن وتيسر لي أن أفهم المقصود من هذه الاشارة . ذلك الساحل المحدق بنا ممتلئ بالاخطار لان الرمال المتحركة ومستنقعات الماء الراكد والمد والجزر كلها حبائل ترقب اصطياد السائح الضال كامنة له تحت استار الضباب لذلك تناديه أصوات الاجراس وتحذره من الوقوع في الخطر وترشده بمصدرها الى الطريق الذي يلزمه سلوكه ليصل الى سفح الجبل أسرع ما يكون . وقد سألت في مساء هذا اليوم سجاناً لنا يسكن أهله القرية عما حدث فأخبرني بأن طفلين مسكينين قد فاجأتهما أمواج البحر في ابان المد فأحاطت بهما وكادا يغرقان لولا ما بذله من الجهد والهمة صيادو الشاطئ من ذوي النجدة والبسالة في انقاذهما من مخالب الموت غير مبالين بالخطر الذي كاد يذهب بقواربهم . من هنا ترين اني على بعدي من العالم وحرماني من معرفة ما يحصل فيه قد قدرت ان اتحفك بهذا الخبر السار . اهـ

الرسالة الثالثة

(من أراسم الى هيلانة في ٨ يناير سنة ـــ ١٨٥)

تعرفه أماكن السجن تسلية لنفسه

انا في السجن تتعاقب علي الساعات وكلها متشابهة لا اختلاف بينها فليست الحياة هنا الا يوما واحداً بسبب ما يحرج الصدر ويضيق على النفس من توحد الاشياء وتشابه الاطوار وعدم تغير شيء منها . آه لو عادت إلي نعمة العلم بما يقع في الخارج وليتني أعرف شيئاً من اخبارك . قد أذن لي في الخروج من مخدعي للتنزه كل يوم ساعة أو ساعتين على رصيف مرتفع للسجن فأنا أصرف هذا الزمن في اجالة نظري والسياحة به فيما حولي من الاشياء لا تعرفها فإني للآن ما كنت أعرف شيئاً في هذا المكان بل كنت اجنبيا منه بالمرة اذ كنت كميت ألقي في مكان لا يدري أين هو وقد ابتدأت منذ أسبوع ان أعرف أين مستقري فتجديتني الآن اهتم بتعرف شكل الأماكن المحيطة بي تعرفا صحيحا يبعثني على ذلك وجدان لا شك في انه عام في جميع المسجونين ولا ينفك ناظراي عن اكتشاف مالم أكن رأيته حال دخولي في السجن . وإخالني قادراً على ان أرسم في الورق صورة ماأحدثه البحر في الشواطىء من التقطع فنشأت عنه الخلجان والرؤس التي تمتد كالالسنة امتداداً عرضيا وصورة الصخور التي تتراوح بين البروز في ضوء الشمس والاختفاء الى نصفها في ظلام الضباب البعيد . وقد عرفت أيضاً رسم البناء الذي يحويني

وأوضاعه الهندسية الجميلة وتنظيماته الحربية ومعاقله الطبيعية ومنحدراته ومناطق اسواره ٠ولم يكن اهتمامي بمعرفة ذلك مبنيا على تدبير حيلة للهرب كلا فقد حاول ذلك غيري من المسجونين وردوا بالخيبة لاننا ان أمكننا ان نجو ممن يقومون على حراستنا من العساكر والسجانين الذين يتعسر علينا ان نخدع يقظتهم والتفاتهم فاننا لا نجو من المحيط والرمال الخاتلة بوعوثتها وغيرهما من العقبات الكثيرة ٠ وانما انا ابحث في ذلك عن طريقة اسلي بها نفسي وأشغل بها فكري فلا شيء مني يريد الهرب والتخلص من السجن سوى عقلي ٠ اه

الرسالة الرابعة

(من اراسم الي هيلانة في ١٠ يناير سنة ـ ١٨٥)

﴿السجن قيد للاشباح دون الارواح﴾

اتعلمين ما للسجن عليّ من الفضل ؟ انه ليعلمني الحرية ويدلني على عجز الانسان عن الاستيلاء على مثله . ذلك ما احس به كلما تعاقبت عليّ الايام فيه وآنس من نفسي نوعا من الفرح تشوبه المرارة عندما اجدها اكبر واقوى من ان يبهظها ثقل وطأة الظلم فليست اسوار السجن الصوانية واغلاقه الحديدية وحفظته الايقاظ الاهباء في طريق العقل لا حوائل تحبسه وتمنعه من الجولان بل اشعة نوره تتخطى كل هذه العوائق ولا تقف عند شيء منها وان عزيمة المسجون لتقاوم عزيمة ساجنه ومصفده وانه مهما جُدل وصرع فلا يستسلم فاذا هو كان على شيء من العدل

والحق كان أشرف من غالبه واسمى منه مكانةومن العبث مايحاوله هذا الغالب فالفكر كالهواء لا يدخل في قبضة أحد . نعم ان من مقدوره ان يشد وثاق مسجونه ولكن ليصل بعد الى اعماق قلبه وليأسر ما هنالك من عزة نفسه ومنعة وجدانه ان كان ذلك في قدرته ؟ هيهات هيهات. تلك المنعة التي أجدها في نفسي تدعوني الى الثقة العظيمة بالمستقبل . لا أقسم بغيابات السجن (حجراته المظلمةالضيقة المعدة للمحكوم عليهم به طول حياتهم) ولا باشباح أولئك الذين ماتوا هنا في زوايا النسيان أو في اقفاص الحديد ان الحق والحرية سيكون لهما النصر والظفر في هذه الدنيا . اه

الرسالة الخامسة

﴿ من أراسم الى هيلانة في ١٢ يناير سنة ــ ١٨٥ ﴾

مواساة الاصدقاء الخاملين في حال الشدة

قد اهتديت بعد العناء الى طريقة ايصال هذا المكتوب اليك فسيصلك على يد ...... الذي تفضل علي بأن يكون رسولا بيننا على ما في ذلك من المخاطرة بنفسه . هذا يدلك على ان الانسان الذي يحتف به في حال رخائه الجلساء المتملقون لا يعدم في حال شدته ان يرى حوله احيانا اصدقاء خاملين يخلصون له الود . واختم قولي بأني لك طول حياتي . اه

الرسالة السادسة

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٢٠ يناير سنة — ١٨٥ ﴾

اخبارها اياه برأي الطبيب في حملها و بعزمها على السفر لزيارته

قد تلقيت مكتوبك أيها الحبيب من يد البريد السري فكان له في نفسي أحسن أثر وأنفعه فاني كنت في حاجة عظمى الى شيء يسليني ويسري عني بعض الألم فلشدّ ما قاسيته منه مدة شهر وقد ضعفت صحتي وانحطت قوتي والطبيب الذي يداويني في غيبتك يسألني أسئلة كثيرة وله فكرة في سبب هذا المرض أراها تشف عن جنونه فانه يزعم أني ..... كلا اني لموقنة بخطائه في ذلك ومهما يكن من الامر فنفسي تائقة لرؤيتك فان هذا الفراق العاجل بعد الزواج الذي لم يمض عليه أكثر من سنة خطب هائل لا يطاق ولا سبيل الى المعيشة معه واني مسافرة مساء الليلة من باريس ومعي اجازة موقع عليها من ناظر الحقانية أذن لي فيها بزيارتك فلا بد ان يسمح لي بدخول السجن ولا يمكن ان يحل استبداد المستبدين ما عقدته رابطة الحب .

لا تخش شيأ من هذه الزيارة فاني لم اقصد بها الرغبة اليك في ان تستميح الحكومة عفوا عنك لاني وان كنت كثيرة التألم لغيبتك أحترم وجدانك وهواجس نفسك وان لم افهمها حق الفهم . اعلم ان فيّ ما في بقية النساء من مواضع الضعف ومظان العجز الا اني منزهة عن دناءة الخدين وخيانتها لصاحبها فان شرفك داخل فيما احبه منك . وانك على احتباسك

عني وبعدك عن ناظري بما فيك من عزة النفس والشهامة واباء الضيم لاجلّ في نفسي منك وانت بين يدي لو فسدت مبادئك ومعتقداتك التي جريت على سننها طول حياتك . اني لما تزوجتك تزوجت شيئاً آخر معك الا وهو ضميرك ووجدانك فان بقيت على ولائه متبعا ما يرشدك اليه اقسمت لك اني أكون في الاخلاص لك كما تكون في الاخلاص له طول حياتي والآن اودعك لاراك قريبا ان شاء الله وا كاشفك محبة قلبي اياك وامتلاءه بالحزن عليك اه

الرسالة السابعة

(من هيلانه الى اراسم في ٢٠ يناير سنة ـ ١٨٥)

اقفال نفسها بزيارة السجن وما لاقته من المشقة في الرجوع منه
واخبارها زوجها بالجنين وتخوفها من ثقل فروض التربية

لم يتيسر لي ان احدثك بشيء مما اردت محادثتك به عند اللقاء مع ان حديثي ذو شجون . من أجل ذلك اردت ان اعتاض عما فاتني منه بالمكاتبة فسطرت لك هذه الكلمات :

كان مجيئي الى السجن بالامس واستفتاحي بابه في الساعة الثانية بعد الظهر وبعد ان تحادثت مع مديره برهة اقبل نحوي أحد خزنته يهدج في مشيته وانا اسمع خفق نعليه شديدا على البلاط واخذني الى الغرفة التي كنت انتظرك فيها . كان قلبي قد وعدني قبل دخولي السجن ورؤيتي ما فيه ان يستجمع كل ما لديه من الجراءة والثبات ليدفع بذلك عني بوادر

الجزع وخواطر الهلع فلم يلبث بعد دخولي هذه الغرفة ان نقض ميثاقه وحل وثاقه فاعوزتني رباطة الجاش وثبات الجنان لما رأيتني وحيدة لا انيس لي وجمد الدم في عروقي لما استولى عليّ من الدهشة والوحشة مع انقطاع الصوت في قباب السجن الا ما يكون من صرير الابواب وصلصلة اغلاقها من بعيد اثناء فتحها واقفالها فلما بدا محياك لناظري فقدت بقية رشادي وغبت عن وجودي فإن فرحي برؤيتك بعد احتجابك عني وحزني لوجودك في هذا المكان قد اثارا على جميع ضروب الانفعال فقد حتني وصرعتني ولم تبق لي من القوة سوى ما اسكب به العبرات ، واردّد الزفرات ، فألقيت نفسي عليك ، وكنت كما تعلم بين يديك ، رأيتك وقت التلاقي شاحب اللون ممتقعه فهل كنت مريضاً؟ وليس من العجيب اني نسيت ان اسألك عن ذلك فاني اذ ذاك كنت فانية فيك فما كنت افكر ولا ارى ولا احس ولا اقول شيئاً .

اتعلم ماذا كان يقلقني من الافكار فوق ذلك ؟ انه كان يخيل لي ان لتلك الجدران جدرانِ السجن المخيفة ابصارا واسماعا واذنا كا وانها تحس بي لو صافحتك وتراني لو اشرت اليك اشارة مّا وتسمعني لو افضيت اليك بسر فتذيعه . لما عاد الينا خازن السجن ونبهنا الى ان وقت التلاقي الممنوح لنا قد انقضى من بضع دقائق قف شعري واقشعر جسمي وطار لبي ولو اقسمت له عن سلامة صدر انه لم يمض على دخولي السجن شيء من الزمن وان في الساعة خللا أدى الى هذا الخطأ لما كنت في اعتقادي حانثة ووددت لو بعت حياتي وجميع ما املكه من حطام الدنيا وان قلّ بساعة أخرى اقضيها معك .

لم تكن لي مندوحة عن فراقك على غصتي بمرارته ففارقتك مملوءة الفؤاد من الحزن ، فارغة العينين من الدمع ، معتقلة اللسان من الوجوم ، على شرف من فقد الادراك والشعور ، واجتزت مكان الاسلحة يتقدمني دليل يحمل مصباحا فان الليل كان قد جن على ما ظهر لي ولم يكن ابتعادي عن حضرتك حائلا بيني وبينك ولا شاغلا قلبي عن الاستغراق في شهودك . كلا انني كنت اخالني في كل خطوة اخطوها اسمعك تناديني مسترجعا اياي ولقد التفت مرة لا تبين هذا النداء الوهمي فلم يقع نظري الاعلى وجه من الحجر ، ذلك هو احد البابين العظيمين الحافظين لمدخل القرية ، سار بي ذلك الدليل الخريت الواسع الخبرة بشاطئ المحيط ومواقعه على حافة الساحل متجها نحو قرية . . . حيث يجب أن أقضي ليلتي في ناموس الصيادين (١) . هذا الطريق وعث أمضني فيه الحزن والنصب حتى لقد كدت ان أجلس فيه مرتين على الرمال طلبا للراحة واستميحك العفو ان أقول اني كدت أود لو تم لي ذلك فاني كنت أعلل النفس بقولي انني بجلوسي هاهنا أنام بالقرب من سجنه على الاقل وان اغتالتني الامواج فحسبي انني قضيت نحبي واسمه على شفتي

كنت في سبيل توطين نفسي على الصبر وتشجيعها على احتمال المكروه اردد النظر الى جهة . . . . . وكان الليل ساكنا الا أنه كان حالك الظلام مخيفه فلا كوكب فيه ولا قمر وكان يزيد في كثافة حجب الظلام ذلك السحاب المركوم وما يجود به من الرذاذ البارد وأما البحر فكنت اسمع له من بعيد زمجرة وهديرا وأرى فوقه الجزرة سنجابية

(١) الناموس لفظ مشترك بين جملة معان منها منزل الصيادين

اللون . وقد تنورت على ماوصفت لك من شدة الظلمة ضوأ ضعيفا كان يظهر بصيصه من نافذة في جهة الجبل وتعذر عليّ أن احكم ان كان هذا الضوء المتذبذب منبعثا من السجن او من احد مساكن القرية وكنت مع هذا الشك الذي كان يخامرني في مصدره انظر اليه نظر المحب الى أثر حبيبه وكنت أتوهم انه ان انطفأ ينطفئ معه نبراس حياتي ثم وصلنا بفضل همة الدليل وخبرته بعد الجد في السير الى نقطة تقابل . . . . فلم يبق بيننا وبينها سوى جدول يجتاز على المركب . جلست في المركب على مقعد من الخشب أرشدني اليه الجذافون لما اضنتني الافكار ونهكت قواي الخواطر فكانت هذه الراحة والسكون المستتب حولي سببا في توجيه ذهني الى فكرة جديدة فبينا أنا أفكر فيما كنت أفضيت به اليك من حالة صحتي وما استنتجه العلم منها اذ شعرت على الفور بحركة شيء حي تحت منطقتي . الله اكبر قد كان الطبيب مصيبا وعما قليل أكون امًّا

لا احسبك نسيت ان أعظم أمنية كانت لنا في أيام الهناء الماضية ان يرزقني الله ولدا منك وانني لترتعد فرائصي عند التفكر في ذلك .

على انه لا ينبغي ان اخفي عنك نتيجة شعوري بالحمل وهي اني بعد أن تكدرت برهة أحسست بأن شعاعاً من الفرح والعزة يضيء في جوانب ظلمات حزني وأني في رجوعي من عندك لم أكن فريدة محرومة من الرفيق وخلت اني قد وجدتك بعد فقدك ثم أدركت مع الزهو والاعجاب أن ذلك الذي يجنه حشاي وتنضم عليه جوانحي هو انت أيها الحبيب وهل هو الا مثالك الحي وبضعة من لحمك ودمك ؟ ثم خيل لي بعد ذلك بلحظة ان الامواج المضطربة تحييني بلسانك تحية الزوجة

والامّ وقلت في نفسي قد صار في وسعي الآن ان اقتحم ظلمات الليل والرمال الوعثة ولا أبالي بالسجن ولا بأوامره الشديدة وحراسه وسجانيه وصحت بأن هؤلاء ليس في قدرتهم ان يأخذوه مني وانه هو في الجملة أبوه أو على الاقل بضعة منه يمكنني ان أخفيها في مستقري فأجعلها حرة بعيدة عن عدوان المعتدين كما تخفي اللبوة الجريحة شبلها في عرينها .

أقول هذا ولكنني أرى أمراً يروعني ويبلبل فكري وهو طريقة تربية هذا الولد فاني طالما سمعتك تتكلم فيما يجب على الوالدين لاولادهم بعبارات هي من سمو البلاغة وقوة التأثير بحيث ان قلبي كان يخفق لسماعها املاً في انه سيكون المقصود بها واليوم قد اقترب تحقق هذا الامل وأنا من تحققه في اشفاق ورعب . من ذا الذي يقوم بتلك الفروض التي أنت تعلمها أكمل العلم فقد كنت تقول لي لو رزقني الله ولداً لوقفت حياتي على تعليمه وتربيته وكنت تجاهر كل المجاهرة بانكار الطرق السائدة في تربية الناشئين واستهجانها شديد الاستهجان . كل ذلك لا يزال منقوشاً في ذكراني لكني بقدر ما كنت أعجب بأفكارك ومقاصدك تعتريني الآن رعدة خوف أمام هذا التكليف الذي سيقع ثقله عليّ وحدي فقد فرق بيننا القانون البشري بهوّة حفرها لتكون حاجزاً يحول بيني وبين الوصول اليك في وقت أكون فيه أشد حاجة الى الاسترشاد بنصائحك والاستضاءة بنور معارفك والاعتماد على معونتك الادبية . ليت شعري ما سيكون من أمر هذا الولد اذا كبر وهو محروم من رعاية والده وعنايته وماعسى ان أفعل له وأنا كالقصبة الضئيلة قد رزحت بضعفي وضعضعني سقمي ؟

قد وجدت قوبيدون الزنجي البار الذي أحضرته معك من أمريكا

في انتظاري هو وزوجته على الشاطئ الآخر للجدول فلما رأياني ارادا تقبيل يدي رغما عني قائلين ان هاتين اليدين صافحتا يديك وان لك الفضل عليهما في الحصول على حريتهما . وما بلغت الشاطئ الا وأنا في قفقفة من البرد قدوصل أثرها الى اعماق نفسي وكانت ثيابي مبللة فوجدتهما والحمد لله قد أعدا لي فراشاً في أحد نواميس الصيادين التي على ضفة الجدول واذ كيا لي بها ناراً من قضبان أشجار يابسة فأخذ البرد يزول عني تدريجا بتوقد اللهب في المستوقد وارتحت لما كان يبديه لي كل من هذين الشخصين من اخلاصه في الحب والولاء . ما أشد عدوى بر الانسان وأعظم أثر احسانه فاني نمت هذه الليلة احسن من نومي في سوابقها بعد ذلك النهار الذي قضيته متعبة الجسم والنفس وكدت فيه ألعن الحياة واسأمها وانا اكتب اليك الآن في ناموس الصيادين بعد استيقاظي من النوم صباحا

تجد مكتوبي كما اتفقنا بالامس مخبأ فيما ارسله لك من الملابس التي توليت طيها واصلاحها بنفسي . وورق هذا المكتوب ـ وان كان رقيقا ـ متين وقد طويته طية جعلته فيها على شكل زر فليت شعري هل يتيسر لك قراءة خطي الذى هو كارجل الذباب

سأعود بعد غد الى السجن فقد وعدت بأن يؤذن لي في الدخول الساعة الأولى مساء وعسى أن اتجلدفي هذه المرة فاستجمع شتات فكري.

والآن أقبلك قبلة الوداع بكل مافي نفسي من قوة الشوق والملتقى قريب ان شاء الله

الرسالة الثامنة

(من أراسم الى هيلانة في ١٦ يناير سنة — ١٨٥)

(نقله من سجنه الى سجن آخر)

أكتب اليك هذا وقد استيقظت في الساعة السادسة صباحاً وعلمت ان عشرين مسجوناً انا منهم قد فصلوا لارسالهم الى سجن ... وبلغني ان أمر نقلنا وصل الى هنا ليلاً من باريس فلم يكن لي من وسيلة لانبائك بهذا الخبر قبل الآن ولم يبق لي أمل في لقائك فان السفر سيكون في الساعة السابعة صباحا وسيصل اليك هذا المكتوب واني في طريقي الى الجزيرة التي جعلت مقرا لي فأودعك وداع محب ثابت على عهده لا يثنيه عن حبك اعتراض الحوائل ولا يلويه عن ذكراك تطويح المطاوح .

غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه

الرسالة التاسعة

(من هيلانة الى اراسم في ١٧ يناير سنة ـ ١٨٥)

خيبتها في زيارة السجن وعزمها على اتباع زوجها في منفاه

جئت اليوم الى السجن لزيارتك فمثل لنفسك ما عراني من هزة الطرب ونشوة الفرح لما علمت بأنك اخرجت منه . ما كان ابعدني عن العقل واقربني من الجنون في تلك الساعة اذ ظننت انك فزت برجوع

نعمة الحرية اليك . لكن لم يلبث كاتب السجن أن أبان لي خطابي اذ اخبرني بأنك قد وجهت (هكذا عبارته) الى جزيرة..... واني سأتبعك قاطعة اجواز البحار ، مقتحمة في سبيل القرب منك جميع الاخطار، فأينما تكن وان في آخر الدنيا فلا بدّ لي من اللحاق بك لا يعوقني عنك هجير الشمس المحرقة ولا اخطار مجاهيل الصحاري والقفار ولا اعتراض سلاسل الجبال الشامخة دونك لان غايتي التي اسعي اليها هي ان نعيش مجتمعين فاكتب لي حتى أوافيك لأمتع النفس بلقائك

الرسالة العاشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٢ فبراير سنة ١٨٥)

نهيها عن السفر اليه رعاية للجنين وما يلزم له من السكون

أنا واثق ايتها العزيزة بحبك اياي واقسم عليك بأطهر ما يوجد في هذا العالم واجدره بالتقديس ان لا تقاربيني وان تهرولي هربا مني . نعم انني قبل الآن بشهر أو شهرين كنت اقبل منك هذا الاخلاص الشريف طيبة به نفسي منشرحا له صدري اذ لم اكن عالما بحملك وكنت اجدُ فيك وحدك حيناً بعد حين تفريجا لكربتي في وحدتي وايناسا من وحشتي . وكنت لاعتزازي بوجودك معي واغتباطي بقربك مني ولو ساعة من نهار انسى كل ما اقاسيه في لحظة من الحائط . اما اليوم فقد تغيرت الاحوال وتبدلت الشؤون تبدلا عظيما فاصبحنا أنا وانت لا نملك من امرنا شيأ حتى حرية التحاب والتواصل . اصبح ما هو في العادة سبب اتصال واقتراب

بين الرجل والمرأة سببا لانفصالنا وحائلا دون اجتماعنا وذلك للحال السيء الذي نحن فيه . الا يجب ان نهيء هذه المجاملات وتلك الآداب لذلك الذي لم يوجد بعد الوجود الكامل بحيث يطلق عليه ما يعبر به عن الموجود؟ الا انه قد وجبت له علينا حقوق نحن مطالبون بادائها . اياك ان تنسي انك مسئولة امام الله عما وهب لك من حلية الشرف بأن أهلك لان تكوني أمًا

اني اخاطبك من حيث أنا طبيب وزوج – وأخشى أن أتعجل فأقول أب – بأن الذي يلزمك الآن هو شيء من السكينة والاستقرار وأنصح لك بأن تغادري بلادنا الآن وتهاجري من هذه الارض التي تميد بزلازل الفتن فمي نصيحتي واتبعيها واعلمي أن لي صديقا في انكلترا من رصفائي الاطباء يناجيني حسن اعتقادي فيه انه سينفعك ويرشدك الى كل مايلزمك علمه مما يتيسر لك به توطن تلك البلاد على حالة موافقة وان لنا والحمد لله فيما جمعته بكدي من يسير المال سدادا من عوز بل كفافا من العيش فاستجمعي به أولا لنفسك كل وسائل الراحة ومعدات المعيشة الطيبة ثم احفظي مابقي لتربية ولدنا . . . . آه لو أدري عاجلا انك قد فارقت فرنسا وابتعدت عن مشاغب الشقاق الداخلي فعجلي بالرحيل أيتها الحبيبة

أقول والله على ما أقول شهيد انك لم تكوني في زمن من الازمان أعز على نفسي وأغلى قيمة عندي منك هذه الساعة التي أرغب فيها اليك في عدم اللحاق بي في سفري المحزن . لا تكثري همك بما قدّر عليّ واعلمي ان جل ما يعانيه المسجون من الشقاء هو احساسه بان لانفع

في وجوده وقد ذقت أنا هذا الألم لنفسي وبلوت مرارته لكني اليوم قد كلفت بواجب جديد يلزمني أداؤه واني لارجو أن أقوم به مهما حالت دونه الحوائل

وفي الختام أودعك وداع حبيب يرى في قلبه من إجلالك ما يمنعه من الشك في حبك اياه ويعلم به أنك لاتشكين في حبه اياك •

(حاشية) انى مرسل طي هذا مكتوبا للدكتور وارنجتون في لندره اه

الرسالة الحادية عشر

(من هيلانة الى اراسم في ١٥ فبراير سنة — ١٨٥)

تفضيل الامومة على الزوجية واماني الام في الولد

أطعت أمرك وسمعت نصحك وسأسافر غدا الى انكلترا واني قد استرجعت جزأ من ثبات جناني وفتح مكتوبك لي أبوابا أرى منها مشاهد جديدة • لتفن صفة الزوجية في صفة الامومة فتلك سنة الله في خلقه لا محيص لي من اتباعها . على أن هذا الولد الذي وعدت به سيكون الرابطة بيننا ويقرب شقة البين التي تفصلنا بعض التقريب واني أرغب في الحياة من أجله ومن أجلك فانه سيكون يوم يمن الله علينا بانتظام الشمل موضوع سلوة لاحزاننا وقرة لأعيننا وعزة لانفسنا

حقق الله ما نرجوه من الامل ووقانا بفضله عوادي السوء اه

الرسالة الثانية عشرة

(من هيلانة الى أراسم في ٢٥ مارس سنة ــ ١٨٥)

وصفها لوندرة ومقابلتها الدكتور وارنجتون وسفرها بارشاده الى بنزالس
واقامتها مع زوجه ووصفها مالاقت

كتابي اليك وقد استقر بي النوى الآن في انكلترا أكاشفك فيه بما وجدته في هذه البلاد فأقول . استأجرت مساء يوم الاثنين الماضي عجلة اجتزت بها ما بين القنطرة المسماة بقنطرة لوندره « لندن بريدج » والميدان المعروف بميدان أوستون وكاني بك سائلي عما شاهدته من عاصمة الجزائر البريطانية : لم أرمنها شيئاً أو ان ما رأيته لا يكاد يكون شيئاً يذكر . كنت أحس احياناً بأني أدور في الكلام مع العجلة اثناء جريها في الميادين الفسيحة المحتفة بالبساتين والبيوت التي كنت اخالها هاجمة وكنت أرى عقب ذلك من كوتي العجلة شوارع طويلة تمتد ذات اليمين وذات الشمال تحدها المخازن التجارية من الجانبين ويمتد في جانبي كل منها على مدى البصر صفان من المصابيح الغازية فكنت تارة أجدني في ظلمات متكاثفة الحجب وأخرى أراني بين طوائف غير منتظمة من تلك المصابيح . وقد كان منظر ضوئها المنعكس على رصف الشوارع المبللة وعلى وقائع [1] الطريق وجملة أهل المدينة الذين كانوا يغدون

(١) الوقائع جمع وقيعة وهي النقرة في الجبل او في السهل يستنقع فيها المياه

ويروحون وسمات الهم والاشتغال بادية على وجوههم وجلبة الغوغاء [١] التي كان يتعاورها السكوت فجأة — كان كل هذا غريباً عندي غير معهود لدي وكانت السماء تمطر وكأن لا مطر ذلك انها كانت ترهم [٢] إرهاماً خفيفاً جداً يقول رائيه انه لابد ان يستمر هكذا ألف سنة. وقد حصل في ذهني من سفري هذا في سدف الظلام مجتازة مستنقعات الماء جائلة فيما أجهله من الاماكن صورة مدينة لا أول لها ولا آخر فيها كثير من ضروب العظمة والبذخ وكثير من أنواع الحقارة والمسكنة فهل هذه هي لوندره ؟

تبوأت النزل التي كانت وصفته لي السيدة . . . . فالفيت كل مافيه في غاية النظافة والهدوء والنظام . قدم لي العشاء في غرفة خاصة منه فيها كفايتها من الفرش وهي ملاصقة للغرفة التي أعدت لنومي . وقد راعني من خادمة المائدة جمالها البارع فبعثني ذلك على مراجعة ذاكرتي لادكار القليل من الانكليزية الذي كنت تعلمته في المدرسة لمخاطبتها بلغتها فكانت أجوبتها لي في غاية الاختصار ولم ألبث ان فهمت من احتراسها في كلامها وظهور سيما الحيرة على وجهها ان الخادمات الانكليزيات لا يحفلن بخطاب المخدوم اياهن خلافا للفرنسيات . والذي أدهشني كثيرا في هذا النزل ان اهله لم يسألوني عن اسمي ولا عن حقيقة امري !! عجبا لهذه البلاد التي لا يظهر ان أهلها يعتقدون اني ما أتيت بلادهم الا لقلب حكومتهم (تريد التعريض ببلادها الفرنسية)

(١) الغوغاء عامة الناس وجلبتهم لغطهم غير المفهوم (٢) ارهمت السماء اتت بالرهمة والرهمة المطر الضعيف المتواصل

اتباعا لنصائحك قد اهتديت الى محل الدكتور وارنجتون وذهبت اليه في ثاني يوم من وصولي وقدمت اليه مكتوبك فما كاد يأتي على آخره حتى تذكر اسمك وتلقاني تلوح عليه علائم الوقار النطري!

انشأ هذا الدكتور يخاطبني بالفرنسية وهو يحسن الكلام بها بعض الاحسان فقال « لقد أصاب زوجك في ارسالك الى بلاد اجنبية فسترتاح نفسك الى المقام في انكلترا بما ستجدينه فيها من اعتدال الصحة الا اني أنصح لك بان تقيمي في الارياف فانها أجود مناخا واصفى هواء فان السكنى في الحواضر العظيمة لاتلائم النساء في الطور الذى انت فيه الآن ولا تلائم الاطفال ايضا وقد انشأ الكبراء من تجارنا في لندره يفهمون مزايا الاقامة في القرى ويقدرونها حق قدرها فترينهم لا يعبأون بالسفر مرتين كل يوم في السكة الحديدية ولا بما يضيعه عليهم هذا السفر من الفوائد الكثيرة التي منها الحضور في ناديهم مثلا وذلك ليمتعوا أسرهم بقليل من نضارة الخضرة ومنافع الشمس فهم يصرفون بذلك نساءهم عن التردد على معاهد التمثيل ومواطن اللهو الليلي ولكل امرئ منهم في الحقيقة نصيب من فائدة هذه الاقامة غير ان الاطفال هم اصحاب الحظ الاوفر منها فهم ينشأون في كمال الصحة من هذه المعيشة المطلقة في هواء الفضاء ولا يكاد يرغب عن ذلك الا الغنجات [1] المتورنات [2] اللاهيات بالتافه والمحقرات، ولكن ما الحيلة في إرضائهن وللامومة واجبات لا بد من أدائها ؟ تأملي في الاطفال الذين يتربون في المدن الكبيرة الآن ترين معظمهم شاحبي الالوان سقيمي الاجسام كالنباتات الموشمة (النابتة في

(١) الغنجات ذوات الدلال (٢) المتورنات المبالغات في التطيب والتنعم

الظل المحرومة من ضوء الشمس وحرارتها) . اتظنين انهم على هذا الضعف يزدادون في عقولهم بقدر مايخسرون من صحتهم ؟ كلا انني لا أرى هذا صوابا لان جو المدن الذي أفسده مافيها من ضروب اللذائذ وصنوف الاعمال لا يلائم بحال من الاحوال نمو العقل الخلقي وان الاطفال ليبلغون سن الرجولية قبل ابانه بتأثير تلك الحرارة الصناعية التي في المدن الا انهم في الغالب يكونون رجالا ناقصين لا يبلغون في الكمال الدرجة المطلوبة »

فاه الدكتور بهذه الكلمات الاخيرة وابتسم ابتساما انتهى بظهور خطوط عرضية على وجهه السكسوني المستدير الذي يشرف منه على خديه شعر الصدغين الصغير الذي قد وخطه الشيب ثم استأنف الخطاب فقال

«دعيني أتولى أمر سكناك في الخلاء فان لي صديقا يملك في قرية مرازيون بيتا للنزهة فيه شيء من الجمال والنظام وموقعه تجاه خليج بنزانس وهو يبحث عن مستأجر يؤجره بجميع أثاثه ورياشه لانه على وشك الرحيل الى ايطاليا للمقام بها لاسباب صحية فانا أرغب اليك في الذهاب الى هذا البيت ورؤيته واحثك على ذلك وأرى ان في هذا السفر تسلية لك وترويحا ولو اني طبيبك لكان من أول ما أصفه لك تبديل الهواء وكوني على ثقة بأن آلام النفس تزول بتغيير المؤثرات فقلما يوجد من هذه الآلام ما يتعاصى على هذا التغيير كما ثبت لي بالتجارب فان الانسان اذا رأى مشاهد خلوية جديدة يحيا حياة جديدة . وليس لي ان أمدح لك أميرية (كونتية) [1] كورنواي فانها مسقط رأسي . على

(١) الكونتية هي ارض الكونت وهو الشريف من اشراف فرنسا الغابرين

ان الناس قد اجمعوا على القول بانها اكثر جهات بريطانيا العظمى اعتدالا في الاقليم وانها هي التي يعيش في أرضها الريحان والعطر والعود معرضة لهوائها المطلق في جميع الفصول . ان كنت ممن يروقهن منظر الصخور فانك ستشاهدين هناك منها جميع الاشكال في أبهج الاوضاع وأجدرها بالتصوير ولست أعرف حق المعرفة مقدار الاجرة التي يطلبها صديقي في سكني بيته لكني لا أشك في انه لايخرج عن الاعتدال فيما يطلبه وستجدين في بنزانس زوجتي السيدة وارنجتون فانها هناك هي واسرتها حتى الآن وستغتبط باستقبالك واما أنا فسأذهب لزيارتها واستنشاق هواء مولدي كلما تيسر لي الخلاص من اشغالي في لندره فاننا معشر الانكليز لا نقدر على اطالة الثواء في مكان واحد فالحركة والفضاء من حاجاتنا.وما كان أجدرنا باختراع الآلة البخارية وقد اخترعناها ولا عجب واصبحنا بسبب هذا الاختراع اقل الامم تغيرا فاننا مع سفرنا الدائم في اقامة مستمرة لاننا في أوطاننا أينما كنا »

افترقت أنا والدكتور على احسن حال من الوفاق والمودة وقد خاطبني في شأنك بما شف لي عن كنه اجلاله لك واعظامه لقدرك ولمح لي مرة واحدة في مطاوي كلامه تلميحا خفيفا الى ما انا فيه من الفرقة الحاضرة فأبان لي به عن عطف عليّ وميل اليّ ولم يسترسل استرسال الناس في عبارات التعزية والتسلية التي كثيراً ما اذلتني وهضمتني حق ادلالي بصفة الزوجية . تم الاتفاق بيننا على ان اسافر في الغد الى كورنواي وانما عجلت بالسفر لاستقر في مكان ما وقد رضيت هذه البلدة لي مقرا لأن جميع الامكنة التي لاأراك فيها سواء عندي .

لما وصلت الى بنزنس اثناء الليل تلقتني السيدة وارنجتون عند نزولي من عجلة المسافرين وكانت في انتظاري لان زوجها كان كتب اليها بذلك واذا اردت ان تتصور تلك السيدة فتمثل لنفسك امرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ليست حسنة الوجه ولا دميمته ولكنها محبوبته. سوداء العينين والشعر خنساء الانف عظيمة الفم باسمته سمينة قصيرة على انها خفيفة نشيطة قد أوتيت حظا وافراً من الحنان والرأفة

لقد كثيراً ما لاحظت انه يوجد في بعض الاحوال بين شخصين مختلفين في الذكورة والانوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين أفراد اسرة واحدة مع ان كلا منهما يكون أجنبياً من الآخر من كل الوجوه. أتدري من هو الذي حضرت صورته في ذهني عند وقوع بصري على السيدة وارنجتون؟ ذلك هو صديقك يعقوب تقولا خلتني أراه بذاته في زي امرأة

حمل أمتعتي خادم كان يصحب هذه السيدة فوضعها في عجلة ركبناها فاوصلتنا الى منزل الدكتور الريفي . ولهذا المنزل منظر بهيج اذا شوهد ليلاً في ضوء السماء فانه لكونه مبنيا بالصوان كمعظم بيوت التنزه والخلوية والاكواخ التي في تلك الجهة كان حجارته صفائح من اليرمع [1] والمهو [2] تلمع كأنها شهب تساقط من القمر وفي النهار أيضاً له نوع آخر من جمال المنظر فانه قائم في وسط حديقة من الاشجار المجلوبة من البلاد الاجنبية ذات الالوان اللطيفة المختلفة وينبسط على طول مقدمه ايوان مسقوف

---

(١) اليرمع حجارة بيض تلمع في الشمس (٢) المهو حجر ابيض يقال له بصاق القمر

تسلقه شجيرات الفوشياء [٣] التي ترتفع ارتفاعاً غير معهود فهو مزدان من داخله وخارجه بزينة بديعة من الازهار لم تر عيني مثلها قط ولبيوت النبات الزجاجية المحل الاول في انتظام هذه الدار على ما أرى . لاجرم ان مثل هـذه البساتين المسقوفة بالزجاج تزيد المعيشة الاهلية نضارة وحسنا والغرفة التي تفضل أهل هذا البيت الكريم باعدادها لي واحلتنيها السيدة وارنجتون نفسها بما أوتيته من كامل اللطف وفائق الظرف يخالها الانسان جنة لو ان للارواح الوحيدة الجريحة أفئدتها من الحزن جنة في هذه الدنيا ... ومن محاسن هذه الغرفة اني عنـد ما أهب من نومي فيها اسمع تغريد القنبرة فيروقني لحنها .

السيدة وارنجتون هي والدة كاملة عاقلة فانها تقسم وقتها قسمين أحدهما لتربية أولادها والثاني للعناية بأمر ازهارها ولها من كل قسم منهما شيء من الفراغ يكفيها للمطالعة وهي على بعدها عن الدعوى بالاحاطة بالعلوم في المنطوق والمفهوم لها من طرق الاستدلال على مواضيع شتى أحكام صائبة وآراء سديدة . وأسرة هذه السيدة يعجب بها من يراها فبنتاها الكبيرتان اللتان احداهما ربما كان عمرها سبعة عشر ربيعا — كما كان يقال في تقدير السن سابقا — لكل منهما وجنتان يذوب الورد منهما غيرة وحسدا وبعد هاتين البنتين صف من بنات أخريات وبنين يتألف فيه من اختلاف رؤوسهم بالصغر والكبر وتباينهم بالطول والقصر نظام يحوي اجمل الفروق

---

(٣) الفوشياء شجيرة امريكية معروفة بجمال شكلها وطول بقاء زهرها وتنوع ازهارها في اشكالها والوانها وسهولة غرسها وهي من اشجار الزينة

وابهاها • كثيرا ما كنت اسمع ان النساء الانكليزيات نُـثرٌ (كثيرات الاولاد) ولكن الله أكبر ! ماهذا الزخرف زخرف الشعور الشقراء والاكتاف المكشوفة والالوان الزاهية الغضة التي ما كنت أسمع بها • اه

الرسالة الثالثة عشرة

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٢٨ مارس سنة ــ ١٨٥ ﴾

زيارتها جبل القديس ميكائيل ووصفها المنزل الذي استأجرته للسكنى

خرجت بالامس للتنزه أنا والسيدة وارنجتون راكبتين عجلة مكشوفة سلكت بنا المهيع الذي يبتدىء من بنزانس ويلتف حول الخليج المسمى بخليج الجبل على شكل نصف دائرة عظيمة كحذاء الفرس فما أبهج ما رأيته وأجمله ! على انه ليس أول شيء أمال ذهني ونبه فكري هو البحر الزاخر أو شواطئه المرصعة بالصخور أو حركة أمواجه المتلاطمة المتعاقبة في تلاشيها على رمل الطريق كلا بل الذي استوقف نظري هو قطعة من الصوان يعلوها بناء كالدير أو القلعة الحصينة يسميها الانكليز بالجبل وهي بارزة على يسار بطن الخليج ولذلك نسب اليها فقيل له خليج الجبل. إخالني رأيت هذه الصخرة بما فوقها من الابراج الصغيرة في منام أو في وقعة من وقعات الكابوس عليّ .

سألت السيدة وارنجتون بصوت متقطع من الرعشة عن هذا الشبح الحجري فأجابتني مترددة لما رأته من حالتي بقولها هذا هو جبل القديس ميكائيل عندنا فلما سمعت منها هذه الكلمة احسست بأن كل ما في جسمي

من الدم قد جزر عائدا الى قلبي فلمحت ماصرت اليه من الاضطراب وعرضت عليّ الرجوع الى المنزل فصحت كلا بل لابد لي من الذهاب اليه فاضطررنا من أجل ذلك الى الطواف حول الخليج والذهاب الي مرازيون .

لما ان صرنا حذاء الجبل كان البحر في إبان جزره وكانت هذه الصخرة الصوانية على شكل شبه جزيرة لانحسار الماء عن بعض جهاتها بعدان كانت جزيرة كاملة بعض ساعات من النهار. سلكنا للوصول اليها شعبا رمليا وحلا يكتنفه من الجانبين قطع من الصخور مغطاة بالطحلب والعلقي [1] المبللة وتيسر لنا به ان نجتاز البحر يبسا وبما كان يعرض لنا من القطع الصخرية كنا كاننا نمشي بين اطلال وكنت كلما جد بنا السير ازداد دهشة وارتياعا لتشابه ذينك الجبلين المتحدي الاسم فان هذه الصخرة بما فوقها من البناء وما حولها من البحر تكاد تكون عين التي في بلادنا الا ان تلك أسعد حظا من هذه فانها لم تدنس باتخاذها سجنا في زمن من الازمان .

افضى بنا المسير بعد حين الى سفح ذلك الجبل فاذا حوله لفيف من مساكن حقيرة يتألف من مجموعها قرية للصيادين والملاحين فوقفنا تشرف علينا الصخرة الصوانية من سموها المريع ثم اقتحمناها فاضطررنا في ذلك الى الصعود على شعب بل سلم نحتت درجاته في الصخرة وقد انتهى الامر بالسيدة وارنجتون الى ان ضاقت انفاسها وطفقت تلهث من شدة التعب فدعوتها الى الاستراحة على كتلة من كتل صخرية كانت تعترضنا في طريقنا ويظهر انها خرجت من باطن الجبل بسبب انفجار ناري فما كان

---

(١) العلقي نبت يكون واحدا وجما قضبانه دقاق عسر رضها تتخذ منه المكانس

اسرع ما اجابت وجلسنا طائفة من الزمن لا تنبس بكلمة لما أدهشنا من مشهد العظم والخراب فكان البحر محدقا بنا وذلك البناء القائم الذي هو من آثار القرون الوسطى فوقنا وعن ايماننا وعن شمائلنا اطلال من الصخر يغطي جزأ من عريها بعض الاعشاب البرية . وقد رأيت على ما في هذا المكان من المحول زهرة زرقاء نابتة في صدوع الصخر على طبقة رقيقة من بقايا الاعشاب المتعفنة فقطفتها على ذكراك لعلها تكون بشرى السعادة .

كنت الى هذه الساعة التي رأيت فيها جبل القديس ميكائيل مترددة في اختيار البقعة التي اتخذها متبوأ وسكنا واما الآن فقد استقر لمجرد مشاهدته رأيي وزال ترددي . فكأنما يوجد شيء من السحر في اسماء الامكنة واشكالها تغلب على فكري فحملني على ترجيح الاقامة بهذا المحل على انه لابدع ولا سحر فهاتان الصخرتان اللتان تتراءيان وتتناغيان مع فصل المحيط بينهما وهما جبلا القديس ميكائيل في انكلترا وفرنسا اختان متشابهتان في جميع الصفات والاوضاع فاول هذين الحصنين وهو حصن الانكليز كان حظه من كر السنين عليه الترك والاغفال واما ثانيهما وهو حصننا فان له صراخا يصل الى كبد السماء دالا على استبشاع حالته واملِه في الخلاص منها

ذهبنا في نفس ذلك اليوم لزيارة المنزل الذي أوصاني الدكتور وارنجتون باستئجاره وقد علمت ان مؤسسي قرية مرازيون التي هو فيها من اليهود الذين كانوا يتجرون فيها بالقصدير قبل ميلاد المسيح بزمن مديد واني لفي شك من وجود كثير من ذويتهم الآن في هذه القرية فانه لم يبق من دلائل وجودهم في هذه الجهات الا اسم واحد وهو

(اميرسيون) قد ارتاحت نفسي له لانه يذكرني بفرنسا. تتألف تلك القرية من جملة مساكن جديدة على بعضها مسحة من طلاوة المدنية الانكليزية وهي قائمة من الخليج على شاطئه المقابل لجبل القديس ميكائيل الذي يتراءى معها على بعد فلها في ذلك منظر ذو بهاء وجلال من محاسنه ان هذا الخليج وهو تلك القطعة الجميلة من الماء التي تكتنفها الرمال وتتخللها الصخور خصوصا ماهو منها جهة الشاطئ المقابل للمنازل تكثر فيه حركات الامواج المعتدلة التي تسكّن آلام النفس وتخفض من برحائها .

بقي علي الآن أن أحدثك عن المنزل فأقول انه لاينقصه شيء من المتانة والرصانة لانه كله مبني بالصوان الذي يكثر في هذه الجهة دون غيره ولما كانت مادته شديدة الصلابة تتعاصى على النحت اعتاد البناؤن على الاكتفاء في اعداده للبناء بترقيق قطعه ومن اجل ذلك كانت ظهور جدران المساكن في الجملة خشنة وغير مستوية . وطريقة البناء في الداخل تخالف كذلك طريقتنا فيه مخالفة عظيمة لانهم لا يقتصرون هنا على فصل البيوت بعضها عن بعض بحيث لاتتلاصق بل هم يفصلون بين الغرف ايضاً بحيث تكون المعيشة عزلة تامة .

ذلك البيت قائم على ربوة رملية قحلة فلذلك أخشى ان يكون معرضا لهبوب الرياح الشديدة الآتية من البحر لكن الناس يؤكدون لي ان هذه الرياح التي تهب من هذه الجهة تكون فائرة صحية في جميع فصول السنة . واما الأثاث فهو في غاية البساطة والملاءمة للحالتي واكثر ما دهشت له في هذا البيت هو اني وجدت في الطبقة العليا منه غرفتين منفصلة احداهما عن الاخرى تمام الانفصال ليس لهما في ذاتهما شيء تمتازان به امتيازا ظاهرا

لـكنهما على هذه البساطة قد أحسن البناء وضعهما فكان لهما اجمل منظر واحسن موقع تشرق عليه الشمس فالضوء يسبح فيهما بلا حجاب يعترضه لان نوافذهما من اجل ان تتلقاه بالتكريم تـكادتكون مجردة من الستائر وهذامنها نوع من الأدب والترحيب بلسان الحال فكأنها تقول له : تفضل فهذا محلك لا يمنعك منه مانع . نم ان عليهامن الخارج بعض قضبان من الحديد انقبض قلبي لرؤيتها أول مرة الاأن هذا الانفعال السيء قدزال عندماعلمت ان هذا المحل هو مسكن الاولاد وان هـذه القضبان لم توضع الا لمنع ما عساه يقع من الحوادث التي تكثر عادة من الاطفال بما يلازم سنهم من التهور والجهل بالخطر فهي اذن وسيلة من وسائل التحفظ لا علامة على الاسر . في احدى هاتين الغرفتين ينام الاطفال وفي الاخرى يلعبون بالنهار اذا كان الجوّ بارداً أو السماء ممطرة وقد أكد لي الناس هنا ان هاتين الحجرتين يوجد لهما نظيرتان في كل بيت من بيوت الانكليز التامة المنافع والمرافق .

ولا أنكر عليك ان هذا الامر قد أثر في نفسي فان معظم الدور عندنا في باريس تامة البيوت والغرف والمرافق اللازمة وهي غرفة الاكل وقاعة الاستقبال وحجرة النوم والمكتب ومخدع الخلوة وغيرها مما يطابق عادات الرجل الدنيوي واهواء المرأة المتربيـة فلم ينس فيها الا ما يلزم لشخص واحد الا وهو الطفل

الطفل عندنا بسبب اضطراره الى ملازمة الكبار في معيشتهم وتقضيته الايام والليالي في غرفة واحدة مع والدته العصبية الرقيقة المزاج ووالده المثقل بالاعمال لابد ان يكون ضيفاً مقلقاً لغيره وأسيراً كاسف البال في

نفسه فانه لامندوحة عن ان تمتد يده الى الاثاث فتقطعه وتتناول الكتب فتمزقها والآنية الصينية فتكسرها ويجرّ عليه هذا النزق وما ينشأ عنه من الاتلاف الخفيف توبيخاً مستمراً، فيقرعه والداه ويعاقبانه على نشاطه وسروره ولغطه اعني على كونه طفلاً .

وليس هذا كل مايلاقيه عندنا فانه احيانا قديطرد من مسكن أبويه لضيق المحل فلا يجد له مأوى سوى فناء المنزل وانت تدري ماهي افنية البيوت في معظم المدن الكبيرة فليست هي الا جحور ضباب .

قدفهم الانكليز مقتضيات المعيشة المنزلية من حيث سكنى الاولاد أحسن مما فهمناها بكثير فهم يعتبرون المولود عندهم شخصاً مستقلا فيفردونه بحجرة قائمة بذاتها .

لم أصف لك حتى الآن شيئاً من بستان البيت على انه هو الذي أخذت بهجته ونضارته بلبي : ليس لهذا البستان سور من البناء وانما هو محاط بسياج النبات تمطره في شهر يونيه على ما يقال شجيرات الرتم [1] الشوكية ذهباً من اشجارها المسجدية واذا أردت ان تتصور جمال هذا البستان فمثل لنفسك نحو اكرين [2] أرضا تغطيها جميعا شجيرات الورد وعنب الثعلب وغيرها من الاشجار الصغيرة . وانما كان مافي هذا البستان شجيرات لان أرضه رملية ومجاورة للبحر فهي لاتصلح للاشجار الكبيرة ولكن قدأنشأت تتفتح بين اعشابه المطرية عيون بعض ازهاره البنفسجية

(١) الرتم شجرة ذات ازهار صفراء اصلها من اسبانيا (٢) الاكر كما في الاصل مقياس سطحي قدره ٤٨٤٠ ياردة مربعة واحسبه محرفاً عن الاكارة القريبة في المعنى منه لانها في عرف الفقهاء الاسلاميين ما يعطي من الارض للاكرة لزراعته

فكيف يكون جماله بعد خمسة أو ستة اسابيع اذا كساه الربيع بلا حساب ما لديه من حلل البهاء والنضارة .

قد استأجرت المنزل وسأسكنه في الاسبوع المقبل واما الآن فأنا ساكنة عند السيدة وارنجتون التي تحوطني بانسها الدائم وكرمها الغامر وكل ما أنا فيه من وسائل النعيم يؤلمني وأوبخ نفسي عليه عند ما اذكر سجنك وما انت فيه من الضيق والالم .

أنا متطلعة لاخبارك أيها الحبيب فارجو ان توافيني بشيء منها فهل خفت عليك معيشة السجن بسبب تغيير المحل أو زادات ثقلا ؟ اسألك بالله ان تصدقني الحديث ولا تخفي عني منه شيأ

وفي الختام أقبلك من وراء تلك البحار التي وان حالت بيننا لم تفرق بين قلبينا . اه

الرسالة الرابعة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٨ ابريل سنة ـ١٨٥)

وجوب محافظة الحامل على سلامتها من الامراض

تلقيت مكتوبك ابنتها العزيزة هيلانة فذهب بروعي وثابت سكينتي واطمأن به قلبي عليك كثيرا لشفيفه لي عما فيك من الاقدام والسلطان على نفسك فانت حقا اشرف صاحبة عرفتها في حياتي . قدر علي السجن وعليك النفي فاحتملت نصيبك من المقدور شريفة النفس عالية الهمة .

ان نصيحة صديقنا الدكتور وارنجتون اليك بسكني القرى صادرة

عن حكمة وسداد فان الاقامة بالارياف أولى بك الآن من السكنى في المدن لكثرة ما في هذه من الصخب والشغب لان الاعتكاف والرجوع الى المعيشة القطرية هما اللذان يتيسر لك بهما ولا شك استجماع قواك بعد ما لاقيته من تلك الصدمات النفسية التي اخشى ان تكون زعزعت صحتك فأوهنتها

اعلمي ان من المفروض عليك ان تكوني صحيحة الجسم سليمة من الادواء لانك مسئولة من الآن عن الوديعة التي استودعك الله اياها ولا تستغربي مني مخاطبتي اياك باصطلاح العلماء بمنافع الاعضاء فاني ما تعلمت الطب عبثا بل تعلمته للانتفاع به . كل كائن دخل في بداية الحياة عرضة للمرض والهلاك ولذلك كان للجنين امراض حقيقية . ومن هذه الامراض والعلل الخفية مالا شك في عجز العلم عن ادراك كنهه ولكن يحق لنا كل الحق ان نعتقد ان للمرأة دخلا في بعض مايولد به الطفل من التشوه في كثير من الاحوال ولا اخالك نسيت تلك السيدة د . . . التي فتنت القلوب ببديع حسنها فانها لما اصابها هوس المرقص وبعثها على ان تقضي فصل الشتاء كله رقصا في قاعات باريس بل اداها الى الاستمرار على ذلك حتى في ساعة الوضع قد وضعت بنتا فيها شيء من الجمال غير انها حدباء .

اذا عرفنا ان لاعمال المرأة تأثيرا في الجنين كما وصفنا تأتى لنا ايضا ان نقف على العلاقة التى بين انفعالاتها النفسية وبين اخلاق ذلك الجنين الذي يحيا بحياتها ويشمله شخصها وتضمه احشاؤها فقد كان الحكيم

هوب [١] يعلل ما فيه من خلق الجبن بما لاقته امه من الاهوال أثناء حملها به حينما كانت العمارة الاسبانية المسماة ارمادا الشهيرة تهدد انكلترا وتطوف حول سواحلها وكان مايتخيله اهلها من صورة اغارة الاعداء عليهم يلقي الرعب في قلوبهم ·

قد طالعت وقائع نيجل [٢] فما اشد ما تجدينه فيها من مسكنة الملك يعقوب الثاني [٣] فلشدّ ما كانت ترتعدفرائصه ويصفر لونه عندرؤيته السيف مجردا من قرابه فجبن ذلك الملك على كونه مما يضحك الثكلى ربما كان جديرا بان يحرك في الانسان عاطفة اخرى اذا صح ان ضعفه هذا ناتج من مشاهد المصائب والرزايا التى كانت تحيط بأمه مريم استوارت [٤] في اثناء حملها به ·

يصعب الحكم اليقيني على درجة تأثر الجنين بتزعزع الشجرة العصبية التي تظله في بطن امه في حالة العلم الحاضرة ويكفي وجود الشك في تأثره موجبا على أمه اتقاء اسباب الانفعالات الشديدة والنظر الى الاماكن

---

(١) هوب هو توماس هوب الحكيم الانكليزي الشهير المولود سنة ١٦٧٩ المتوفي سنة ١٨٥٨ ميلادية وهو من انصارمذهب الاستبداد في السياسة (٢) نيجل كاتب روائي شهير (٣) يعقوب الثانى هو احد ملوك انكلترا السابقين وهو ابن كارلوس لاول تولى الملك بعد اخيه كارلوس الثانى سنة ١٦٨٥م وحاول رد المذهب الكاثوليكي الى انكلترا وارجاع حكم الاستبداد فخلعه صهره غليوم اورنجا فالتجأ الى لويس الرابع عشر ومات فى فرنسا سنة ١٧٩١ (٤) مريم استوارت هي بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسيا وام مريم لورين ولدت سنة ١٥٤٢ وماتت سنة ١٥٨٧م · تزوجت ولي عهد الحكومة الفرنسية الذي صار بعد الزواج فرنسيس الثاني ولما توفى زوجها عادت الى إيقوسيا وتزوجت بهنري دارنلي ثم تزوجت بيوثويل ثم ثار عليها رعيتها فالتجأت الى اليصابات ملكة انكلترا وبقيت في الاسر تسعة عشر عاما حتى ماتت

المشؤمة والابتعاد عن المتاعب ومما يجره الاخلاص في الولاء من الشدائد والمحن .

المرأة هي قالب للنوع الانساني يفرغ فيه فيتشكل بشكله الى حد محدود فيجب عليها لهذه الصفة رعاية صحتها والمحافظة عليها فيلزمها في الحمل ان تكون مستريحة الجسم والفكر مستجمة القوى ولكن يندر ان يوجد بين ربات الجمال من النساء من تصبر فيما جرى العرف بتسميته الدنيا الكبرى على ترك اللذائذ ومجامع الافراح وملاعب التمثيل لتنال شرف الاتيان باولاد حسان بل ان من خسارة الصفقه لديهن ان يجدن انفسهن عاجزات عن استئجار غيرهن لتأدية وظائف الحبل كما يستأجرنهن للرضاعة فانهن لو وجدن لذلك سبيلا لاستأجرت المثريات منهن من عهد بعيد بطون نساء الطبقة السفلى لحمل اجنتهن .

واما هؤلاء فانهن لكدهن في وسائل المعيشة لايجدن لهن من الزمن مايهتممن فيه كثيرا بأمر ذريتهن فقد رأيت بعضهن وقد أثقلن حتى كدن يشارفن الوضع تلجئهن ضرورات المعيشة الى غسل الملابس في نهر السين زمن الشتاء فكن يغمسن اذرعتهن في مائه المثلوج او تضطرهن الى دفع عجلات محملة لتمشيتها او الى حمل اثقال باهظة يرتاع لها الاشداء من حمالي الاسواق وبهذا تعلمين ما جر علينا ما في اخلاقنا من الأثرة وحب الاختصاص من رداءة النسل . كل ما يضعف المرأة التي هي قرينة الرجل وصاحبته يضعف الذرية ويحط من شرف الجنس فاذا أراد المجتمع الانساني ان يضمن لنفسه الحصول على اولاد حسان الخلق يكونون في المستقبل رجالا أشداء فلا يتسنى له ذلك الا بتحري

العدل في تقسيم ثمرات العمل وبأن يعرف للمرأة ماتستحقه من الاحترام والاجلال . اهـ

الرسالة الخامسة عشرة

من اراسم الى هيلانة في ١٠ ابريل سنة ـــ ١٨٥

التربية الاولى من خصائص الام

غرضه من تربية ولده ان يكون حراً لا أن يكون من كبار الرجال

ليست مكاتيبي اليك كغيرها مما يكتب الناس بعضهم الى بعض وانما هي احاديث مسجون يناجي بها في عزلته أعظم شقيقة لنفسه واحسن قسيمة لروحه

ولا بد ان يكون قد سبق الى ذهنك ما اقصده منها ففطنت اليه . اني اريد ان اعمل ما استطيع وانا في مطارح النوى لتحصيل السعادة لذلك الذي بشرنا الله به فانه ليعرض لفكري ان هذا الطفل قد لا يعرفني ولا يراني أبدا وقد يتهمني يوما ما بأني اهملت مافرضه الله عليّ من الواجبات التي تحفظ حقوقه بالقيام بها فيحرج لذلك صدري وتنقبض نفسي ولكني لااخالني مستحقا لهذا اللوم اذا كنت على ما انا فيه من العجز عن حياطته بضروب الرعاية وصنوف الملاطفة ادفع له دين الابوة من نقد آخر .

اني بما اكتبه اليك من الرسائل سأؤدي على بعدي من ولدي ما فرض له عليّ من حقوق التربية لاعوازغيرها من الطرق المثلى لاداء هذا الفرض فقد درست

شيأ من احوال الانسان في تطوافي حول الارض مشتغلا بصناعة الطب في السفن ورأيته في اقاليمها المختلفة وفي اعمار مجتمعاته المتباينة ولذلك أرى ان في قدرتي ان استنتج من افكاري ومما تحفظه ذاكرتي من الحوادث طريقة للتربية مؤسسة على نواميس الكون وتاريخ وقائعه فعلينا الآن ان نتبادل الافكار في ذلك فسأكتب اليك بما يبدو لي وتكتبين الي بما يعن لك حتى تتحد روحي وروحك في السهر على مهد هذا الولد العزيز رعاية له وعناية بشأنه ٠

سأراه في منامي يشب وينمو وأنت ستحدثيني عنه في مكاتيبك وستخبرينه بوجودي ولا موجب لاهتمامك بمستقبله فان تربية الطفل الأولى هي من خصائص الوالدة وانت أهل للقيام بها وحدك بما فيك من يقظة القلب وتوقد الذكاء وسننظر بعد فيما يلزم من أمور تربيته المستقبلة ٠

على أننا يجب علينا ان نعين الغاية التي يلزمنا ان نرمي اليها في مساعينا. اني لا أعلم مطلقا بوجود قالب يفرغ فيه الناس فيخرجون من النابغين ولئن كان فليس هو للتربية قطعا بل يكون بين يدي الخالق (سبحانه) ليهيئ به من يشاء لما يشاء فاذا كان ولدنا ذكرا كان غرضي من تربيته ان يكون رجلا حراً ولا اقصد بحال من الاحوال ان يكون من كبار الرجال وعظمائهم اهـ

الرسالة السادسة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ١١ ابريل سنه ـ ١٨٥)

تشابه السجون في جميع البلدان وتسرية همه بالمطالعة

أراك متطلعة الى اخباري راغبة الى في ان أوافيك بشيء منها فها أناذا اخبرك بأن السجن واحد في جميع البلاد فليس بين المكان الذي تركته وبين هذا الذي اسكنه الآن على رغمي كبير فرق وأني من عهد وصولي اليه قد لجأت الى المطالعة فإني وجدت الكتاب في غيبتك عني أحسن قرين لي يؤنسني ويسرّي عني الهم . ماذا أقول بعد ذلك ؟ غاية ما اقول لك اني عائش راج الفرج ثابت على حبك والسلام . اه

الرسالة السابعة عشرة

(من هيلانة الى اراسم في ١٥ ابريل سنة ـ ١٨٥)

قرارها في المسكن الجديد ـ مجيء قوبيدوز وزوجته جرجية من فرنسا ـ مقارنتها بين الفرنسيات والانكليزيات في تربية الاولاد

قد تم لي القرار في المنزل الذي استأجرته وفي صباح اليوم قدم على أحدي السفن التجارية خادمانا الزنجيان قوبيدون وزوجته جورجية آتيين من فرنسا حيث كانا تخلفا عني لحزم امتعتنا فاسكنتهما رواقا ملاصقا للمنزل من ناحية البستان وانا الآن اساعدهما في نفض كتبك وترتيب مجموعاتك

لم يكد يستقر هذا الزنجي البار حتى وجه عزيمته الى اعمال شتى فصرح لي ان في نيته قلب أرض البستان وبذر الحبوب وتطعيم الاشجار وغرس انواع من النبات فيها الى غير ذلك من الاعمال وقال لي انه ان لم ينتج بستاننا عما قليل أطيب فواكه البلد واجود بقوله فلا يكون هو الملوم في ذلك وهو يذكر سابق اشتغاله بزراعة الارض أيام رقه وهو فرح فخور بانه ينبعث الآن الى العمل بسائق الشكر وللاقرار بالنعمة بعد ان كان لا يلجئه اليه الا خوفه من أليم الضرب بالسوط ويقول ما أشد اتقان ما سيصير اليه شغلي فقد اصبحت ما لكا لنفسي منفكا من ربقة الاستعباد ٠

لا اخفي عنك أن المقارنة بين اسمه والمسمى كانت مدعاة للضحك ومثارا للاستغراب وان سكان مرازيون يضحكون منه لانهم يستصعبون التوفيق بين معنى العشق وبين مشفري ذلك الزنجي الغليظين وأنفه الافطس وجلده الاسود (*) واني لأخشى ان يكون هذا الاسم لم يطلق عليه من مواليه السالفين الا تهكما وسخرية ولكني على رأيي هذا لم اجسر ان اكلمه في تغييره فإني لو فعلت لكان هذا إعترافا مني له بأنه دميم أو تصريحا بأن البيض لا ينصفون مثله من سكان افريقية ٠

أنا في هذا البلد أعيش بمعزل تام عن الناس فلا اتردد الا الى دار السيدة وارنجتون حيث أصادف احيانا بعض سيدات من بنزانس أو من ضواحي مدينة لندرة والذي يهمني كثيراً في اختلاطي بهؤلاء

---

*) « قوبيدون » هو في خرفات اليونان ابن الزهرة إلهة الجمال وهو عندهم اله العشق والغرام

السيدات هو الطريقة التي يجري عليها الانكليزيات في تربية أولادهن وانا مجتهدة بملاحظتي اياهن في تعلم مهنة الامومة

سكان كورنواي وان صح انهم ليسوا من نسل الانكليز السكسونيين لما يقال من انتسابهم الى فصيلة من الصقالبة ولما أراه بينهم وبين البريتونيين[1] من المشابهة الكبرى في لون الشعر وملامح الوجه يعيش بينهم عدة من الأسر « العائلات » الانكليزية ومن كانوا من الباقين غير انكليزيي الاصل فقد تخلقوا باخلاق تلك الأمة التي الحقهم بها الفتح وسرت فيهم عاداتها على تفاوت في ذلك قلة وكثرة .

أنظر كيف يستقبح النساء في انكلترا طريقة تقميط الاطفال ويستهجنها وتقول الوالدات منهن استهزاء بنا اننا ندخل اطفالنا في اكياس رثاء الناس حتى اذا سنحت لنا الفرصة علقناهم على مسامير في الجدران واكتفينا بذلك مؤنة ما تستلزمه حالتهم من العناية والرعاية اذا كانوا غير مقمطين. وانما ساغ لهن ان يقلن ذلك لان اطفالهن يتمتعون بتمام الحرية في حركاتهم لانهن يلبسنهم ثوباً طويلا من الصوف اللين (فانيلا) فيكونون فيه مالكي أنفسهم على قدر مالهم من القوى الصغيرة في تلك السن واني والحق أقول معجبة بهذه العادة لاني كثيراً ما ساءني رؤية الاطفال يربطون وتحصر اجسامهم في لفائف تضم اطرافها بالدبابيس فيكونون كجثث محنطة لفت بشرائط من الكولان[2] .

الأطباء الانكليز كافة يمقتون ما يجعل في اثواب الاطفال من

---

(١) البريتونيون هم سكان بريطانيا وهي أحد اقاليم فرنسا (٢) الكولان نبت البردي

الحبال التي يعتمدون عليها في دبيبهم وما يتخذ لهم من الدراجات الخيزورية [1] والآلات المتدحرجة لاجل مساعدتهم على الدرجان ويؤكدون ان استعمالها مما يؤدي الى تشوه صدر الطفل واعوجاج ساقيه بما يستلزمه ذلك الاستعمال من وقوع ثقل الجسم كله على العقبين .

بل الدكتور وارنجتون قد بالغ في الامر حتى قال بوجوب تعويد الطفل من نعومة اظفاره على ان تكون أعماله كلها عن قصد وعزيمة ولهذا يجب ترك اقامته وتمشيته بالآلات الصناعية حال عجزه عن ذلك بنفسه لان فيه اضلالا له في فهم مقدار قواه فانه حينئذ يتوهم انه يدرج بنفسه والدارج في الحقيقة هي تلك الآلات التي يعتمد عليها وهو وهم يصحبه طول حياته ويظهر أثره في عامة شؤونه .

يتعلم الاطفال هنا الحركة والانتقال بأنفسهم فانهم يتركون وشأنهم في التحرك فيتدحرجون ويحبون على بساط يفرش لهم وينالون من القوة تدريجا ما يمكنهم من الوقوف ثم يخاطرون بأنفسهم فيخطون خطوات مستعينين فيها بالاعتماد على ما يكون قريبا منهم من أثاث المكان فاذا اضطربوا لضعفهم تلقتهم أذرعة أمهاتهم فتمنعهم من الوقوع .

هذه الطريقة التي هي سنة الله في خلقه وليست سوى التخلية بين الطفل وعمله هي أكثر انتشاراً في أمريكا منها هنا فقد سمعت بمناسبة الكلام فيها ان سائحا انكليزيا صادف يوما وهو في الولايات المتحدة بأمريكا صبيا في الثانية أو الثالثة من عمره يزحف بيديه ورجليه

(1) الخيزورية المصنوعة من الخيزور وهو الخيزران

على حرف قنطرة مدعثرة يتدفق من تحتها سيل صخب فارتاع لقحوم هذا الحدث المتهور في الخطر فاسرع في التماس والدته فاصابها جالسة مطمئنة على حافة مجرى هذا السيل نفسه تغسل ثيابا فمثل لها مارآه من حالة ولدها وهو فزع متخوف عليه الهلاك فما كان جوابها الا ان قالت غير مدهوشة ولا منزعجة « ان الصبي معتاد على العناية بنفسه ووقايتها واني اذا عدوت اليه لابعاده عن مظنة التهلكة مظهرة له الجزع والهلع كان ذلك ولا شك مذهبا لرشاده مضيعا لسداده » فلما سمع السائح الاجنبي منها هذا القول اقتصر علي مراقبة الطفل لينظر ماذا يكون من أمره فرآه قد مكنه ما بذله من قواه من تنكب طريق الهلاك ٠

انا ان سيقت لي الدنيا بحذافيرها على ان أرى صبيا لي في هذه الحالة ما رضيت ولكن تلك المرأة لم تخطئ خطأ بينا في تعريضها ولدها للخطر على ما رأيت كما قد يسبق الى الذهن بل هي قد فهمت فروض الامومة الحقيقية أحسن مما فهمناها فان هـذه الطريقة في سياسة الاحداث من بداية نشأتهم هي سبب ما نراه في سكان أمريكا الشمالية من ميلهم الى المخاطرة وشغفهم بالاستقلال ٠

الوالدات الانكليزيات كافة يتمنعن من تغطية رؤس اطفالهن ولا يقبلن ان يضعن عليها القبعات المحشوة بالوبر التي هي تيجان الضعف ٠ نعم انه قد يعترض عليهن بما في ذلك من تعريض الاطفال للخطر لما يتوقع من سقوطهم ولكنهن يدفعن هذا الاعتراض أولا بأن رعايتهن لهم واهتمامهن بأمرهم يقومان مقام الوسائل التي تتخذ عادة لوقايتهم وثانيا بأن الطفل كلما شعر بقلة أسباب الوقاية من جانب الغير زاد احتراسه وتوقيه

فيلزم ان يربي فيه من صغره خلق الاستقلال بحماية نفسه والدفاع عنها لا ان يعول في حفظه على بعض طرق احتياطية لا تغني عنه شيئا وهي دائما مبنية على الوهم والخطأ قلّ ذلك أو كثر. اذا شاهدت الطفل الانكليزي وهو مكشوف الرأس والذراعين والساقين خلته هرقلا [1] صغيراً وان كان لا يخنق الافاعي لانقطاع دابرها من جزيرته ولكن قد بدت عليه مخايل الجسارة وسمات الجراءة والاقدام. من أجل هذا كان لا يوجد دم اغزر مادة من دم الانكليز ولا نسل أقوى من نسلهم واجسامهم مبرأة من العاهات فهي عندهم في غاية الندرة ولا اخالك تصدقني اذا قلت اني الى الآن لم يقع بصري على احدب منهم وفي رأيي ان جمال النسل حجة قائمة تنطق بأفصح لسان مؤيدة مذهب الحرية الذي جرى عليه جيراننا في طريقة تربية أولادهم

المهد المذبذب الذي هو من لوازم الاطفال عندنا قليل الاستعمال جدا فيما وراء بوغاز المانش (اي في بلاد الانكليز) وانما يوجد للاطفال سرر كثيرة ليست من الأراجيح التي تهتز باليد كالتي عندنا فالانكليز عامة يسترذلون عادة هز الاطفال ويقولون انها ذريعة الى تعويدهم على ان لا يناموا الا بوسائل صناعية . تعلمهم هذه العادة ان يلتمسوا راحة ابدانهم عند غيرهم على حين أنه يلزمهم ان لا يطلبوها الا من انفسهم ومن الفطرة التي فطرهم الله عليها . نحن لا نهتم بما ينشأ عن اتخاذ تلك الوسائل الباطلة الموافقة لرغائب اطفالنا من

(١) هرقل هو ابن المشتري على ما في أساطير اليونان وهو من أشهر الشجعان طار صيته باعماله التي منها خنق الافاعي

الآثار السيئة في طباعهم ولا نطيل النظر في ذلك . الطفل قبل تمييزه وتمايز أنواع الوجدان فيه يكون في فطرته من الاحتيال ما يمكنه من الانتفاع بضعفه وتسامح من يكتنفونه فكم من اناس انقضى دور طفوليتهم وهم لا يزالون في حاجة الى الاهتزاز طول حياتهم . فلا تعرف لهم نوما ولا يقظة بل ترام في غفلة عن انفسهم تحركهم عوامل العالم الخارجي فيرون في احلامهم وخيالاتهم انهم يهتزون وكان الاولى ان تصيح بهم الشهامة ليهبوا من رقادهم ويشمروا عن ساعد الجد للعمل والمغالبة في ميدان الحياة.

أخشى ان يكون كل كلامي هذا قريب الشبه بالوعظ الديني على اني لم آت به من تلقاء نفسي بل سمعته بما يقرب من عبارتي من قابلة وقور صديقة للسيدة وارنجتون مشهورة هنا بان قولها حجة في فن التربية فان التربية في انكلترا هي اول علم يتلقاه النساء .

اخال الولدان في انكلترا أقل بكاء منهم عندنا ولست واهمة في ذلك فان بكاء الطفل انما يكون لتألمه من عارض يلم به وان مامنحه هنا من الحرية وما حيط به من ضروب العناية الصحية وما سن له من قانون الغذاء يساعد على حفظ صحته ونموها ولا بدع في ذلك فانه اذا كان للانكليز عناية كبرى بترقية نسل العجماوات حتى لا تجد أجمل من خيلهم ولا احسن من كلابهم فكيف مع هذا يظن انهم يغفلون تربية الآدمي الجسمانية .

الوالدات الانكليزيات في الجملة يرضعن أولادهن بأنفسهن متأسيات في ذلك بملكتهن ومن هنا كان لفظ المرضع عندهن لا يؤدي المعنى الذي وضع له عندنا فلا يراد به الا المرأة التي تقوم على الولد في تربيته

فالمراضع عند جيراننا ينقسمن الى قسمين متمايزين كل التمايز . أولهما الحاضنات ويسمين عندهم بالمراضع الجافات ثانيهما المراضع الحقيقيات ويوصفن بذوات البلال [1] الا أن هؤلاء أقل عددا ممن عندنا ولا يرجع اليهن الا عند الضرورة الملجئة حيث تكون الام في غاية العجز عن ارضاع ولدها بل كثير من الانكليزيات يفضلن إلقام ولدانهن زجاجات اللبن على إلقامهن أثداء الاظآر (المراضع المستأجرات) وانهن ليوسعننا لوما على تفريطنا فى هذا الامر ولا اخالهن الا محقات في ذلك فكم من الفرنسيات المترفات من يكلن ارضاع ولدانهن الذين كان يجب ان يكونوا أعز شيء عليهن في هذا العالم الى نساء من أهل القرى جافيات الطباع قذرات الابدان لا يرضينهن مساعدات لهن فى التزين والتحلي .

النظافة عند الانكليز هي فى حق الاطفال اساس تدبير الصحة وهى عامة فى كل الطبقات حتى الفقراء فانهم يغسلون أولادهم فى كل صباح .

يشدد الاطباء هنا النكير كما يفعله رصفاؤهم فى البلاد الاخرى على لبس النساء الغلائل المحزوقة (الضيقة الضاغطة) فلا يصغي لهم أحد فالصينيات يتلفن اقدامهن بالنعال الضيقة ونحن نتلف قدودنا بهذه الغلائل المحزوقة جاريات فيه على ما حكمت به العادة فراراً من السمن وبروز البطن عند الحبل على أنه يجب الاعتراف بأن الانكليزيات أقل منا عناية باخفاء حبلهن بل هن يفتخرن به فقد شبهت احداهن المرأة الحبلى بالشجرة المثمرة فقالت «مثل المرأة في سبيل انشاء الاسرة كمثل الشجرة تحمل ثمرتها» .

---

(1) البلال بكسر الباء ما يبل به الحلق من الماء أو اللبن .

الا تذكر أنثاي أيام الهناء الخالية لما كنا نتمشى في متنزه التويليريا [1] أو في حديقة لوكسمبورج [2] كثيراً ما تألمنا لرؤية أولئك الاحداث شهداء البدعة الذين يخرجهم اصولهم متبرجين بالزينة فتلبسهم حاضناتهم ثيابهم وزينتهم من القدمين الي الرأس قبل خروجهم ويكون من وراء ذلك ان الطفل الحسن البزة لا يعتبر طفلا ولا يكون المقصود من اخراجه تسليته وترويح نفسه بل تحصيل اللذة لغيره فاذا أولع بالبحث في الارض بيديه أو جرى في مهب الريح فعبثت بتناسق ذوائب شعره الجعد الجميل وبخ وعنف على انه وسخ نفسه ولم يمتثل ما أمر به من السكون فكأن ذويه لا يرومون تنزيهه وانما يريدون عرضه على الانظار فليس الذي يقصد أولا وبالذات من تلك النزه هو إمتاع الطفل بحرارة الشمس وهواء الفضاء اللذين يقويان صحته وينميان اعضاءه بما يكون معهما من الرياضة والحركة بل المقصود منها هو اتخاذه ألعوبة انيقة يطأ من بهاؤها ورونقها من نخوة الامهات الاخريات ويكسر من زهوهن فاذا رأت الام بُنَيَّتها ترفل في ثوب من الخزمزين بالطراز المثقب (التانتلا) قالت في نفسها مغتبطة لورأتها السيدة فلانة أو السيدة فلانة لانشقت مرارتها غيرة وكمدا . الى هنا امسك عنان القلم عن الاسترسال في هذا الموضوع فاني صرت عيابة على ما يظهر لي .

---

(١) سراي التويليريا قصر كان مقراً لملوك فرنسا في باريس وكان بناؤه من أجل الملكة كاترينه مديتسيس والذي ابتدأ بناءه هو المهندس فيليبر دولورم وأتمه من بعد المهندسان جان لولان ولوفو واحرق في مايو سنة ١٨٧١ في عهد حكومة الشعب ثم جدد (٢) لوكسمبورج قصر في باريس بنى لماريه ومديسيس في مدة خمس سنين من سنة ١٦١٥ الي سنة ١٦٢٠ والذي بناه المهندس يعقوب دوبروس

النساء الانكليزيات يجملن أولادهن أيضاً بفاخر الثياب ويخرجن بهم الى المتنزهات بل هن يبالغن في ذلك احيانا فيصلن الى حد الافراط غير ان هذا لا يكون الا في ايام الآحاد واما الاطفال الذين ينشأون في القرى فيندران يأنسوا من انفسهم الحاجة الى الخروج طول الاسبوع لان القائمين عليهم يخلون بينهم وبين اللعب في حديقة البيت والمرح في حر الشمس وعلى البنات منهم دروع قصيرة وعلى البنين قمصان خفيفة من الصوف ولا يبيحون لانفسهم التعرض لهم في ألاعيبهم واما نحن فيحملنا هوسنا بتدبير كل شيء وادارته الى التداخل في تنزه الاطفال واستراحتهم بسياستهم في ذلك وضبطهم بقواعد لا يتعدونها ٠

لم يغب عن ذاكرتك اننا كنا يوما في قاعة السيدة ٠٠٠٠ جالسين معها فدخل علينا ولدها الكبير وهو صبي كان وقتئذ في الرابعة أو الخامسة من عمره تلوح عليه سمات السماجة والتفت الى والدته فسألها قائلا : أماه ماذا ينبغي ان افعل لاتسلى واروّح نفسي ؟ لا ازال اتذكر اندهاشك لهذا السؤال وما جرى من المزاح والضحك بيننا بسببه ٠ على ان هذا الصبي المسكين كان له حاضنة تنقد اجرة كبيرة جداً ولذلك احيل عليها لتسليه وكان يظهر من حالها انها في غاية الضجر من عملها ٠

في بعض الأُسر الانكليزية أيضا حاضنات الا ان الذي عرفته بالمشاهدة من أمرهن انهن يسسن رعيتهن الصغرى كما تسوس ملكة انكلترا رعاياها اعني بذلك انه لا يكاد يكون لهن سلطان عليها خصوصا فيما يتعلق بأنواع اللعب وضروب التسلي ٠ يستدل جيراننا على وجوب اطلاق الحرية للاطفال في ألاعيبهم بادلة سديدة على ما اعتقد فيقولون

ان الكبار في اشتراكهم مع جماعة الاحداث الفرحين المرحين في تلك الألاعيب يرجعون دائما الى أذواق انفسهم اكثر من رجوعهم الى أذواق أولئك الاحداث فيغفلون بذلك اعتبار رأيهم في مسألة لامرية في ان موضوعها القيام لهم بحقوقهم وليست هذه الحقوق من الكثرة بحث يسلم المطالب بها من وخز وجدانه اذا هو هضم منها شيأ . ولهم حجة أقوى من هذه وهي ان حرمان الاطفال من الاختيار يميت فيهم روح الافتطاز (الابتداع والانشاء) والانبعاث النفسي الى العمل فاننا به نمحو آثار نوع ميلهم الفطري ونقيم ميلنا مقامه فهل هذا هو الوسيلة الى تربية طباعهم ؟ الطفل اذا كان نشيطا صحيح الجسم سهل عليه ان يستقل بنفسه في التنزه والترويح فاذا جرى على ذلك اعتاد ان لا يكون تابعا لغيره في لعبه ومرحه . الم تكن عادة عدم الاستقلال عند الاطفال فيما ذكر هي سبب ما كان يعتور اولئك الملوك الغابرين من الكدر والضجر فيضطرهم الى ان يجعلوا في حاشيتهم من المجانين من يضحكهم

يبدو لمن يدخل بيتا انكليزيا لأول وهلة خصوصا اذا كان مثلي لا يزال متأثرا بالافكار الفرنسية ان ما بين أهله من العلائق والمعاملات عليه سمة الفتور والاحتشام فيرى الوالدين فيه اقل تعلقا لاولادهم وارغب عن ملاطفتهم منها عندنا وكذلك يرى الاولاد اقل انسا بالاجانب ومباسطة لهم وكلامي هذا انما هو على جملتهم فلا ينافي ان يكون فيهم من هو على غير هذه الصفة وان أردت ان تعرف ان كان هذا الظاهر من فتور العلائق وتراخيها منشأه طبع الامة الغريزي أو انه مقصود جزئيا

(١) المجانون بتشديد الجيم جمع مجان وهو كثير المجون

على مقتضى مذهب أو قاعدة في التربية . اليك رجع صدى محاورتي في هذا الموضوع مع القابلة الجليلة صاحبة الفضل عليّ خصوصا في الارشاد والتعليم : قالت ان الانكليز يجتنبون اظهار كثير من الملاطفة والمراعاة لاولادهم حتى لا يكون عليهم للمزاعم السخيفة سبيل واما نحن فان الطفل عندنا يعامل مع الارتياح معاملة المرأة فكلاهما يعوّد ان يحب أكثر مما يجب . هذا النوع من المعاملة ينتج الغنجات من النساء والعارمين (١) والعوارم من الاطفال. المحبة تدعو الى المحبة واما أنواع التملق والمخادعة فانها تنمي جراثيم الاثرة والزهو فالطفل الذي يتزلف اليه والداه كما يتزلف الناس الى العظماء لنيل الحظوة لديهم—وهذا هو شأنهما معه في الغالب— لا يلبث ان ينتهي به الامر الى اعتقاد ان الناس مدينون له بكل شيء وانه ليس مديناً لاحد منهم بشيء .

هذا ما بدا لي من الملاحظات نصصته لك على علاته موقنة بأنه سينال حظا من اطلاعك وبحثك وماذا أزيدك عليه ؟ لم يبق عندي ما اتحفك به سوى ان مثالك العزيز لا يفارق خيالي وحبك الراسخ لا يزايل قلبي . رتبت بيتي بجملته لسكنى اثنين كما لو كنت ستحل به غدا ونظمت مكتبك أيضا فجعلت ما فيه من الكتب والاوراق كلا في موضعه وهو الآن مشوق اليك فعسى ان لا يطول عهد خلوه منك . هذا أمل أرجو ان لا أحرم منه فانه لولاه لقضى علي الفراق وقد علقت رسمك في مطعمنا الصغير ففي ساعات الاكل اجلس للمائدة مواجهة له فأرى لصورتك

(١) العارمون جمع عارم وهو الفاسد الشرس والعوارم جمع عارمة

فيه نوعا من الحياة ويخيل لي حينئذ اني انغذى معك وجها لوجه كما كنا أيام القرب والصفاء . ما أولعني بالنظر الى هذه الصورة فلابد ان ولدنا سيأتي مشابها لك والسلام في الختام

حاشية — أسألك على ذكر هذا الولد ماذا تريد ان تسميه ؟ . اه

الرسالة الثامنة عشرة

﴿ من لراسم الى هيلانة في ٢١ ابريل سنة — ١٨٥ ﴾

موافقته لها في انتقادها التربية عند الفرنسيس

قد أصبت أيتها العزيزة هيلانة في انتقادك طريقتنا في سياسة الاطفال فانها جديرة بالاستهزاء والسخرية ولكن يالها من طريقة تلائم اخلاقنا واوضاعنا السياسية ملاءمة عجيبة فلا افراط في التضييق على الطفل وحصره في لفائفه اذا كان حظه في مستقبله ان يقمط ويشد بجميع أنواع القوانين والاوامر واما حبال الملابس التي نمسك بها عند المشي فلا تعوزنا وعندنا منها مايناسب جميع الاعمار لانه قد يجوز ان لانحسن المشية فتلزمنا تلك الحبال ان نمشي على صراط مستقيم وان نمضي الى حيث يريد من يقودنا . ان القائمين علينا في تربيتنا ليسلبوننا من أول نشأتنا كل ماأودع فينا من حسن الظن بانفسنا وثقتنا بها فما اعقلهم وابعدهم نظرا في العواقب !! هذا يعلمنا ان نكون في جميع امورنا تابعين لغيرنا معتمدين عليه في حفظنا ووقايتنا فاننا بتعويد الناشئين ان يقادوا في درجاتهم ويهزوا في مهودهم ويساسوا ويراقبوا في جميع حركاتهم وسكناتهم

تؤهلهم لان يعيشوا في مستقبل حياتهم باعين الشرطة وتحت سيطرتها فما أجملها طريقة تتسلسل اجزاؤها !! التسلسل هو احسن لفظ وجدته للتعبير عن اتصال غاياتها بمبادئها ٠

وان ما ذكرته لي من الطريقة التي يجري عليها الانكليز في تربية أولادهم قد أسفر لي عن وجه الحكمة في حسن أحوال انكلترا وابان لى انه لا سبب لوجود ما لها من الاوضاع والقوانين الحرة الا ما تتخذه من الطرق في تربية ابنائها على مبادئ الحرية والاختيار ٠ نحن في فرنسا نفرط في تعليق آمالنا بالحوادث ونفرط في الاعتماد على ما اوتيناه من القوى فماذا أقول في وصفنا غير اننا لسنا فرنسيسا بل نحن يهود لاننا دائما على رجاء من نزول المسيح في صورة حاكم يرفع قواعد العدل ويخلص الناس من عوادي الجور ٠

ولست اقصد بهذا الكلام ان أنكر قيمة ما تناوب حكومتنا من التغير في صورها وما نتج من ذلك من المزايا فان هذا بعيد عن فكري لاني لو كنت ممن لا يعبأون بالشؤون السياسية لما وُجدت حيثُ أنا الآن ٠ على اني قد وصلت بعد طول النظر ومخض الرأي في ذلك التغير الى اعتقاد ان ملك الحرية لا قرار له الا في نفوسنا وأننا اذا أردنا تمكين دعائمه في الامة وجب علينا أولا ان نؤسس أصوله في قلوبنا ٠ اه

الرسالة التاسعة عشرة

من اراسم الى هيلانة في اول مايو سنة — ١٨٥

تسمية المولود وانتقاد طريقة التربية في فرنسا وتوصية زوجته بعدم اتباعها في حق ولده

تسألينني في خاتمة مكتوبك عما نسمي به ولدنا . نسميه «اميل» اذا جاء ذكراً إحياء لذكر هذا الكتاب[1] الذي كنت أقرأه لك في مطالعتنا الليلية فكان في نفسك مبعث الطرب والاعجاب حتى اني كنت أكف عن القراءة حينا بعد حين لأشاهد وجهك في ضوء المصباح فاتبين فيه ذلك وياله من عهد تحفظه ذاكرتي لتلك الايام السعيدة .

من البدع التي جرت بها ألسنة الاكياس[2] من الناس منذ حين سبهم جان جاك روسو واحتقارهم اياه فويل لهم مما يرمون به قبر ذلك الكاتب العظيم من نبال اللعن والقدح وانهم لجديرون بالرثاء لعقولهم. لم يكن ذنب ذلك الرجل الكبير سوى انه خالف سنة اهل النظر في عصره وهي اعتمادهم في اصلاح المجتمع الانساني على الرجال ومخاطبتهم اياهم فيه بان وجه خطابه الى الوالدات والاطفال وهو امر هداه اليه مافطر عليه من جودة الطبع وذكاء القريحة على انا لو جردنا كتاب «اميل» مما فيه من العبارات الفصيحة التي امتلأت بها صحفه والشتائم الشديدة المنبعثة عن وجدان كبر عليه احتمال الضيم والهوان ومن الحماسة في نصرة الفضيلة

(١) يعني بالكتاب كتاب جان جاك روسو في التربية المعنون «بأميل القرن الثامن عشر» (٢) الاكياس جمع كيس بتشديد الياء وهو الظريف حسن العقل

والاتصالات الشريفة التي كانت تعرو مؤلفه المؤمن بالله دون وحيه لانبيائه عند نظره في بدائع الصنع ومحاسن الكون — لوجردنا الكتاب من كل ذلك لوجدنا بقية ماقاله المؤلف في الطريقة التي أراد وضعها للتربية ترجع الى هذه القاعدة وهي السير على مقتضى الفطرة ومعاملة الاطفال معاملة العقلاء . ولو انا سلمنا له مايقول لرأينا أن اتباع الفطرة في كل ماتدعو اليه يفضي بالطفل الى حالة التوحش والهمجية . نعم ان ذلك كان منتهى الكمال في التربية على رأي هذا الحكيم وانه على عدم ايمانه بالوحي كان يعتقد بوجود الكمال في أصل الفطرة من غير طريق الوحي وأما كلامه في معاملة العقلاء ومخاطبة عقولهم فلاشك انه جدير بان تصاغ له من أجله اجمل عبارات المدح تنويها بفضله ولا بدع في ان عرف له القرن الثامن عشر قدره بعد انكاره فاقام له من الآثار ماخلد ذكره واحيا اسمه . غير ان العقل من دون جميع قوى الانسان هو الذي يكون في طور الطفولية أقلها نموا فكيف إذن يعتمد على هذه القوة الكامنة في ايصال معنى الخير الى نفس الطفل .

لروسو فوق ذلك أغاليط أخرى كان يعتقد صحتها وكان من شأنها ان تعوقنا عن الارتقاء في أخلاقنا واوضا عنا منها اعتقاده بوجوب الامتثال للجمهور الاغلب من السلطة المطلقة فانا نجده في كتابه المسمى بالعقد الاجتماعي قد انتصر للحكومة فيما تدعيه لنفسها من حق تربية الأمة بما أقامه عليه من البراهين .

وان أردت ان أبين لك كيف خدم روسو الاطفال خاصة بما نشره في كتبه من الانتصار لهم والدفاع عن حقوقهم قلت ان ذلك انما كان بما ألقته تلك الكتب في نفوس الفرنسيس من بذور الثورة وهيأتها به لها .

لم يقدر الناس ما نشأ عن هذه الحادثة الكبرى في نظام البيت من ضروب التغير حق قدره فانها قد خففت من ثقل الولاية الابوية تخفيفا عجيبا على غير علم من الناس جميعا لان المؤرخين قلما يلتفتون الى ما يحصل في البيوت من تهذيب الاخلاق وصلاح العادات فلم يكد رجال الثورتين اللتين حدثتا في سنتي ١٧٨٩ و ١٧٩٢ يدركون ما كان يعتور تلك الاخلاق والعادات البيتية من الاستحالة على قربها منهم وسهولة ملاحظتها عليهم. ذلك لانه ليس في وسع أحد ان يلاحظ أعمال جميع الناس فاذا أريد الوقوف على أثر انواع هذه الاستحالة وصنوف ذلك التغير وجب الرجوع الى ما كتب من السير في أواخر القرن السابع عشر أو في أوائل القرن الثامن عشر. هنا لك يرى ما كان بين الزوج وزوجته والوالدة وأولادها من التكلف في العشرة والمقاسحة [1] والمجافاة في المعاملة نعم ان قولي هذا خاص باهل البيوتات لاننا لا نعلم شيأ من أحوال الطبقات الاخرى لكن هؤلاء لا بد انهم كانوا يحتذون مثال سراة الامة وزعماء الدولة .

كان البيت في ذلك العهد مؤسسا على أحدى الوصايا العشر التي وصى الله (سبحانه) بها موسى (عليه السلام) وهي « اكرم أباك وامك » فلم يوص موسى أبدا بحبهما .

وكانت الزوجة في الغالب تدعو زوجها سيدا وهو يدعوها سيدة فكان تخاطبهما باسميهما مع كونه هو لذة العشرة والاختلاط لا يكاد يقع منهما في حضرة الاجانب. فالثورة هي التي ادخلت في البيوت عادة التخاطب بضمير المفرد وسوت بين الولد البكر ومن يتلونه من اخوته في الحقوق

(١) المقاسحة المباينة أي المعاملة بالشدة

فاجتثت بذلك أصول التباين والاختلاف وأعلت من شأن المرأة ورفعت من قدرها كما وثقت ما يربطها بالرجل من عقدة النكاح واصبح البيت بحكم الشؤون ومجرى الحوادث مرجعا لاصداء المحاورات والمناقشات في المصالح العامة وصار صوت الرجل وزوجته في محادثتها اخلص وأشد مما كان قبل وكان للكنيسة في الطفل من الحقوق الى وقت قيام الثورة في سنة ١٧٨٩ أ كثر مما كان لاهله فيه فان البيت كان قد استمار من الدير ما فيه من صلابة المعاملة الباردة بسبب ان الوالدة في الغالب كانت تربى فيه . لا أعني بذلك ان الأم ما كانت تحب أولادها قبل الثورة وأعوذ بالله ان يخطر هذا بفكري ولكني مع اعتقادي حبها اياهم اعتقد اعتقاداً ثابتاً ان الثورة قد ساعدت على تخليص محبات القلوب من قيود التكلف فكما ان منشأ جميع الحركات العظمى للارض هو ما في باطنها من النار كذلك منشأ حوادث الانسان الكبرى هو ما في قلبه من الحب.

ذلك شأن الانسان في جميع الازمان فمن حياته في الهند حيث كان الطفل لا يعتبر الا برعوماً [1] من نبات قبيلته وفي رومية التي كان الوالد فيها يملك على ولده حق حياته وموته الى ان صار الى هذه المجتمعات الحديثة التي كاد يكون للطفل فيها وجود مستقل قد رقي البيت في اطوار وجوده الاصلية جميع معارج الحرية فلا بد في تغيير شكل الحكومة واصلاحها من تغيير معنى الابوة أيضاً ورده الى حده .

أطول جميع الثورات بقاء وأخلدها أثراً هي التي كان لها من الزمن ما استحوذت فيه على عقول الناشئين فالاصلاح الديني مثلاً وهو مذهب

(١) البرعوم هو الزهر قبل تفتحه

البروتستانت لا يزال حيا في ألمانيا وسويسرة وهولاندة وانكلترا الان رجاله في هذه البلدان وفي غيرها أسعدهم الحظ بتأسيس مدارس فيها لتربية الاحداث على أصولهم وعقائدهم. واما الثورة الفرنسية فان رجالها على العكس من ذلك لم يجدوا فترة من الزمن لتنفيذ مقاصدهم لانهم كانوا قد اخطوا على عجل ـ وان شئت فقل وهم في مهب رياح الفتنة ـ خطة مثلى للتعليم العام غير ان اعاصير الحوادث دافعتهم عنها فحيل بينهم وبين ما كانوا يقصدون.

ولما وضعت الطريقة التي نجري عليها الآن في التربية كانت نيران الفتنة قد خمدت ومراجل العصيان قد سكنت فعهد الى رجال الحكومة النيابية ـ الذين حكموا على الثائرين من رصفائهم بالقتل حكم شيشيرون[1] على كاتيلينا[2] واشياعه ـ بتجديد ما اندثر من التعاليم القديمة فما لبثت هذه التعاليم ان فاضت منها على الناس اصول الحكومة الفردية اي حكومة الاستبداد واصبحت القوة الحاكمة هي مدير المدرسة والاستاذ الاكبر لتعليم الدين ورئيس الجند الاكبر والشارع الاكبر بل الكل الاكبر الذي انحصرت فيه جميع الولايات ورجا الناس من هذا الاله الذي هو من صنعهم ان يضيء عقول الامة وان يصنع لهم علماء وانصاف علماء فصار التعليم الابتدائي والثانوي بل صارت جميع درجات التعليم محوطة بسياج حصين من

---

(١) شيشيرون هو مرقوس طوليوس شيشيرون أشهر خطباء الرومان ولد سنة ١٠٧ وتوفى سنة ٤٣ قبل المسيح وعين حاكماً في سنة ٦٣ وأخمد ثورة كاتيلينا والحرب التي قامت بين پومبيه وقيصر (٢) كاتيلينا شريف من أشراف رومية كان جمع حزباً وثار به على مجلس الشيوخ وعلى رومة فقهره شيشيرون

القوانين . معاذ الله ان اكون آسفا على ما أراه من انتشار العلوم وعموم المعارف ولكني ضعيف اليقين بتأثير عمل الحكومة اذا كان الغرض من التعليم هو تربية رجال احرار فانها ما وضعت لذلك . فان لاعضاء المجتمع الانساني كما لاعضاء الاجسام أعمالا لا يمكن تغييرها بمجرد توجيه العزيمة الى ذلك . سمعت غير مرة ان الجهل كان العقبة الكبرى في طريق كمال الحرية وأنا موقن بصحة هذه القضية وسمعت أيضا ممن قالوها ان الحكومة قد قررت ان يكون التعليم مجانا والزاميا وستكون الاحوال حينئذ على مايرام وأنا لاأصدق هذا وأضرب الصين مثلا لاولئك الذين يرون دواليب التعليم التي تديرها يد الحكومة وسيلة لتحرير العقول. يكاد كل رجل فى تلك المملكة يعرف القراءة والكتابة ففيها من المدارس الابتدائية والثانوية وطرق الامتحان ما يفوق الحصر والصينيون هم الذين اخترعوا فن الطباعة وهو اكثر الفنون اليدوية أثرا فى قلب شؤون العالم وذلك قبل ان يعرف في اوربا بخمسمائة عام وانت تعلم نتيجة ذلك مثلي. لم يكن من التعليم الذي كانت الاساتذة تفيضه على الناس الا انه اتقن تحجير الاوضاع الاجتماعية وجعلها اصلب مما كانت .

كذلك يكون الشأن عند جميع الامم التى يكون الغرض من التربية فيها ايجاد رعايا للحكومة في القالب الذي تريده ولو شئت لذكرت أمة اوروبية ليس بينها وبين الصين من هذه الجهة كبير فرق فان التعليم الابتدائي يثبت كل يوم في نفوس الاطفال خلق الانقياد الاعمى بسبب تداخل السلطتين الدينية والسياسية فيه . فالمعلم في هذه الحالة هو بطانة الحاكم

النائم فعلى هذا لا غرابة مطلقا في ان دينيس [1] لما خلع من الملك تولى ادارة مدرسة .

من الخطأ ان يعتقد معتقد ان الحكومات المطلقة تكره تقدم سير التعليم العام وتمانيه عن قصد فما الذي تخشاه منه وليس هو الا جملة انواع من العرفان هي تحررها وتصورها كيفما شاءت ؟ أليس بيدها مقاليد هذه الجملة ؟ اليست طرق التعليم التي تقرّ عليها وهي المتبعة دون غيرها هي أحسن ما وجدته لتمكين أصل الرضوخ للقوة الحاكمة في نفوس المتعلمين ؟ ان اخوف ما أخافه على الامة من المخازي المهينة التي تشين شرفها هي العبودية في الاختيار . فان الاصفاد التي تقيد الرقيق قد تسقط بمقاومة قليلة (والتاريخ يروي لنا فى ذلك اكثر من مثل) وأما ما يتزيا به حواشي الامراء وخدمهم من الملابس الرسمية فما أطول بقاءه على ابدانهم !! اذا تعلمت الامة بالتربية الفاسدة الطاعة والانقياد وكان الباعث لها عليهما المنفعة أو الاثرة أو الوجدان كان ذلك كل ما يطلبه منها مربيها .

ان مذهب القائلين بوجوب توسط الحكومة فى التعليم مؤسس كله على أمور الاعتقاد التقليدي وعلى ان السلف كانوا يأتمرون بأوامر مدير المدرسة أو رئيس القرية كما نقل الينا ذلك فى آثارهم فلا يطالب أصحاب هذا المذهب من يعلمونهم من الاطفال بالاستقلال فى الفكر والعمل وانما يحملونهم على العمل بما يقال لهم فتكون قلوب الاطفال بأيدي معلميهم مادة لينة يتخذون منها للحكومة رعية نافعة مطيعة واذا كانت هذه

---

(١) دينيس هو حاكم جائر غاشم كان في سيراكوز فطرده منها ديون ثم تيملون ومات وهو مدير مدرسة قورنتة سنة ٣٤٣ ق . م .

هي غايتهم التي يرمون اليها فهم لا يالون بما عداها بل احب شيء اليهم ان تصير المدرسة بهذه الطريقة مربي يتخرج فيه أوساط الناس فان الأمة تصير بذلك اسلس للوازع قيادا واخفض جناحا .

لا يشك أحد في ان معاهد التعليم عندنا يرأسها كثير من الرجال العارفين الاحرار وللجامعة فوق ذلك مزية نادرة الوجود في رأي اهل النظر وهي أنه لما كانت الثورة الفرنسيّة هي الاصل في وجود القسم الاكبر منها كان من المتعسر ان تحول عن مبادئها وأصولها مهما تغيرت عليها الاحوال وتبدلت الشؤون فهي المعقل الرفيع الذي يحمي الافكار والآراء الحديثة من اغارات مذاهب الكهنوت عليها ؟ وكل يوم تتخرج في مدارسنا الاختيارية وكلياتنا عقول سامية بل عقول حرة أيضاً . نعم ان للحكومات ان تسن ما شاءت من قوانين التعليم ولكن ليس في وسعها ان تبطل تأثير علم الحكمة والافكار التي ولدتها ثورة سنة ١٧٨٩ وغيرها من المؤثرات التي تعمل في نفوس الاحداث على الرغم من كل قانون ونظام ومن أجل هذا انا لا أعيب المدارس لذاتها وانما اعيب فيها مجموع طرق التعليم من حيث هو مؤسس على أوهامنا واخلاقنا وعوائدنا

التربية الخاصة عندنا هي أيضاً اقل قيمة من التربية العامة فإن الوليد عند ما يسلك سبيل الحياة لا يتوجه قصدنا الا الى الزامه الجري على مألوف العادة وما يلقى في ذهنه من المعارف كله تجريبي ولم يفكر أحد منا حتى الآن في جعله مساوقا لفطرة الانسان ومناسبا لها . اننا منذ نصف قرن تقريباً قد جددنا طرق تناول العلوم الرياضية والطبيعية وفنون الاقتصاد السياسي

والتاريخ والحكمة والادب والانتقاد وكل شيء الا ما يختص بتربية الاطفال على انها هي التي كان يجب البداءة بها في التغيير .

أول شيء أريد ان يحترم هو وجود الانسان حتى في ذات الطفل .

اني اذا اتفق لي سماع خطب علماء الاخلاق ورجال الحكومة في مذهب الاشتراكيين لم يعد يخامرني شك في ان هذا المذهب فاسد ممقوت مغاير للدين لما يقيمونه على ذلك من الحجج القوية والبراهين الصحيحة فانحاز اليهم لانهم حزب الاستقامة والصلاح. هذا ما يقال ولكني اذا دخلت مدارسنا الابتدائية أو الثانوية لا يسعني الا ان اعترف على الفور بان ما شيد لها من الابنية ووضع لتلامذتها من ضروب النظام وما فيها من توحد طرق التعليم واختلاط الدروس لم يوضع الا لحبس الجسم والعقل والتضييق عليهما فكما ان المصريين على ما يروى عنهم قد اخترعوا افرانا لطبخ الدجاج قد اكتشفنا افرانا لطبخ التلامذة على ان القوتين اللتين يعنى بانضاجهما فيهم أشدّ العناية على هذه الحرارة الصناعية وهما قوتا التقليد والذاكرة لا ريب في انهما أقل جميع القوى الانسانية كشفا عن حقيقة العقل واظهارا للملكات الصحيحة فكأن المعهود اليهم بالتربية والتعليم قصدوا أولا وبالذات ان يجعل كل رجل من أول نشأته شبيها بجميع الناس. ولست اعدم قائلا يقول ان ذلك هو من النتائج الضرورية لتطلعنا الى نظام الحكومة الجمهورية وتحققنا بأصوله فاجيبه ان هذا القول من الخبط والخلط الغريب فكيف يشبه توحد المعارف والملكات بالمساواة في الحقوق؟ الا يرى ان سكان الولايات المتحدة على كونهم اشد منا ايغالا في الاخذ بسنة النظام الجمهوري على العكس منا يزداد فيهم شعور الاستقلال بالوجود الذاتي

ــالذي هو أصل الحرية ــحياة وقوة فتظهر آثاره في أعمالهم ظهوراً جليا .

ان في وسع كل شاب لو صحت عزيمته ان يتعلم بنفسه من جديد مالم يكن اجاد تعلمه في المدرسة وهذا ما وقع لكل منا بعد خروجه منها ولكن من ذا الذي يفكه من اغلال العوائد التي تخلق بها في صغره ؟ وكيف يتسنى لهذا المنفلت من المدرسة ان يهتدي في مستقبله بمجرد ما اكتسبه من المعارف مع انه الى وقت مبارحته لها كان لا يستقل بعمل من أعماله بل كان يعملها جميعها باعين معاميه ؟ وما الحيلة في احياء قوة نفسه بعد ان انهكها التأديب المؤدي الى درجة البهيمية ؟ وما معنى الكلام على الزاجر النفسي اذا كان وجدان اليافع يسلب منه ويوضع بأيدي من يديرون شؤونه ؟ ذلك هو أخص ما أخشاه من أنواع الخطر . ومن العبث ان يتمثل هنا ببعض مشاهير الرجال الذين كانوا في زمن طفوليتهم في أشد المراقبة والحصر ولم يؤثر هذا في مستقبلهم شيأ فيقال ان فولتير[1] مثلا تربي في حجر اليسوعيين وتخرج جبارة الثورة التي حصلت سنة ١٧٨٩ على رجال الكهنوت لاني لا اتكلم هنا عن أفراد الرجال وشذاذهم وانما اقصد بكلامي جملة الامة وعامتها واسائل نفسي عما يحدثه مثل هذا النظام من الاثر في طباع أوساطها . كوني على يقين انه ليس من الميسور لكل واحد ان يجد ما يكفي من القوة لاسترجاع ما فقده من سلطانه على نفسه بعد ان ألقي لغيره زمام عزيمته .

قد لاقيت في الناس من جرى الاصطلاح بتسميتهم الشبان

---

(١) فولتير هو اروييت دوفولتير الشاعر الحكيم الفرنسي المولود سنة ١٦٩١ المتوفى سنة ١٧٧٨ بعد الميلاد .

العارفين فهل رأيت منهم كثيراً يمتازون بجراءة الجنان الحقيقية ؟ ألم تريهم يقاومون غالبا من وسائل الترقي وطرق الاصلاح ماعساه ان يذهب ببعض آمالهم ويسخرون به ميلا مع الأثرة وحبا للاختصاص ؟ الا تجدينهم أشد عداوة من جهلة العامة لبعض العلوم ؟ انهم ليؤمنون على السواء بكل ما قدسه مرور الزمن عليه وآراء الناس فيه غير مهتمين بالتمييز بين صحيحه وفاسده وحقه وباطله ومالهم ولهذا التمييز اذا كانت مهارتهم توصلهم الى مقاصدهم ؟ وهل هم في هذا العالم حتى يشتغلوا بمصالح غيرهم ؟ كلا بل هم قانعون بنقصهم الذي يظهرونه للناس في مظهر الكمال ويهزأون بما كان من جد الخائبين وإخلاص المخلصين وصدق نفوس الصادقين وهم لمافيهم من خفة الاحلام وكثرة المجون والغرور والترف يلتمسون في كل أمر وسيلة للانتفاع بحاضرهم ومع قلة مالهم من المعارف الصحيحة يظهرون في مظهر العارفين بكل شيء ولكون المجتمع الانساني حلبة سباق كبرى ترينهم يعملون فيها لمزاحمة غيرهم في الحصول على سُبقها أو على الالقاب التي تعطى عادة لمن يقاربون هذا السبق وفي هذه الحلبة الجديدة أيضا لا يعتد كثيرا بجدارة الجديرين ولا بأهلية المستحقين لان الجوائز تمنح بالمحاباة والأثرة والذين ينالونها هم أهل الدسائس والخداع فلا جرم إذن ان كدح المتعلمون من الشبان بعد تفصيهم من ربقة النظام المدرسي في دخولهم تحت ولاية الحكومة .

اذا صدقت قولي كان علينا ان لا نربي ولدنا على الطرق المتبعة وقد يكون عملنا فى ذلك أحسن من عمل غيرنا أو مثله في القبح الا أننا على كل حال نكون قد اتينا حقا مقدسا فان تربية الطفل منوطة بالبيت والاهل والعشيرة

قبل ان تناط بالمجتمع الانساني. ماهذه الكلمات التي قد جمح بها قلمي؟ قلت ان التربية منوطة بالبيت ولكن واأسفى على بيتنا فقد هدم. نعم ان عشنا الذي كنا لا بد ان نتناجى فيه بأحسن أمانينا ونسكنه أعزاما لنا قد ثارت عليه عواصف المحن فدمرته تدميرا ولكن لا بأس علينا من ذلك فسنعيد بناءه بروابط الحب فوق جو الفتن فأكون معك في هذا العمل بقلبي وأنت تسهرين وتنوبين عني في السهر على حراسة ذخرنا فاني قد استودعتك اياه والسلام. اه

الرسالة العشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٨ مايو سنة ١٨٥ — ﴾

وصية الدكتور وارنجتون لها بالرياضة البدنية والتنزه والبعد عما يثير الانفعالات وباجتلاء المناظر الرائعة

أتدري أيها العزيز اراسم أني فكرت كثيرا فيما ختمت به مكتوبك الاخير وورد على ذهني منه خاطر يجب علي قبل الافضاء اليك به ان أبين لك كيف ورد.

جاء الدكتور وارنجتون وأسرته الى هنا وأمضوا يومين فسن لي شبه قانون أجرى عليه في معيشتي بل هو الذي يتبعه معظم الانكليزيات الحوامل اللاتي يوصفن عادة بأنهن في حالة شاغلة. نصح لي بادامة الرياضة البدنية والتنزه ثم قال ما نصه «اياك والاقتراب مما تضر مطالعته من القصص التي

تتولد من قراءتها الانفعالات الشديدة الباطلة. كان اليونان اعقل منا لانهم كانوا يحيطون نساءهم في مدة الحمل بالتماثيل والصور الجميلة المنسوبة لمشاهير الاساتذة في فن التصوير واني وان كنت لا اجزم بان هـذا كان هو السبب في اتيان أولادهم حسان الخلقة أقول على كل حال اذا كان مثـل هذه التماثيل والصور وغيرها من الاشياء البديعة الصنع يحدث في نفوس ذوي الفطر السليمة من الناس شعور الارتياح والانبساط ويكون فيها مدعاة اعتدال الامزجة وتوافق الطبائع فلم لا يكون من موجبات حفظ الصحة. كثير من السيدات عندنا يغلب عليهن في طور الحمل الخمود وفتور القوى بسبب البطالة التي هي منشأ الامراض العصبية فانهن لا شغل لهن فيه سوى مساورة الاوهام ومطاردة الخيالات واما انت فلما اعهده فيك من الشغف بالمناظر الحلوية أوصيك بالسعي وراء اجتلاء ما في الخليقة من رائع الجمال ورائق الحسن وبأن تتخذي لنفسك اعمالا مرتبة تشتغل بها يدك وعقلك » .

رأيت ان هذه النصائح كلها حكمة وعلم فاخذت نفسي بها وخرجت للتنزه اليوم التالي لتلقيها بعد تدبير بعض الشؤون البيتية فلما رأتني نساء القرية مبكرة على الطريق بعثهن كرم اخلاقهن على ان يبتدرنني بالتحية قائلات « صباح بهي وبكرة سنية » ولم يكن الصباح كما قلن ولكنها عادة الناس هنا اذا تبادلوا التحية بالوقت فهم دائما يميلون الى امتداحه قليلا فشكرت لهن حسن قصدهن.

لم أسر في تنزهي على الخليج بل اعتسفت الطريق في ريف يتسع فيه الفضاء للماشي كلما جد به السير ومما لاحظته ان نساء كورنواي يضعن

علي رؤوسهن كمات [1] من القش وقد اخترت ان أحذو مثالهن فيذلك فوضعت واحدة منها اتقاء لحر الشمس وحباً لما فيها من البساطة الكلية وأخالني أروق في نظرك لو رأيتني بها . كنت أتقدم في هذا الريف علي جهل من قراه ولكنني كنت آمنة من الضلال لاني ما كنت قاصدة جهة معينة وكان ذلك اليوم من الايام التي كثيراً ما ترى في غرب انكلترا فكانت سماؤه محتجبة بالجهام [2] وكانت تأتي من البحر ريح بليل [3] مسفسفة [4] فتجري بين أشجار العليق فتولد فيها رعدة طويلة وكانت الطيور تغرد حول عشاشها .

قد أتى عليَّ حين من الدهر كنت فيه أوجد على الخليقة اذا بدت عليها سمات الاغتباط والسرور وأنا حزينة الفؤاد متبلبلة الافكار فما زلت بي حتى أثبت لي ان هذا الوجد والانفعال باطلان بعيدان من الانصاف وناشئان من الاثرة وحب الاختصاص فاصبحت الآن بفضل نصحك لي أسر بما أجده في سائر المخلوقات من آثار الفرح والابتهاج وقد تبين لي في ذلك اليوم بما انبعث في قلبي من وجدان الحنان والرحمة وبما عاينته في المخلوقات من شواهد الفضل والنعمة ان الله (سبحانه) لم يلعن الارض ولم يغضب عليها .

كانت بكرتي هذه من البكر التي تعرفها يدور في هوائها على سكونه مادة غزيرة مختلفة العناصر للتوليد والخصب فكان ينبعث من اشجار

(١) الكمة بالضم القلنسوة المدورة (٢) الجهام سحاب لاماء فيه (٣) الريح البليل هي الباردة النادية (٤) المسفسفة هي التي تجري فويق الارض

الموسج وحقول القمح والمخارف [1] الموطأة نسمات فاترة مقوية كانت تسري بسببها الحرارة في جسمي فتصل الى وجهي فكأن الارض كانت مصابة بحمى الربيع ولقد ذكرتك في تسياري بين هذه المزارع وفكرت فيما سأناله مما قليل من شرف الامومة ان لم يحدث من الطوارىء ما يقطع موصول آمالنا وفي هـذا الوقت أحس قلبي بما انطوى عليـه مكتوبك فتسابقت الى ذهني منه هذه الكلمات وهي « فاني قـد استودعتك أياه »

عند ذلك صحت قائلة لماذا لا أكون أنا في الحقيقـة معلمة ولدي ؟ أليس من المعروف عن نساء الولايات المتحدة ان معظم تعليم الاطفال ذكورا كانوا أو اناثا موكول اليهن ؟ بل مما يؤكده العارفون أنهن يفضلن الرجال في القيام بهذا العمل الصعب واني سأجرب نفسي في الاقتداء بهن . على ان هذا هو ما يراه زوجي فمن حيث انه قدعول على ترك المزايا التي لمدارسنا وغيرها من معاهد التعليم لا عتبارات أقدرها حق قدرها فلا بد أن أحل محله ولو حينا من الزمن في القيام على تلميذنا الآتي وتربيته وسيكون هذا آكد فرض علي واخص ما افتخر به وازهى . اشهد الله على ما أقول واشهد عليه ايضا امومة الفطرة الكبرى التي تدعوني بما فيها من القدوة الى العمل وانماء جميع قواي .

ربما اضحكتك مني هذه المزاعم واني لعلى علم بكل مايعوزني لاداء هذا الواجب الصعب المعضل فانه يقتضي كثير من المعارف وان كان والداي لم يغفلا تربيتي الاولى ولكن لا شيء يمنعني من الاستمرار على

(١) المخارف جمع مخرف وهو الطريق بين الاشجار والزروع

التعليم بنفسي اذا كنت لا ازال في السن الملائمة له فسأعلم ولدنا في الزمن الذي يشب فيه وينمو واتعلم انا ايضاً بتعليمه ولن اعتقد أني أمه حقا الا اذا نفثت في روعه افكارك وزرعت في نفسه أصولك .

ستتعاون بقلبينا على هذا الامر الخطير فعليك الارشاد وعليّ العمل وقد وعدتك بان اكون قوية وهذا هو قصدي وسأبلغه ملتمسة من الرياضة البدنية والمطالعة ما يلزمني من الصحة والعافية في جسمي وعقلي لاداء هذا الفرض العظيم ومعاذ الله ان يكون من قصدي ان اصير الى احسن مما انا عليه الآن . نعم اني لست من الوليات ولا من الناسكات فقد أتى عليّ زمن كانت تجذبني فيه جواذب اللذات الدنيوية وليس هذا الزمن عني ببعيد فاني لم اتجاوز الثالثة والعشرين من عمري ولم يكن تركي معاهد التمثيل وملاهي الغناء واندية الظرفاء التي كنت افتخر فيها بمصاحبتك مبنيا على رغبتي عنها وميلي الى غيرها وانما كان ذلك لما اصابنا من صروف الدهر ونوائبه التي سيظل ما جرّته لي من الكآبة والحزن مخيما عليّ طول حياتي . على انني لست آسى على شيء مما فات فأرجو ان لا تظن بي ذلك واعتقد أني لو كنت مطلقة من قيود هذه المصائب لما انفككت عن اختيارك لي خلا وقرينا واعلم ان الفراق لم يزدني فيك الا حبا وانما أنا اشكو من ألم في نفسي ولكن كما توجد طرق مادية لحفظ صحة البدن توجد أيضا طريقة معنوية لحفظ النفس وسلامتها من الامراض وهي رفعها الى معالي الامور وسأجربها فان ذلك على ما يقال يسكن من الآمها واذا صح هذا فأي غاية تسمو اليها افكاري وتعلو بها نفسي اشرف من رعاية ولد اربيه على أصولك واخلاقك؟ ان هذا لهو اكمل قصد وقفت نفسي على ادراكه .

انا مع انتظاري لهذا العمل الجليل اشتغل الآن بشؤون بيتية محضة واما قوبيدون فانه صمم على ان يعمل عمل المزارعين فجلب الى مسرح الدواجن في بيتنا دجاجاً وبطا وما عزا وغيرها وكان في البيت برج عتيق مهجور فعمره بالحمام وانامهتمة غاية الاهتمام بكل هذا العالم الصغير وكنت قبلا أعتقد في نفسي اني على شيء من علم الحيوانات لما قرأته من الكتب المختلفة في التاريخ الطبيعي وأما الآن فقد تبين لي مقدار خطاي في هذا الاعتقاد فاني كل يوم أشاهد من عجائب الحيوانات مالم يقل عنه العلماء شيئا وانا وجورجية نوزع الحبوب على جميع هذه الدواجن التي يظهر من حالها انها تدرك محبتنا اياها لانها تأنس بنا وتفرح لرؤيتنا . اه

الرسالة الحادية والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٣١ يونيه سنة — ١٨٥ ﴾

وصف تعويد الانكليز اطفالهم على الاستقلال والحرية من صغرهم

اكتب اليك أيها العزيز اراسم قياما بما اخذته على نفسي من انبائك بكل ما أفعل وما أرى وما اسمع فأقول :

اتفق لي منذ بضعة اسابيع ان كنت في بيت صديقك الدكتور فرأيت عنده رجلا من ايقوسيا هو شيخ طويل نحيف علمت انه من اصدقاء ذلك البيت وانه غادر بلاده لاسباب مجهولة عندي ولكونه لا يستطيع المعيشة بعيدا عن منظر البحور والصخور والرمال قد نزل بكورنواي الى

حين . يبدي هذا الرجل من التنطع والتشدد في آدابه وهيآت افعاله مالو ابصرته الفرنسيات لضحك عليه كثير منهن على ما أرى فانه اذا سعل يسعل بانتظام واذا دخلت عليه سيدة في قاعة الاستقبال وثب قائما كانه حرك بلولب واقبل بوجه فيه من تكلف الوقار والرزانة مايحاكي تكلفه في شد رباط عنقه واتقانه ومهما كانت حاله فهو هنا محترم مبجل ولا غرو فانه ساح في كثير من البلدان ويحسن التكلم بالفرنسية ولديه بحسب ماأرى ذخر عظيم من المعارف . يسمى الرجل السرجون سانت اندروز وأخص مااشتغل به في سياحته البحث في التربية وزيارة مدارس انكلترا وايقوسيا وقارة أوربا وجملة قولي فيه ان حديثه يهمني ويفيدني ولما كنت اعلم ان موضوع انظاره وابحاثه داخل في نوع مانبحث فيه وتشتغل به اصغيت اليه لاجلي واجلك .

فما قاله لي ان الناس في بريطانيا العظمى يهتمون قبل كل شيء بانماء القوى الجسدية في الناشئين فبالرياضات البدنية تنشأ اعضاؤهم من صغرهم قوية تناسب الرجولية وتتهيأ اجسامهم لخدمة عقولهم وعزائمهم وهذا هو سبب عنايتهم بالرياضيات والالعاب التي تخالف ماعندنا مخالفة جوهرية .

نعم انه يوجد في المدارس الانكليزية مانسميه في مدارسنا الفرنسية فن التمرين البدني (الجنباز) الا ان التلامذة الانكليز لا يرغبون فيه كثيراً . ويفضلون ما يكون في العابهم من التمرن والارتياض على ما في هذا الفن من أنواع التدريب المنتظمة التي تحصل عن أمر المعلم وتحت رعايته فهم يختارون بكمال حريتهم ما ترتاح اليه نفوسهم من ألعاب المصارعة والمغالبة فلهم في ألعاب الكرة التي منها ضربها بالصولجان ومنها دحرجتها على الارض وفي العدو والملاكمة وغيرها من طرق التسلي

وسائل متنوعة تنمي فيهم قوة الاعضاء وتجعلهم يزدادون بالتعب شدة وصلابة .

بهذا صار الانكليز اكمل الناس استعداداً للمصارعة والكفاح وأولهم اقتحاماً لقمم أعلى الجبال المعروفة وهم الذين يقاومون صعوبة الاقليم والعوارض الكونية والامم الوحشية في الهند واستراليا وزيلاندا الجديدة وفي جميع بقاع الارض التى فيها أخطار تقتحم فلا تأثير للعقبات الطبيعية في تلك العزائم الثابتة التي تقوم لها بمطالبها عضلات هى الحديد بأسا وشدة .

لم يوضع القانون في معاهد التعليم والتربية الانكليزية الا لما تدعو اليه الضرورة المطلقة من حفظ النظام فيها يدلك على ذلك أن مدير مدرسة من المدارس الكبرى كان قد أمر مرة على خلاف عادته ان يراقب التلامذة في ملعبهم لكنه لم يلبث ان تبين خطأه في هذا الامر وندم عليه واعترف من ذلك الحين بأن هذا التضييق كان يميل بأنفس الناشئين الى الانحطاط ميلا ظاهراً .

التلامذة الانكليز في ساعات الاستراحة من الدرس أحرار فلهم ان يخرجوا ويتنزهوا فى المدينة التي يكونون فيها أو فى المزارع غير محتاجين في ذلك الى أحد يرشدهم أو يراقبهم فيمضي كل منهم الى حيث يشاء ولا يطالبهم معلموهم الا بأمر واحد وهو ان يكونوا في سيرتهم كما يكون سراة الناس أدباً ولطف معاملة والكلمة المقابلة في اللغة الانكليزية للفظ سراة هى « جنتلمين » ومن الصعب ترجمتها بالفرنسية ويعني بها من بلغوا غاية الكمال في التربية والتهذيب فان وصف الشرف والسيادة يستفاد من التربية أكثر من استفادته من النسب فقد ينسلخ

عمن ناله من جهة النسب ولو في نظر غيره اذا هو تلبس بسافل العادات وسفساف الاخلاق . من أجل هذا كان الخوف من انحطاط القدر وسقوط المنزلة في اعين اهل الفضل والادب له من السلطان حتى على نفوس الناشئين ما لا تبلغه جميع انواع المراقبة التي يتصورها العقل . يقول الانكليز « اذا اردت ان يصبح ابنك رجلا في طفوليته فعامله معاملة الرجال » وهذا هو الاصل الذي يجرون عليه في التربية .

لذلك تندهش اذا لاقيت عددا عظيما من الغلمان الانكليز في السفن التجارية والمركبات العامة ومركبات السكك الحديدية يسيحون وحدهم باذن اهليهم زمن عطلة المدارس وهم في حداثة السن ولكنهم على ما في هذا من الخطر يعرفون كيف يتوقون المعاطب وكيف يعودون الى مواطنهم ويقول الانكليز تعليلا لذلك فوق ما تقدم انه هو الوسيلة الى استقلال هؤلاء الغلمان يوما ما بسلوك طريق الحياة في هذه الدنيا .

يثق الانكليز بالاطفال ثقة تامة فاذا اخل بها هؤلاء احيانا فلا بدع في ذلك لان من يرجو منهم ان يكونوا من الحكمة والدراية في درجة اعلى مما تقتضيه سنهم فهو واهم في معرفة الطبيعة البشرية على انه قد شوهد ان ما يقع منهم من الخطأ يسهل ان تسد ثلمته واما تثقيف ما اعوج من الطباع بسبب سوء الظن والقهر فهو في غاية الصعوبة .

لا بد ان يكون لهذا النوع من التربية قوة معنوية تتأثر بها نفوس الناشئين فاني أراهم هنا أهلا لان يديروا بعض اعمال تقتضي كثيرا من وفرة العقل وتمامه وقد ضرب لي الرجل في هذا الموضوع مثلا تاجرا من كبار التجار في لوندرة كان منذ بلغ الرابعة عشرة من عمره يجوب شوارع المدينة متأبطا محفظة

مملوءة بأوراق المصارف (بنك نوت) ويعامل وهو في هذا السن عدة من المحال التجارية باسم أبيه . وليس مايلقيه الانكليز في اذهان أولادهم وهم صغار من الثقة بانفسهم والاعتماد عليها قاصرا على مايكلونه اليهم من الاعمال التجارية والصناعية بل هو يشمل أيضا الفنون العقلية كالشعر والانشاء وغيرهما من الصناعات الفكرية. نعم ان الانكليز ليسوا بلا ريب احسن ولا اعلم من غيرهم ولكنهم لتعودهم من نعومة اظفارهم الاستقلال في سيرهم بمعارفهم الذاتية وتحملهم تبعة اعمالهم يظهرون في كل شيء أكثر منا قياما بانفسهم واذا لم ابال بالتصريح بكل ما اريده قلت انهم اقل منا شبها بخراف بارنورج [١]

الساعات المقررة للدروس في المدارس الانكليزية هي في الجملة اقصر منها في المدارس الفرنسوية ويؤكد الناس هنا ان هذا الامر لاينقص من نجاح التلامذة ولا يضر بترقيهم كما قد تتوهمه لان الطفل لا يقتصر في تعلمه على مافي الكتب بل انه يتعلم كذلك مما يراه اثناء تنزهه في المشاهد الجميلة والمناظر الانيقة ويستفيد استفادة حقيقية مما يكون بينه وبين رفاقه من المحاورات والمحادثات وما يتلقاه من اهله من الدروس النافعة في المعيشة اليومية وليس من الضرورة المؤكدة ان يثقل عقل الطفل من الصباح الى المساء حتى يكون من مشاهير الرجال لايعتقد جيراننا ذلك قطعا بل يرون ان في راحة التلامذة اي ترويح

(١) بارنورج هو أحد الممثلين في قصة هزلية للكاتب الشهير ربلي وله خراف علمها تقليد خروف لممثل آخر في هذه القصة اسمه دندينولت انتقاماً منه فصارت يضرب بها المثل في التقليد

نفوسهم بالالعاب الرياضية المتنوعة شحذا لاذهانهم وتقوية لعقولهم .

وهم في تأييد هذا الرأي يضربون مثلا مدارس قللت ايضا في هذه الايام الاخيرة ساعات الدروس في فرقها وشغلت التلامذة فيما وفرته منها باعمال يدوية نافعة فضاعفت بذلك فيهم قوتي التنبه والحكم . اذا كان هذا كذلك كان ماصرف من الزمن في تلك الاعمال غير ضائع بل عائدا بالربح على التلامذة في استفادتهم من الدروس ولان نجاحهم لا يقدر بطولها وانما يقدر بسهولة ادراكهم مافيها من العلوم وتحققهم بها

أخص غاية يرمي اليها الانكليز في التربية هي سلامة العقل وهم يقولون ساخرين ما أجمل ما يعود على الطفل من الفوائد والمزايا اذا كان القائمون على تربيته يضعفون فيه الاعصاب المعدة للادراك والفهم بالافراط في اجهادها ويغيضون ما في عيون قريحته من مادة الذكاء الغزيرة بحثه على العمل لاحراز ما لا ثمرة فيه من قصب السبق في امتحاناته فكم من سابق في هذه الامتحانات يأكل بهذه الطريقة ما يزرع قبل ابان صلاحه (يعني انهم ينفقون كل ما لديهم من المواهب العقلية قبل ان يصلوا الى ثمرتها)

ليست العبرة عند الانكليز بتعليم المعلمين بل العبرة بما يعمله التلميذ ويتعلمه بنفسه ومما يحكى تأييداً لصدق هذه القضية أنه كان يوجد في أحدى دوائر الخوارنة[1] بايقوسيا مدرسة فيها قسمان من التلامذة داخلي وخارجي وكان جل عناية صاحبها موجها للقسم الاول ضرورة انه هو الذي

---

[1] (١) الخوارنة جمع خوري أي كاهن

كان يعتمد عليه قبل كل شيء في انماء كسبه ومن أجل هذا كان يقضي مع تلامذته كل سهرته في اعدادهم لتلقي درس الغد على ان الذي كان يحصل في المدرسة هو غير ما كان يرجوه لان تلامذة القسم الثاني وهم من ابناء فقراء المزارعين الذين يسكنون الكفور والخصاص المجاورة للمدرسة على ما هم فيه من حرمانهم من معيد يكرر لهم الدروس واشتغالهم باعمالهم المدرسية في زوايا تلك الخصاص على ضوء نارها في غفلة من اهاليهم عنهم كانوا يظهرون عادة على تلامذة القسم الاول ويفوقونهم كثيراً مع اجهاد مدير المدرسة نفسه في تقويمهم وتمرينهم فعظمت بذلك دهشة ذلك الرجل ولكونه كان ذالب وفكر أخذ يبحث عن سبب هذا الامر الذي ملأه سآمة وضجرا فلم يلبث ان عرفه وهو ان التلامذة الداخليين كانوا يفرطون في الاعتماد على تعليمه اياهم التعليم الآلي الذي لا عمل لفكرهم فيه ويشتغلون ولكن لا بأنفسهم بل كآلات يديرها محركها واما التلامذة الفقراء سكان الاكواخ فلما كانوا مضطرين الى حل رموز ما يتعسر عليهم فهمه من المسائل بأنفسهم كانت أذهانهم في تيقظ ولذلك كانوا يشحذون قرائحهم ويقوّون مداركهم بالمناقشة والمنافسة وكان في انقطاع المعلم عن رعايتهم اثناء مدارستهم الليلية مزية لهم فلا جرم أنهم سبقوا الى المقاعد الاولى في فرقهم نهاراً . استفاد المعلم من هذه الحكمة التي أهدتها له التجربة فترك من ذلك الحين التلامذة الداخليين وشأنهم مقتصراً على ان يعطيهم كغيرهم مواد العمل وأدواته مثل كتاب في النحو ومعجم في اللغة وكان من وراء ذلك انهم لم يلبثوا ان ساووا اقرانهم في درجتهم . تعلم من ذلك ان شأن جيراننا في التربية كشأنهم في جميع الامور الدنيوية وهو أنهم

يرجون من عمل المرء بنفسه من الخير مالا يرجونه من وسائل المعونة والمساعدة كائنة ما كانت فشعارهم فيها هو «استعن بنفسك يعنك معلمك.»

ربما كان أهل ايقوسيا أيضا أكمل من الانكليز عناية بأمر التربية فقد اشتغلوا به كثيراً في هذه الايام الاخيرة

يوجد في ايدنبورج [1] على ما سمعت مدارس ابتدائية لا يكتفي فيها المعلمون بتعليم التلامذة مواد العلوم بل يبذلون قصارى جهدهم فى تأديب طباعهم وتهذيب اخلاقهم فهم يعملون لتطهير نفوسهم من خبيث الرذائل كالاثرة والغش والظلم والكذب والقسوة على الحيوانات وليست طريقتهم فى ذلك مجرد القاء القواعد والتعاليم المبهمة المجملة بل هم يرجعونهم الى وجدانهم الفطري ويذكرونهم بشرف الانسان وسمو منزلته على سائر انواع الحيوان فالاطفال فى هذه المدارس هم الذين يحكم بعضهم على بعض فى كثير من الاحوال ويقدرون بأنفسهم درجة أفعالهم فى الحسن أو القبح .

ولو شئت لسردت لك كثيراً من الحكايات فى هذا الموضوع ولكني اكتفي بأن أقص عليك واحدة منها ليكون فى ذهنك صورة لتلك الطريقة فأقول :

تأخر تلميذان ذات يوم عن الوقت المقرر لدخول المدرسة بربع ساعة وهما اخوان فى الرابعة أو الخامسة من عمرهما فقرر المدير ان يسئلا عن سبب التأخر ويقبلا فى فرقتهما بلا عقاب ان أبديا عذراً صحيحاً وجعل الحكم على صحة العذر وفساده للمدرسة بتمامها كما هي العادة عنده

(١) ايدنبورج عاصمة ايقوسيا من بلاد الانكليز

في جعلها محكمة شرف تقضي على التلامذة ولهم فيما يفعلون فلما مثل المتهمان الصغيران أمام هذه المحكمة اعتذرا متعاقبين عن تأخرهما بأنهما صادفا في طريقهما دودة غليظة لم يكونا رأيا لها نظيرا في حياتهما فراعهما منظرها وملئا منها عجبا لان هذه الحشرة كانت تتمثل في أشكال واوضاع غير معهودة لهما فكانت تارة تقف على ذيلها وطورا تمتد على الارض وآونة تكون ذات اثناء ملتوية وأنهما بينما كانا يصرفان زمنهما في مشاهدتها كانت تنساب حتى بلغت عوسجا فغاب عنهما أثرها فيه-فلم يمهلهما المدير ريثما يتمان قولهما بل سألهما لماذا لم تقتلا هذه الدودة ؟ فحدّق اليه الغلامان ولم يحيرا جوابا فاستأنف السؤال قائلا أما كان لديكما من الوسائل ما يمكنكما على قتلها حتى كنتما بذلك تقطعان سبب ابطائكما فى الطريق ؟ فقال له اكبرهما « بلى كنا قادرين على قتلها من غير شك ولكنا لو كنا اتيناه لكان ذلك مناشر او قسوة» فقوبلت هذه الكلمات من جميع الحاضرين بالاستحسان والتحبيذ [1] وحكم ببراءتهما من التقصير .

من ذا الذي لا يرى في محاكمة الطفل الى لداته وأقرانه جرثومة وضع المحلفين [2] الذي يعتبره جميع العارفين به معقلا يذاد فيه عن حمى الحرية بجميع أنواعها في انكلترا وايقوسيا . فلا شك أن تلك المحاكمة أخذ بالناشئين في طريق الوصول اليه وإشراف بهم عليه من بعيد ولا بدع فان جيراننا يزعمون ان التبكير في تربية وجدان التكليف في نفس الطفل لا افراط

(١) التحبيذ المدح بقول حبذا (٢) المحلفون هيأة تتألف من عدد من الاهلين لا يقل عن اثنى عشر ينتخبون ويحلفون طبقا للقانون على أن يقرروا الحق فيما يعرض عليهم من الدعاوي

فيه يذم مهما توسع في التعجيل به ففي رأيهم أنه متى أريد أن تكون الحكومة على صورة ما يجب ان تهيأ لقبولها نفوس الناشئين وأن ما يحفظ القانون ويضمن بقاءه من أنواع الكفالات لا يستقر الا بارتياض الناس من بداية عمرهم به ودوام اعتيادهم اياه ومما قاله لي الشيخ الايقويسي الذي حدثتك عنه « انا لا أشير على أي بلد باختيار طريقتنا في التربية ما لم يقارنه زرع ما لدينا من ضروب الحرية في نفوس أهله فنحن في بلادنا نحتاج الى رجال مطبوعين على حب الاستقلال موافقة لما تقتضيه قوانيننا وأوضاعنا اكفاء لاطالة مدة بقائها بما يكون منهم في سبيل ذلك من المجاهدة الشديدة وان طريقتنا في تربية الاطفال اذا اتبعت في غير بلادنا نشأت عنها رعية يتعذر حكمها وسياستها . » اه

الرسالة الثانية والعشرون

﴿ من هيلانة الى أراسم في ٢ يوليه سنة ـــ ١٨٥ ﴾

انتقادها اخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد اسلافهم والتماسها علة لذلك

أرى من البواعث الكافية ما قد يسوقني الى اعتقاد ان الكمال لا يخلو من نقص والحسن لا يعرى من قبح فما عاينته من أحوال الانكليز واخلاقهم ينطبق انطباقاً تاماً في بعض المواضع على ما سمعته عنهم من السرجون سنت اندروز ولكن تصفحي هذه الاخلاق وترديد فكري فيها قد اضطرني الى الاخذ بالحزم في امتداحها وترك المجازفة

في اطرائها . لا كثر الامهات اللاتي ألاقيهن في بيت السيدة وارنجتون أولاد عديدون فما اعجب ما يرى في جميعهم من مقدار تحققهم بما لمخالطيهم من الاوهام وسرعة انطباع معتقداتهم الباطلة في نفوسهم فتراهم على قلة علمهم بالامور يفرقون بين مطلق رجل والسري المهذب من الرجال ومطلق امرأة والسيدة الكريمة من النساء فرقاً تاماً ويميزون من ولدوا لخدمتهم ممن يجب لهم عليهم الاجلال والتعظيم لأول نظرة اليهم غير مترددين في ذلك ولا مرتابين ويحافظون على شرف الاقتداء بعظماء الناس في سيرهم لا لان ذلك مطلوب لذاته بل لعدم الاخلال بما تواضع عليه أولئك العظماء من الآداب واني لعلى يقين من أنك لو اطلعت على هذا العالم الناشئ لوجدت فيه شيئاً من التصلف فلشد ما يرى فيهم من العجرفة وما يبدونه امام الاجانب من ظواهر الابهة الصبيانية .

وحقيقة الامر ان هؤلاء الانكليز انفسهم على ما لهم من الحرية الواسعة وما فيهم من كمال استحقاقها هم في غاية الخشية والخضوع لرأي الجمهور وشأنهم في هذا شأن باسكال[1] الذي يسمى ذلك الرأي ملك الدنيا

على اني لا أدري أي تأثير له فيما يستحق به هذه التسمية ولكني لاخال ان له في انكلترا من السلطان والسيطرة ما ليس مثله لفكتوريا[2] فان جيراننا ينشأون من صغرهم عبيدا مختارين لبعض مواضعات قومية فيوجبون على أنفسهم تعظيم ما عظمه جمهور المهذبين من قومهم بدون

---

(١) باسكال ويسمى بليز باسكال هو كاتب ومهندس فرنسي شهير ولد في كليرمونت فرّاند سنة ١٦٢٣ ومات سنة ١٦٦٢ ميلادية وله مؤلفات شهيرة منها افكار باسكال

(٢) فكتوريا ملكة الانكليز السابقة

بحث فيه ولا نظر فكل منهم في سيرته وآرائه تبع لغيره معتمد على ما لهذا الغير من الاعتبار وعلو الكلمة وتراهم في منتدياتهم قليلي الكلام بل لا تخرج محادثاتهم عن حدود الامور التي قدسها استقرار العادة . فلهم جمل من المعاني والافكار كأنها تحجرت في أخلاقهم وعوائدهم فأجمعوا على عدم المناظرة والجدال فيها .

إني الى الآن لم أعرف الانكليز معرفة تكفي لادراك سر هذه المباينات وانما الذي أراه في كبارهم انهم قد جمعوا بين غاية الاستقلال في افعالهم وغاية التقليد في آرائهم واما صغارهم فإنهم كذلك احرار في حركاتهم وفي معظم ما تتوجه اليه عزائمهم من اعمالهم لكنهم يحجرون على أنفسهم أن تتعلق هذه العزائم من الاعمال بما يخالف تقاليد أهليهم وآثار سلفهم وعوائد الصالحين من مخالطيهم وربما كانت الحكمة في كل ذلك ان القوم قد رأوا طباعهم تجري بهم في بحر لجي من الحرية جري السفن مدت شرعها فاضطرهم ذلك الى طلب مرساة يوقفون بها جريها فالتمسوها في ضبط الاخلاق البيتية وفي العوائد القومية والاصول الملية . اه

الرسالة الثالثة العشرون

(من هيلانة الى اراسم في ٦ يوليه سنة ـ ١٨٥)

اخباره باقتراب ساعة الوضع وبرؤيا رأتها

كأني أيها الحبيب بساعة الوضع قد اقتربت واني وان كنت لاأزال في كفاية من جودة الصحة فما اخوفني من هول تلك الساعة وما تأتي

به من الشدائد والمحن التي كان شهودك فيها وحده كافلا بتخفيف آلامها عني . رباه كيف لا تكون بقربي أيها العزيز اراسم وأخص وقت تكون فيه المرأة كالمشقة (شجرة اللبلاب) لزاما لمن تحبه وتعلقا به إنما هو أمس ذلك اليوم المعروف بالعناء والخطر .

في الليلة الماضية رأيت رؤيا تحيرت في تأويلها : رأيتني أزور قبر والدتي لابسة الحداد فعظمت دهشتي لما رأيته هناك من شجر الورد والآس وغيرهما من الازهار لاني لم اكن أوصيت بغرسها ولما رأيت ان يداً مجهولة قد عنيت بآخر منزل لمن كنت أحبها نزينته بهذه الازهار هاجت اشجاني وانهطلت عبراتي وأحسست بالبكاء في نومي وقلت في نفسي ليت شعري من هذا الذي عرف كيف يتحبب اليّ ويسترضيني عنه ثم تبينت من جملة وقائع متتابعة مبهمة أنك أنت الذي غرستها فغرقت في شبه لجة من الفناء في حبك وما عسى أن أصف لك ما خطر في ذهني حينئذ فقد تمثلت لي جميع الاحوال التي تلاقينا فيها لاول مرة وماانعقد بيننا من روابط الحب الاولى تمثلا ليس كالذي يحصل عند ذكر المرء حوادث ماضية بل كما يحصل في الحلم حيث تتشكل فيه الاشياء الحية وغير الحية باشكالها الحقيقية فما قولك في هذه الرؤيا ؟وأما انا فلو كنت من الموسوسات لاعتقدت أن فيها انذارا ببعض المصائب .

ابشرك أيها الحبيب بأن أول مكتوب يأتيك مني بعدهذا سأكتبه أليك وأنا أم وكلما فكرت في ذلك تعروني هزّة الفرح ونشوة الطرب فالآن أودعك واقبلك بكل ما في نفسي من قوى الحب والشوق . اه

صحف مقتطفة من يومية الدكتور اراسمر

(صحيفة يوم ٦ يوليه سنة ـ ١٨٥)

اقل شيء من العقبات المعنوية يعوق العقل عن الانبعاث في سبيل الحرية

دخلت فراشة مخدعي من السجن من حيث لا أعلم ومكثت ربع ساعة تحاول الخروج من الشباك يدعوها الى ذلك ما وراءه من الضياء والفضاء والحياة بما تسمعه من الاصوات في جو السماء ولكنه على ضيقه كان محكم الاقفال فانقضت عليه بنت الهواء أولا على جهل منها بحقيقة زجاجه اللطيف حاسبة أنه لا وجود له امامها ثم أخذت تصادمه وتلتصق به وتقاومه وكلما ردتها صلابته خائبة أعادت عليه الكرة .

هكذا يكون شأن الانسان مع العقبات المعنوية التي تعترضه في طريق حياته لا يحسب لها حساباً لانها لا تكاد تكون شيئا يذكر فهي كسمك لوح من الزجاج مثلا لكن هـذا الشيء الذي لا يذكر كوهم أو عقيدة أو معنى غير صحيح أو مغالطةٍ كاف فى تعويق عقله عن التحليق بجناحيه في سماء الحرية فلا يجدي معه اشتداد العقل فى اقتحام عقباته كما لم يجد تلك الحشرة اصطدامها بالزجاج وايهاء جناحيها فى مغالبته .

فلما رأيتها قد عجزت عن الخروج فتحت لها الشباك وقلت لها امضي أيتها المسكينة فى سبيلك وطيري بجناحيك كما كنت في خالص الهواء وحرارة الشمس فهذا يكفيك من مسجون في حجرته . اهـ

﴿ صحيفة يوم ٨ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

لا بد يوما ان يدال من المستبدين وان ترد الحقوق المغصوبة الى أهلها

كثيراً ما شاهدت ساحل البحر بين حركتي المد والجزر وأبصرت على سطح رماله المبللة الرطبة آثار كثير من الاقدام والعجلات ونعال الخيل ورسوما غريبة في بابها نقشتها على صفحاتها أيدي الاطفال وأسماء كتبت بأطراف العصيّ وغير ذلك من الآثار الكثيرة المتنوعة فلما مدّ البحر محاها جميعها فلم يبق منها شيء يدل على سبق وجودها . كذلك شأن العدل والدهر فان لهما كالبحر مداً وجزرا فاعملوا ما شئتم من تأليف الكتب وتحرير الصحف واقامة الابنية ووضع القوانين وارسموا مقاصدكم على الرمال كل ذلك يغمره مدّ العدل في يوم بل في ساعة واحدة فالبحر يقول في مده اني أعود الى ما تركت من مكاني والشعب يقول في مده اني أسترد ما اغتصب من حقوقي . اه

﴿ صحيفة يوم ٩ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

من أعجب الظلم ان يداس العدل والحرية وتهضم حقوق الامم في سبيل تحصيل لذة الملك لرجل هالك

كان فيما سلف من القرون رجل من الفاتحين دمر الممالك ودوّخ الاقيال ثم مات بعد ان تم له النصر في كثير من وقائعه وغزواته فوضعه رجال دولته على سرير رفيع محفوف بأكمل مظاهر الأبهة والجلال مع

انه بالموت قد خلع من ملكه وأنزل من عرش سلطانه فاتفق ان تهافتت على أنفه ذبابة فلم تستطع يداه ذودها عنه على ما كان فيهما من ادارة شؤون الممالك وقمع نخوة الجبابرة . ياعجبا أللوصول الى الغاية التي وصل اليها ذلك الرجل يوطأ العدل والحرية بالمناسم وتهضم حقوق الامم . اه

﴿ صحيفة يوم ١٠ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

تمثيل الحكومة المستبدة في الأمم الراقية بالدجاجة مع افراخها التي استغنت عن ولايتها

أرادت دجاجة ان تغطي بجناحيها أفراخا تفقص عنها البيض وكبرت فقلن لها لسنا في حاجة الى عنايتك فانك تزهقين أنفسنا بثقلك فكان جوابها على ذلك ان قالت لهن « مَه » فانكن لا تدرين في ذلك شيئا أما عدم احتياجكن اليّ فهذا ممكن وأما أنا فلا أستغني عنكن أولا لانه يلذ لي ان ألقى ثقلي على شيء فان هذا يرفع من شأني وثانيا لاني آكل ما أعدّ لكن من الحب .

هذه الحكاية تمثل الحكومة مع الشعوب التي بلغت من درجات الترقي ما يكفيها في الاستقلال بحكم نفسها . اه

﴿ صحيفة يوم ١٢ يوليو سنة — ١٨٥ ﴾

بيان تمثل زوجته له في اليقظة

كانت ليلتي هذه هائلة فظيعة فاني كنت في بعض ساعاتها أرى من خواطري ما كان يمثل امامي كما تمثل الاشباح فكاني صائر الى الجنون ؟

لقد رأيتها .... هي بنفسها لا في حلم بل في يقظة كأنها أخفى من النوم ألف مرة .

رأيت هيلانة نائمة على سريرها وكنت الاحظ نفسها المختنق وأجس نبضها الذي دلني على انها محمومة . واعجبا اخالني سمعت صوتا .

ويلاه انها تئن وتتألم وانا بعيد عنها . انما يدرك ثقل وطأة السجن ويحس بضيقه في مثل هذه الساعات التي تغلب على الانسان فيها حيرته وتزهق نفسه ولقد كنت أريد ان أكون قدوة لزوجتي في الثبات والصبر فهذه اول مرة غلبني فيها السجن على عزمي فانثنى رأسي وانجرح فؤادي مما الاقيه من نقم القانون البشري .

لو كان حقاً ما يقال من أن في قدرة الاموات ان يزوروا من كانوا يحبونهم في الحياة الدنيا لوددت أن أموت في هذه الساعة حتى أراها . اه

الرسالة الرابعة والعشرون

﴿ من الدكتور وارنجتون الى الدكتور اراسم في ١٢ يوليه سنة ١٨٥- ﴾

البشارة بوضع « أميل »

أبشرك أيها السيد العزيز بغلام جميل ولدته في الساعة الثالثة من صباح هذا اليوم بعد ما قاسته والدته من طويل العناء وشديد الالم ولقد كنت عشية أمس مشفقا من أن يحل بها مكروه لبعض علامات بدت عليها ولكن قد اعانتنا قوة طبيعتها وسلامة خلقها على النجاة من الخطر واصبحت

صحتها من الجودة على ما كنا نرجوه لها وأما الغلام فجل ما يتمنيه ان يعيش ليخلد به ذكرك ويعلو بنباهته قدرك ويعظم فخرك ٠

وهذه فرصة قد انتهزتها لمكاشفتك بما في قلبي لك من المنزلة الرفيعة وما في نفسي من جواذب الميل اليك ورجائك في أن لا تضن بي على أية خدمة يلزم لك اداؤها وان لا تكتم عني حاجة يعوزك قضاؤها ٠ ان قبلت هذا الرجاء استوجبت خالص شكري لانك بذلك تكون قد برهنت لي على أنك لم تنس صديقك القديم ٠ نحن معشر الانكليز متهمون عندكم بان فينا شيئا من الانقباض عن الناس والاحتراس في معاملتهم ولكن ربما كنا خيرا مما اشتهر عنا وعلى كل حال ان لنا قلوبا تعطف على البائسين وتكرم المنكوبين اهـ

صديقك المخلص

الرسالة الخامسة والعشرون

(من هيلانة الى اراسم في ٢ اغسطس سنة ـ ١٨٥)

وصف القابلات في انكلترا ووصية الدكتور وارنجتون لهافي العناية بمولودها

لا بد لي ان أقص عليك تاريخي فيما يسميه الانكليز اعتكاف النفساء ملتزمة في ذلك طريق الايجاز فاقول :

استأجرت ممرضة كما هي العادة هنا وهي امرأة واسعة الخبرة في أمور التمريض والولادة أراك تقضي منها العجب لو سمعتها تتكلم في الطب والجراحة والقيام على الاطفال وغير ذلك مما يدل على كثرة درايتها فيما يلزم لمهنتها ٠ والظاهر انه يوجد من هؤلاء القوابل في انكلترا قبيلة

بتمامها وعملهن في حق الوالدات هو ان يرشدن من يكن منهن حديثات عهد بالولادة الى ما يعود عليهن وعلى اولادهن بالنفع وينفذن ما يصفه الطبيب من طرق التداوي وعندهن بحسب ما يسمع منهن عدة من المركبات الدوائية لمداواة بعض طوارئ العلل لا يتخلف عنها الشفاء وأما قصصهن في هذا الموضوع فانها لا نفاد لها ولو اني اعتقدت صدق كلامهن في جميع الاطفال الذين يدعين انهم نجوا على أيديهن من الموت لبطل عجبي من كون انجلترا قد وجدت من ابنائها العدد الكافي لعمارة استراليا وزيلاندا الجديدة وسائر مستعمراتها .

والتي تقوم عليّ منهن هي فوق ما تقدم من الصفات امرأة بارعة ذات فضل يظهر أن صفة الامومة العامة قد صارت غريزة من غرائزها وهي قصيرة هيفاء تلوح عليها سمات الاستقامة وكرم النفس شهدت في ما ضيها كما يقال أياما مثلى فإنها كانت زوجة لرجل كان ملاحظا للاعمال في احد مناجم كورنواي وقتل بسبب اندكاك هذا المنجم فترملت من بعده . وقد رزقت هي أيضاً عدة أولاد فارقوها من عهد بعيد وتشتتوا في البر والبحر ابتغاء الرزق اثنان منهم ملاحان صالحان يصلانها حينا بعد حين بصندوق من الشاي وقطعة نقد من الذهب وقد عرض عليها ان تكون ممرضة في مستشفى كبير فلم تقبل على مافي اباتها من المباينة لمصلحتها وقالت اني أفضل أن أتلقى الوافدين الى الدنيا وأرجو لهم حياة طويلة فيها على توديع من يفارقونها فراقا أبديا .

كان الدكتور وارنجتون قد أوصى قبل سفره بأن يؤذن بدنو ساعة الولادة فلما حان الوقت ارسل اليه مكتوب فلم يلبث أن جاء من لوندرة

على أثره قبل ان يضربني الطلق وتنزل بي شدائد المخاض وأهواله ومما يحمد في خصال الانكليز أنهم اذا أسدوا الى غيرهم معروفا لا يمنون عليه بل لا يظهرون له ان قصدهم بذلك خدمته أو اسداء المعروف اليه وذلك اما ان يكون منهم رقة طبع وكمال أدب أو كبرا وترفعا عن خدمة سواهم يدلك على ما أقول أني لما شكرت هذا الدكتور على مجيئه وتركه مرضاه في لوندرة كان جوابه لي أن قال رويدك فاني ما جئت من أجلك وانما جئت لزيارة زوجتي واولادي فهذا الجواب يعتبر في رأينا معشر الفرنسيات دليلا على قلة الظرف ويعده كثير من الباريسيات اهانة وتحقيرا وأما أنا فلم أنظر الا الى قصد قائله وهو جليل فانه على يقيني بأن الغرض من مجيئه هو غير ما يقول قد أراد ان يقنعني بان وجوده عندي انما كان اتفاقا لا تعملا فلا يد ولا منة له عليّ او أنه ان كان شيء من ذلك فلا ينبغي ان يتمدح به أو ان يذكر .

ثم إنه لم يقف في تفضله عليّ عند حد مساعدتي بعلمه وحذقه في فن التوليد على النجاة من الهلاك الذي كنت مشفقة من الوقوع فيه بل قد تكرم أيضاً بان محضني النصح شأن الصديق مع صديقته فيما يجب للمولود من ضروب العناية فقال « اني أخاطب الآن غرة لا خبرة عندها فلا تدهش لما سألقيه عليها من أفكاري فان أقل مزية لها ان أساسها التجربة والاختبار . قد نبه كثير من رصفائي أفكار الناس في جميع البلدان الى كثرة عدد الوفيات المريعة في الاطفال الحديثي العهد بالولادة ويمكن ارجاع هذه البلوى الى عدة اسباب كفاقة الوالدين وفساد اخلاقهما وعدم كفاية أقواتهما ولكني أعتقد ان اخص سبب يجب ان ينسب اليه ذلك هو

جهل الامهات بما تجب عليهن رعايته في شأن أولادهن فان الاساءة في بعض طرق العناية بالمواليد كاتخاذها في غير وقتها او الخطاء في تدبيرها لا تقل عن اهمال شأنهم شؤماو سوء مغبة واني لست أقصد بهذا انه يجب على الامهات أن يجرين على ما تقتضيه الفطرة جري عماية وغفلة فانهن ان يفعلن ذلك يعصين الله (سبحانه) بتخليهن عن العقل الذي لم يهبه لهن الا لمراقبة سير الفطرة في مناهجها واقامتها عليها اذا حادت عنها وانما أعني بذلك أن الاوهام والعادات والمعارف الفاسدة هي أعدى أعداء المواليد فتجب محاربتها ومحو آثارها وينبغي ان تعتقدي اننا لسنا أسوأ من غيرنا حالا في تربية مواليدنا لان شعبنا يزداد زيادة ظاهرة حتى انه قد ضاقت عن سكناه أرجاء بلادنا وها نحن اولاء نرسله افواجا الى الاقطار السحيقة ليتوطنها ويستعمرها ومن هذا تعلمين ان ازدياد الاجناس لا يكون على نسبة عدد الاطفال المولودين بل على نسبة عدد من يتخطاهم الموت منهم وعندي أن هذه النتيجة الحسنة الداعية الى الاغتباط في بلادنا ترجع الى ثلاثة أمور وهي استعداد الامم الانكليزية السكسونية للحياة وانطباع نسائنا على حب بيوتهن والعناية بها وما لذوي العقول المستضيئة بنور العرفان من علمائنا من التأثير في نفوس العامة فان كثيرا من نطس الاطباء الطائري الصيت عندنا لم يأنفوا ان يقوموا ببث الافكار الصحيحة والآراء السديدة في فن القيام على المواليد بين أفراد الشعب » ولم يكد الدكتور يفرغ من كلامه حتى باشر العمل بنفسه ورتب ما رآه غير مرتب في غرفة نومي • من ذلك انه وجد مهد (اميل) قد وضع خطأ تجاه الشباك فغير وضعه وقال لي « اني رأيت أطفالا أصبحوا عميا او حولا بسبب تعريضهم بعد ولادتهم بأيام لضوء

شديد» هذا وسأتحفك بنصائح اخرى وعيتها عن هذا الرجل الفاضل لما رأيته فيها من كمال الحكمة والسداد ولم أخلّ بشيء منها واني لا أرتاب في أنه قد تكلف من المشقة والتعب مالم يتكلفه لغيري من النساء اللاتي يدعى لتوليدهن وعاملني كما يعامل الرجل زوجة صديقه . على ان الناس قد اكدوا لي ان الاطباء المولدين هنا لا يرون أن عملهم قد تم بمجرد انتهاء الولادة بل يرشدون الوالدة بعد ذلك الى جميع مايلزمها في تربية وليدها . اهـ

الرسالة السادسة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٣ اغسطس سنة ـ١٨٥ ﴾

مشابهة «اميل» لابيه وحكاية في التماثل بين صور الأحياء والاموات

كلما رددت النظر الى «اميل» رأيت مثالك محققا فيه ولا بدلي أيها العزيز اراسم ان احكي لك بهذه المناسبة حكاية طبق ذكرها الآفاق في البلد الذي اسكنه . ذلك ان قسيسا بروتستنتيا قاطنا في جنوب انكلترا وجد اتفاقا في كورنواي يوما من الايام فطلب ان يزور قصرا عتيقا جدا في ضيعة هناك كانت لاسلافه في غابر الازمان ولذلك كان كثير الاهتمام برؤية أماكنها فلما حل بها ملأه العجب وأخذ منه الاندهاش كل مأخذ اذ رأى في الرواق المعلقة فيه صور أهل هذا البيت السالفين صورة كانها تمثله بذاته مرسوما على قماش قديم لابساعدة الحرب كما كانت سنة الناس في القرون الوسطى لا بملابسه السوداء التي يلبسها اليوم وبينما هو يتأمل

في هذه الصورة وفيما يليها من الصور اذ وقع بصره على صورة أخرى زادته ارتياعاً ودهشة فتقهقر خطوتين الى الوراء وهي صورة تمثل ابنه البكر وهو فتى في الثالثة عشرة من عمره وكان معه في هذا الرواق . فماذا تظن في هذه الصور الوراثية ؟ واما أنا فاني أكاد افزع عند ما أتصور ان رجلا من الاحياء يعرف نفسه وابنه في شخصين مجهولين من أهله ماتا من عدة قرون .

فليت شعري هل نحن راجعون الى الدنيا بعد الفناء كما روى لنا التاريخ ذلك عمن يؤمنون بالرجعة والتناسخ ؟ اه

الرسالة السابعة والعشرون

(من هيلانة الى أرانسم في ٤ اغسطس سنة ـ ١٨٥)

ظنها ان « اميل » انشأ يعرفها وبيان فضله عليها في تحسين خلقها

لا أزال أشعر في نفسي بكثرة الضعف حتى إنني في تحرير هذا المكتوب اليك لم استطع ان اكتبه مرة واحدة بل كنت أراوح فيه بين الكتابة والاستراحة عدة مرات فقد كنت لزمت الفراش اثنى عشر يوما موافقة للعادة المتبعة في معظم جهات انكلترا والآن اصبحت قادرة على القيام والمشي في البيت قليلا وصرت مثلك اجيل ناظري وفكري وأسيح بهما فيما حولي وإنني أجد لذة في حبسي لانني أنوي به مشاركتك في حبسك .

اراني لا اكون واهمة ان حسبت أن اميل ما لبث ان عرفني . فاني

لا أجيز لنفسي مطلقا ان تعتقد أني لست في نظره « الاثديا مملوأ لبنا » على قول احد العلماء. على أني اعترف اعترافاتام الصراحة بان هذا المولود الضعيف الذي يكاد يكون جمادا محتاج الى أن يأخذ كثيرا من غيره ولا يكاد يعطي شيأ . نعم ان لنا فيه قرة عين وانشراح صدر ولكنه ليس له في هذا اختيار فهو كالزهرة ترتاح لها النفس ويبتهج برؤيتها الناظر على غير ارادة منها ولا قصد ومهما كانت حاله فانا أشد منه أثرة لاني أنا المغتبطة بمجيء اياه . ثم إني كيف يسعني أن ارتاب فيما له من الاحسان الي فانه قد أعاد لي سكينتي وكف عني ما كنت أجده من غربي [1] ذلك ان خلقي ولا أخفي عليك قد خالطه من بضعة أشهر شيء من الحدة بسبب العزلة والاغتراب ومن هذا تعلم العلة في غضبي على جورجية قبل الآن بأيام على أنها أحسن النساء وا كثرهن التفاتا لواجبها. وحقيقة الامر أنها تستثقل القابلة ولا تطيق النظر اليها ويوجدها عليها ان تراها قد استحقت نصيبا من شكري لانه من المفروض علينا ان نشكر لمن يخدمنا . فهذه الغيرة المنبعثة من قلب مخلص لم يستضئ بنور العلم هاجت غضبي عليها فلم استطع كظم غيظي ولا كف بوادر لساني في تلك الساعة. فما كان اشدني اندهاشاً وارتياعا اذ ذاك فاني لم أكد افرغ من تقريعها حتى ابصرت وجه اميل قد صار أحمر كالارجوان وطفق يصرخ صراخا شديدا فمن ذلك اليوم ملت الى الاعتقاد بان انفعالات الام تؤثر في نفس الطفل فيكون بكاؤه وتغيره رجع الصدا لها.

وسواء كان هذا الاعتقاد صحيحا أو فاسدا فقد عاهدت نفسي على ان

---

(١) الغرب الحدة

أعتبر بهذه الواقعة واصبحت الآن كلما عرض لي مايكاد يذهب بحلمي أنظر الى اميل فيسكن غضبي على الفور اجلالا لولدي واذا كنت قد صرت أحسن خلقا وأوسع صدرا وأملك لنفسي مما كنت قبل فليس ذلك الا بسببه وبيمن وجوده . اه

الرسالة الثامنة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٥ اغسطس سنة ١٨٥ - ﴾

سؤالها اياه عن حقيقة التربية وزمني بدايتها ونهايتها

تلقى الدكتور وارنجتون مكتوبك[١] وأطلعني عليه فرأيتك قد تجنيت على نفسك اذ قلت إنك ملوم على ماجلبه لي تعيس حظك من الخمول والذل وإنك لست جديراً بان تكون والدا . رويداً هون عليك الخطب فاني من عهد ان جمعتنا عقدة النكاح كنت راضية بكل ماوقع لنا . فهل كان ذلك مني كما تقول ناشئا من شرف نفسي أو من رعاية واجبي ؟ كلا بل كان سببه مافي قلبي لك من صادق الحب وخالص الود فمن الجبن والعار أن تأسى اليوم على ماقد كان واعلم اني لست أشكو أبداً ما ابتلينا به من الشدائد والمحن بل أزهى بها وافتخر باحتمالها وأما ولدنا فقد آن لنا على ما أرى أن نشرع في تربيتـه فما هي التربيـة ومتى تبتدئ ومتى تنتهي؟ أنا في انتظار جوابك عن ذلك

حاشية - اميل مستغرق في نومه وقد قبلته قبلتين في وجنتيه على حبك . اه

---

(١) هذا المكتوب لم يعثر عليه

الكتاب الثاني

(في الولد)

الرسالة الاولى

(من اراسم الى هيلانة في ١٠ اغسطس سنة ـ ١٨٥)

بيان الصعوبة في تحديد زمني بداية التربية ونهايتها وتعريف التربية

تسألينني في خاتمة رسالتك الاخيرة عن التربية متى يكون ابتداؤها فاقول :

يصح أن يبتدأ فيها قبل الولادة بزمن طويل لانه من المحقق الذي لا مساغ للريب فيه ان في اجيال البشر أنواعا من الاستعداد الوراثي تنتقل من الآباء الى الابناء فابن المتوحش يولد متوحشا وولد البربري يخلق بربريا ومن كان من ابوين متمدنين فانه يولد مهيأ للتمدن.

كل من عرف ذلك يرى فيه أن هناك قوى سابقة لخلق الحياة في الانسان تحدد لكل فرد من أفراده درجة ملكاته ومقدارها نوعا ما من التحديد وما نسميه بالتصورات الغريزية والقوى الحدسية والمواهب الخلقية والفيض الخفي وغيرها ربما لا يكون شيأ آخر سوى ما تتوارثه

من حالة العمران اعني نتيجة عمل العقل في من سبقنا من القرون فنحن الراجعون الي الدنيا بعد الفناء كما تقولين .

ان ظهور أثر أعمال السالفين وأفكارهم في احدى مثاني مخنا على غير علم منا وتنقل المادة الحية من قرن الى قرن مرتقية على الدوام في صورها بعمل العقل وخروج المولود من غيابة الرحم الى عالم الشهادة باعضاء كملها التقدم وسواها الترقي جميع هذه الامور يغلب على ظني أنها من أسباب النمو التي يصح ملاحظتها في التربية ولكن لما كانت عزائمنا ليس لها على مثل هذه الاسباب أدنى سلطان لعمومها وخروجها عن حد الضبط كان من العبث البحث فيها .

لكن هنالك احوالا طبيعية يتأتى للعلم فيما أعتقدان يتناولها ويغيرها خلافا للاسباب المذكورة فلا شيء يمنع المشتغلين بعلم منافع الاعضاء مثلا ان يصلوا يوما ما الي تحديد مالسن الرجل والمرأة وحالتهما الصحية وطريقتهما الغذائية من التأثير في التناسل . وقدوجه فريق من نابغي هذا العلم الذائعي الصيت أنظارهم الى هذه الغاية وأعملوا افكارهم في سبيل الوصول اليها فاذا أدركوها وتقرر أنها أصبحت من ثمراته صار علم منافع الاعضاء فرعا من فروع علم التربية النفسية .

اذا علمت مماتقدم أنه من الصعب جدا تحديد الزمن الذي تبتدىء فيه التربية انضح لك ان تعيين الوقت الذي تنتهي فيه أصعب وأكثر مجازفة لانها تستغرق العمر كله .

وأما حقيقة التربية وهي أول شيء تسألين عنه فمن الميسور لي أن أجيبك عنها جوابا سديدا وهو : انها على مايؤخذ من معنى لفظ التربية

الاغوي عبارة عن تكميل عقل الناشيء وتهذيب نفسه باظهار جميع ما استكن فيه من ضروب الاستعداد وانواع القوى وانمائها لان ذلك اللفظ مأخوذ من ربا أي زاد ونما لكني خشية أن تخالي في هذا التعريف ابهاما اعجل بكشف معناه وتقريبه الى ذهنك فأقول :

أراد جمهور علماء الاخلاق بالتربية الوصول الى ما تصوروه في الانسان من معنى الكمال فغرضهم منها ايجاد الانسان الكامل وهو غرض يظهر لاول نظرة انه موافق للعقل تمام الموافقة لكنه مثار لاعتراضات كثيرة فلقائل أن يقول ان الانسان الكامل ليس له الا صورة خيالية لا تحقق لها في الوجود الخارجي قطعا فنحن إذن نحلم به كل على حسب تصوره فايانا والتشبث بهذه الصورة الوهمية التي يريد بها الخيال ان يتغلب على الواقع المحقق فانه لا شيء أيسر علينا من تخيل ذات عاقلة ونعتها بالآف من نعوت الكمال حتى تكون نموذجا لجميع الفضائل ولكن من لنا بانزال هذه الذات من السماء وابرازها لنا الى عالم الظهور .

مثل هذا الاعتراض على مسألة التربية يكون وجيها لو أن الانسان كان ذاتاً واجبة الوجود لكنا في الحقيقة نراه على خلاف ذلك متغيراً لا يستقر على حالة واحدة فانه وهو في الرحم تتناوبه أطوار جنينية مختلفة ولا أريد أن ابين لك ما يتقدم ولادته من الحوادث وإنما أقول ان حياته من أولها الى آخرها ليست الا سلسلة استحالات متفاوتة في الحصول سرعة وبطأً . انظري الى شعره (الذي لا يوجد عادة حين الولادة) كيف يتغير لونه عدة مرات والى لون جسمه وسمات وجهه وبنيته كيف انها تتجدد كلما كبر . تأملي في الغلام الصغير عند ما يبتدئ بتبديل البنية بالزوال تجدينه قد صار شيخا بالنسبة الى ابن الرابعة

والخامسة الذي لا تزال لثته محلاة بجميع لآلئها فقد خلق الله (سبحانه) لجميع الكائنات الحية في دور نموها أعضاء وقتية تتلاشى بعد انقضاء مدتها وأعد لها اعضاء اخرى تنمو في هذه المدة لتخلف الاولى. كذلك القوى الجسدية والملكات النفسية تتعاقب ويخلف بعضها بعضا على نظام محدود فان المولود يذوق قبل أن يبصر ويبصر قبل ان يسمع والذاكرة فيه تسبق القوة الحاكمة ووجدانه يكون قبل فكره بزمن طويل فالحياة من الولادة الى الشبيبة ومن الشبيبة الى الشيخوخة مظهر قوى تتعاقب ويحي بعضها بعضاً والانسان من مهده الى لحده يسلك طريقا تفرقت فيه رفاته وبددت في جوانبه بقاياه .

أنى يكون لنا بعد ذلك موقف في هذه الحركة الدائمة؟ وكيف السبيل الى غاية تنتهي اليها؟ فالذي أراه هو ان لكل يوم ما فيه وان أهم ما تلزم به العناية في علم التربية هو اختيار ما يناسب كل سن من أنفع طرق النمو وأمثلها وحينئذ فأنا الآن اقتصر على الكلام عن التربية في زمن الطفولية. اه

الرسالة الثانية

(من اراسم الى هيلانة في ١١ اغسطس سنة ـ ١٨٥)

عمل الام في الشهور الاولى من حياة الطفل وانتقادها بفعله الامهات باطفالهن في هذه السن

اعلمي ان تربية الطفل في الاسبوعين الاولين من حياته بل يصح أن اقول في الشهرين الاولين منها تكاد تنحصر في مجرد وقايته مما عساه

يؤذيه من المؤثرات الخارجية فهي ترجع الى نوع من انتظار الفطرة ومراقبتها في عملها واعانتها عليه عند الحاجة .

المولود يدخل عندولادته فيما اصطلح علماء منافع الاعضاء على تسميته بالحياة المستقلة ولكن ما أضعف استقلاله واقل حريته فانه بما أودع فيه من غريزة التغذي لا يكاد يرى الا ملتقما ثدي أمه فتكون معه كالغصن المطعم بآخر فهو اذن تابع لغيره فقير اليه في غذائه وسد حاجات معيشته المادية وما أخفى معنى الاستقلال وأبهمه فيه وهو في هذا الطور من الحياة فانه لما كان مغمورا في شبه سحابة من الجهالة لم يكن فيه أول امره على ما يرى من حاله أدنى أدراك ظاهر لما يضطرب حوله من الاشياء. مسكين ذلك المولود الاعمى فانه لا يجد ثدي امه الا بتلمسه . نعم ان له عينين لكن لا يبصر بهما واذنين لكن لا يسمع بهما ويدين لكن لا يعرف ان يبطش بهما. هذا المولود الذي هو وثن لامه تعبده وتخصه بفرط محبتها قريب الشبه بالآلهة[1] الزمنى الذين سخرت منهم التوراة لكنه على ما فيه من الضعف والعجز قد عهد اليه عمل ذو شأن يؤديه في العالم الا وهو النمو .

يكاد عمل الام ينتهي الى عدم اعاقة هذا العمل الفطري الخفي والتحرز من تشويشه واني طالما اعجبت بما تهديه اليها في ذلك أنثى الطير من الاسوة

---

(١) لعل هؤلاء الالهة هم الذين سخر منهم سيدنا الياس عليه السلام لما أراد ان يتحدى أمته بقبول الله قربانه اذ طلب اليهم أن يقربوا ثورا لآلهتهم ويقرب هو آخر لالهه ليظهر أي الآلهة يقبل قربان عابده فقربوا ثورهم ودعوا بعلا الههم من الصباح الى الظهر لينزل ناراً تأكله فلم يجبهم فسخر منهم نبي الله وقال نادوا على الدعاء فلعله نائم .

الحسنة فانها لشد ما تعتني بحجب ذخرها الحي عن دنس الانظار ، وتبالغ في اخفائه بعشها المستتر تحت أغصان الاشجار ، والمرأة اقل منها دراية بما يجب للاولاد لانا كثيرا ما نراها تتخذ مولودها ألعوبة لشفقتها وحنانها . وماذا نقول في أمهات ما ينفككن يرين الاجانب أولادهن فيدرنهم من يد الى يد ويهجن انفعالاتهم بما يصنعنه لهم من الحركات والاشارات ويعذبنهم بالملاطفات المنبعثة عن جنون الشغف بهم . أقول قولا لا أود منك اذاعته وهو أني اخشى أنهن في ذلك ينظرن الى تسليهن أو الى زهوهن اكثر من نظرهن الى مصلحة الطفل .

والحذر الحذر أيضاً من بعض الاوهام الشعرية فان شعراء هذا العصر وكتابه قد بالغوا في اطراء الطفل فانهم قد حبب اليهم الخيال أن يروا فيه ملكا نزل من الجنة تاركا فيها جناحيه ثم اني في الحقيقة لا أعرف من أين أتى ولكن رأيي فيه هو انه اذا كان قد رأى عجائب في عالم آخر فقلما يذكر منها شيئا وانه انما يحصل علومه جميعها بيننا وسأبين لك في الرسالة التالية كيف يحصل هذه العلوم » اهـ

الرسالة الثالثة

﴿ من اراسم الى هيلانة في ١٢ اغسطس سنة ـ ١٨٥ ﴾

أول علوم الطفل تأتيه من طريق الحواس — تربية الحواس — تأثير التمدن في قواها تفضيله تربية « اميل » في الريف وسببه عمل الأم في تمرين حواس الطفل

ان أول زمن في حياتنا نكون فيه أكثر تعلما وأشد تحصيلا هو ذلك الزمن الذي لا يعلمنا القائمون علينا فيه شيئا تعليما نظاميا فجميع

الأمهات يعرفن ان الطفل يترقى في تحصيل العلوم من الشهرين الاولين من حياته الى ان يبلغ ستة أشهر ترقيا غير معهود في هذه السن وقد حسب له بعض علماء منافع الاعضاء ما يكتسبه من العلوم وهو في سن شهرين الى ان يبلغ سنتين أو ثلاثا من عمره فوجد انه يكتسب منها ثلث ما يكتفي بتحصيله أوساط الناس . هذه التربية الاولى لا ينكر ان لأمه دخلا فيها ولكن أخص مؤثر في تحصيله تلك العلوم هو ملامسته لما يحيط به من الاشياء وتناول مشاعره اياها فهذا الينبوع الاصلي من ينابيع العلم الانساني وأعني به الاحتكاك بالاشياء وتناولها بالحواس هو الذي أريد توجيه فكرك اليه .

ولننظر ابتداء الى ما يجري في الواقع فالمولود في مدة الأسابيع الاولى من ولادته يكون مخه لا يزال في غاية الرخاوة وأعضاؤه المعدة لمعيشة الاختلاط بما حوله في نهاية العجز عن اجابة داعي ما يحتف به من الاشياء اجابة يكون من ورائها عمل فانه يرى جميع هذه الاشياء كأنها شفق فلا يميز منها شيئا ويسهل لك الاقتناع بذلك ما ترينه فيه من الغفلة عن وجودها وعدم المبالاة بها ثم تتدرج انفعالاته بعد ذلك في التيقظ لها فيكون مثله في هذا التيقظ بعد خموده كمثل صنم ممنون [1] يكون ساكتا فاذا انصبت عليه أشعة الشمس جعل يصوت كما تعلمينه . هذا هو

(١) ممنون في أساطير اليونان هو ابن الفجر وابن تيتون ملك الحبشة وهو أيضاً اسم لتمثال معبود مصري كانوا يعبدونه في طيبة وكان صنعه على طريقة علمية بحيث إن الشمس لما كانت تطلع عليه كان يسمع له صوت ناشئ من حركة الهواء بسبب حرارة الشمس .

شأن الطفل فانه ينتعش بما حوله انتعاش ذلك الصنم بالشمس ان صح ان يسمى هذا انتعاشا .

هل يتعلم المولود الابصار والسماع أم يأتيانه عفوا ؟ تلك مسئلة صعب كثيرا على المشتغلين بعلم منافع الاعضاء الاتفاق على الاجابة عنها فلهم فيها أقوال مختلفة ولكن الذي أجمعوا عليه أن المولود يتعلم بالتمرين إجادة هذين الفعلين فليكفنا ذلك من جواب هذه المسئلة . والحكمة في هذا أن من السنن الالهية ان كل عضو يحسن عمل ما واظب عليه وفوق ذلك ان قوة الانفعالات عند الطفل تزداد يوماً فيوما بنفس ما يجده من اللذة في استخدام ما أوتيه من وسائل العلم الصغرى فقد قال بسويه [1] ان لذة الاحساس قوية جداً .

الاحساس في الغالب يحصل في المولودين عفوا من غير معاناة تعليم فلا يحتاج معظمهم الى تعلم اللمس والذوق والابصار والسماع بل انهم يجدون فيها وهبهم الله من الغرائز ما يلزم من القوة لاجراء هذه الافعال التي هي من مقتضيات الحياة ولكن من الميسور ان تعاون الفطرةُ على أدائها بل أقول ان في قوة اقتداء الطفل بغيره ومباراته اياه وفي تحلية الاشياء المحيطة به تحلية تزداد بها رونقا يجذب نظره اليها — مايساعد على تنبيه مشاعره ودفعها الى القيام بما خلقت لاجله . نحن نرى في البهائم ان

(١) بوسويه هو يعقوب بنيني بسويه المولود في ديجون سنة ١٦٢٧ والمتوفى في سنة ١٧٠٤ ميلادية كان اسقفا لكندوم ثم لموثم صار مربياً لولي عهد لويز الرابع عشر وهو من اكبر كتاب فرنسا واعظم وأعظ نبغ فيها .

اناثها لا تكف عن ارشاد صغارها الى استخدام حاستي السمع والبصر وحملها على الانتفاع بهما وهذا الارشاد هو السبب على ما أرى فيما يوجد من القوى المدهشة لبعض الفصائل الحيوانية .

كذلك المتوحش كما تعلمين يكاد يكون نصيبه من التربية قاصرا على المشاعر ولشد ما برّز علينا بهذا السبب في بعض القوى . فالعادة والرياضة البدنية وطريقة المعيشة تنمي في الاجيال البدوية عدة أنواع من الادراك خارقة للعادة في دقتها وسعتها واذا سأل سائل عن سبب فقد الانسان بعض هذه المواهب الاصلية بتمدنه اكتفينا في الجواب عن ذلك بتوجيه نظره الى ما حصل في بعض أنواع الحيوان من ضروب التغير عند انتقالها من حالة التوحش الى حالة الاستئناس فمن ذا الذي كان يظن ان الارانب اذا تربت في خابية نسيت بعد ثلاث بطون طريقة احتفار الاجحار للسكنى فيها وهذا الخروف الذي نعتبره مثالا للذل وسلاسة القياد والغباوة لم يكن كما نراه اليوم في جميع الازمان فان أصله الذي تولد منه وهو الكبش الوحشي على عكسه في الطباع لانه حيوان جريء يزهى بالمخاطرة بنفسه في جبال قورصة [1] ويقاوم من يبتغي صيده من الصيادين فجعله الانسان خروفا أهليا بزربه أي يبناء زريبة له وتكليف راع القيام عليه وكلاب لحراسته .

كذلك الانسان كلما تهذبت أخلاقه بالتمدن وتحضر تدرج في التخلي عن بعض خواص معيشته الوحشية فلا تبقى له حاجة في أن يكون دائم التيقظ للمحافظة على نفسه اذا كان غيره يسهر لحفظه وكلاءته فمراقبة

---

(١) قورصة جزيرة بالبحر الابيض المتوسط وهي احدى مقاطعات فرنسا على بعد ١٧٠ كيلو مترا من شواطئها

الحيوان المؤذي من بعيد وإلصاق الاذن بالارض تعرفا لخطا العدو من بعد ألفي أو ثلاثة الاف ميل لا ضرورة لهما الا في حق سكان امريكا واستراليا الاصليين وأما نحن ففي حالتنا العمرانية مايغنينا عن ذلك فان لنا الشرطي والجندي اللذين نستأجرهما ليدفعا عنا مانخشاه من أذى المعتدين وكيد الخائنين. فاذا زال الخطر الملازم للمعيشة البدوية بالتحضر وجب حتما ان يزول معه ماكان لحاستي السمع والبصر من الدقة العجيبة التي هي عون وجدان المحافظة على النفس .

كأني بك تقولين ان هذه المزايا الجسدية لم تكن شيئا مذكورا في جانب القوى التي خلقها الانسان في نفسه بارتقاء التمدن ان صح ان ينسب له الخلق وأنا بلا شك موافق لك في هذا فاننا والحق يقال قد ربحنا من الحضارة أكثر مما خسرنا ولكن هيهات ان يقنعني هذا الفكر لاني أرى أنه كان يجب على الانسان في العصر الحاضر ان يستجمع في شخصه جميع المواهب التي كانت لمن عمروا الارض من قبله وكوني على يقين من أنا لو بلغنا هذه الغاية ماعد ذلك منا أفراطا في الغنى ولا وصلنا في الحياة مطلقا الى درجة تكفي لان نمثل فيها كل مامن شأنه ان يحيا وان قوى الادراك الحسية تكاد تكون في لزومها لفهم معنى وجودنا مساوية للقوى الفكرية.

أما كون التمدن يزيد الثقة في المعاملات بين الناس ويقوي روابطهم الاجتماعية ويغالب الفطرة دائما مغالبة يقلل بها جداً عدد البلايا التي تجعل البدوي على خطر من حياته فهذا كله في غاية الحسن واما كون الشرطة تحفظ الارواح والاموال فهو أمر لا أجد مساغا للطعن فيه وانما كل ما استنكره من ذلك هو ان طريقة الحفظ هذه تصير مدعاة

كسل وخمود لمشاعرنا وقد ادركت ذلك الامم المتمدنة أنفسها تمام الادراك فانها قد أبقت من عاداتها القديمة بعض الرياضات البدنية التي لم يبق لوجودها أدنى موجب ان لم تكن قد اعتبرتها من وسائل احياء قوى الفطرة الاصلية وذلك كالصيد وألعاب المبارزة والمصارعة مثلا. ولو ان رجالا تلاكموا في الطريق لقبض عليهم الشرطيون وساقوهم الى المحاكمة مع انهم لم يفعلوا الا ما يفعله الملاكمون من شباننا في ملاعبهم الرياضية (محال الجنباز) واني أرى مالم أكن واهما انه كلما ترقى مجموع الآلات التي نستخدمها لسد حاجاتنا صار من الضروري تكلف استعمال القوى العضلية بمجتمعاتنا والا أصبح الانسان عما قليل بسبب احلاله الآلات محله في مشيه وعمله وكفاحه شبيها بباشا غشيه خدر الترفه وغرق في فتور البطالة [1] فلا بد لمنع تطرق الفساد الى النسل من انهاك الناشئين في كل أنواع اللعب التي هي في الظاهر غير مفيدة لكنها في الحقيقة معدة لحفظ قوة الجسم ولولا هذه الالعاب المقاومة للضعف والانحلال لكانت اختراعاتنا نفسها سببا في انحطاط الدولاب [2] الانساني من عرش سيادته.

العلم أيضا يفرغ جهده وينفد مهارته وحذقه في تكميل نقص اعضائنا بما يوجده لها من طرق المساعدة في أداء اعمالها واني لكثير الاعجاب كجميع الناس باكتشاف المرقب (التلسكوب) لانه جم الفوائد ولكن

---

(١) ليتأمل القارئ اعتقاد علماء الافرنج في أعاظم رجال الشرق (الباشاوات) وليحكم فيه بانصاف (٢) المراد بالدولاب الانساني جسم الانسان بما فيه من الأعضاء والقوى فانه شبيه بالدولاب

المتوحش الامريكي ذا الجلد الاحمر لا يحتاج في اكتشاف نقطة فوق الافق الى شيء يطيل به بصره سوى ما استقر فيه من الاعتياد على ارسال اشعة بصره المجرد لتنفذ في المسافات السحيقة وتأتي اليه بصور ما فيها من الاشياء . ان فى اعانة المشاعر بالآلات على القيام بأعمالها رفع جزء من ثقة الانسان بفطرته التى قضت بأن يفوق الوحشي المتمدن ولو من بعض الوجوه ولست أريد بهذا (كما لا يخفى عليك) وجوب الاستغناء مطلقا عن مكتشفات العلم والصناعة وانما أريد به ان لا تتخذ مزايا المدنية ذريعة الى إنشاء الطفل المتمدن مترفا جبانا قصير النظر فانه لو اعتاد الاعتماد في كل شؤونه على ترقي وسائلنا الصناعيـة ولم يجعـل لنفسه وقوة اعضائه نصيبا من الاعتماد عليهما لصار الى ذلك .

قد يسأل سائل هل من وسيلة لاسترجاع بعض الخواص الاصلية التي أضاعها منا الانغماس في التمدن؟ فاجيبه ربما وجد لذلك سبيل فاني كثيراً ما فكرت فيما للاصناف الانسانية التي نعتبرها أحط من صنفنا لوقوفها عند أخلاق الطفولية من الشأن الاجتماعي وسألت نفسي غير مرة عما اذا لم تكن هذه الاصناف معدة ليستخلف فينا وهو الفضاء الذي يحول بيننا وبين حالتنا الفطرية .

الصنف الاسود في كثير من ولايات أمريكا الجنوبية هو الذي يعهد اليه خاصة بتربية مولودي الصنف الابيض فنساؤه مراضع بارعات لهؤلاء المولودين والرجال يمرنونهم على اجادة النظر والسمع ولذلك كانت تربية الاحداث الامريكيين أوفق لمقتضى العقل بكثير من التربية عندنا

فان المربين هناك يجتهدون في أن يعطوا الاطفال مشاعر قبل أن يعطوهم عقولا على ان التعبير بالاعطاء هنا خطأ لان التربية لا تعطي شيأ للطفل وانما تنمي ما هو موجود فيه فكم من قوة جسدية لا يشك في وجودها فيه تبقى كامنة لمجرد اغفال استعمالها .

نعم ان مجتمعاتنا المؤلفة من اشخاص كبار في السن متأنقين لا تخلو من منبهات للمشاعر ولكن انديتنا وزخرفنا لا تلائم حالة الطفل الملائمة المطلوبة ! فانه يولد محبا للاستطلاع مقلدا لما يراه فني ايجاده في مثل هذه الاندية جذب له الى اذواق لم تخلق فيه ولا تناسب سنه وقلما يكتسب من يتربى من الاطفال في هذه البيئة الصناعية الذوق الفطري فيما بعد فانا افضل كثيراً أن يتربى « اميل » في الريف حيث يوجد كل شيء على حقيقته ويصل الى مخ الطفل قبل أن تغير مواضعاتنا شيأ من صورته .

جميع المشتغلين بعلم منافع الاعضاء معترفون بما للتربية المشاعر من الاهمية بل قد أوصى بعضهم باتخاذ بعض الرياضات لتربية البصر والسمع واللمس وغيرها في الصغر ولكني لا أخفي عليك أن مثل هذه الرياضات قليلة الفائدة فلا تثمر بها كثيراً فان كل ما يذكر الطفل بالرياضة والعمل يتعبه ويسئمه فالواجب على ما أرى ان يعتمد في تنبيه مشاعر هذا المخلوق الصغير على ما يروق نفسه ويجذبها من غير ان يظهر فيه قصد التعليم والتربية والام هي التي من أعمالها اختيار الانفعالات التي تنشأ من الاصوات والاشكال والالوان والروائح والطعوم وتنويع هذه الانفعالات وتدريجها فعليها أن تجري في ذلك حسب مقتضيات الاحوال والعالم الخارجي لا يقتضي سوى

الولوج الى نفس الطفل من طريق مشاعره فيكفي في ذلك ان يبقى هذا الطريق مفتوحاً مع تنبيه الطفل عند مسيس الحاجة الى مايستحق التنبيه •

ان بين القوى الجسدية والقوى النفسية - وان كانت متمايزة منفصلا بعضها عن بعض - رابطة تربطها فان صحة أنواع التصورات ليست بمعزل عن صحة التصديقات وان الذهن بما يتمثل فيه على التعاقب من صور المدركات يهيئ مواد الفكر فيجب ان تكون تربية المشاعر ابتداء مقصودا بها تربية العقل » اه

الرسالة الرابعة

﴿ من اراسم الى هيلانة في ١٣ اغسطس سنة — ١٨٥ ﴾

شعور الطفل من أول نشأته بانه أرقى من الحيوان الأعجم واستخفافه بالعالم لانتسابه الي الانسان — بيان ان له نفساً — توصية زوجته بمراقبة « اميل » لتعرّف طباعه وذكر اهمال المربين في ذلك

الطفل يتلقى علومه الاولى من العالم الخارجي ولكنه هيهات ان يرضى بمجرد الانفعال بالمؤثرات الاجنبية كغيره من الحيوانات التي تخضع لما يقرر لها من أحوال المعيشة ساكنة عليه غير مفرقة بين ضاره ونافعه فانه لا يكاد يخرج من ظلمة الرحم الا ويكون قد اثبت حريته بصراخه الذي يعارض به ملمات الالم وفواعل الطبيعة فترينه يبكي ويتبرم ممن حوله من الناس والاشياء ويوجد عليهم ان لم يجروا على مقتضى

رغائبه وهو على عزله وعجزه يلح في الشكوى من سلطان القدر ويتذمر عليه بحسب حاله .

وبعد بضعة أسابيع أو أشهر من ولادته تنفتح عيناه وأذناه تدريجاً في مشهد الكون ولم يكن في حسبان أحد أن هذا الجسم الضئيل الصغير لا يرتعد لما يراه يثور حوله من قوة الفواعل الكونية، بلى انه لا يحسب لها حسابا فلا يلبث أن يتأمل في هذا الدولاب الارضي العظيم ويرجع فيه بصره الرائق وهو هادئ البال آمن مع أن أقل اداة فيه ربما كانت كافية لسحقه ومحقه. وهو وان ولد أسير الفطرة لا يلبث أن ان يكون حاكما المستبد . فيطلب الى أمه بلغته المبهمة الخفية الدلالة أن تجمع له بين الحر والقر والمطر والصحو بل ربما استسهل ان يسألها انزال القمر والكواكب من السماء تحصيلا للذته. ولما لم تكن الام في نظره على كل حال الا مثلا حيا للنوع الانساني كان شعوره بالقوة انما يستمد من انتسابه لهذا النوع فتسبق الى ذهنه العاجز عن الفكر غريزة السلطان الذي لتلك الذات المختارة على العالم فلا يبقى تلقاء هذه القوة المعنوية ـ التي لا يدركها الا حد صغير بين ـ أدنى تأثير في نفسه لعظم تسلط المادة .

ليس الطفل كما يقال لوحا مصقولا مجردا من الادراك بل له نفس تشعر بالوجود ولا تلبث ان تثبت وجودها بما لها من الطريقة المخصوصة في المعيشة والاحساس وبما يصدر عنها من الانفعالات اختيارا وبما لها من الغرائز خلقة . وكما ان مشاعره قد جعلت بينه وبين ما حوله من الاشياء اتصالا كذلك أمياله ورغائبه تتدرج في تعريفه من يعيش بينهم من الناس وتقربيه منهم . ثم ان معظم انفعالاته النفسية تأتيه في أول الامر من

الخارج فيكون حبه لغيره وضحكه وكلامه ناشئة من حب ذلك الغير اياه ورؤيته يضحك وسماعه يتكلم لكنه عما قليل يبدي مايستقر في نفسه من ضروب النفور والميل والترجيح . وجملة القول ان طبعه يستبين وساتكلم عن هذا الموضوع في بحث آخر .

أنا لا اعتقد مطلقا اني قد أجبت في رسالتي هذه عن اسئلتك التي سألتنيها في التربية فان توفية الاجابة حقها تستلزم زمنا وانا قد عدوت فيها عدوا اسرع ما يكون فوصيتي اليك ان تفرضي على نفسك انت أيضاً مراقبة « اميل » فان ابعد الاشياء عن نظر القائمين بأمر التربية الى الآن واكثرها اغفالا هو اختبار الطفل ومعرفته .

كلما فكرت فيك وفي « اميل » كان مثلي كمثل الخنفساء الطيارة يمسكها التلميذ ويربط أحد أطرافها بخيط ويرسلها فتطير في الشمس ناسية رباطها وتسبح في الهواء وتطن فلم يكن الا ان يجذب التلميذ الخيط حتى تسقط على الارض فها هوذا السجان يدعوني لان هذا الوقت هو وقت التنزه على اسوار السجن فأودعك وأرجو ان يبقى الحب بيننا وثيق العرى اهـ.

الرسالة الخامسة

(من هيلانة الى اراسم في ٢ اكتوبر سنة ــ ١٨٥)

حسن رأيها في ولدها . قول الدكتور وارنجتون في سياسة الاطفال . وصف الاقليم والاشجار

« اميل » اجمل غلام في الدنيا . أقول هذا القول وأنا عالمة حق العلم

ان جميع الامهات يدعين ذلك مثلي لاول مولود يرزقنه وهذا يدلك على اننا نرى ايضا بقلوبنا اكثر مما نرى بأبصارنا .

المرأة تتعلم الحب وتتعلم كيف تكون أماء ففي كل يوم تبدولي شواهد على ذلك بما يبعثه في نفسي هذا الغلام المحبوب من الرحمة والحنو المتزايدين لكن لا يدعونك هذا الامر الى ان تخاف لي الاستعباد لوجداني والعجز عن القيام بما فرضته على نفسي من تربيته فاني اتباعا لنصائحك ونصائح صديقك أقدم مصالحه الحقيقية على ما يقتضيه ميلي وذوقي وقد أقام لي الدكتور على وجوب ذلك دليلا مستوفى الشرائط فقال بما تعهده فيه من أدب المنطق وحسن اللهجة :

« خلق الله لسائر الحيوانات اعضاء تقوم لها مقام الاسلحة في الذود عن أنفسها وأما الطفل فلا سلاح له الاضعفه وصراخه ولكن ما أشد مقاومته لنا بهما وما اكثر ما يستفيد منهما افهو وان كانت انواع الاحساس فيه لا تزال مبهمة قد طبعت فيه غريزة حب العدل من نشأته فهو لا يلبث ان يميز بها ما يصدرعنا من الافعال في حقه صوابه من خطائه. فاعلمي وثقي بما أقوله لك. ان الواجب في سياسة الاطفال خاصة هو أن نكون نحن المحقين لاهم لانه لو انعكس الامر فجعل الحق والسلطة لهواهم واستبدادهم لخسرنا كل شيء . ذلك ان الطفل يبكي أحيانا للحصول على ما عوده أهله اشتهاءه ابتداء موافقة لهواهم فاذا لم يبادروا الى ارضاء شهوته اما اغفالا منهم لها او غضبا عليه فانه يستمر في بكائه ساعات كاملة بل قد يبكي حتى يشارف الموت فاذا انتهى الامر بالاذعان الى رغبته كان ذلك ايضا شرا من مخالفته لانه يتبين منه ان والديه خلوا مما يدرعانه

لمقاومة شديد اهوائه . فلا ينبغي أن يعارض الطفل في شيء مما يشتهيه الا اذا كان في المعارضة خير له واذ ذاك يجب ان تكون عزيمتنا كالقانون ثباتا وصرامة . »

هذا ما قاله لي واني لا خاله عقودا من الذهب يلفظها من فيه فقد اتفق لي ولا اخفي عنك اني كنت انسى احيانا الاخذ بنصائحه في سياستي « لاميل » وفي هذه الحالة كنت أنا وهو نتألم من عاقبة هذا النسيان .

قرأت الفصل الاول من كتابك وهو على ما أرى كتاب تؤلفه في التربية وانا في انتظار قراءة باقيه لا كاشفك برأيي فيه فاعتقد تمام الاعتقاد ان تربية « اميل » ستكون على وفق آرائك ورغائبك ولكن لا يعزب عن فكرك ان خط المعاني على الورق أسهل من نقشها في صحف الحياة ومجاري الواقع .

انشأ ورق الشجر هنا يحت ويسقط لكن فصل الخريف في هذا البلد جميل وان كان غزير الامطار فهو كوداع العزيز ابتسام في بكاء وتأتي فيه أيام قد يتوهم الانسان فيها انه لا يزال في فصل الصيف ومما يزيد هذا الوهم قوة ان زنجينا البارّ قد غرس في حديقتنا المربعة المقابلة لشباك حجرة نومي اشجار العود والصبار والمانوليا (١) وأراد بهذه العناية اللطيفة ان يهديني شيئا من جنى أرض بلاده التي يحفظ لها في فؤاده أشد ذكر . ويؤكد الناس ان بعض نباتات المنطقة الحارة يمكن اذا حيطت ببعض ضروب من العناية أن تغرس هنا وتنمو ولا ينالها من فصل الشتاء أدنى أذى فقد قال لي بستانيُّ السيدة وارنجتون ما نصه : « ليس

(١) الصبار هو التين الشوكي وليس بمزني والمانوليانات أمريكي بهي الازهار

السبب في هلاك هذه النباتات في غير اقليمها هو فقدانها ما كانت فيه من الحرارة بل هو ما تلاقيه من الجليد في الأقاليم الاخرى فهي حينئذ تنجح في كورنواي لان اقليمها معتدل اذ ليس فيه افراط في الحرارة ولا في البرودة .

كم من امرأة تعيش معيشة هذه النباتات مطوحا بها عن مطلع شمس محبتها فلا تموت لتستريح من عناء هذه المعيشة . اه

الرسالة السادسة

﴿ من هيلانة الى اراسم في أول يناير سنة ١٨٥ — ﴾

تلقيح « اميل » بمادة الجدري وبيان وهم الطبقة السفلى من أهل كورنواي في التلقيح بهذه المادة — ذكر ما بلغته من تعرف أحوال « اميل »

قد حيرني سكوتك وانقطاع رسائلك عني فقد مضى زمن طويل جدا لم أحظ فيه بشيء من اخبارك فلعل السر في ذلك ان دخول المكاتيب في السجن أيسر من خروجها منه واني على يقين بأنك لا ذنب لك في هذا ولكني لبعدي عنك تراني أوجس خيفة من كل شيء .

فشا في كورنواي منذ بضعة أسابيع مرض معد أودى بكثير من الانفس ويقال انه وفد علينا من جنوب انكلترا . ترى هل كان يدور في خلدك أن مسقط رأس الطبيب جنار[1] يصح ان يكون أحد بلاد أوربا التي فيها طبقتا الفعلة والمزارعين هما أشد الناس مقاومة لنشر الفوائد التي

---

(١) جنار طبيب انكليزي هو المخترع للتلقيح بالمادة الجدرية في أوربا حوالي سنة ١٧٧٦ م .

نجمت من اكتشاف ذلك الطبيب؟ فكثير من البيوت (العائلات) يرفضون تقديم أولادهم للتلقيح اما بلادة فهم أو حذراً أو وسوسة بل منهم من يعتقدون ان في ابعاد المرض باتخاذ الوسائل الواقية منه معارضة لمشيئة الله (تعالى). ثم ان مصلحة الطبيبات في هذا البلد وهن طائفة من القوابل يطبين في القرى على شاكلتهن (طريقتهن) تحصر في ترويج مثل هـذه الاوهام. فان هؤلاء النساء لما كان معظمهن يجهل طريقة التلقيح وكان شأنهن القيام على من يصابون بالمرض فلا يستغرب بعد هذا ازدياد عدد وفياته. لم يكتف الدكتور بتلقيح «اميل» بل أراد ان يجدد تلقيحي للتوقي من الخطر المحدق بنا.

اني ولا أخفي عنك عند ما أفكر في الجدري آنس من نفسي رعبا واشمئزازاً لا يحيط بهما الوصف وخصوصا اذا تمثل في خاطري انه لم يسلم من آثار هذا المرض الشنيع الا القليل من رجال القرن الماضي ونسائه. وإن الانسان ليقضي يومه تألما وكدرا اذا خطر في ذهنه ان كثيرا من اخدان الملوك كالآنسة لاناليير[1] والسيدة دوباري[2] وغيرهما من ربات الحسن

---

(١) الآنسة لاڤاليير واسمها فرنسيسة دوقة دولابوم لو بلان هي ابنة حاكم قلعة. اميواز ولدت على مقربة من توربفرنسا سنة ١٦٤٤ وماتت سنة ١٧١٠ ميلادية وأدخلت بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسا لتكون من قربنات العروس ليلة الدخول بها فعشقها الملك وعشقته ثم رزقت منه بولدين ثم انتهى أمرها بترك بلاط الملك والاقامة في دير تسمت فيه لويز الرحمة وكتبت هناك كتابها المسمى اعترافات مدام لاڤاليير

(٢) مدام دوباري اسمها مريم حنا كونتيسة جوماردوفورنيه ولدت في فوكولور سنة ١٧٢٦ وماتت سنة ١٧٩٣ كان أبوها كاتبا في مصلحة العوائد وكانت هي من الفعلة في باريس ثم أدخلت حاشية غليوم دوباري بواسطة أخيه حنا دوباري وخادم فراشه ثم تزوجها غليوم ثم صارت حظية للويس الخامس عشر ثم نفاها لويس السادس عشر ثم حكم باعدامها لاتهامها بتأليب الناس على الجمهورية ونفذ عليها الحكم في ديسمبر سنة ١٧٩٣

اللاتي طارصيتهن بالجمال لتعاسة حظهن كن جميعا مجدووات بدرجات متفاوتة في القلة والكثرة وأما أنا فاني أشكر لعلم الطب نعمته على الانسان وهي تحرير وجهه واعفاؤه مما كان يؤديه من الجزية لذلك الداء المريع في أغلب إغاراته فلقد كانت الفتاة منا معشر النساء ترى أملها في أن تحب قد انقطع بما كان ينمحي بسببه من محاسنها واني ولست الآن فتاة أقول لو جعلت لي الدنيا بما فيها على أن أخسر مالي من بقية الجمال القليلة مارضيتها منها بدلا فإني إخال انني لو فقدت تلك البقية لانكرتني وانقطعت عنك معرفتي .

انك بما كلفتني من مراقبة أحوال الطفولية واستعراف شؤونها في شخص « اميل » كأنك قد بعثتني لاكتشاف بلد مجهول فانه من المحقق الذي لا ريب فيه وجود عالم للاطفال على حدته لان جميع من رأيتهم منهم لا يكادون يختلفون في شيء من طرق احساسهم وابداء انفعالاتهم ولكن من الصعب جدا الرجوع الى دخول هذا العالم بعد الخروج منه . فاذا رجعنا الى ما نذكره من ما ضينا ابتغاء معرفة شيء من أموره تبينا انها الجنة الارضية التي لم يخرجنا منها الا مجرد نمونا وكبرنا . وانه يكون من العبث البحث عن موقعها في خارتة ذاكرتنا وربما ملت الى الاعتقاد بان الطفل ساكن تلك الجنة التي هي مطلع بحر حياته ودار هدوه وسكونه يعرف من أمرها أكثر مما نعرف ولكن اذا كان الله (سبحانه) قد استودعه سرها فهذا السر هو في غاية الحفظ لم يطلع عليه احد اذ كيف يصح تخمين ما يقع في نفس ذات صغيرة عاجزة عن بيان لذاتها وآلامها اللهم الا بلهجة مبهمة واصوات غير معروفة المخارج . وقد تبينت

بما الاحظه في الاطفال كل يوم ان لهم لغة تكون قبل الكلام بكثير ولكن ما ابهمها وأعسر فهمها حتى على الامهات أنفسهن وانى إخالني أفهم بعض رغبات « اميل » وادرك أفراحه واتراحه وهذا لا يكفي فى معرفته

منتهى ما يمكنني ان أقول فيما وصلت اليه من استعراف احواله هو أني لاحظت فيه حصول استحالات كبرى فانه في مدة الشهرين الاولين من ولادته كانت معيشته كلها في نفسه (ان صح تسمية هذا معيشة) فلم يكن له ارتباط بالعالم الخارجي وأما الآن فهو يميز بعض ما يحيط به من الاشياء تمييزا فيه نوع من الوضوح وفوق ذلك فهو يتبسم لي.

يومنا هذا هو عيد أول السنة الجديدة ولكن ما أشد حزني فيه وأعظم كدري . وأنت تعلم ان من عادة الناس في مثل هذا اليوم ان يرجوا لمن يحبونهم من الخير ما يشاؤن وأنا أرجو لك شيئا واحدا وهو ان تعود اليك نعمة الحرية .

حاشية ــ هديتي اليك في هذا العيد هي خصلة من شعر اميل أرسلها في طي هذه الرسالة . اه

الرسالة السابعة

(من هيلانة الى اراسم في ٣ ابريل سنة ــ ١٨٥)

بيان أن سبب فتور مشاعر الطفل عدم التفاته الى المحسوسات لا ضعف المشاعر نفسها ووجوب تنبيهه اليها ــ تدريب الطفل على المحافظة على نفسه بنفسه

قد جاءني السيد .... . بشيء من اخبارك بعد طول تطلعي اليها فاطمأن قلبي قليلا بما قاله لي عنك وزال بعض ما كنت أجده من الجزع عليك .

لا يخطرن ببالك اني نسيت ما تلقيته من نصائحك وتعاليمك في تربية « اميل » فاني باذلة قصارى جهدي في تعريفه بما حوله من الاشياء وفي هذا المقام أقول إني أحسبني قد تبينت ان فتور مشاعر الطفل ينشأ من عدم التفاته الى المحسوسات اكثر من حدوثه من ضعف تلك المشاعر فان في قدرته أن يدرك أصوات كثير من الاشياء الخارجية والوانها تمام الادراك لو أراد ان يكلف نفسه الاصغاء والنظر اليها ولكن لما كانت هذه الاشياء لا تستميله كان يغفلها اغفالا تاما . وجملة القول في ذلك انه لا بصر له ولا سمع الا فيما يحب ابصاره وسماعه واذا كان هذا شأنه فكيف السبيل الى معرفة ما يروقه من الاشياء وما لا يروقه ؟ أعترف وانا صاغرة بأني كثيرا ما اخطأت في استعراف تلك الاشياء فليس كل ما اتخيره منها لتنشيط حاسة اللمس في « اميل » يحب أن يجيل فيه يديه الصغيرتين ثم ان أبهى الالوان وأجملها في نظري تمر امام عينيه مرور الظلال فلا تلفته ادنى لفت وأنا أظن اننا معشر الامهات مدفوعات في هذا الامر وفي غيره الى احلال اذواقنا محل أذواق الاطفال .

وجورجية على كونها أقل مني أرتياضا بالعلم كثيراً ما تكون انجح مني في سياسة « اميل » فانها تجد بغريزتها ما يعجبه ويسليه وينبه قوة الاستطلاع فيه وربما كانت تستعرف رغائبه فتسعى في تحصيلها له وسبب ذلك أنها كما تعلم قد كانت والدة لثلاثة اولاد حرمها منهم الرق على التعاقب ولا تدري أين هم الآن فلا بدع إذن في شدة تعلقها « باميل » ومحبتها له وانا في وجد عليها من حبها اياه اكثر مني وحاشا ان يكون ذلك حسدا فانه مستحيل وانما الذي أحسدها عليه هو قدرتها على أن تكون طفلة مع

الطفل وكأن هذا هو الذي تعنيه بكلامك في استعداد المرأة لوظيفة الامومة.

لا اخالك تصدقني ان قلت لك ان اميل قد صار أصدق التابعين لزورواستر [1] اعني انه يعبد الشمس. من أجل ان تعتقد ذلك ينبغي ان تراه لتنظر كيف يبسط ذراعيه الى ضيائها فرحا برؤيته.

كان الشتاء عندنا في غاية السهولة فلم ينزل فيه الثلج الا مرتين على انه كان فيهما يذوب بمجرد ملامسته الارض ولا تزال الاشجار مجردة من اوراقها فالريف العاري من الخضرة كالبيت الخالي من الفراش والاثاث. على ان نفحة من الحياة انشأت تدب وتسري في مادة الكونجيبه ولن تلبث ان تملأ ما خلفه الفصل المنقضي من الفراغ وقد أمست الآصال عندنا في غاية الصفاء واللطف ولذلك ترى (اميل) اذا رأى الجو صحوا أبدى من القلق ما يدل على رغبتــه في أن يحمل الى الحديقة ولما كانت الشمس في كورنواي خصوصاً زمن الربيع لاضرر فيهـا على أحد بل تلائم الاطفال والشيوخ أعتادت جورجية أن تفرش سجادة على الحشيش الجاف وتجلس عليها (اميل) ليلعب ويمرح كما يشاء ولما رأيته يعتمد علينا في حراسته مدة وجودنا معه قصدت أن أعلمه شيئاً من الثقة بنفسه والارتكان عليها فاوعزت الى جورجية بالتنحي عنه واختفيت أنا أيضا عن بصره من غير أن يغيب عن عيني فلاحظت أنه في مبـدأ الامر خاف

(١) زورواستر هو شارع ديني للأمم البكترياينة وهم سكان قسم من اسيا كان يدعى قديما بكتريانيا وهو الآن تركستان وهذا الرجل هو المؤسس للديانة البرسية التي تدعو الآخذين بها للاعتقاد بالهين وهما الضياء والظلام أو منشأهما وهما روحا الخير والشر ويسمي الاول اوروموزد والثاني اهريمان أو اهرمن وهذا هو أصل مذهب المانوية

عند ما شعر بوجوده وحيدا وأبدي بعض القلق لكنه ما لبث ان تشجع وقوي قلبه فكنت حينئذ اراه يفتح عينيه ويلتفت الى كل ما يحصل حوله ويحرك يديه الصغيرتين كأنه يذود ذبابة تطن فوق رأسه فاخذت على نفسي من هذا الوقت أن اكف عنه مراقبتي حينا بعد حين حتى اذا أحس بقلة حمايتي له تعلم كيف يستغني عن مساعدة غيره .

كلما فكرت في فروض الامومة بدا لي منها معنى قلما يشابه ما يفهمه غيري من النساء فإني أرى أنه من الواجب علي بمجرد ان يكبر (اميل) ان أحرم نفسي من لذة مكاشفته في كل وقت بأني مهتمة به لان اكبر شيء يعيق نمو المشاعر في بعض الاطفال ويعطل استقرار طباعهم انما هو فيما أرى طريقة القائمين عليهم في تربيتهم فانهم بكثرة حياطتهم اياهم بضروب من العناية البالغة غايتها من الظهور والناشئة عن فرط الاهتمام بهم يعودونهم على ان يعيشوا غير مهتمين بأنفسهم فان الطفل اذا كان غنيا متعجرفا لا يتكلف اعمال ملكة الاحتفاظ بنفسه بل يكون شأنه كملوك الشرق الحمقى الذين يهون عليهم ان يسموا مشيري دولهم أبصارهم واسماعهم طيبة بذلك نفوسهم لانه يعتاد على ان يستعين في ابصاره وسماعه بالمربيات القائمات عليه المكلفات بخدمته وتعرف حاجاته لقضائها ولاشك ان هذا الطفل المبالغ في حفظه اذا رأى نفسه يوما ما بعد ان كان محوطا بامتن أسباب الوقاية قد خلي بينه وبين أقل خطر يلم به يكون اسوأ الناس حالا واكسفهم بالا بل يكون هو الشخص الذي يحكى عنه ان كان يخاف من ظله .

يدعوني (اميل) بافعاله وأحواله الى التفكر في كل شيء فقد ذكرني

بالامس شخصا من المذكورين في اساطير الاقدمين . ذلك ان الاطفال لاحساب للمسافات عندهم وهذا الامر فيهم منشأ لكثير من الاغاليط البصرية فقد كنت في الحديقة وكانت جورجية واقفة ازاء شباك من شبابيك المنزل المشرفة على مكاني وهو على يديها فلم يكن الا اذ رآني حتى بدت عليه علائم الابتهاج ومد الي يديه كالجناحين على ان الشباك الذي كان يطل منه هو في الطبقة الأولى من البيت فلما لم تصل الي يداه ظهر عليه الاندهاش ثم افضى به الامر الى أن غضب واحمر وجهه والذي كان يبتغيه مني بحسب ما يحلو لي اعتقاده هو ما ابديه له من صنوف الملاطفة والمداعبة بل كان يريد ايضا التقام ثديه لانه لم يكن رضع من بضع ساعات فلم يكن لهذا المحبوب المسكين مثيل في عذابه هذا الا طانتال (١)

(اميل) يعرفك بل يعرف صورتك التي أريه أياها ذاكرة له اسمك ولا اخالني واهمة في ذلك فانه بحملقته في مثالك وابتسامه له ومده يديه نحوه يظهر عليه انه قد عرف والده تخمينا .

---

(١) طانتال في اساطير الاقدمين هو ملك فريجيا التي هي قطر من اقطار آسيا الصغرى وكان قدم للآلهة اشلاء اولاده طعاما فعوقب بالجوع والعطش في جهنم ويضرب بعذابه المثل فيقال فلان يعذب عذاب طانتال اذا كان على الدوام يعتقد انه قد صار من رغائبه بمكان اللامس وهو في الحقيقة عاجز عن ادراكها

الرسالة الثامنة

﴿ من اراسم الى هيلانة في ١٥ يونيه سنة — ١٨٥ ﴾

تصويب رأيها في تعرف اذاوق «اميل» وانتقاد الوالدين اللذين ينشآن الطفل على مثالهما في الطباع والاذواق وبيان ماهية الطبع وانفعالات الطفل واسبابها ودوائها ووجوب مقاومة التربية لاهوائه الفاسدة وبيان ان لهذه المقاومة طريقين أحدهما إلهاؤه عنها والثاني جعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها

لاسبب لانقطاع رسائلي عنك الا ترقبي فرصة تمكنني من ايصالها اليك وقد تلقيت مكاتيبك الاخيرة فأخذ ماذكرته فيها عن (اميل) بمجامع لبي وبعث فيّ دواعي الحنان والرحمة ولم أكن الى الآن أعرف شيئا من ذلك في حياتي التي قضيتها في العلم ومناظرة الحكماء ومقارعة خطوب الدهر ولا غرو فاني ولدت مستعدا للابوة وأود لو أرى ولدي ولو بذلت في سبيل ذلك جميع ماأملكه من الحطام. واني مخبرك بأمر وان كان لا ينبغي مكاشفتك به وهو أني كنت عزمت عدة مرات على دعوتك الى الحضور اليّ به على ما بيننا من البحار الزاخرة والمسافات الشاسعة لعلمي بأن مافيك من الاقدام ورباطة الجاش تتضاءل دونه العوائق فلا يثنيك منها شيء عن تلبية دعوتي وكأني بك بعد هذا تسألينني عن السبب الذي منعني من هذه الدعوة ولا يزال يمنعني منها فأقول انني قلت في نفسي قد يكون من الاثرة أن أحمل بسجني ذاتين هما من أحب الناس اليّ واخفض من حالهما ولا حق لي في أن استلب من هذا الطفل غرارته وغفلته وبواكير سروره وابتهاجه بإلصاقه بي في محنتي التي خصني بها القدر معاقبة

الله ان يكون مني ذلك فليشب وليترعرع حراً مغتبطاً في جناح والدته وكنفهما .

أراك محقة في اهتمامك بتعرف اذواق (اميل) فان الوالدين في الجملة ينشئان اولادهما على مثالهما في الطباع والاذواق على أن هذا الامر هو الذي كان ينبغي اجتنابه لان الطفل اذا كان ألعوبة في أيدي كبار المتوطنين بسياسته وآلة تنفصل بمشاربهم وأفكارهم فانه يعتاد موافقتهم في جميع الامور وهذا هو السبب في ندرة الرجال المستقلين استقلالا صحيحا في هذه الايام. وانا اذا فتشنا عن العلة في وشك زوال ما فينا من انواع الاستعداد والقابليات الخاصة والسير الثابتة فربما وجدناها في تربيتنا الاولى فإنها مثار آفاتنا ونقائصنا النفسية .

ولنبحث ابتداء في ماهية الطبع فنقول: جرى اصطلاح العلماء باطلاق هذا اللفظ على مجموع من القوى المؤتلفة التي لا شك في أنها ترجع بأصلها الى الفطرة ولكنها على الدوام في تغير وتجدد لاسباب باطنية وظاهرية فمن الاسباب الباطنية الارادة فان لها شيئاً من التأثير في اهوائنا وشهواتنا ومحباتنا وكأني بسائل يقول وهل هذه الارادة نفسها خلقية أو مكتسبة؟ فاجيبه انها تجمع الوصفين على ما اعتقد لانها تكاد تظهر في الطفل بمجرد ولادته وكلما شب وكبر قويت وتحددت وجهتها بالتدرب عليها والممارسة لها ، واما الاسباب الظاهرية فيكفي ان نمثل لها بالبيت (العائلة) والتربية والاختلاط بالناس ومعاشرتهم. فلو ان الفرنسي المسيحي ولد في الصين من اب نشأ على آداب كونفوشيوس [1] وتعاليمه لكان مغايرا لنافي آرائه وسيرته.

---

(١) كونفوشيوس هو احد مشاهير فلاسفة الاداب وعلماء الاخلاق في الصين. ولد في سنة ٥٥١ ومات في سنة ٤٩٩ قبل المسيح .

القوى المؤلف منها طبع الطفل تكون في الايام التالية لولادته كأنها محجوبة بادراك مشاعره وهو في هذا الوقت يشعر بوجود ذاته بل هـذا الشعور قد يكون أحياناً هو الغالب عليه ولكنه قلما يبدو منه الا حركات ارادية وأعني بهذه الحركات ضروب الرعدة والهياج بل وأنواع الصراخ التي تصدر عنه فان كل ما من شأنه أن يولد الماً أو يحدث غضباً يكون فيه مدعاة الى ظهور هذه العلامات الخارجية وكثيراً ما تبدو منه حركات نخالها مخالفة مغايرة للعقل لعدم تدقيقنا النظر في السبب الذي يحدثها ولو دققنا النظر لظهر لنا انها لا تكون منه الا طلبا لتحصيل لذة او تخفيف ألم ونحن بذلك جاهلون وعنه غافلون . فالغلام الذي في الثانية أو الثالثـة من عمره اذا طلب من مربيته شيئاً فمنعتـه إياه فاستلقى على الارض وانشأ يتمرغ وينتف شعر رأسه غيظا تكون أفعاله هذه معقولة في حقه لانه يجد فيها بطريق الالهام شفاء لاعصابه من تهيجها فيتلاشى بها حنقه وتنكسر حدته وكذلك الشأن في البكاء وغيره من الوسائل التي يزول بهـا عن اعضاء الجسم ما تجده من الالم بسبب توتر اعصابها .

على أن بعض هذه الحركات الغريزية يبقى ملازماً لنا حتى في زمن الرجولية فان كثيراً من الناس من يضرب بيده على جبهته اذا بلغه خبر سيء ومنهم من يزغزغ انفه ومنهم من اذا جاءت الامور على غير مراده انبطح فوق فراشه ومن هـذا تعلمين ان اعقل الرجال تصدر عنه غالبـا وهو في شدة انفعاله حركات لا تصدر الا عن مجنون وأنا لا أماري في انه يفقد ماله من السلطان على نفسه في هذه الحالة ولكني أقول

ان في هذه الافعال التي تصدر عن غير روية حكمة وان كنا لا نرى فيها الا جنونا وحمقا . ذلك أن للنفس حالات تقتضي من الجسم أوضاعا مخصوصة لعلة محجوب عنا علمها فمن الآلام النفسية ما يميل بنا الى الهجوع والسكون ومنها ما يدفعنا الى المشي والحركة ولا سبيل الى إكتناه علة هذه البواعث الوقتية التي تدفع بعض اعضائنا الى التحرك عند حدوث شيء من الاضطرابات العقلية الا الاعتراف بأن الوصول الى معرفة هذا السر مما ليس في مقدورنا وهو سر آخر جدير بالتفتيش عن سببه .

أول حرية تجب علينا للطفل هي أن يكون مختارا في حركاته ومقتضيات غرائزه واني وان كنت كغيري من الناس لا احب ان أرى ولداً مسكينا يحمر وجهه من الغضب ويبلغ به الانفعال الى درجة الجنون ارى ان الإغضاء على بوادر ذلك الغضب اخف ضررا من قمعها بالافراط في التسلط أو القهر فانه لا شيء أردأ مغبة في الغيظ من اكراه صاحبه على كظمه ولا اسوأ في الطباع ولا أخس في الخلائق مما يقمع دائما ويرغم صاحبه على إخفائه . على أن الطفل سيتعلم في مستقبل أيامه ان من موجبات كرامته ان يملك نفسه عند الغضب ويكف سورة انفعالاته وان البكاء وحركات الضجر وخفة الفرح الخارج عن حد الاعتدال مما لا يليق بالرجال قطعاً بل سيكون كالآلات البخارية تحرق ما يتولد من دخانها ولكنا يجب علينا ان ننتظر في بلوغه هذه الغاية ريثما ينمو عقله وتقوى ارادته .

ولست أعني بهذا ان يترك الطفل وما يعتوره من الانفعالات لعدم وجود ما من شأنه أن يزيلها كلا فان الاطباء قد اخترعوا لعلاج الجنون طريقة سموها التلهية النفسية يمكن اتخاذها في تربية الاطفال على ما أرى .

على أنها معروفة للمراضع من زمن لا تاريخ لمبدئه فقلما توجد واحدة منهن لا تعرف كيف يسكن غضب الطفل بصرف وجهه الى ما يلهيه ويشغل فكره ويمكن تعميم العمل بهذه الطريقة فان من الاطفال الحديثي السن جدا من يكون لهم شغف بالموسيقى من صغرهم ومنهم من يسهل إلهاؤهم بمجرد النظر اليهم ومنهم من يجد في رؤية الحيوانات لذة مخصوصة ومنهم من يجد هذه اللذة في رؤية بعض الاشخاص فينبغي النظر في هذه الاذواق الخلقية لان جميعها من الوسائل التي يمكن الاعتماد عليها في تربية الطبع فيهم .

انا لا اعتقد ان في الانسان خلائق شرية محضا ولكن يوجد من خلائقه ما اذا غلبت عليه وأسيء تصريفها فانها ربما تؤدي الى عواقب وخيمة فاذا سأل سائل هل يجب اعدامها اجبته ليس هذا من رأيي لاننا مع تسليم امكان الوصول الى هذه الغاية نكون قد خالفنا مقتضى الفطرة مخالفة ظاهرة وانما الذى ينبغي علينا عمله هو معارضة تلك الغرائز بمشارب وأذواق أخرى .

اجد في نفسي ميلا الى اعتقاد انه لا يوجد طبع مهما كان فساده الا وقد انطوت فيه وسيلة للخلاص منه فلوان القائمين على التربية حذقوا في التدرع بتلك الوسائل لمكافحة الطباع السيئة ومغالبة الاخلاق الرديئة في الوقت المناسب لذلك لحفظوا على المجتمع الانساني كثيرا من افراده الذين خسرهم خسرانا مؤبدا في السجون ومعاهد العقاب بالاشغال الشاقة ولست أضرب لك تاييداً لهذا القول الامثلا واحدا أقتبسه من مذكراتي الخصوصية : حدثني لص انه انزلق ذات ليلة في ملهى موسيقيّ فجلس على احد مقاعده لا ليسمع المغنين بل ليترقب فرصة تمكنه من سرقة ماعساه

يجده في جيوب مجاوريه فان هـذا الامر كان مهنة له ولكنه كان هو المسروق في تلك الليلة لانه كان ذا كلف بالموسيقي فلم يكن الا ان سمع أول رنة للكمنجة حتى أحسّ بانعقله قد ساب ولما انشأ المغني دوبريه [١] يغني صار الى حالة اسوأ من ذلك لفنائه عن نفسه فيما وجـده من اللذة في ذلك اللحن المعروف بلحن الشيطان روبرت الذي في الفصل الخامس من تلك القصة الغنائية حتى انه ليخيل له انه لا يزال يسمع رجع صـداه وجملة القول انه نسي الاشتغال بمهنته تلك الليـلة فلما كان مساء اليوم الثاني عاد الى ذلك الملهى نفسه عاقدا نيته على ان لا يفتتن ببنت البحر [٢] ولـكنه في هذه النية لم يحسب حساب نزيله الذي بين جنبيه أعني ميله الفطري الى سماع الالحان فخرج في هـذه الليلة أيضا ممتلىء الاذنين صفر اليدين ومن أجل هذه الخيبة أقسم ان لا يعود فيضع قدميه حيث يكون المغنون قائلا انه ان فعل خسر ميله الى حرفته وهو قول دال على قحته واجترائه على القبائح .

الاهواء الفاسدة في الانسان هي قوى مستبدة يبعثها نموها الفطري او المكتسب على أن تملك قياده فتتغلب على ما فيه من ضروب الوجدان او الافكار فمن البديهي انّ هـذه الاهواء هي التي يجب ان تقاومها التربية من اول النشأة وهذه المقاومة يصح ان تكون على طريقتين اولاهما

(١) دوبريه هو جيلبيرت لويس مغن فرنسي شهير ومعلم لفن الغناء ايضا وله فيه تآليف (٢) بنت البحر في اساطير الاقدمين هي ذات خيالية نصفها الاعلى نصف امرأة والاسفل نصف سمكة كانت تفتن السائحين بلذيذ غنائها فتجذبهم الى شعاب صعبة حيث يهلكون والمراد هنا المغني ففي الكلام استعارة

الرجوع الى انواع التلهية التي تشغل الطفل عنها وتصرف ذهنه الى غيرها كما سبق لي بيانه وثانيتها جعله بمعزل عن البواعث الخارجية التي تهيج من غرائزه ما يغلب على الظن ان في تحريكه وبالا عليه فان في بعض الاشياء شيطانا رجيما كما ستعلمين من حادثة جرت في ايقوسيا (١) اقص عليك خبرها لتفهمي ما أريده بالبواعث الخارجية التي تهيج الغرائز :

وهي أن أمرأة عليها سمة الاحتشام والحياء دخلت أحد حوانيت الطُرَف فلما انتقت ما ارادت ابتياعه وحان وقت دفع الثمن وكان في نحس طالعه كربع ساعة رابليه (٢) اخرجت من جيبها ورقة مصرف (بنك) قيمتها خمسة جنيهات انكليزية فلما نقدها كاتب الحانوت لم يلبث ان عرف تزيفها فبهتت المرأة المسكينة واخرجت له أخرى لكنها لم تكن باحسن من الاولى فارتاب الرجل في امرها وسلمها الى الشرطة ولم يكد التحقيق يأخذ مجراه حتى ظهر انها كانت خادمة في بيت استوجبت احترام اهله اياها بما لها من حسن السيرة والصدق في الخدمة وان الايقوسي الذي كانت في خدمته كان قبض من احد معامليه قبل هذه الحادثة ببضع سنين هاتين الورقتين المزيفتين وأخطأ في عدم تمزيقها لتعاسة حظ هذه المحدودة وانها لاعتيادها دخول حجرته في كل صباح للقيام بمقتضيات الخدمة كانت تراها مختلطتين باوراق قديمة فلم تعبأ بهما كثيرا

---

(١) ايقوسيا جزء من الجزائر البريطانية (٢) رابليه هو كاتب قصص فرنسي مشهور واسمه فرنسيس ولد عام ١٤٩٥ ومات عام ١٥٥٣ م فاتفق له ان حل في نزل وجلس يأكل مع جماعة فلما جاء وقت المحاسبة على ثمن الاكل لم يكن معه ما يدفعه في حصته فخرج صدره وكأن الساعة كانت دقت الربع اذ ذاك فضرب بوقته هذا المثل لنحس الطالع

اول الامر ولكن لما تكرر حضورهما أمام بصرها من يوم الى يوم ومن اسبوع الى آخر ومن شهر الى تاليه انشأت تمعن النظر فيهما وكأن هاتين الورقتين اللتين كانت تخالهما على بلاهما صحيحتين كانتا ترنوان اليها من طرف خفي وتخدعانها وتناجيانها بنصائح غريبة فرفضت بادي ءبدء فكرة اخذهما وابعدتها عن نفسها فراسخ لكنها لم يبق في وسعها ان تكف النظر عنهما متى وجدت في الغرفة التي هما فيها ثم انها فى ذات يوم لمستهما بيديها وبسطتهما وأخذت تقلبهما ثم ردتهما فورا الى اضبارة الاوراق البالية التى كانتا فيها كأن فيهما نارا كانت تحرق اصابعها وما زال بها هذا الاغراء حتى غلبها واوقعها فيما علمت .

فاذا كان هـذا تأثير الاشياء في الكبار فما ظنك به في الصغار نعم انهم ولله الحمد ليسوا كلهم لصوصا وفوق ذلك قلما تعرض لانظارهم اوراق المصارف صحيحة او مزيفة ولكن توجد عدة من الخلائق الاخرى التي يهم المربين ان لا يقوّوها فيهم بنظر ما يوقظها من الاشياء فان رذائلنا وفضائلنا ليست مجرد معان ذهنية بل لها بالخارج ارتباط قوي فهي تطابق فيه امورا واحوالا شتى يكون بها تأثرها وعنها انفعالاتها. فالشراهة مثلا تتحرك في الانسان بنظره الى الطعوم وشمه روائحها والغيرة تتيقظ فيه بسماعه ما يقال لغيره من رقيق الكلام ورؤية ما يعامل به من صنوف الملاطفة. فاول واجب على المربي هو البحث عن طبع الطفل ومعرفتـه والواجب الثاني هو ان يقطع عنه مواد الفتنة اعني البواعث المادية التي تتخذ مشاعره ذرائع لاغراء طبائعه السيئة واثارتها فلكثير من الاطفال الحق في ان يقولوا للقائمين عليهم ناشدناكم الله لا تدلونا بغرور .

ثم لا ينبغي ان يعزب عن ذهن المربي هذا الناموس الفطري وهو أن الطبائع والغرائز كما أنها تقوى وتنمو بالممارسة هي تضمحل وتزول بعدمها فبه تملك قمع بعض المشارب الشديدة التي تظهر في الطفل على اذواقه الفطرية الاخرى وتمنعها من بلوغها غايتها. فاكبر عمل للانسان في اصلاح نفسه منفردا هو مكافحة ما يتغلب عليه من سيء الاخلاق ورديء الطباع كما ان اجل سعي في اصلاح شأنه مجتمعا هو ردع المعتدين وكسر نخوة الطغاة الظالمين .

كأني بقائل يقول هل يكفي في تربية الطفل ما ذكرته من جعله بمعزل عما يثير فيه غرائز الشر وايجاد التوازن والتساوي بين طبائعه؟ فأجيبه لا شك في عدم كفاية ذلك فان طريقة التربية هذه سلبية والواجب علينا هو أن ننبه في الطفل بمجرد ان يشب ضروب المحبة وعواطف الخير وقبل الخوض في هذه الطائفة الجديدة من المسائل يجب عليّ ان ابحث أولا فيما يتخذه الناس من الطرق عادة في تربية طبع الطفل كحمله على الامتثال المطلق وتخويفه بالعقوبات وترغيبه في المكافآت وكقوة القدوة والاعتقاد الديني وقواعد علم الاخلاق وأسائل نفسي عما تساويه هذه الحيل المختلفة . اه

الرسالة التاسعة

(من اراسم الى هيلانة في ٢ يونيه سنة ـ ١٨٥)

ضرورة استعمال السلطة في سياسة الاطفال والتعجيل بالكف عنها متى تيسر ذلك وبيان ضرر قهر الطفل على الامتثال

لا مراء في لزوم الاستعانة بضروب السلطة المطلقة في تربية الاطفال

اذا كانوا حديثي السن جدا رعاية لمصلحتهم فيؤمر الطفل منهم بالاقبال فيقبل وبفعل كذا فيفعل وينهي عن الانطلاق الى جهة كذا مع قرن هذا النهي بفعل يحول بينه وبين الذهاب اليها فلا يذهب. مثل هذه الاوامر الصريحة التي تصدرها الام لولدها مع تلطيف شدتها بنغمة الصوت فيها ومباشرة ائتماره بها بنفسها مما لا بد ان يقبل عذرها فيه لانها انما تخاطب بها ذاتا مجردة من العقل. على أن الافضل التعجيل بالكف عن الالزام والقسر متى صار ذلك ميسورا .

قهر الطفل على الامتثال وإلزامه إطاعة الاوامر يستلزم حتما اخماد وجدان التكليف في نفسه خصوصاً اذا طال امر ذلك القهر فانه اذا كان غيره يتكلف الحلول محله في الارادة والحكم المطلق على الخير والشر والانصاف والجور لم تبق له حاجة في الرجوع الى وجدانه واستفتاء قلبه وعسى ان لا يكون هذا شأننا مع «اميل» لان الحلول محله في عمله اعني إلزامه اتباع اوامرنا يميت فيه قوى عزيمته الشخصية فمن أجل ان يكون له قيمة حقيقية يجب أن يصير خيراً صالحا باختياره لا رغم انفه وان تكون افعاله صادرة عن ارادته واود كثيراً ان يكون من صغره عارفا بخصائصه ونقائصه ليزيد في الاولى ويتجرد من الثانية بتقدمه فى سبيل الحياة. فعلينا اذن ان لا نتعامي من اول الامر عن حقيقة ولا يتنا عليه وحدودها فان الطفل لا يصير صالحا بعمل الغير بل يكون كذلك بنفسه وكل ولا يتنا فى تربيته تنحصر فى ارشاده الى استخدام وجدانه ويجب علينا أيضا فى سبيل إرجاعه عما يقع منه من الهفوات فى سيرته ان نقنعه بمضرة الاشياء القبيحة بما فى تلك الاشياء من البراهين الذاتية على ضررها لا بما للناس من الحجج

المتسلسلة ولواني اسعدني الحظ فتوليت تربيته بنفسي لما طالبته بطاعتي فيما آمره به بل متى تمكنت من مخاطبة عقله نصحته بأن يسير على مقتضى القوانين التي تجري عليها شؤون الكون المعنوية وحوادثه المادية .

يجري معظم الآباء مع ابنائهم على هذه الطريقة في الاستدلال وهي « اعتقد صدق ما أقوله لك وافعل ما آمرك به وسأثبت لك بعد ذلك انه هو الحق والعدل » وانا لا اسير عليها مطلقا بل اجتهد في اقناع «اميل» بأن الامر الذي انصح له باتباعه أو باجتنابه هو حسن او قبيح لا لاني أراه كذلك بل لانه قد يكون مفيداً للناس أو له أو مضرا بهم وكأني بك تقولين: ان ذلك يقتضي ان يكون للطفل المربى مزايا عقلية خاصة به يقل وجودها في غيره من الاطفال. فاقول كلا بل لا يقتضي الا ذوقا كبيرا وبساطة كلية فيمن يتولون تربيته وتعليمه فليس الذي يؤثر في ذوق الاطفال السليم هو كثرة الكلام الذي يرمى به جزافا او طول الشرح في القول وانما الذي يؤثر فيهم هو حسن النيات ونبل المقاصد لانهم اقوى بصيرة مما تتوهمه ألف مرة .

الطاعة الصادرة عن حرية واختيار ترفع طبع الطفل، والاذعان الناشئ من القسر يحطه، فللام ومعلم المدرسة كلمة يقولانها عن الطفل العنيد العاصي لاوامرها وهي قولها « سأذلله » والحقيقة هي أن الناشئين على طريقتنا الفرنسية في التربية مذللون دائما . نعم قد يقال ان في اتباعها مصلحة للاحداث وللمجتمع الانساني ولكن سائس الخيل له ايضا ان يقول للحصان الذي يروضه «لا تجزع فاني انما افعل هذا بك لمصلحتك» على ان اطلاق

الترويض على الحصان اصلح من اطلاقه على الانسان لان هذا الحيوان لا يخسر بترويضه باللجام والمهماز الا حدته الوحشية وأما الانسان فانك اذا اخذته بالقهر وسسته بالارغام والقسر تذهب بحب الكرامة من نفسه، وتبخس قيمته في نظره، على ان الخوف وازع ضعيف فانه لا لص ولا فاتك الا وهو يرجو النجاة من العقوبة على جريمته حال ارتكابها ولا طفل يعصي ما يأمر به قيمه ومعلمه او يعمل الشر الا وهو يتخيل في نفسه مهارة في الخلاص من تبعة ذلك فاذا نجح في هذا ولو مرة واحدة يحمله هذا النجاح على الثقة التامة بنفسه في خداع القائمين بتربيته وتهذيبه ومواربتهم . والطفل الذي يعامل بالقسوة ويؤخذ بالعقوبة يستجم قواه ويستجن بكبره وعناده على حقارتهما ليقاوم سراً حملتنا عليه بولايتنا المعنوية.

لا شيء اسهل على الوالدين من إلقاء نير استبدادهما على عنق الطفل كما أنه لا شيء اصعب عليهما بعد ذلك من استرداد ما يفقدانه من ثقته بهما ومتى شعر بأنهما يسوسانه بالهوى والاستبداد لا يخضع لهما الا بالضغط والالزام وفي هذه الحالة ترى عليه امارات الانقياد والطاعة ولكنه يطوي جوانحه على نوع من التذمر والعصيان يستره الرياء وتترقب ارادته اذا انقبضت في ظل السوط الوقت الملائم لاستعمال الخداع والمكر فان الخداع هو سلاح الضعيف يعده للاحتماء به من شر القوي، ولكون الطفل عاجزا عن مكافحة أهله تجده يبحث دائما عما يخلصه من ولايتهم وطالما عجبت من خبثه واجترائه على الاختلاق في مثل هذه الحالة فان كثيراً من الاطفال لا يبلغون السابعة والثامنة من عمرهم حتى يحاكوا في المكر والاحتيال اسرى

بلوت [١] واسقايني موليير [٢] بل وفيجارو بومارشيه [٣]

ومن عواقب القهر الوخيمة انه يغيض ينبوع الفرح والسرور في نفوس الاطفال فما اشبه الطفل المحروم من حريته بفصل الربيع الذي لا تشرق فيه الشمس ! اتحسبين أن هذه العواقب تنتهي بانتهاء سن الطفولية فلا يكون لها أثر في مستقبل حياة الطفل ؟ كلا إنني لاعرف لاول وهلة من رؤية الرجل ما كان من نعمته او بؤسه في طفوليته . ترين الذين يربون بالقهر جبناء عابسي الوجوه كاسفي البال ويكون لذلك ظلمة في عقولهم وعصل في طباعهم (اي اعوجاج بصلابة)

وأنا أسأل الله (سبحانه) ان يخلصنا من المتمالين والمعامين، فانهم هم الذين يفسدون اخلاق الناشئين .

الرسالة العاشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٣ يونيه سنة ـ ١٨٥)

وجوب اجتناب تخويف الطفل بالعقوبات الالهية والخوض معه في المسائل الدينية وتركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات

أظن أن ما ينسب للاعتقاد الديني من التأثير في طباع الناس

---

(١) بلوت شاعر هزلي لا تيني برع في اشعاره زمن الحرب البونيه الثانية وكتب عشرين رواية كان من الممثلين في بعضها جماعة من الاسرى جعلهم مظهر الخبث والخداع (٢) اسقايني موليير هم اشخاص من الممثلين في بعض روايات موليير الكاتب الفرنسي الشهير جعلهم عنوانا للدسائس والخبائث (٣) فيجارو بومارشيه اشخاص من الممثلين في روايات الكاتب الفرنسي الشهير بومارشيه ناطهم بتمثيل الدسائس والفتن

واخلاقهم مبالغ فيه كثيرا[١] وعلى كل حال نقول ان التصديق بأن الانسان يوفى جزاء أعماله في دار أخرى بعد هذه الدار يعرض صاحبه لانواع من خيبة الآمال تكون آلامها صعبة الاحتمال فانه اذا هبت عليه اعاصير الشبه في مستقبل ايامه فزعزعت اركان عقيدته التي بنيت عليها الفروض

(١) حاشية المترجم : معظم ما كتبه المؤلف في هذه الرسالة غير مسلم وهو يدل على ضعف يقينه بدينه وعدم اكتراثه بتكاليفه التي لا يعتبرها الامن الأمور التي جرت بها العادة وكأنه لم يبلغه خبر الامم التي وصلت بدينها الى أوج الكمال النفسي وغاية التقدم الحسي فأي شئ أخرج الأمة العربية مثلا من ظلمات الجهل الى نور العلم ومن رذائل التوحش الى فضائل المدنية سوى دينها القويم الذي جاء به الرسول الكريم ؟ ولست أدري كيف ان الاعتقاد بالدار الآخرة وما يكون فيها من الثواب والعقاب يدعو الى خيبة الآمال ؟ لاشك أن القائل بهذا منكر للبعث وهي ضلالة جره اليها التطرف في النظر كما جر اليها كثيرا من امثاله . ولا اراه الا مبالغا في انتقاده على بعض المسيحيين ما يصدر منهم لاولادهم من التهديد بالعقاب الالهي ولا نسلم أن هذا التهديد يكون له من الاثر ما يتوقعه وكأنه يعتقد ان الله سبحانه لا يتصف الا بالرحمة والاحسان وينبو عقله عما وصف به نفسه من القهر والجبروت والانتقام وليس الامر خاصا به بل قد لاحظته فيما كتبه غير واحد من أهل النظر وهو خطأ بين يدل عليه العقل والنقل وترجيحه تخويف الاطفال بالاغوال المشوهة على تخويفهم بالعقاب الذي أعده الله لمخالفي أوامره للعلة التي ذكرها من خطل الرأي فيما أراه لاطلاقه القول فيه دون تقييده بسن معينة لأنه لا ضرر على الطفل المميز من تحذيره من غضب الله عليه إذا خالف أوامره مادام انه يرغب أيضاً بنيل رضاه ورحمته اذا أطاعها . على ان عبارة المؤلف في تعليل هذا الترجيح بينة الفظاعة لا تليق بمقام الربوبية ثم أي ذنب للأديان التي لا يؤمن بها اربابها أو يكون ايمانهم بها ناقصا فيدعو الى تحاميها والحذر منها ووصفها بأنها « اضر الاديان بكرامة الانسان » الا ترى أن اقوم دين وأصحه في نظر العقل وأدعاه الى سعادة الآخذين به وفلاحهم قد تحول دون الجري على صراطه غلبات الهوى وعمايات الضلال فيقع اربابه في مهاوي الوبال فكيف تلقى تبعة ذلك عليه ؟ اللهم ان هذا بهتان عظيم فانه لا دين الا ما أرسلت به رسلك وليس فيه الا ما يرفع شأن الانسان ويعلمه أن يضع نفسه من ذروة الكرامة والمجد

والواجبات فلا تلبث دعائم تربيته الاولى ان تنهار انهيارا تاما فكيف نرجو اذن في هذا العصر الذى ثارت فيه الشكوك واطلقت حرية النظر ان لا تؤثر عوارض الشبه في عقائد الطفل اذا كبر وهي انما تفرغ في مخه حال صغره افراغا وتلصق به لصقا إن صحّ ان يقال ذلك .

فالذى اتمناه « لا ميل » هو ان يكون له وجدان مستقل عن الايمان وليس يهدأ لي بال ولا يطمئن لي قلب على سلامة شرفه وتهذيب نفسه الا بحصول هذه الامنية .

كثيرا ما سمعت بعض المسيحيين اذا عصى أولادهم أو امرهم يهددونهم تهديدا وحشيا وهم في شدة حنقهم بقولهم لهم سيعاقبكم الله ويهلككم وكنت كلما سمعت منهم ذلك تقاص جميع دمي من عروقي الى قلبي غيظا وغما. فليت شعري هل الاستغاثة باحكم الحاكمين على تنفيذ عقوباتنا السافلة في الاطفال والاستصراخ بالذات العلية لتشفي غلنا بالانتقام لنا منهم واقتضاء فعل الشر من الله ليسكن بذلك وجدنا عليهم هل كل ذلك هو ما يعبر عنه بتأسيس علم الاخلاق على الاعتقاد الديني ؟

حاشية أخرى للمنار : أبان كلام المؤلف عن عدم عنايته بالدين كما تقدم في الهامش ولكن له وجها في شيء واحد وهو تلقين الطفل كثيرا من أمور الدين في وقت لا يعقل منها شيأً فما تكون الا كلمات يعتادها لسانه ولا يكون لها أثر في نفسه مثال ذلك الايمان التى يحلفون بها امامه او يكلفونه الحلف بها ومنها التخويف الذي ذكره فاذا كبروفهم معاني ما تلقنه بالمعاملة والمباشرة تكون عند العمل كسائر العادات التي يفعلها من غير ملاحظة معناها وبدون تأثر بها بخلاف ما اذا كان لا يلقى اليه شيء من امور الدين الا اذا استعد لفهمه وتدبره ولذلك حكمت الشريعة الاسلامية بان لا يعلم الطفل الدين (أي العمل بشيء منه) الا في سن التمييز ولا يكلف هو شيئاً منه الا اذا بلغ رشده

انا لا اجيز في اي حال من الاحوال الاستعانة في تربيــة الطفل بالمخوفات الالهية بل افضل تهديده بالاغوال ومشوهي الخلق من الناس على جعل الاله ذاتا مزعجة فالتهديد بالاغوال والمشوهين يعتمد فيه على روايات خيالية يزول وهمها في يوم من الايام بتقدم الطفل في السن واما التخويف بالله فيخشى منه ان ينتقش مـبدأ الحياة العامة في مخيلته من صغره على صورة طاغية او غول

كأني بك تقولين انك لم تختر من امثلة التربية الدينية لتوجيه انتقادك الا اردأها واحقها بالطعن فاقول نعم ولكن هذه التربية على كل حال فيها عيب شنيع جداً وهو إلزام الناشيء في سيرته باعمال لا يدرك عللها فلو أني قلت للطفل يجب عليك أن تكون مؤدبا عاقلا لتكون محبوباً عند الله لكان ذلك مني بلا شك إلغازا وتعمية لانه لا يعرف ما الله ولا يعرف علامة يميز بها ما يرضيه وما يغضبه واما إن قلت له يجب عليك التزام الادب لتحبك أمك فانه يفهم هذه العلة أكثر من سابقتها بكثير •

من تكلم في الدين مع طفل حديث السن جداً فانما يريد منــه أن يفسد معنى ما يؤديه اليه من الافكار الدينيــة ويقلب المراد منها فلو ان الام أشارت بيدها الى السماء دلالة لولدها على انها هي محل الذات الذي يجب أن يتوجه اليه بدعائه لتوهم ان هذه السماء الدنيا المادية هي الـٰـه •

أنا أعلم ان كثيراً من الآباء لا يهتمون بهذا الامر كثيراً ولا ينظرون فيه نظراً بليغاً ولكونهم ممن يشكون في كل شيء ترينهم يلزمون أولادهم باداء بعض الاعمال الدينية التي لا يؤدونها هم انفسهم او انما يؤدونها امامهم فقط فكأنه لا شأن للصواب والخطأ في حق هؤلاء الاطفال ولا نتيجة

لها وان اهم شيء في حقهم هو ان تكون باكورة اعمالهم في أول حياتهم اتباع ما جرى عليه الناس من العوائد مع ارجاء النظر فيها الى المستقبل. فمثل هؤلاء الآباء يتسببون في افساد وجدان ابنائهم وقوتهم الحاكمة بحقهم وطيشهم او عدم اكتراثهم بشأنهم! فأنا اتحامى الاديان التي يكون شأن الآخذين بها فيها كشأن من لا يؤمنون بها بالمرة أومن لا يؤمنون بها الا ايمانا ناقصا فانها أضر الاديان بكرامة الانسان(١).

فاحتراما «لاميل» ولطائفة من المعاني التي يجب ان ينظر فيها متى كبر بفكر خال من التأثر بغيرها أود ان يجتنب في تربيته زمن طفوليته الخوض في المسائل الدينية فاننا مؤتمنون على عقله وعلى حرية ضميره ومسئولون عن ذلك فاذا نحن عجلنا بحرمانه من حق النظر فقد ثلمنا امانتنا اه.

---

(١) يقول محمد رشيد ناشر الكتاب: انه تحامى الاديان التقليدية التي لا يؤمن بها منتحلوها وإنما هي جنسية لهم اويكونون كلهم كذلك ومايؤمن بها منتحلوها إيماناً ناقصاً ويبقى الدين الذي يمكن أن يؤمن به اصحابه إيماناً راسخاً ويكونوا منه على بصيرة كما قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « ١٢ : ١٠٨ قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » ولعل المؤلف كان يظن ان هذا النوع من الدين لا وجود له فلذلك لم يذكره. هذا الدين لايحرم علي اصحابه شيئاً الا اذا كان ضاراً باجسامهم او ارواحهم اوعقولهم او أموالهم اوأعراضهم فهو يرشدك الى ان تعلل كل ما تأمر به الطفل وتنهاه عنه بمنفعة المأمور به ومضرة المنهي عنه مع اعلامه عند مايعقل ويرشد بأن له حياة بعد هذه الحياة أعلى منها وأشرف لايسعد فيها الا من ارتقت نفوسهم بالايمان والفضيلة والاعمال الصالحة ولا يشقى فيها الا من سفلت نفوسهم بالوثنية والرذائل والشرور « ٩١ : ٩ قد أفلح من زكاها ١٠ وقد خاب من دساها » فاذا كان كتاب هذا الدين يعلل الاوامر الادبية وغيرها والنواهي عامة بالمصالح والمنافع ودفع المضار والمفاسد فكيف لايجيز ذلك للمربي؟ يقول « ٤١ : ٤٣ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » فيهديك الى ان تقول «اطع أمك لتحبك»

الرسالة الحادية عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٣ يونيه سنة ـ ١٨٥)

بيان عدم فائدة اصول علم الاخلاق في التربية

معظم من كتبوا في علم التربية يغالون باصول علم الاخلاق ويرفعون من شأنها وانا مثلهم أعتقد ان المواعظ الحسنة وقواعد التهذيب المفيدة قد تبعث العزائم في بعض الاحوال على القيام بصالح الاعمال ولكني لا اعتقد ان ما يلقفه الناشئون منها من افواه معلميهم في دروسهم يغير طباعهم تغييراً حقيقيا وهيهات ان اعوّل عليها في ذلك فاننا نرى كل يوم في المجتمع الانساني أناسا من الظرفاء الاكياس جفاة غلف القلوب على انهم لم يحرموا من النصائح العامة الداعية الى التحاب والتراحم المرغبة في لذة الاتصاف بهما فما من فاسق او شرير او بخيل الا وقد سمع الف مرة من ألسنة الوعاظ قولهم «كن حكيما مهذبا تكن عزيزا مغتبطا»[1] لا تفعل بغيرك مالا ترضى ان يفعله بك[2] «لا تجعل لحطام الدنيا حظا من قلبك»[3] الى غير ذلك من النصائح والحكم.

---

(١) الحكمة واردة في امثال سليمان عليه السلام في التوراة بهذا النص وهو «الرجل الحكيم في عز» (٢) نص الكتاب المقدس في هذا المعنى هو «كما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم ايضاً بهم هكذا» راجع من انجيل لوقا الاصحاح السادس والعدد ٣١ (٣) نص الكتاب في هذا المعنى هو «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ» راجع الاعداد ١٦ و١٩ و٢١ من الاصحاح السادس من انجيل متى.

الانجيل كله مواعظ رائقة وامثال شائقة فليت شعري من ذا الذي يراعيها؟ هل تجدين كثيراً من الاغنياء انفقوا جميع اموالهم على الفقراء بعد سماعهم آية « ان دخول الجمل في سم الخياط ايسر من دخول الغني في ملكوت السموات » (١)

هل تلاقين ولو في القسيسين انفسهم عددا كبيرا ممن يفضلون عبادة الله (سبحانه) على عبادة الدينار والدرهم ؟ هل يرضى أوائل الناس أو الذين يعتبرون انفسهم كذلك ان يعاملوا معاملة الاواخر ؟ هل يسهل على الحاكمين ان ينقلبوا محكومين ؟ كلا بل نرى علماء الدين يغالطون في فهم نصوص الكتاب مخادعين وجدانهم غاشين ضمائرهم وما أكثر ما يؤولونه منها تخلصا من قضائها عليهم وفرارا من عواقب الاخذ بصريحها .

جاء المسيح يدعو الى السلام في كل قول من اقواله فهل رأيت الممالك أصبحت اقل قتالا ؟ ندب الى التآخي بقوله الجميل « كلكم اخوان » (٢) فهل هدم هذا القول دعائم الاستعباد ومحا من النفوس ميلها الى التسلط ؟ توعد من يصلت سيفه بغيا وعدوانا بالهلاك فقال ما معناه « من سل سيف البغي به قتل » (٣) فهل ردع هذا الوعيد من كان بيدهم الحول والقوة عن انتهاك حرمة القانون بالبغي والفساد في الارض قال « من أخذ قميصك

(١) راجع العدد ٢٤ من الاصحاح ١٩ من انجيل متى (٢) نص ما ورد في الكتاب المقدس في هذا المعنى هو « واما أنتم فلا تدعوا سيدي لان معلمكم واحد هو المسيح وانتم جميعا إخوة » راجع الاصحاح ٢٣ والعدد ٨ من انجيل متى (٣) عبارة الكتاب في هذا المعنى هي : « فقال يسوع رد سيفك الى مكانه لان كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » راجع الاصحاح ٢٦ والعدد ٥٢ من انجيل متى

فأعطه رداءك »[1] فلو ان أحدا منا معشر الفرنسيين المتشددين في التمسك بالدين اتبع هذا الامر وجرى على نصه حرفيا السجن في شارتتون[2] خصوصا اذا كان له من أقاربه وارثون .

لم يختص المسيحيون بهذه المواعظ الحسنة فان لليهود ايضا والصينيين والفرس كتبا فيها حكم بالغة ، وكلم نابغة ، ولكنهم لم يصيروا بها أحسن منا حالا فانه لو كان يكفي في تحسين احوال الناس وتهذيب نفوسهم وجود كتاب مفيد في علم الاخلاق لكانت الدنيا قد بلغت غاية الكمال من زمن طويل لانها والحمد لله لم تخل من علماء الاخلاق يوما على اننا لا نسمع في جميع ارجائها الا أصوات آلام المنكوبين والمكروبين ، وتحريق الأرم من المقهورين المغيظين .

أرى انه لا ارتباط بين مذهب المرء وبين عمله غالبا الا في الخيال والوهم فلو أن الخير كله والشر كله كان كل منهما بمعزل عن الآخر في مجرى الحياة وسياق اعمالها لسهل على الناس الحكم فيما اختلفوا فيه من آرائهم ومذاهبهم ولانقطع من بينهم سبب الخلاف باسرع مايكون ولكن هيهات ان يكون الامر كذلك وقد علمت انه لا يعمل منهم بعلمه الا الشذاذ ، انظري الى اصول الاخلاق الانجيلية مثلا تجدي ان من لا يؤمنون

(١) عبارة الكتاب هي: «ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا » راجع الاصحاح ٦ والعدد ٤٩ من انجيل متى (٢) شارتتون اسم لقريتين من قرى فرنسا احدهما تدعى شارتتون لبوبه وهي أشهر قرية في أقليم السين بقضاء وواقعة على نهر مارن والثانية تسمى شارتتون سور لوستير وهي أشهر قرية في اقليم شير بقضاء سانت ارمنر مونت روند وفي الثانية مشتغل للمجاذيب

بألوهية المسيح هم في الغالب اكثر اتباعا لها ورعاية ممن اتخذوا الايمان بتلك الالوهية مهنة لهم ٠

أنا لا اعني بجميع ما قلته هنا ان علم الاخلاق لا فائدة له في التربية وانما الذي اريده بهذا الكلام هو أن حسن ما لهذا العلم من الاصول في الدنيا بأسرها لا ينشئ رجالا كملة مهذبين وقد فهم ذلك حق الفهم واضعو الشرائع فدونوا مادون من تلك الاصول في الكتاب بأوضاع تامة للثواب والعقاب

ثم ان الطفل لا يستفيد مما يلقى عليه من دروس الاخلاق الا اذا كان من الاستعداد والكفاءة بحيث يقدر اسباب اعماله وعواقبها فانى له اذن ان يفهم هذا الاصل الوجداني وقد حجبه عنه ادراك مشاعره الظاهرة واشتداد اهوائه وشرة غرائزه ؟ وأنى له أيضا بان يكون جميع ما يراه من الأسى والامثال من شأنه ان يأخذ بزمام عزيمته الى الخير ويصرفه عن الشر ؟ وليت شعري هل تجرى امه دائما على مقتضى ما ترشده اليه من صالح الاخلاق وجميل الصفات ؟ نرى الوالد يلقي على ولده خطبة طويلة في وجوب مواساة الفقراء والاحسان الى المساكين ثم هو قد لا يلبث ان يلومه اذا اعطى لفقير درهما من الفضة فهو بذلك يبذر باحدى يديه في ذاكرته أصول الانجيل وينقش بيده الاخرى على قلبه صور النفاق والرياء (*)

(*) المنار : محصل كلامه ان تعليم الاخلاق والادب قليل الجدوى اذا لم يترب الانسان عليها عملا وهذا صحيح ولم توضع اصول التهذيب لاجل الدراسة وانما وضعت ليجري عليها المربون فهلا اقرأ قوله تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم « يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » فلم يكتف بالتعليم بل اضاف اليه التزكية وهي التربية العملية على اصول الخير والفضائل

الرسالة الثانية عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٤ يونيه سنة ـ ١٨٥)

بيان قلة نفع القدوة ومطالعة قصص الحيوانات فى تربية الاطفال
ووجوب استقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه

يعوّل علماء الاخلاق كثيرا في تربية الاطفال على قوة القدوة وتأثير الاسوة وانا في هذا موافق لهم ولكن اي ولد يصح له أن يتبجح بانه على الدوام قدوة صالحة لولده

نحن في الجملة نسعى فى غش الاطفال وخداعهم بما نتزين به لهم من لباس الرياء الذى يجعلنا في اعينهم احسن مما نحن عليه في الحقيقة والواقع وبما يصدر عنا كثيرا امامهم من الاقوال والآداب المغايرة كل المغايرة لمعتقداتنا وآرائنا الذاتية وحقيقة الامر اننا نقصد ان نربي طباعهم على ما نشأنا عليه موافقة لحسن رأينا في انفسنا ورغبة في تحقيق غيرنا بهذا الرأي وان نكسوهم من الفضائل ما نتظاهر لهم باننا متحلون به ولكن هيهات ان ينخدعوا بهذه الحيل ومن ظن بهم ذلك فقد اخطأ في فهم معنى سذاجتهم وصفاء قلوبهم خطأ بينا . ان الاطفال يعرفون كال المعرفة مايعتمدون عليه في كشف مقاصد آبائهم والوقوف على شؤونهم وهم يدركون بالحدس والتخمين ما يجتهد هؤلاء في كتمانه عنهم واني لفي شك من ان هذا الكتمان وان حسنت اسبابه يزيدهم في نفوسهم اجلالا وتعظيما .

عاقب والد ابنا صغيرا له لم يتجاوز الخامسة من عمره على اكذوبة

قالها ولم يكد ينتهي من عقابه حتى دخل عليه خادمه مخبرا له بأن زائرا ثقيلا ينتظره في الخارج فقال له ذلك الرجل الوقور « اخبره باني لست هنا » فياله من درس يستفيد الطفل منه الصدق والاخلاص .

انا على يقين من ان «اميل» لن يجد فيك الا احسن اسوة واكمل قدوة وهذا هو الذي يملأ قلبي اطمئنانا عليه ولكن أقول لك الحق غير مداج فيه ولا مدار وهو ان غرضي من تربيته ان يكون ذا طبع مستقل لا مفرغ في قالب طبع آخر مهما كان لهذا الطبع من الكمال واذكر لك هنا واقعة حضرتني الآن تدلك على اني محق في قصدي وهي أني رأيت ذات يوم طفلا في السادسة من عمره راجعا مع والدته من تشييع جنازة وهو من الاطفال الناجحين المتقدمين جدا على حسب اعتقاد الناس وكان يبكي أو يتباكى فارتبت في أمره وظننت انه مخطىء في معرفة من فجع به لان المتوفى لم يكن الا ابن عم بعيد له (على أن الاطفال لا يفهمون حقيقة الموت كما تعلمين) فسألته عن سبب بكائه وكدره العظيم فكان جوابه لي أن قال « لا سبب سوى أني رأيت الآن والدتي تمسح عينيها بمنديلها فبكيت » فاضحكني منه هذا التأثر التقليدي وان كان صادرا بلاشك عن طبع ساذج وقلب سليم . لا أريد ان يكون «اميل» مثل هذا الغلام في تأثره بل أوداته متى بلغ السن التي يرق فيها لمن تصيبه مصيبة ويعطف عليه يكون ذلك منه ناشئا عن غم كارث ألم بنفسه وحزن ممض يضطرم في قلبه .

هل يجب ان يلحق ما يرى من اعمال الحيوانات وسيرها في حياتها بما للقدوة من التأثير في التربية وكيف لا ونحن نرى كتاب الامثال عندنا على بعد مجتمعاتنا من معاهد الفطرة تزدان تآليفهم وتزدهي دروسهم بما

يودعونها من سير الحيوانات واخلاقها وان الطفل من أولادنا لا يكاد يقدر على النطق المفهوم والحفظ حتى يحمل على حفظ اسطورة من اساطير لافونتين [١] كأسطورة الصرصار والنملة مثلا . انا لا انكر ان في حياة الحيوانات عبرا كثيرة وعلوما شتى يجب علينا تعلمها ولكني اقول الا ينبغي لهذا العالم الصغير الذي يحفظ سير هذه المخلوقات الممثلة رواية الكون الكبرى في مشهده الاعظم ان يعرفها ليهتم بشأنها اهتماما حقيقيا؟ فكم نرى من أطفال نشأوا في حواضرنا الكبرى وقرأوا اساطير ذلك الكاتب الشهير لم يروا في حياتهم تلك المخلوقات التي يحكي لهم قصصها ويمثل لهم أحوالها الا قليلا فهم على جهل تام باخلاقها وعوائدها. وفي رأيي ان سليمان (عليه السلام) اعقل من واضعي التعاليم الحديثة اذ قال للكسلان « عليك بالتعلم في مدرسة النملة » [٢] فانه دله بهذا الارشاد على ينابيع علم الاخلاق الفياضة لا على حياضه التي لبعدها عن تلك الينابيع لا توجد فيها الاصبابة لا تروي ظمأ ولا تبرد غلة .

---

(١) لافونتين واسمه جان دولافونتين من اشهر كتاب الاساطير في فرنسا ولد في شاتوتيري سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٩٥م (٢) عبارة الامثال في هذا المعنى هي : اذهب الى النملة أيها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيما « هي » التي ليس لها قائد اوعريف اومتسلط وتعد في الصيف طعامها وتجمع في الحصاد أكلها . راجع الباب ٦ من امثال سليمان والاعداد ٦و٧و٨

الرسالة الثالثة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ٦ يونيه سنة ـ ١٨٥)

بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة

اعلمي ان اخص ما يجب الرجوع اليه في انشاء طبع الطفل هو علم منافع الاعضاء واذا كانت هناك وسائل أخرى يستعان بها في ذلك فلا ينبغي اغفالها .

الوليد يرى في أول أمره محبا لنفسه منقبضا عن غيره لضعفه وعجزه عن الاختلاط فعمل المربي معه هو أن يعمد الى ما وهبه الله (سبحانه) من الغرائز المحمودة الكافلة حفظه فيجعلها أصلا يفرع منه بالتدريج صنوفا من الوجدان أرقى وأشرف من محبة النفس والانقباض عن الناس تربطه بأمثاله وتعطف به على أضرابه ولا اعتداد عندي بما تسمى به هذه القوي السامية الطبعية فلنسمها اواصر او عواطف مثلا وانما الذي اعتد به ويهمني ان أقوله لك هو أنها ليست خيالات ولا صورا ذهنية بل هي حقائق ثابتة لها أصول راسخة في نفوسنا وفي الخارج فكل عاطفة من تلك العواطف النفسية لها ارتباط في الخارج بطائفة من الوقائع فالشفقة مثلا توجد عند رؤية آلام الغير ومصائبه ، والشكر يوجد عند الاحسان واسداء المعروف ، وحب الوطن منشؤه الاعتياد على الثواء بالامكنة والانتفاع بما فيها من الاشياء ، ومحبة الناس تنشأ وتقوى بحسن المعاملة ولطف المجاملة .

جميع العواطف الشريفة والسجايا الحسنة توجد في نفس الطفل لكنها تكون كالنبات في طور البذر فالعالم النباتي مملوء بانواع من البذور ربما لا تتهيأ لها ذرائع النجوم والنبت طول حياتها لما يعوزها من اشعة الشمس والارض الصالحة للإنبات والماء بنسب مخصوصة . كذلك شأن أصول العواطف والوجدانات الانسانية فانها تحتاج في ظهورها ونموها الى مستقر ملائم ومؤثر خارجي.

كلنا يعلم أن طبع الطفل ينمو بالمؤثرات الخارجية اكثر من نموه بالبواعث النفسية فإن ما تفعله امامه من الافاعيل وما نرى به من الاقاويل هو الذي يبعث فيه الفرح تارة والترح أخرى خصوصا في أوائل أيامه على أن ما لنا من التأثير في طبعه مباشرة لا يكاد يكون شيئا يذكر الا ما تحوطه به امه من ضروب العناية وما تبديه له من أنواع الحنو والرعاية فانه يدعوه من غير شك الى حبها ولكن الطبع كما علمت يتألف من قوى متمايزة كل التمايز يقتضي كل منها باعثا خاصا ـ لو وسعني ان أقول ذلك ـ فليس الانسان ذاتا بسيطة بل هو على ما اعتقد اكثر تركبا في نفسه منه في جسده (١)

المشاعر الباطنة كالمشاعر الظاهرة في كيفية التأثر فالثانية كما تعلمين لا تتأثر الا في أحوال وبشروط خارجية مخصوصة لان مشعر اللمس مثلا لا يتأثر الا متى لاقى اشكال الاجسام وحجمها ومشعر الذوق لا ينفعل الا بما يقع عليه من الطعوم كذلك الاولى لا تنبعث الا عند اجتماع امور واقعية مخصوصة فان حلول الخطر مثلا يولد احساس الخوف ولكنه

(١) هذا مصداق قولهم فيه انه العالم الاصغر

لا يبعث وجدان الانصاف مباشرة . ورؤية الطفل ما يغمره به اهله من صنوف البر قد تلقي في نفسه وجدان محبتهم والميل اليهم ولكنها قلما توقظ فيه احساس الاحتشام والتواضع . والاحوال التي تحرك في النفس عاطفة المروءة او الشجاعة لا تؤثر في رقة الطبع كما ان الصوت لا يؤثر في العين والضوء لا يؤثر في الاذن فكل مشعر باطني او عاطفة نفسية تقتضي شيئا يناسبها ويلائمها والطفل كالآلة الموسيقية كله أوتار تهتز اذا نقرت ولكنها لا تهتز اهتزازا حقيقيا الا بما يقع عليها من الاشياء ولا تتأثر بجميع الاشياء على السواء وانما لكل انفعال قلبي طائفة منها تلائمه .

فاذا أردنا مثلا ان نلقي في نفس الطفل الذي في السابعة او الثامنة من عمره وجدان الاحسان الى الفقراء والزمنى [1] فايانا والخطابة والوعظ لان أحسن مواعظ الانجيل لا تفيده في ذلك شيئا بل علينا ان نذهب به الى خص حقير يكون فيه شيخ هرم ابلت الايام قواه ونهكت الحمى جسمه وقد رقد على حصير ومد يده يسأل عواده قدح ماء باردو ننظر مايكون منه في ذلك الوقت فاذا هو لم يبادر بنفسه الى ملء جرة من اقرب مورد وتقديمها بين يدي الرجل المسكين فقد حق اليأس منه وأما اذا تحرك الى هذا العمل الخيري فايانا أن نسأله عن قصده به وعما يرجوه من الثواب عليه فان في شوب انبعاثه الصالح الى البر بمثقال حبة من الفائدة الذاتية افسادا له .

قد بانت لك مما قدمته الغاية التي أرمي اليها في قولي وهي أنه اذا

(١) الزمنى اصحاب العاهات

كان يوجد في الطفل قوى كامنة تنبه بالمؤثرات الخارجية التي تدعوها الى الشخوص الى العمل وكان لهذه المؤثرات ارتباط ببعض الامور والوقائع الخارجية فالواجب علينا هو ان ننبه فيه بهذه الامور تنبيهاما عواطف الحفاوة والسخاء واحترام النفس والناس والنزاهة وغيرها من السجايا الحميدة فطريقة تربية المشاعر الباطنة لا تختلف كثيراعن الطريقة التي بينها علماء منافع الاعضاء في تربية المشاعر الظاهرة بل لا يوجد لتربية جميعها الا طريقة واحدة لانها كلها تجري على قانون واحد ليس هنالك غيره .

يوجد فرق واحد بين التربيتين وهو ان الانفعالات في تربية المشاعر الباطنة وما يولدهامن الاشياء تخالف مايقابلها في تربية المشاعر الظاهرة فان الشيء الذي تنفعل العين برؤيته مثلالا تنفعل به النفس دائما فعلى الام أن تختار نوع الآثار التي تريد أحداثها في نفس ولدها وتجعلهاصنوفا واشكالا وليس يعوزها في الحقيقة شيء من الاحوال الملائمة لذلك فان حياة الانسان ليست الا مشهدا لسلسلة من الحوادث المؤثرة ترى فيها كل حين آلاماً تحرك عاطفة الرحمة وعقبات تدعو الى التدرع بالشجاعة ومحن أعدت ليبتلى بها الصبر ولكن ينبغي لهاان تكون سليمة الذوق كثيرة الحذق في اغتنام الفرص التي تهيؤهالها الحوادث. ثم اعلمي أن الكتب قليلة الجدوى جداً في هذا الموضوع فالذي عليك ان ترجعي اليه في سيرتك مع «اميل» هو قوتك الحاكمة وما يمليه عليك الوجدان من ضروب الإلهام . ولما كان الطفل لا يلتفت الا الى الاشياء التي له فيها عمل كان من الحسن أحيانا ان تدس له فيها العراقيب (الحيل) لإثارة عواطفه الذاتية ولكن ينبغي هنا

ايضا الاحتراس الكلي من ظهوره على ما يتخذ في ذلك من الحيل فان شعوره بخداع المربي له هو الخسارة الكلية .

اخترع المربون انواعا من الرياضة البدنية موافقة لانماء الاعضاء وخاصة بها . والذي اعرضه عليك أنا هو فن من فنون الرياضة النفسية تقوى به الغرائز والاخلاق لان خصائصنا ونقائصنا تقوى بالمراس والاعتياد فالفضيلة تكتسب بالتعلم ولكن هيهات ان تتعلم الا بممارستها والارتياض بها . وقد جاء في الامثال « بطرق الحديد يصير الانسان حدادا » فكذلك هو لا يكون خيِّراً الا بعمل الخير فالعملَ العملَ ما دام حياً

أرجيء البحث في قانون الاخلاق الحقيقي لاني لا بد لي من النظر فيه عند الوصول الى محله واكتفي الآن منه بذكر قاعدة في غاية الايجاز والبساطة وهو ان الطفل يصلح طبعه وتتهذب نفسه كلما زالت منه غرائز الاثرة وحلت محلها العواطف التي تأخذ بقياده الى الصالح العام ولكن هيهات ان يكتنه هذا الناشيء اسباب سيرته مع غيره خصوصا معنى الواجب فانه من الغموض والخفاء بحيث لا ينفذ اليه ذهنه الضعيف وغاية ما يمكنه ادراكه هو رضاه عن اعماله ورضى الناس عنها. على انه لما يجده في الاعمال الصالحة من اللذة التي لا تقل عن لذة الاعمال السيئة لا يلبث ان يختار الاولى ويرجحها على الثانية متى ساعدناه قليلا بتوسيط البواعث الخارجية فان الاشياء كما يوجد فيها شيطان رجيم على ما تعلمت يوجد فيها أيضا في بعض الاحيان ملك كريم فاذا كان بعضها يحرك فينا دواعي الطمع فان بعضا آخر منها يبث فينا وجدان البر والخير .

يجب علينا ان نعين الطفل على تربية مشاعره الباطنة ولكن علينا

أيضاً ان نحترم ارادته ولا نغفلها فلو اني أوتيت القدرة على تدبير مايحتف «باميل» من بواعث العواطف وعلى مراقبته في سيرته مراقبة تامة وامكنني بالاجمال اختراع طريقة للتربية النفسية تسمو بمقاصده حتما الى الكمال لما عولت عليها في انشائه مهما كان فيها من الحسن فاني ارجو من صميم فؤادي أن يكون يوما من الايام رجلا خيِّرا لا حيوانا خيِّرا واعيذه بالله من فضيلة لا يكون كسبها بسعيه وهمته ومن سعادة لا يكون هو الذي حصلها لنفسه فانه ان أوتي عفواً هذه السعادة التي هي الامتياز التعيس لمن خلقوا لها يكون قد ابتاعها بثمن غال جدا وهو خسارة اختياره . كل فرد من افراد المجتمع الذي أعد ولدنا للمعيشة فيه مسوق على الدوام الى الجلاد والمغالبة في ميدان الحياة فيجب عليه ان يقاوم مقاومة البسلاء آراء الناس وتأثير الاسى وجميع مؤثرات العصر الخادعة والا خسر معرفته قدر نفسه واقدار الناس لان شرف الانسان وفضله مشروطان بأن يكون ذا ارادة تصدر عنها افعاله وما عليّ ان تكدر بعض الناس من هذا الشرط اللازم مادمت أنا مسرورا به فاذا لم يكن للمرء وجود مستقل ووجدان قيم يكون شرف حياته اه

الرسالة الرابعة عشرة

من هيلانة الى اراسم في ٢٠ سبتمبر سنة — ١٨٥

موافقتها له في طريقته في تربية النفس وبيان ان في التبكير بالقاء النصائح والمواعظ على الاطفال حطا من كرامتهم وبيان ان للاطفال حاسة غريبة يميزون بها بين الحب الصحيح والحب المموه

اخالني فهمت طريقتك في تربية النفس واراني مرتاعة من عظم العمل

المهود الي به والصعوبات التي تعترضني في سبيل إتمامه لان أمر الطفل بفعل مايجب عليه فعله أهون بكثير من تصفح الاشياء لايجاد مايبعثه منها الى صالح الاعمال. على أني سأحاول العمل على هذه الطريقة فإني على يقين تام من أن الكلام والنصائح والمواعظ لاتكفي لتهذيب الطبع وتقويمه بل قد وصلت من هذا اليقين الى حد ان أحدث نفسي بأن في التبكير بتلقين الطفل بعض المواعظ وايداعها ذاكرته حطا من شأنها ونقصا من قيمتها مهما كانت حسنة مفيدة فانه يسهل عليه بذلك الاعتياد على تلمس الفضيلة في الكلام واعتبار الوجدان أستاذ مدرسة .

على اني الى الآن لم ابلغ مع «اميل» هذه الدرجة فانني لو كلمته في علم الاخلاق لالفيته بلا شك في غاية العجز عن فهم ما أقوله ولكنه على صغره لهدين كما يدل عليه اتخاذه اللعب التي يعطاها آلهة يخصصها بفرط محبته ومزيد عنايته فلو أني اردت من الآن تغيير الاحوال المقارنة لسنه وفطرته في بضع سنين لاضعت وقتي عبثا ولما نجحت الا في تبديل تماثيله بأوثان أخرى .

لاتزال عواطف « أميل » في غاية القصور كما رأيت فاصبت في رأيك على أن للاطفال مهما كانوا صغارا حاسة عجيبة يفرقون بها بين الصحيح من انواع ميل الناس اليهم وعطفهم عليهم والمموه منها فهم يحبون من يحبهم وقلما ينخدعون بضروب الرياء والاستمالة وأنواع التدليل والملاطفة ومما يشهد لذلك اني في معظم أوقات زيارتي للسيدة وارنجتون ألاقي عندها امرأة ترملت في شبابها وهي تزعم انها تعشق الاولاد عشقا وتقول لم لم يهب لي الله (سبحانه) ولو ولداً واحداً وتدعي انها كلما فكرت في ذلك

يكاد يغمى عليها ولكني في ريب من أن قلبها كقلوب الامهات لان «اميل» لا يطيق النظر اليها

لا مناص لنا من الانفعال بما يحيط بنا من المؤثرات الخارجية كما تقول والا فما السر في أني أحب التنزه في طريق مخصوص كلما تلقيت مكتوبا من مكاتيبك وكيف ان بعض الاشجار يجذبني اليه ويدعوني الى فيئه والجلوس تحته في حال ثوران أشجاني خاصة وبماذا افسر ما أجده من الارتباط بين رؤيتي لصخرة وما أحس به اذ ذاك من نقص في عزمي ووهن في ثباتي فلا شيء يطابق جميع حالات النفس ويلائمها سوى البحر على ما أرى . اه

الرسالة الخامسة عشرة

(من هيلانة الى اراسم في ٣٠ اكتوبر سنة — ١٨٥)

تفاهمها مع «اميل» بالاصوات وظنها انها اصل اللغات

لا يزال «اميل» عاجزاً عن التكلم غير أن كلاً منا يفهم مراد صاحبه لان الاطفال قبل أن يصير في مقدورهم اخراج الحروف من مخارجها بزمن طويل يعبرون عما يعروهم من الفرح والدهشة والخوف والالم بضروب من الصياح والصراخ الفطري يندر أن تخطىء الام في فهم معانيها وهي إن لم تكن لسانا معروفا فأقل ما فيها انها لهجة تفصح عما في نفوسهم من الوجدانات والافكار وأنا في شك من أن الكلام يكون في اعرابه لي عن انفعالات ولدي اكثر من هذه الاصوات بيانا على انني

لا إخال ان صورة أخرى من صور التعبير عما في النفس توافق حالته موافقة هذه لها .

لم يقتصر « اميل » على هذه اللهجة بل قد اخترع من بضع أسابيع طريقة للمحادثة معي فاذا أراد ان يكلمني عن كلب البيت قلد نباحه بقدر مافي أعضائه الضعيفة من الاستطاعة واذا حملته جورجيسة وخرجت به للتنزه على ساحل البحر فانه عند عوده يخبرني بهبوب الرياح وذلك بأن ينفخ فيحدث صوتا مخصوصا واذا صادف في طريقه قطيعا من البقر او الغنم قص عليَّ ماراه باصوات أفهم ما يريده بها واني على ما أجده في قصصه هذه من اللذة قد انشأت اتلق لحالته وأحدث نفسي بأني افرطت في اشغاله واسلامه الى الفطرة وأنه ربما كانت عاقبة ذلك حدوث بعض عاهات في قواه النفسية أكون أنا السبب فى حدوثها . استفتيت في هـذا الامر السيدة وارنجتون وكاشفتها بما أجده من الخوف لانها لما كانت زوجة طبيب كان لها هي أيضا بعض الدراية في الطب فاجتهدت كثيرا في محو هذا الفكر من نفسي وفي تسكين روعي وقالت لي إن هذا الامر عام في جميع الاطفال الذين يربون في الارياف ؟

وعلى كل حال فما ادرانا أن هذه الاصوات ليست هي أصل اللغات الانسانية ؟ أقول هذا وأنا عارفة أنه ربما اضحكك ولكن ماالمانع من أن الانسان وهو في زمن طفوليته اذ كان يسكن الآجام والكهوف كان يتلمس مباديء الكلام في ألغاط الغابات وأصوات الحيوانات وغيرها من المخلوقات . اهـ

الرسالة السادسة عشرة

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٠ ﴾

استعدادها لتعليم «اميل» بالبحث في احوال النباتات

لست أدري أيها العزيز اراسم متى يتيسر لي ايصال بقايا هذا المكتوب اليك فقد توالت علي الايام وتعاقبت الشهور في ارتقاب فرصة تمكنني من ذلك ولا ريب في أن ما أكتبه اليك خلو من كل ما من شأنه أن ينفر الحكومة ويزعجها فان أخص موضوع أحب مكاتبتك فيه هو الحديث عن «أميل» وشؤونه وأنت تعلم ان «أميل» ليس من المؤتمرين بالحكومة المغرين بالخروج عليها على انه لا شيء في عواطفنا وآمالنا يدعو الى ملاحظة أو يستوجب مؤاخذة وأنا اراعي في مكاتيبي الحياء والاحتشام حتى اني لافضل احراقها على اطلاع غيرك عليها .

هاج غضب اميل صباح اليوم هياجا شديدا بلا سبب معروف ولا بدع في ذلك فاننا مع تبجحنا بالعقل والرزانة لا نعرف على الدوام علة جزعنا وغضبنا فقد يكفي في اساءة خلقنا ان نرى في السماء غيما كريه المنظر أو في ملبسنا اثناء مضايقا او نسمع ذبابة تطن في اذننا وأيا ما كانت علة غضب «اميل» فان جورجية لما رأته في هذا الهياج قدمت له مرآة جعلتها نصب عينيه فأثر ذلك فيه تأثير السحر باسكان غضبه كانه خجل من نفسه أو خاف من صورته

انا منجزة ماوعدتك به فتجدني الآن أطالع وأبحث وأعمل لاتمكن

يوما ما من تعليم « أميل » وانك لو رأيتني في هذه الحالة لنكرتني لما صرت اليه من الوقار والرزانة .

انك تعلم انى مابرحت أتوق الى علم النبات فتراني الآن من بضع شهور مشتغلة بدرس ازهار الكتان لاني وجدت من ظروف الاحوال ما ساعدني على ذلك فان النباتات الطالعة هنا على رمال الساحل في غاية الكثرة والتنوع على أن لها بالبحر ارتباطا كثيراً ويوجد أيضاً على مقربة من قرية للصيادين اسمها نيولين مغارة شهيرة بدقة ورق السرخس النابت على جدرانها وجماله فان الظل والرطوبة اللذين فيها يشكلانه باشكال متشعبة مشوشة تدعو الى اعجاب الخبيرين باحوال النباتات ولكن لسان حاله ينطق بتألمه ومرضه فهل من الآلام والامراض مايكسو الصور رونقاً وبهاء

بينما كنت راجعة هذا المساء من نزهة قضيتها ارتيادا للنباتين المعروف احدهما عند النباتيين بالقوريجيول الشاطئي والثانى بالارنجيون البحري او لحية التيس [1] بصرت ببنت صياد ملتصقه باحدى نوافذ بيتها تنفخ في زجاج هذه النافذة ثم تكتب بظفر انملتها الصغيرة اسم معشوقها على مايظهر في صفحة الزجاج من الكلف فاستمالني ذلك اليها وخاطبتها فعلمت منها ان لها خاطبا في استراليا وانها تترقب مجيئه ولا تعلم متى يجيء لتحظى بلقائه فعسى ان يكون ذلك قريبا لاني أعلم ما يقاسيه الانسان من مضض الغرام . اهـ

---

(١) لحية التيس نبت كورق الكراث لكن يرتفع

الرسالة السابعة عشرة

(من هيلانة الى ارسم في ٢٥ نوفمبر سنة — ١٨٥)

تبشيره بنبت سنتين « لاميل »

بعد هذا الانتظار كله قد تعهد احد من تعرفهم بايصال مكتوبي هذا اليك فاسلمته اليه واستودعته الرياح العاصفة والبحر المضطرب وحوادث الايام الكثيرة لانه لامحيص من ذلك ولكني لن استودعها أبداً حبك فانه في حيازة مالا يعتريه التحول ولا التقلب

بشرى فقد نبت « لاميل » سنتان . اه

الرسالة الثامنة عشرة

من ارسم الى هيلانة في ١١ يونيه سنة — ١٨٥

بيان رأيه في تفكر الطفل وفي أصل اللغات وفي تعليم اللسان للاطفال وسوء طريقة المربين في ذلك

قطع مكتوبك ولله الحمد جميع العقبات التي كانت تحول بينه وبين الوصول الي وهو الآن بين يدي أرى فيه شعاعا من شمس الحرية قد اتصل بي وها اناذا ألاحظك بفكري في ترفعك على شاطيء البحر وابصر

« أميل » من خلال ما تبدينه من ضروب التأثر والانفعال وإخالني أعرفه.

رباه ! كيف أكون والدا من سنتين كاملتين ولا اتمكن من تقبيل ولدي الى الآن

اترك هذا الاسف الذي لاجدوى له واعاود الحديث معك فيما ينبغي ان يكون أهم ما يعنينا في هذه الدنيا فأقول: إن من اغلاط المشتغلين بالتربية صرفهم جل عنايتهم في تقويم القوى والملكات العقلية وقلة التفاتهم الى غيرها مع انه لا يسعهم انكار ما بينها وبين قوى الادراك الحسية والنفسية من الارتباط ولكني في هذا المكتوب أحب أن أوجه فكرك الى تربية الادراك العقلي بنوع خاص

كاني بك تقولين هل يتفكر الطفل ؟ فأجيبك ان ذلك لازم له لانه حي ولان العلم اذا كان كلما نفذ في أسرار حياة النباتات والحيوانات كشف لنا فيها بداية احساس بل ربما صح أن يقال بداية ادراك فكيف يكون الطفل اذاً أقل حظا من هذه الكائنات التي هي أضعف خلق الله (تعالى) ؟ نعم ان مخه في الاسابيع الاولى من ولادته يكون في نظرنا كالبيداء المظلمة التي وصفها الشاعر اللاتيني بانها مملكة عفاريت الجن ولكنه يتدرج في تمييز الاشياء بعضها من بعض والقياس بينها وانتزاع بعض الاحكام عليها وانك لا تكادين تجدين طفلا في الشهر الخامس عشر أو السادس عشر من عمره اذا رأى صورة انسان الا وهو يفكر بانها لشخص معروف .

من الاسباب التي تعين على انماء عقل الطفل بعد تربيته بما يحتف به من الاشياء تعليمه اللسان .

وانا ارجح ماتقولينه من ان الانسان في عهد طفوليته كان يتلمس مواد الكلام الاولى في أصوات الكون المحيط به وقد يدلنا على ان هذه الاصوات هي أصل اللغات الانسانية .ا نجده في جميعها خصوصاما كان منها قديما جداً من آثار التوافق الناشيء عن التقليد وما أجل مع هذا كلام الانسان وأعظمه .ومن العبث أن اقتنع بقولي : ان اسلافنا الغابرين قد جمعوا في بداية نشأتهم الاصوات المبهمة المنتشرة في جميع ارجاء الكون وصيروها لغة فان هذا القول لايكشف لي جميع ما في كلام الانسان من المعاني لانك تجدين لكل شيء في هذا العالم كلاما فالمعدن يتكلم لانه اذا نقر صوت تصويتا يخبر بماهيته نحاسا كان أو ذهبا والحيوان يتكلم لانه يدل في كل حين بما يبديه في صوته من الكيفيات المختلفة على حاجاته ووجداناته وشهواته والهواء والبحر والرعد تتكلم لان الفاظها تنبيء عما يقع بين الفواعل الكونية من الكفاح والمغالبة ولكن شتان بين كلام هذه المخلوقات جميعها وكلام الانسان ولو كان طفلا فان الطفل متى قدر على النطق ببعض الكلمات ولو مع التلعثم فيها واستطاع مثلا ان يقول «انا» مثبتا بذلك استقلال الانسان وقيام الحياة العامة به رأيت ان جميع ما في الكون امامه قد دخل في شبه عبودية وخضوع .

أصوات المادة معلولة للحوادث التي توجدها واصوات الحيوانات ناشئة عن الغرائز المستقرة في انواعها واما لفظ الانسان فهو حتى في حال تمتمة الطفولية دال على ذات شأنها الحرية والاستقلال .

على انه لاينبغي أن نعمي عن الفائدة الحقيقية من أساليب الكلام من حيث كونه ركنا من أركان تربية الادراك ، ذلك لان الطفل لا يتلقى

عنا وقت الكلام معه الا اصواتا فمن اجل ان يكون تعليمنا مفيدا له يجب ان تكون هذه الاصوات التي يسمعها مقرونة في نفسه بمدلولاتها .

انت تذكرين تلك الفتاة التى جاءت بها الىَّ والدتها في يوم من الايام تستفتيني في أمرها فقد كانت شبيهة بتلك المغارات المقفرة تردد جميع الاصوات غير فاهمة شيئا منها وكنت أعتقد انها لجمالها الرائع لو كانت شهدت قدماء اليونان لاتخذوها الاهة لصدى الاصوات لانها لفرط ما أوتيته من قوة السمع الميؤس من تعديلها وغريزة التقليد المتعاصية على الترويض كانت على الدوام ترجع ما كنت أوجهه اليها من الاسئلة بدون ان تجيب عن شيء منها وقد عالجتها بجميع طرق العلاج النفسية فلم يفدها ذلك شيئا .

فأنا أخشى كثيرا ان لا يوجد بين هذه البلهاء المسكينة التى لا تفهم شيئا مما تردده من الكلام وبين كثير من الاطفال الذين يرددونه على قلة فهمهم اياه او على فهمه مقلوبا الا فرق خفيف.

على أني أرى أن الميل الى التكلم بغير فائدة مرض من أمراض العقل عند الانسان فكم من نساء يجتهدن في اماتة ما يجدنه من الضجر والسآمة بأغاني ليس فيها شيء من المعاني المعيّنة . وكنت اعرف مسجونا كان على قصور ادراكه جدا كلما وضع في السجن المظلم عقابا له على ما كان يرتكبه من الذنوب يجتهد في مخادعة العزلة والظلام باحاديث خالية من المعاني.

يوجد فى الشعائر الدينية القديمة لكثير من الامم صيغ من العزائم والتعاويذ هي عبارة عن كلمات أو جمل مرتبة تلتذ بسماعها الاذن ولكن لو

أراد سامعها البحث عن معانيها لكان محاولا عبثا. وما لنا وللرجوع الى تلك الازمان الغابرة نستشهد بما كان فيها على ما نقول وأمامنا كنائسنا الكاثوليكية نسمع المؤمنين يدعون الله فيها بأدعية لاتينية لا يفهم معانيها الا النزر القليل منهم .

على اني أرى أن عدم صرف اللسان عن هذه الوجهة الفاسدة وأماتته على الجرى في مضمارها من الامور الشديدة الخطر على العقل فاذا لم يحترس منها أصبحت الالفاظ خلوا من معانيها وصارت عوذا للعقل .

الطفل فيه شيء من خاصية الببغاء ولا وجه للشكوى من ذلك فإنه بهذه القوة التقليدية يتيسر له الاختلاط بمن حوله ومعاشرتهم ولكن حلّ عقدة لسانه أيسر من فتح مغلق عقله فليست الالفاظ تؤدي دائما الى فهم الاشياء التي وضعت لها. وفي لغة الخرس مزية لا توجد في لغتنا معاشر الناطقين ذلك ان الاشارات عندهم هي رسوم للمعاني والوقائع وليس الامر كذلك في النطق الذي هو عبارة عن أصوات متنوعة واجراس مختلفة كما يعلمه كل منا . ثم اعلمي ان محادثة الاطفال مما لا شك في فائدته فانها من دواعي ابتهاجهم وانشراح صدورهم ولكن على شرط أن تكون الكلمات وسيلة الى انتقال اذهانهم الى مدلولاتها فيجب عند تلقيهم للدوال اللفظية ان ينبهوا الى ماتدل عليه ويفهموا ما بين الدال والمدلول من الارتباط فبهذه الطريقة تعود اذهانهم على الاستقرار وعدم التشتت .

لست أدري لماذا نهتم كثيرا بمقاومة ما يجده الاطفال من اللذة في تقليد أصوات بعض الحيوانات فما أسعد حظ امرىء يكون فيه من المواهب الالهية ما يؤهله لفهم جميع ما يعيش على وجه البسيطة ولا أقصد بقولي هذا أن من يحاول

محاكاة أصوات بعض الحيوانات يفهم معنى لسانها ولكني أريد به أن مثل هذا السعي في التقليد يدل على ان صاحبه قد وصل الى درجة ما من النظر والملاحظة فالطفل الذي يحاول تقليد صوت الكلب او الديك مثلا قد لاحظ ان في هذا العالم مخلوقات أخرى غيره وان لها فى التعبير عما في انفسها من الوجدانات طريقة خاصة بها .

اللغة الانسانية وان كانت وضعية فأصولها على التحقيق فطرية . انظري الى الاطفال تجدي لهم لغة معروفة فى جميع اقطار الارض وهي وان اختلفت يسيرا من أمة الى أخرى تتألف فى الاصل من اصوات آحادية المقاطع فأصول الكلام الملفوظ عند جميع الامم لا تخرج عن حرف ساكن وحرف لين يتكرران بحركة الشفتين مثل « بابا، ماما، تاتا، دادا » وغيرها ما عدا بعض تنويعات خفيفة . والطفل يقضي من دور طفوليته زمنا طويلا لا يعرف فيه اداة التعريف ولا الضمير وأما الفعل فلا يدرك منه الا المصدر ولا ينفذ ذهنه الى فهم صيغ الماضي والمضارع والامر وغيرها من المشتقات ولا يعرف من النعوت الا قليلا وأقل منها معرفته بحروف العطف فلغته شبيهة بلغات الاجيال الاولى .

روى لنا أحد السياح أنه يوجد فى افريقيا قبيلة يتألف لسانها من اثنتي عشرة كلمة لا غير وقال ان افراد هذه القبيلة على قلة ألفاظ لغتهم الى هذا الحد يتفاهمون جيدا فيما بينهم باضافة الاشارات الى الاصوات وكم يوجد من اطفال يفهمون أمهاتهم ما يريدونه بما هو اقل من كلمات تلك اللغة مثل تحريك الاعين او الاشارة او مالا يكاد يكون شيئا يذكر مع افصاحه عن أفكارهم واظهاره لمقاصدهم .

وهناك أمم أخرى تكاد تكون أمية ولكنها تبرّز علينا في علم ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها فالعرب القاطنون في ما بين النهرين (الدجلة والفرات) لا يكادون يقرأون شيئا من الكتب لانه لا مدرسة لهم سوى الصحراء ولكن من المحقق ان البدويّ منهم اذا رأى آثار الخُطا على الرمل حكم فوراً بأنها آثار انسان أو حيوان وان كان انسانا عرف قبيلته وكونه عدواً أو صديقا وقدّر تاريخ مروره سواء كان قديما أو حديثا واستنتج ماعساه أن يكون قصده من سفره وحكم ايضاً ببعض علامات يراها منتشرة في الطريق على البعير هل كان حاملا شيئاً او خاليا شبعان او جائعا مستجم القوى او مهزولا وعلى صاحبه هل هو من سكان الحضر أو البدو . فاذا تاملنا قليلا في سبب وجود هذه المعرفة عند هؤلاء القوم ظهر لنا أن طريقة البدويّ في ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها هي بعينها الطريقة المعروفة في العلوم الصحيحة .

من الجلي ان أحدا لا يسعه انكار مكانة اللغات وما لها من الفوائد في تربية عقل الانسان ولكن مما ينبغي الاعتراف به ان الالفاظ اذا كانت تغني من النظر في الاشياء وملاحظتها كما هو الشأن فيها غالبا فهي مضرة بالادراك لا مفيدة له . فالطفل وان قدر على تسمية الفرس بخمس لغات مختلفة لا يعرف في نهاية الامر الا حيوانا واحدا فلو اتفق انه لم يره في حياته كان لم يعرف شيئا .

اراك تذكرين ما اشتهر عن هاملت [1] من تعجبه من تشبث الناس

(١) هاملت امير شبه جزيرة الدينمارك المسماة جوتلاند تظاهر بالجنون ليأخذ بثار ابيه الذي قتله اخوه

بالالفاظ حين قال : ألفاظ الفاظ الفاظ : فهذا الامير كان درس في المدارس وكأنه بهذا الاستغراب ينتقد طريقتنا في التربية فإن المشتغلين بهذه الطريقة يوجبون على الطفل من أجل كمال تربيته ان يحفظ افكار غيره ويرددها مع ان الواجب عليهم ان يسألوه دائما عن افكاره ويبادروه بالحث على النظر في الوقائع والقياس بينها وتمرين نفسه على الحكم عليها .

قد رأيت فيما سبق أن العمل هو اللازم في تربية العواطف الفاضلة وضروب الوجدان الشريفة فكان الواجب على المربين ان يكون مرجعهم هنا أيضا الى العمل لاحياء جرثومة الادراك في الطفل وتلقيحها لتنتج الثمرات المطلوبة . اهـ

الرسالة التاسعة عشرة

(من اراسم الى هيلانة في ١١ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان ان التفكر مما يتعلمه الطفل وخطأ المربين في عنايتهم بالالفاظ دون المعاني ووجوب تعويد الاطفال على النظر والملاحظة ليتمرنوا على التفكر

قد يسأل سائل هل التفكر مما يتعلمه الطفل فأجيبه هذا ما اعتقده غير انه ينبغي التمييز التام بين مايتلقاه من غيره من الافكار وبين مايستنتجه هو منها بنظره الى الاشياء ونحن في تخاطبنا معه لا نفعل شيئاً سوى تأدية افكارنا اليه على وجه التمام او النقص مع أن الذي كان يجب علينا أن نصرف همتنا اليه هو ايقاظ ذهنه واستنباط افكاره وآرائه. فاذهان من

يعاشرون الكبار من الاطفال محشوة بجمل من الكلام لا يفهمون منها في معظم الاحيان الا معاني في غاية التشابه والالتباس وليس شحن اذهانهم بهذه الجمل مما ينمي فيهم قوى الادراك والفهم بحال من الاحوال ولكنه ابهاظ لها بما ليس من حقه ان يكون فيها . وكم لاقيت في سالف أيامي أطفالا يشتهرهم الناس بكونهم آيات في الذكاء والفطنة فرأيت ان كل ما يدّعى لهم من العقل ينحصر في انطلاق ألسنتهم بما لا معنى له من القول وكنت عند نظري اليهم وهم في تنوّقهم واعدادهم انفسهم لنيل الشهادات المدرسية يعروني من انقباض النفس وضيق الصدر مالا اجد سبيلا الى دفعه كالذي يعروك لرؤية المتصنعين المدعين ماليس فيهم وكنت أقول في نفسي إن المشتغلين بتربيتهم يسلبونهم اليسير الذي آتاهم الله (سبحانه) من المواهب الخلقية بتعليمهم اياهم افانين القول وأساليب الكلام ليسموهم بسمات العقل الذى لما يبلغوا رتبته . اما والله لو كان لي الخيار لاخترت « لاميل » ان يصدر عنه فكر ساذج ولو واحدا فقط يكون منبعثا عن محض اختياره وكسبه ولفضلت هذا على كل ذلك الزخرف القولي والثرثرة التي لا نسبة بينها وبين العقل .

اذا نظرت الى الكون رأيته مملوءا بأناس يتكلمون بما يوجد في الكتب فان كل من يسمعهم يذكر انه طالع فيها جميع مايقولونه والخطأ في هذا الامر راجع الى تربيتهم لانهم قد تعلموا من نشأتهم ان يرددوا آراء غيرهم .

الأم بالنسبة الى ولدها هي المجتمع الانساني بل المثال الحي لآثار السلف ولا يشك احد في انها مكلفة أن تعلمه كثيرا ولكن يجب عليها في تعليمها هذا التلميذ الصغير ان تكون على غاية الحذر من ان تلقي في نفسه الخضوع

للالفاظ والاستعباد لها ذلك أن هذا الامر ليس من شأنه ان يفتح مغلاق عقله بل فيه افاضة لينبوع المعارف الحقيقية ولا بدع في ذلك فانت ترين الناس قد سموا اعمالا كثيرة قدستها العادة فروضا مع رفض العقل اياها وعدم تسليمها وترين الحق يدمغ جميع الاباطيل على التعاقب، والقوة في كل زمن تسلب الحق ماله من موجبات الشرف والاعتبار. فمن لم يبلغ به علمه الي الاحتراس من غرور القول وباطله والسير في ظلمات اللغة الانسانية على هدى فذلك الذي يعيش دهره مفتونا بزخرفها أسيرا في ربقتها.

فالذي يجب علينا للطفل هو تعريفه بحالة الكون المحيط به تعريفا يكون بلا شك في غاية القصور على الظواهر والاقتصار على مالا بد له من معرفته فان الكون كله معان وأريد بذلك ان كل شيء مؤثر من شأنه أن يفعل في عقل الانسان ويولد منه فكرا. ومن ظن أن الاطفال بعد انقضاء سنتين أو ثلاث من عمرهم لا يكونون مفكرين فقد ظلمهم وحط من قدرهم . نعم إن افكارهم ليست كافكارنا في جميع الاحوال وذلك مما يدعونا أيضا الى اعتبارها وعدم اغفالها وقلما يوجد طفل لا يهتدي بنفسه الى مالا يعلمه القائمون عليه إياه اذا تكلفوا اقامته على طريقه . فعليهم أن يستعينوا بالتجربة والتمرين على ازالة بعض ما تقع فيه مشاعره من الاغلاط وان يحثوه بالاشارة والكلام على النظر والملاحظة فاذا فعلوا ذلك سهل عليه بما يجريه من الاقيسة ربط الحوادث بعضها ببعض وارجاع بعضها الى بعض كارجاع استطالة ظل الرمح مثلا الى انحدار الشمس عن أوجها وأصبح القياس بهذه الطريقة ملكة راسخة في نفسه على ما يفيده إياه من العلوم الاولية فان في اسناد الحوادث بعضها الى بعض تعلما للحكم عليها

الرسالة العشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ١٠ يوليه سنة ـ ١٨٥ ﴾

(محاولته الهرب من السجن مع المسجونين وعدم افلاحهم وخوفه انقطاع المراسلة)

قد هم المسجونون بالهرب من سجن .... وشرعوا في ذلك فعلا فانكشف أمرهم وستقرئين في الصحف تفصيل هذه الواقعة وكانت الاحوال كلها مساعدة لنا على هذا الهرب وناهيك بليل غاب بدره وريح اشتدت عواصفها ومطر انهمرت سيوله على جدران السجن ولكننا اخفقنا بعد أن قطعنا اصعب العقبات وأشدها واوشكنا أن نفوز بالنجاة

وسيكون من نتائج هذه الحادثة بحسب الظاهر زيادة التشديد في مراقبة المسجونين وأن تصير المراسلات مع ماكانت محتفة به من العوائق على خطر الانقطاع مدة طويلة ولست أدري هل يصل اليك هذا المكتوب أم تحول دونه الحوائل وارجو أيتها العزيزة هيلانة ان لا يوجدك عليَّ هذا الامر فإني لم استطع ان اصم اذني عن نداء الفطرة التي تدعوني اليك والى ولدنا اهـ .

الرسالة الحادية والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في دسمبر سنة ـ ١٨٥ ﴾

بيان شغل « اميل » وان الاعمال الصبيانية ليست باطلة برمتها بل منها ماقد يكون مفيدا

كتبت للحكومة ثلاث مرات استطلعها شيئا من اخبارك فصدر فى

كل واحدة منها امر رسمي باجابتي انك بخير وذلك تهكم وسخرية .

أنا لا أطيق هذا السكوت الذي طال أمده بيننا ثمانية عشر شهرا فانه قد امضني واحرج صدري ولكني أراني قد اهتديت الى حيلة لايصال كتابي اليك ستري حتما مايكون من نجاحها وسواء علي افلحت فيها أم لم افلح فاني لن آلو جهداً في ملازمة جدران سجنك ومحاصرتها على النحو الذي أعرفه .

انقضت كل هذه المدة ولا سلوان لي عن همي الا في «اميل» اوّه اني لأ بذل انفس ماعندي لمن يأتيني بك الساعة لتراه يغدو ويروح في البستان مكشوف الساقين الى نصفهما عاري الذراعين مرسل الشعر فان شهر ديسمبر هنا كما اخبرتك فيما سبق غاية في اعتدال الاقليم ويقول صديقك الدكتور ان شد اعضاء الاطفال وتقويتها بتعريضها لهواء الجو يعود بالفائدة عليهم في ابدانهم . ثم اعلم ان « اميل » غلام متعب فانه كلف بلمس كل شيء يقع بصره عليه فهل ينبغي منعه من ذلك؟ وليتك ترى ما يحدثه كل يوم في البستان من ضروب الاتلاف التي كان قوبيدون في بداية الامر يتوجع منها ويشكو . فلما اعيته الحيل انتهى بالضحك عجزا ويأسا . ذلك لان ولدك له في الاشتغال طرق شتي هو مخصوص بها فهو يقلب الارض بمقلب صغير من الخشب ويغرس الاشجار (أستغفر الله) بل أظنه يبني أيضا ولعلك تقول انه يبني له قصورا في اسبانيا [١] كلا وانما هو يقيم بالحصى منارات وكهوفا . ثم ان الذي يضحكني ويسليني منه انه يسمي تلك الالاعيب شغلا وهي تسمية تشير الي ان الاطفال

(١) مثل يضربه الفرنسيون لمن يتشبث بالاماني الوهمية ويغتر بالخيالات الكاذبة

مجبولون على تعظيم اعمالهم في انفسهم وتقديرها بأ كثر من قيمتها. على أن مايصدر عن سذاجتهم وسلامة طباعهم من انواع هذا التقدير ليس بجملته باطلا بطلانا تاما فان ثمرة البلوط مثلا اذا سقطت على الارض من يد صبي صغير لم يحسن القبض عليها لاينافي ذلك ان تصير يوما ما شجرة عظيمة (فكيف اذا هو غرسها في الارض) اه .

الرسالة الثانية العشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٢ يناير سنة — ١٨٥ ﴾

انس « اميل » بالدواجن والسها به وتعليل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة بزوال سذاجة الانسان الفطرية التي كانت تدعو تلك الحيوانات الى الثقة به

اتخذ «اميل» له خليلة ولهذه المناسبة ينبغي أن أقص عليك حادثة وقعت عندنا فارتعنا جميعا بسببها ارتياعا عظيما : ذلك ان تويدون لما كان قليل الثقة بشرطة الحكومات المتمدنة في حفظ الانفس والاموال لماهو لاصق بذهنه من أفكار متوحشي افريقية قد عثر من حيث لاادري على كلبة ضخمة طويلة الااانها من اشد انواع الكلاب توحشا فسميناها (الدبة) وهو اسم ينطبق عليها كمال الانطباق في شعرها الاسود وقوتها العظيمة وغرائزها العدائية وقد وضعت منذ شهرين خمسة جراء تماثلها الا انها من حين ولادتها بدت عليها سمات الدمامة والبشاعة فاسكناها في بيت الدجاج وكان من وراء وضعها ان زاد توحشها الفطري بسبب حنوها الامي كما يحصل ذلك غالبا من الحيوانات الضارية فقد تخيلت ان تخفي جراءها في سقيفة

كانت تحرس مداخلها وتمنعها بنفسها لظنها بلا ريب أننا نأخذها منها وقد كنت أمرت بأن لا يدخل «اميل» بيت الدجاج بعد سكناها فيه لاني كنت اخشى عليه مقابلة هذا الحارس الجهنمي ولكن كيف السبيل الى ذلك وهو مع كونه لم يتجاوز التهادي في مشيته يتسلل ويتدخل في كل مكان. ففي عصر ذات يوم افتقدناه في البيت والبستان فلم نجده فأرسلت قوبيدون في طلبه ثم رأينا بيت الدجاج مفتوحا فلم يبق في نفوسنا ريب في أنه دخله ولكن ضاع بحثنا فيه سدى فأول خاطر مرّ بفكر الزنجي هو ان الكلبة افترسته وهو خاطر فيه ريح التوحش حقا .

لم تكن دهشة قوبيدون بأقل من ذعره اذ دخل الفسقية مخاطرا بنفسه فرأى «اميل» وقد رقد على الدبة وأخذ بأذنيها الطويلتين المتدليتين يجذبهما اليه .وأكثر من هذا خروجا عن مألوف العادة وابعد منه عن معهودها ان ذلك الحيوان كان يتسامح له فيما كان يفعله به ويتحمل منه لجاجته في محكه بشهامة وعلو نفس لا يتصف بهما الا الآخذون بطريقة زينون. [1] فلم يلبث قوبيدون ان فهم وهو مندهش ان الكلبة قد اتخذت « اميل » خليلا وا كرمت وفادته فقبلته بين أولادها لكنها لم تمنح الزنجي شيئا من هذه المراعاة لأنها لما رأته انشأت تهرّ وتكشر عن انيابها زجراً له فرأى من الحزم الفرار من امامها فخرج داعيا « اميل » الى اللحاق به فتبعه جزلا مبتهجا غافلا عما كان قد اقتحمه من الخطر .ومن هذا الحين

(١) هو المسمى بزينون السيتيومي نسبة الى سيتيوم مدينة في جزيرة قبرص ولد في سنة ٣٣٨ ومات في سنة ٥٦٠ .قبل المسيح وهو صاحب مذهب مخصوص في الفلسفة اساسه الصبر على المكاره

انعقد التعارف بين « اميل » وبين الدبه وكأنها توهمته جرواً صغيراً لم تحسن امه لحسه فكانت من أجل ذلك نعتبره ممن تجب لهم حمايتها وتلحس ما انكشف من أعضائه بلسانها المريض وعلى كل حال قد ظهر لي أنها حميدة المقاصد فلم يبق لي من موجب للخوف منها على ولدي.

لم يقتصر « اميل » على مصادقة الدبة بل له اصدقاء غيرها فجميع سكان بيت الدجاج معارفه ومن العجيب ان تراهم في غاية الائتلاف والوئام ولست اخفي عنك اني مهتمة بهذا العالم البيتي الصغير ومشتغلة بشأنه كل الاشتغال .

يوجد على القرب من بستاننا بركة فيها وشل (ماء قليل) يزداد بما ينصب فيها من ماء المطر المتحلب من سطوح المنازل فخطر ببالنا ان نضع فيها بطا وتعهد بذلك قوبيدون فاشترى ثلاث بطات من كفر مجاور لنا واصبحنا تتسلى برؤية ريشها الاخضر الجميل الممثل لفلز المعادن ونبتهج بما تبديه لنا من ضروب المرح واللعب في الماء وبما تسمعنا من البطبطة وتر ينا من الائتلاف الصحيح الذي جمعها وشائجه ولكن الزنجي لم يلبث ان لاحظ عدم التناسب والتلاؤم في تألف هذه الجماعة فانه وجد فيها ذكرين لأنثى واحدة مع ان البط على ما يظهر يميل الى تعدد الزوجات على نحو ماعليه الترك يتزوج السلطان منهم الواحد كثيرا من النساء . فمن أجل مداواة هذه العلة التي جزم قوبيدون بمخالفتها لمقتضى الفطرة [1] قد اشترى زوجا آخر من هذا

(١) يدل هذا القول على جهل الاوربيين بحال المسلمين وقول قوبيدون وان التعدد مخالف للفطرة انما سرى اليه من سيدته وامثالها فنفل عن الفطرة في قومه وفي البسط وانما هي فطرة اراد الانسان المدني تهذيبها

النوع بعد ان تأكد هذه الدفعة من انوثته وتحراها كما ينبغي وبذلك اصلح الخطاء الاول بعض الاصلاح وبقي امر ما كان يخطر لنا على بال قبل شراء هـذا الزوج فانعكس فيه تقديرنا وخاب حسباننا وهو استقبال البطات القديمة لهذا الزوج فانها بمجرد ان رأته ولته ظهورها مصرة على مجانبته وكلما حاول القرب منها نهرته وأوسعته نقرا فاردنا التوسط في الصلح بين الفريقين فلم يجد ذلك نفعا لا تناما كدنا نفارقهما حتى عقدت الثلاث القديمات مجلس الشورى بينها بمعزل عن الحديثتين وانشأن يبطبطن طويلا ولم أعرف ما دار بينهن من التداول والتشاور بنصه لعدم معرفتي لسانهن ولكن معناه كان ظاهرا فكأنهن كن يقلن « اننا قد سكنا هذا المكان قبلهما ولنا الحق من اجل ذلك ان نعتبرهما دخيلتين فاجدر بنا ان نشوى على السفود شيئاً وان نجهز باللفت طعاما للآكلين من ان نقبلهما في جماعتنا فنحن بط واما هما فليستا الا من السقط .

لما لاحظ تو بيدون أن أحد أفراد هذه الجماعة وهو ذكر أبيض ذو قنزعة طويلة كان اشدها لجاجة في النفور صمم على ذبحه على نصب الوفاق فداء للاتحاد والتآلف فلما فعل انتج هذا القربان مع اسفي عليه أثره المطلوب فأخذ كل فريق يتدرج في التقرب من الآخر حتى انتهيا بأن صارا جماعة واحدة وان كانت البطة القديمة هي السلطانة الحظية فما رأيك في ذلك الشمم والترفع في هـذا الجنس الحيواني ؟ أترى ان الميل للسؤدد والشرف هو الاصل الثابت في الفطرة وان المساواة بالمعنى الذي نفهمه منها أمر عارض علينا اكتسبه الانسان بالعدل ؟

لو شئت لقصصت عليك أيضا وقائع كثيرة في عوائد الحمام واخلاقه هي بالنسبة اليّ جديدة فقد تبين لي من النظر في معيشته في برجنا ان أموره لاتجري تماما على ما تصفه الكتب من جعله في الجملة مثالا للصداقة والوفاء بعقد الزوجية لاني رأيت ذكرا عتيقا متزوجا بحمامة فتية كان حظه معها حظ اؤلئك الشيوخ الضعاف الذين تمثل الروايات الهزلية خضوعهم وتسليمهم قيادهم لمن يخالطونهم فتركته في يوم من الايام واستبدلت به ذكرا فتيا متصلفا استمالها منه بلاريب رقيق كلامه، وجميل تحيته وسلامه، وكأني بك تقول أي الزوجين كان مخطئا ؟ الزوجة لانها طائشة وسريعة التحول والانقلاب أم الزوج لانه أغفلها ولم يراعها كما ينبغي ؟ فاجيبك انه ينبغي الحذر من المجازفة في الاحكام على غير علم ومن أجل ذلك أمسك قبل كل شيء عن الحكم وأقول ان الزوج المخون على كل حال قد تلقى سقوط حرمته بعلو نفس يدل على الشجاعة الحقيقية فكان اذا اتفقت مقابلته لزوجته الخائنة في طريق يمر بجوارها بدون أن يظهر عليه أنه رآها وان يبدي أقل أمارة على حنقه عليها الا أنه لم يكن البتة على هذا التسامح مع من اغتصبها منه لانهما عندما كان يتقابلان كانا يتبادلان النقر الاليم الوقع كما كان منيلاس وباريس يتبادلان الطعن والضرب في حومة الوغى [1] ولما قضت الحمامة المطلقة زمن العشق وحان وقت حضانة البيض لم تحسنها

(١) منيلاس هو ابن اتريه واخو آغا ممنون صار ملكا لاسبارطة بتزوجه بهيلانة بنت بندار وباريس هو ابن بريام وعقيبة وكان السبب في انتشاب حرب تراوده الشهيرة بخطفه هيلانة زوجة منيلاس ملك اسبارطة وقتل في هذه الحرب اشيل وقتل هو ايضا بسيف بيروس

لانها ورفيقها كانا من فرط اشتغالهما بدواعي الحب بحيث لم يكن ليتيسر لهما ان يكثرا من التفكر في فروض البيت ولم تعزب هذه الحالة عن ذهن الزوج المهجور فانا رأيناه ذات يوم يخرجهما من احدى المحاضن حيث كانا مشتغلين بتربية افراخهما وهما والحق يقال ما كانا يأتيان بها على وجهها وكأنه كان يقول لهما وقت اخراجهما « أف لكما انما لا تعرفان من التربية شيئاً فخليا مكانكما» فلم يكن الا ان خلياه بعد مقاومة ضعيفة وجعل هو يحسن العناية بشأن ادعيائه وسمة الظفر والفخر بادية على وجهه فنبهت فكري هذه السيرة الشريفة الى امر من المحتمل ان يكون هو سبب شقائه بزوجته وهو ان صفة الابوة فيه غالبة على صفة الزوجية .

« اميل » كما لا يعزب عن فكرك يجهل كل هذه الاعتبارات المختلفة التي لاحظتها في معيشة الطيور وبودّي أن لا يفهم كل ما فيها وانما الذي اعجب به هو ما استقر بينه وبين معظم سكان بيت الدجاج من الالفة والارتباط هذا واننا كثيراً ما تساءلنا عن السبب في أن تأنيس الحيوانات كان ينقطع من عهد ان وجدت المجتمعات المدنية ولا شك أن علة ذلك ليست هي اعواز الحيوانات المتوحشة فان في الصحراء كثيراً من انواعها النافعة التي يكون من فائدتنا الظفر بها لو زال المانع من ذلك فاذا كان الامر كما أتول فقد يكون السبب في وشك انقطاع التأنيس هو كون الانسان في عصرنا الحاضر لم يبق فيه من سذاجة الفطرة ما يكفي لثقة الحيوانات المتوحشة به وان صفات الطفولية هي اللازمة لذلك . اه

الرسالة الثالثة والعشرون

(من هيلانة الى اراسم في ١٤ يناير سنة ــ١٨٥)

تأثير الجمال في الاطفال واحتياجهم الى كثرة التعلم

لاحظت ان اميل كلما صحبني الى دار السيدة وارنجتون ووجدهناك نسوة من المدينة اصطفى لمعرفته منهن عادة أحسنهن خلقا وربما دل ذلك على أن للجمال تأثيراً في نفوس الاطفال .

وبدا لي منه أيضا أنه يحب الشيوخ ولعل السبب فيه احتياج الاطفال الى كثرة التعلم وميل الشيوخ الى الاكثار من التكلم .

لكن لا يدعونك هذا الى أن تتصور فيه أنه مثال لا ترابه على أنني لا أريد أن افتات عليك بالحكم في هذا الامر فأدعه لك تحكم فيه بنفسك . أنا ألوم نفسي وابكتها على استمتاعها دونك بما تجده في منتآي من السكينة والدعة وقد عزمت من أجل هذا على أن ابذل نفسي لك كما بذلت من نفسك فاستأجرت مخدعا في سفينة ستقلع من بنزانس الى . . . فعليك اذن أن ترتقب لقاءنا . اهـ

الرسالة الرابعة والعشرون

(من اراسم الى هيلانة في ٢٠ منه سنة ــ ١٨٥)

اخبارها بصدور أمر بنقله الى سجن آخر واقناعها بالعدول عن السفر اليه

ترددت حينا في الكتابة اليك لاني لم أجد في نفسي من الاقدام ما

يعشني على اخبارك بآخر بلاء أصابني وأنا على ما أعلمه الآن من أنك قد تطالعين خبر هذا البلاء في الصحف أفضل أن انبئك به على كل حال ذلك انه قد صدر من حيث لا أدري أمر بنقلي الى . . . .

ليس شأني كما تعلمين شأن المقضي عليه بعقاب فهو يذوق عذابه لان هذا في قبضة القانون واما أنا فني قبضة القوة تصرفني كيفما شاءت فلست أدري من ذا الذي قضى عليّ وامر اتهامي سر يعلمه الله واذا سألت ماذا يراد بي ومتى واين ينتهي عقابي وهل هذا النقل الحديث آخر مرحلة من مراحل سفري الاليم الممض ؟ فلا أجد جوابا لواحد من هذه الاسئلة .

على انه لا ينبغي ان ترتاعي لهذه المحنة الجديدة فالبحار تعرفني وأنا أعرفها ولاعتيادي المعيشة في أقاليم مختلفة اصبح في استطاعتي احتمال حرارة الشمس ورطوبة السواحل

وعليك الآن ان تكفي عن التمسك بأمل اللقاء فان بيننا بحرا كالصحراء وارضين وبيئة وان تبذلي نفسك في سبيل تربية ولدنا وعلينا جميعا أن نداب في عملنا وان نتلقى كل ما يعترضنا من العقبات بعزيمة صادقة وقصد ثابت .

أرجو موافاتي باخبار «أميل» متى تيسر لك ذلك .

فيما انطوت عليه احشائي أمران لو اجتمعت قوى البشر على ان تسلبني اياهما لردت بالخيبة والخسائر الا وهما فكري وحبك فيكفيني ما لدي من البراهين اليقينية على أني محق في تقويتي على احتمال ما ابتليت به من الاضطهاد والظلم . اهـ

الرسالة الخامسة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم فى ٦ مايو سنة ـ ١٨٥ ﴾

تعليم الاطفال الصدق والاحسان والرحمة بالحيوان والعدل في المعاملة واحترام الزمن بالعمل والممارسة دون الحفظ والتلقي

كانت عاقبة جدي فى السعي ان فزت بوصل حبل المراسلة من وراء ما بيننا من المسافات الشاسعة بعد طول انقطاعه ولست أعد من الترسل ماتناوبناه منذ ثلاث سنين من المكاتيب [1] غير المهمة التي كان دأب كل منا فيها الاقلال من القول جهده فانا محتاجة في تخاطبي معك الى مناجاة قلبك بفكر تام الاختيار وضمير كامل الحرية .

لاارجع الى مامضى من الحوادث فالكلام فيه عديم الجدوى وانما اقول اني قد عراني لخبر نقلك من سجنك الى غيره من الالم مالج بي في التصميم على اللحاق بك لحاجة لم أحس بمثلها من قبل ولم يمنعني من المضي مها سوى ماغلبني من الاحساس بوجوب طاعة أمرك وسماع نصائح صديقك الدكتور ورعاية مصلحة ولدنا فانصمت لذلك الاحساس آسفة مرتقبة تحقيق أملي في اللقاء

علمت مما سبق من رسائلي ماعليه (أميل) من صحة البدن وأريد

---

(١) هامش الاصل — لم نورد تلك المكاتيب التي ذكرتها لاتالم نرفيها مصلحة للقاريء فان اكثر فائدة فيها انما هي تكميل عدد الرسائل .

الآن أن أحدثك عن تقدمه في اكتساب العلم فاقول : ليس ولدنا بدعا من الاطفال (وهو أمر أعترف به وانا في غاية الاستكانة والغضاضة) بل يجد الناس هنا فيه شيئاً من توحش سكان أطراف العالم ولكني أحبه كما هو لاني أرى جميع مافيه منبعثا عن الفطرة ولم أُعْنَ حتى الآن بتعليمه مواضعات المعاشرة وآداب الاختلاط لان جل عنايتي كان مصروفا الى النظر في اخلاقه واحوال نفسه والاجتهاد في تقويم طبعه وتربية ادراكه وسأسرد لك من تجاربي معه ما تحكم به على مبلغ نجاحي في ذلك .

لاحظت أن فيه نهامة وهي عامة في جميع الاطفال فلم يسلم منها احد منهم ولكن قد اتت عليّ معه ساعة ارتعدت فيها فرائصي خوفا عليه من تلوث نفسه برذيلة افظع من النهامة واشنع منها كثيرا الا وهي الكذب ذلك أن جورجية كانت تخبز ذات يوم قرصا فطيرا فلما استوى اخرجته من الفرن ووضعته ساخنا على الخوان ثم دعتنا شؤون مختلفة للخروج الى البستان فتركناه وخرجنا الا « اميل » فقد لاحظت منه أمرا دهشت له وهو اجتنابه الذهاب وراءنا . فلما عدنا الى المطبخ لم نجد للقرص أثرا. فاستولت عليّ ريبة شديدة في أمره ولكنني تجاهلت السارق والتفت الى جميع الحاضرين مظهرة اني أخاطب الكل فقلت ليت شعري من ذا الذي اخذ القرص من فوق الخوان فاما تويبدون وجورجية فانهما لم ينبثا بكلمة لعلمهما البراءة من نفسيهما واما «اميل» فلما لم يكن شأنه كذلك لم يسعه الا أن خجل وصاح قائلا الدبة هي التي أخذته .

فلما سمعت منه هذا الجواب انجرح فؤادي غما وانت تعلم من أحد مكاتيبي السالفة ان الدبة هي كلبة البيت ولما اعلمه بينه وبينها من الالفة والارتباط

رأيت أن هذه فرصة سنحت لايقاظ وجدان العدل في نفسه فصممت على اغتنامها وقلت ان كانت الدبة هي الآثمة فلا بد من جلدها واشرت الى فوبيدون بتنفيذ هذا الحكم وكنت كل هذه المدة أتأمل في وجه «اميل» وأحس بأن فؤادي يطير شعاعا ولا غرو فأي شيء كنت أرجوه منه اذا كان أصر على الكتمان وانكار الحق ؟ ادرك الزنجي بلاريب موجب جزعي وفهم ماقصدته فتقدم الى الدبة المجني عليها تلوح عليه سمات جلاد ممن تمثلهم القصص المحزنة وكانت قد بدت عليها منذ حين علائم الانس بمن في البيت والسكون اليهم لفراغها من اداء واجب العناية والحمايه لجرائهـا وكانها ادركت جميع ماحصل لانها كانت تنظر الى «اميل» نظر المستعطف الآمل ولسان حالها يخاطبه بقوله « اهكذا تدعني أعاقب ظلما » فاضطرب الغلام من هذا النظر ثم اجهش بالبكاء واستلقى بين يدي قائلا كلا ليست الدبة هي التي أخذته بل أنا الآخذ! اعندذلك سُرّيَ عني ما كان أبهظ نفسي من متراكم الكدر ولكنني رأيت ان من الواجب عليّ في هذا المقام الثبات وعـدم التعجل في اظهار الحنوّ فصحت قائلة له من حيث انك تجنيت على الدبة مالم تجنه فهي التي ينبغي الرجوع اليها في طلب العفو ففهم أنه في الحقيقة قد فرط منه في حقها هفوة يجب الاستقالة منها فعمد الى جيب صدرته فاخرج منه نصف القرص لانه لم يكن تيسر له أكله كله ومـد يده به اليها قائلا خذي فتدللت عليه في بداية الامر ولكنها لما رأت ان استماحته العفو منها صادرة عن قلب سليم ازدردت تلك اللقمة اللذيذة وسمات الرحمة والبشر بادية على وجهها فبعثنا ذلك على أن قهقهنا جميعا .

أنا وان كنت لاأقوّم طاعة الاطفال لوالديهم باكثر مما تراه فيهـا

اجدني في بعض الاحيان مضطرة اضطرارا شديدا الى قمع اهواء «اميل» والحيلولة بينها وبين الوصول الى ماقد يضره ورأيت من الواجب عليّ ان استعين في هذا الامر باستعداد فطري يوجد قطعا في جميع الاطفال على السواء . ذلك أن «اميل» لما يحصل في ذهنه من حوادث العالم الخارجي الا صورة مبهمة فتراه يعتبر مايتعاصى عليه من الاشياء ولا يوافق رغبته ذا قوة متمردة وارادة متصرفة . خذ لذلك مثلا وهو ان له كلفا بأن يقلب مربعا من البستان بمقلب صغير فاذا باشر هذا العمل سلاني واضحكني منه ان أراه يسحق مايخرج من المدر برجليه الضعيفتين مبديا دلائل الابتهاج بالظفر كانما فى كل مدرة منها عدو له قد أرغمه واذله واذا اخترق الاسوجة النباتية فأصابه فرع منها فى وجهه تناوله بيده وجعل يهزه ويعبث به ولسان حاله يخاطبه موبخاله بقوله «علام تؤذيني ايها الغصن الحقير» وإني لاخاله يجلد البحر اذا أغرق مركبه الصغير على نحو مافعل به كزرسيس .[1]

هذه الشكاسة التي في الاشياء — وانما أسيمها بذلك موافقة لافكار الاطفال — تدعو «اميل» الى اظهار الطاعة للكبار الذين يعلمون من نواميس الكون وسننه أكثر مما يعلم . فان خضوع العالم لتلك النواميس والسنن هو الذي ألزم الانسان المحافظة علي رعاية أحكام التجربة واقتفاء آثار السلف ولذلك قد اتفقت مع قوبيدون على طريقة بها يعاقب «اميل»

(١) كزرسيس هو ابن داريوس الأول أحد ملوك الفرس خلف أباه في سنة ٤٨٥ ق م . ومات سنة ٤٧٢ ق . م اراد اتمام فتح البلاد اليونانية الذي كان شرع فيه والده فارسل اسطوله اليها فاضطرب البحر وأغرق قنطرة كان اتخذها من السفن فامر بجلده ثلثمائة جلدة كما يعاقب الاسير العاصي

كلما عصى أوامري واغفل الاخذ بنصائحي بحيث اني لا أتولى عقابه بنفسي بل أكله للجمادات المحيطة به فانه بذلك يعتاد على أن يلتمس في الطاعة جنة تقيه شر ضعفه وشر ما للفواعل الكونية من الطغيان والعتو .

جريت معه على هذه الطريقة بعينها في ضرب آخر من ضروب سيرته واني وان لم أصل بها في جميع الاحوال الى النجاح المقصود إخالني على الطريق الموصلة اليه . ذلك أني رأيته شغفا بالاندلاق من البيت وكثيرا ما انذرته بان في خروجه منه وحيدا ضررا عليه فلم يجد ذلك نفعا فلما رأيت منه قلة الاصغاء الى نصائحي في هذا الامر اوعزت الى قوبيدون بأن يغري به بعض أطفال القرية فكانوا كلما رأوه في الخارج تظاهروا بأنهم يحسبونه وليدا ضل بيته وقبضوا عليه وردوه اليّ قهرا فأدرك من ذلك الحين الموعظة التي اردت أن أعظها اياه وهي ان الانقياد والطاعة أمثل من القسر .

على انني رأيتني قد عرفت فيه أنه لم يخلق لان يعيش وحيدا ولا لأن يقضي جميع زمانه مع الكبار لانه مادام ذا عقل وكان مقصورا على مخالطتنا يشيخ قبل بلوغه سن الشيخوخة وأما اذا اختلط بلداته وعاشر أترابه أشرق في وجهه نور الفرح بابتهاجهم وسرى الى نفسه روح السرور منهم ولهذا رأيت من مصلحته أن يتخذ له رفقاء من أطفال القرية جعلت أمر اصطفائهم موكولا اليّ حتى لا يكون له فيهم أسى سيئة ولم ألاق في هـذا الامر صعوبة لان الناس هنا لاشتغالهم طول النهار بتحصيل رزقهم يرون في تسليم اطفالهم لمن يقوم بشأنهم تخفيفا من حملهم فاصبح بيتنا من هذه الجهة شبيها بملجأ من ملاجيء الاطفال . اذكر لك من أخصاء « اميل » اثنين فقط وهما غلام اسمه وليم يكاد يساويه في سنه أعني انه في الخامسة

او السادسة من عمره وفتاة في السابعة من عمرها عليها مخايل الحسن تسمى ازابللا ولكن الناس يختزلون هذا الاسم اختزالا لا شبهة في وجه مناسبته فيدعونها بلاّ (كلمة تليانية معناها جميلة)

أخص ما أعني به في شأن أولئك الاطفال الثلاثة هو ايجاد رابطة اختلاط وعشرة بينهم . فتراني اذا صرحت لهم بالانطلاق الى التنزه اوزع عليهم ثلاثة أصناف من الطعام ولكني أراعي في هذا التوزيع ان يكون الخبز كله لواحد منهم واللحم البارد مثلا للثاني والفاكهة للثالثة فاذا حانت لهؤلاء المتبطلين ساعة اشتهاء الاكل — وقلما تتأخر لانهم يأكلون أكل صغار الذئاب — دعا من نال الخبز منهم رفيقيه الى مقاسمتهما اياه على شرط ان يقاسماه أيضا مامعهما من اللحم والتفاح مثلا فتقبل منه هذه الدعوة عن طيب نفس لان لكل منهم مصلحة فيها وبهذه الطريقة يتعلمون بالغريزة الجري على سنة المعاوضة التي هي على ما أرى حقيقة معنى المساواة.

من أصول الرذائل الخبيثة التي اضرف في استئصالها من نفس «اميل» جل اهتمامي الاثرة فان الاطفال مجبولون على الاستئثار بكل شيء وهذا الاستعداد الفطري مبني في الغالب على الشره والحرص . ذلك ما أراني لاحظته فيهم واود ان اكافحه واغالبه . ومما رأيته أنه لا ينجع فيه زخرف القول وبلاغة المنطق وان الواجب عليّ كما رأيت فأحببت ان أشخص لولدي ما أسوقه له من العبر في الاعمال . ولعلك سائلي عما فعلته للوصول الى هذه الغاية فاقول : انني انتقيت من بين الاشجار المثمرة في بستاننا ثلاثا جعلت لكل من غلماني واحدة منها مدة السنة ولكوني أنا التي توليت توزيعها عليهم اعطيت (لاميل) كرزة ولوليم خوخة ولبلا

اجاصية طعمها قوبيدون ولما تثمر واحدة منها لتاخر فصل الصيف وأنا والحق أقول في شك من وفرة احمالها هذه السنة . وعلى كل حال أرى ان هؤلاء البستانية الصغار الثلاثة مهتمون بملاحظة ماوضعوا عليه ايديهم وقلما يفترون عن ذود الدود وغيره من الحشرات المهلكة عنه . وليس يعمد على (اميل) في ابان الكرز أن يأكل جنى شجرته جميعه دون أن يعطي منه شيئا لرفيقيه . ان فعل ذلك فصبرا لانه لا بد ان يأتي يوم مقايضة الجزاء بمثله . ذلك أنه متى انشأ الخوخ والاجاص ينضجان ذكر وليم وبلاّ معاملة (اميل) لهما وقابلاه بنظيرها مالم يكونا أكرم منه نفسا واسخى كفا فيرضيا مقاسمته مالهما على ما فيه من الميل مع الاثرة وفي كلتا الحالتين عقوبة له .

من السهل كثيرا على الاطفال أن يدركوا معنى الملك في حق انفسهم ولكن من الصعب جدا اقناعهم بان للغير ملكا يجب احترامه .

يشهد لذلك ما سأقصه عليك وهو أن مما يزرع في انكلترا الرواند وهو نبات بهي المنظر شديد النمو يعرف في مزارعه بعرض أوراقه وعلو سوقه يدخله أهل هذه البلاد لندرة الفواكه عندهم في عمل أقراص ومربيات يغالون بها كثيرا سواء أخطأوا في هذه المغالاة أو اصابوا فترى أطفال القرى بسبب بقاء اذواقهم على حالها الفطرية كلفين بأكل هذا النبات حتى انهم لايحتاجون في تعاطيه الى تسويته بالنار ولا الى ادخاله في الاقراص بل هم يأكلون سوقه الغضة فجة ويجدون لها طعما مزا . من اجل هذا حصل ان تلامذتي (لاني اعتبرهم كذلك) بينما كانوا يتنزهون وحدهم في ضواحي

بنزانس لحوا حقلا من حقوله فحركتهم اليه كما حركت حمار الاسطورة [1] دعوة الفرصة لهم الى اغتنامها وغضوضة النبات وطراءته وبعض نزغات الشيطان فلم يكن الا أن تخطوا مايحيط بالحقل من الحواجز الواهيه ثم انقضوا بقوتهم على بعض اشجار منه رأوها أطرى من غيرها فأكلوا منها كفايتهم ولكن لم يلبث وجدانهم بعد هذا ان اخذ يناجيهم فيما ارتكبوا فقال « اميل » وقد بدا خجله أتحسبان أنا قد احسنا فيما فعلنا فاضطر رفيقاه

---

(١) تشير الى حكاية الحمار والكلب من اساطير لافونتين وها كها منظومة من كتاب العيون اليواقظ :

عطارنا واسمه فلان	قد خانه الدهر والزمان
سافر من داره بجحش	واسم ذا الجحش مرزبان
واتخذ الكلب حين ولى	والكلب هذا اسمه امان
فحصلوا غابة فحطوا	لراحة زانها المكان
ونام مولى الجميع لما	رأى مروجا بها الامان
اما الحمار اعتراه جوع	وحوله النـد واللبان
فصار يرعى وما توانى	وآن من حظه الاوان
قال له الكلب ياحبيبي	الخبز في الخرج والدهان
ارقد على الجنب منك حتى	آكل فالجوع لي هوان
فاطرح القول ثم ولى	ولم يطاوعه مرزبان
ولم يدم ان اتاه ذئب	له للطع الدما لسان
فقال للكلب قم اليـه	فانني معك لا أهان
قال له الكلب كيف هذا	لافاتك الضرب والطعان
احرمتني الاكل في نهاري	والجوع لاشك ترجمان
ذق غصة الموت وامض عني	فالموت أولى به الجبان
واغتاله الذئب وهو يجري	ولم يدافع ولا امان
وهكذا في الاصول قالوا	كما يدين الفتى يدان

الى الاعتراف بأنهم جميعا قد اساؤا .

ثم استأنفوا الكلام فقال وليم قول القدري الرزين لقد كان ما كان فلم يبق في قدرتنا اصلاحه فأجابته بللا — وهي لكونها أكبر منه سناً اعرف بطرق المعاملات منهما — « بلى ان لنا سبيلا للخروج من تبعة هذا الخطأ لانه يصح لنا في كل حال ان ندفع ثمن ما اتلفنا » فكان لما قالته لرفيقيها لمة ابتهاج اشرق بها ضميرهما لانهما عوّلا على اصلاح التلف وبذلك يؤبون الى بيتهم هادئي البال .

على انهم لم يلبثوا ان وقعوا في حيرة عظيمة لانه لم يكن مع وليم وبللا من النقود فلس واحد . واما { اميل } فانه كان غنيا بوجود بني[(١)] (عشر ستتيات) في جيب صدرته ولم يتردد في اخراجه ليدفعه ثمنا لما أكلوه ولما لم يروا في الحقل احدا يقوم مقام مالكه في قبض الثمن أدتهم سذاجتهم الى ان وضعوا قطعة النقد على ورقة عريضة من اوراق الرواند وانصرفوا .

علمت بتفصيل هذه الواقعة من بدايتها الى نهايتها من الجناة انفسهم لاني لما كنت لا اعاجلهم بالعقاب على مايقترفونه كانوا يحسبونني كاحد معلمي الاعتراف فيقرون لي بما يقترفونه من الذنوب طيبة به انفسهم ولما خفت ان يكون ماتركه الاطفال من الثمن غير كاف في تعويض ما اتلفوه تراضيت مع المالك على قيمته ودفعتها له على أنها لم تكن كثيرة وبذلك حسمت هذه المسئلة بنفقات قليلة وكنت أبذل كل مايطلب مني في مقابلة

(١) البني عملة انكليزية هي جزء من اثنى عشر جزءاً من الشلن الذي هو جزء من عشرين جزءاً من الجنيه الانكليزي وقيمته بالعملة المصرية اربعة مليمات

ما أشرق في بصائر أولئك النهابين الصغار من بريق العدل في الوقت المناسب له ولو كان «اميل» هو الذي صدرت منه فكرة ردقيمة ماسلب لكان سروري بذلك أعظم كما لا أخفي عنك وفرحي به اكبر على ان له فضلا ببذل ما كان معه على قلته .

كيف يكون تفهيم الاطفال ان كل ماينبت على وجه الارض ليس مباحا لجميع الناس.

أرى ان من أحسن مدارس الاخلاق للصغار الذين هم في سن «اميل» المدرسة الخلوية فانه يتعلم فيها من نظره الى ماينهمك فيه أهل القرى من الاشغال الشاقة اكثر مما يتعلمه بجميع البراهين الممكنة لانه يرى في كل يوم ان القمح لاينبت الا اذا بذرت الناس حبوبه وأن أجود أرض لاتصلح للزراعة الا اذا قلبت وحرثت .

ثم ان الحيوانات أيضا تعلمه اختصاص كل منها بما يملك . اذكر من ذلك مثلا فأقول : يوجد في ضواحي بنزانس على شاطيء جدول يجري بعض أميال ثم ينصب في البحر لفيف من الاشجار يحوم على واحدة منها في غالب الاوقات طائر يقل وجوده في هذه الناحية وهو المسمى عند الانكليز بملك جوارح الطير وعند الفرنسيين بالخطاف الصياد (لعله الذي يسمى بالعربية الزيج) .

لفت هذ الطائر الجميل انظار أولادنا في أول الامر ببهاء لونه ولكني نبهتهم الى ان شهرته بالمهارة في كسب قوته ليست بأقل من شهرته بجمال سرباله . ذلك لان هذا المسكين يكد في كسبه وينصب فانه يجثم ساعات كاملة في مكانه أي وراء غصن من الاغصان يحجبه عن الاعين ولا يعترض

بصره حيث يراقب كما تعلم بعينيه اليقظاوين اللتين لا يفوتهما فائت مرور السمك في الماء فاذا سنحت له واحدة منها انقض عليها انقضاض السهم واصطادها ثم ارتفع بها معلقة في منقارة القويّ الى محله وبعدان يمزقها كل ممزق ويلتقمها يعود الى ما كان فيه من الترقب الشاق لعلمه ان الحظوظ نادرة وان شهوة الطعام حاكمة عليه . في ذات يوم شهد الاطفال قتالا عجيبا وقع بينه وبين جارح آخر أراد ان يختبس ثمرة صيدة فلم يلبث «اميل» ان فهم ان هذا الطائر الثاني هو السارق لانه أراد ان يسلب خصمه ماكسبه بجده وسعيه .

من العواطف التي أريد أيضا ان اغرسها في نفس ولدنا احترام مايصيب الناس من العاهات. وقد رأيت ان إلقاء المواعظ عليه في ذلك مما يضيع به الزمن عبثا ولاحظت أيضا ان كثيرا من الآباء والامهات يخطؤن بتمثيلهم عيوب الخلقة وضروب التشوه الفطري لاولادهم في صورة عقوبات الهية ومن الامثال على ذلك ان فتاة تسكن النزل الذي أنا فيه شبت على هذه الاوهام الشنيعة فكانت تعتقد اعتقادا راسخا في عجوز من جيراننا شوهاء قوساء ان الشيطان يسكن حدبتها . فالذي أريد اقناع «اميل» به هو عكس ذلك بالمرة . أريد ان أفهمه من غير افراط في تنبيه عاطفة الشفقة فيه ان من سلبهم الله من عباده محاسن الخلقة عوضهم منها مواهب لم تقسم لغيرهم . علمت بأنه يوجد على مقربة من قرية مرازيون غلام اكمه يعيش من ثمرة كد والديه اللذين هما من صلحاء الفلاحين فرأيت فيه فرصة حسنة لتجربة الفكر الذي تصورته وطلبت من تلامذتي الثلاثة ان يقبلوه رفيقا لهم فرضوا بذلك لانه متى كان المقصود للاطفال التسلي والانشراح لا يعتبر

عددهم كثيرا بالغا مابلغ . وقد يكون لرضائهم بصحبته سبب اخروهو ان الانسان لايكره مطلقا ان يكون له رفيق يظهر علو درجته عليه لعلة فيه ككونه محروما من بصر يضيء له سبيله وان كان ذلك الرفيق في الحقيقة أشد منه قوة وأكبر سنا فاننا كثيرا مانشوب حنونا بشيء من الكبر والصلف والاطفال مثلنا في ذلك وان لم يكونوا عالمين به على انه لاحاجة بي الى استقصاء اسباب اعمالهم ·

يتسلى عرمة الاطفال هنا في فصل الربيع باصطياد طائر من الطيور الخاصة بكرنواي وهو الغراب الاعصم[1] ولكون هذا الطائر نفورا في حالته الفطرية تراه لايسكن غالبا الا الاماكن المهجورة ولعلمه بشدة رغبة الناس فيه لندرته يدعوه ادراكه الى ان يتخذ وكنه[2] في وسط مالا يكاد ينال من الصخور ولكن الصغار البحاثين المنقبين لايفلت شيء من ايديهم فبعضهم مدفوع في بحثه بما فيه من حب الاستطلاع وبعضهم يحركه الى ذلك طمعه في الربح لأن هذا الغراب غالي القيمة. ثم ان أكثر وجوده في ضواحي بنزانس بالشعاف الوعرة المنتشرة حول خليج الجبل حيث يعتصم في صخور الصوان المتصدعة المنقلبة بسبب ما انتابها في غابر الأزمان من الرجفات والزلازل · ويوجد بالقرب من هذا المكان المنعزل الوعر قرية للصيادين تدعى (موس هول) ومعناه جحر الفأر وانما سميت كذلك لتعلقها على الساحل كأنها جحر فأر في جدار ·

---

(١) الغراب الاعصم هو الاحمر الرجلين والمنقار الذي في جناحه ريشة بيضاء

(٢) الوكن بالفتح عش الطائر في جبل او جدار او مقره في غير عش

(٢٦ التربية الاستقلالية)

أنا لا استحسن بحال صيد هذا الطائر لاسباب مختلفة ولكنّي ربما توهمت أن في التعجيل باظهار مذهبي في ذلك لتلامذتي خروجاً عن مقتضى السياسة والحزم لأنهم يرون لهم أسىً في أطفال القرية تحركهم الى هذا الفعل ومن أجل ذلك لم أمنعهم من الذهاب للصيد . فانطلقوا في بكرة ذات يوم يصحبهم الاكمه ويتبعهم توبيدُون من بعـد على غير مرأى منهم لخوفه عليهم أن يحل بهم خطر في تسلقهم الصخور. وكان وِليَم وبللا يتناوبان العناية بشأن الأكمه المسكين ويقودانه فانقضى نهارهم على مايرام ولم يكن تنزههم على القنن الصوانية الا سببا لازدياد شعورهم بعلو درجتهم على الاكمه لأنه كثيراً ما كانت تزل قدمه في اقل العقبات. وقد انستهم كثرة اشتغالهم انقضاء الزمن بحيث إنهم لم يفرغوا من تناول طعامهم الشظف الذي تناولوه معا حتى رأوا الشمس على وشك الغروب فدهمهم الليل وهم لايزالون على مسافة بعيدة من البيت وكان أصعب ما عليهم في ذلك الوقت تمييز طريقهم الذي صعدوا الجبل منه فلما رآهم توبيدون في هذه الحيرة اشتدت رغبته في أن يظهر لهم ويسكن روعهم ولم يمنعه من ذلك الا اخلاصه في اتباع ما ارشدته اليه فانتظر حتى يرى كيف يتخلص هؤلاء التائهون من ورطتهم .

أتدري انه لما جن عليهم الليل انعكس الأمر فيهم كل الانعكاس فأمسى الاكمه بصيرا لانه بما حفظت ذاكرته ودقة لمسه (التي هي من خواص العمي) من مواقع الطريق ميز الشعاب التي مرَّ بها في الصباح كل التمييز فبات قائدا بعد أن كان مقودا. فلما رآه الاطفال على هذه الحالة يسترشد في الطريق بأطراف أصابعه كأن له فيها أعيناً كادوا يعتبرونه في

ذلك الوقت أرقى منهم . فهم في ذلك كالمتوحشين يسهل انتقالهم من شعور متجاوز حده الى شعور آخر ليس أقل منه خروجا عن الحد . وقد يدلنا هذا على ان عبادة بعض الشعوب القديمة لذوي العاهات من الناس مبنية على مثل هذا السبب .

على أن ميل « اميل » ورفيقيه الى الاتيان بمثل ما أتى به ذلك الاكمه قدبعث فيهم روح الاستطلاع . فالموهبة التي أوتيها الأعمى قد يصح لغيره من البصراء أن يكتسبها بالتمرن لأنك ترى الاطفال يدلهم حدسهم الفطري على بعض طرق من شأنها أنها تنمي فيهم قوة السمع ودقة اللمس اكثر من غيرها فمن ذا الذي اخترع اللعبة المسماة بالمسَّة ؟ [1] لا إخال ان مخترعها حاوي [2] أو غيره من أعضاء المجتمع العلمي (اكديميا) فان هذه اللعبة التي يسميها الانجليز هنا جلدة الاعمى ليست الا تعاميا تتعرف به الطرق التي للأعمي في معرفة ماحوله . أنشأ « اميل » ورفيقاه يمارسون فيما بينهم كثيرا من الألعاب وطرق التدرب التي تقتضي الالتفات واعينهم مغطاة ومع كون الفضل كله للابصار بالعينين كانت أثرتهم التي هيجها فيهم مارأوه من فعل الاكمه توحي اليهم بان النظر الدقيق هو النظر باللمس وأنا في شك من انهم ينالون من هذه الجهة بكسبهم ما للاعمى من

(١) المسة لعبة للأعراب يقال لها الضبطة فاذاوقعت يداللاعب من الرجل على بدنه أو رأسه أو كتفه فهي المسة واذا وقعت على وجله فهي الاسن ــ كذا في معاجم اللغة ويظهر أن هذه اللعبة طبيعية توجد عند جميع الامم ولها كيفيات واسماء كثيرة

(٢) حاوي واسمه والنتين هو عالم فرنسي ولد في سنة ١٧٤٥ م ومات في سنة ١٨٢٢ م استبدل بالحروف الخطية الحروف المجسمة لتعليم أحداث العميان القراءة والكتابة واسس مدرستهم المشهورة في باريس

النظر الطبيعي ولو قضوا في مزاولة ذلك طول حياتهم غير انه من فائدتهم ان يتعلموا في اللعب ما بين المشاعر من التعاون وقيام احداها محل الاخرى ولست انسى ما كنت تقوله لي كثيرا من انه لا يعرف طرق السمع والبصر حق المعرفة الا من تعاوره الخرس والعمي ٠

يجب علي الآن ان أعود الى ما كنت بصدده من حكاية اصطياد الغراب الاعصم فأقول: لم يعثر الاطفال على وكن واحد في الصخور وذلك لان «اميل» ووليم لا يزالان من الضعف بحيث إنهما لا يستطيعان الوصول الى الشعاف الوعرة التي يلجأ اليها ذلك الطائر واما بللا فلكونها بنت رجل بدين بمذهب المرتجفين[1] ترى ان استلاب افراخ الطير من امها من فعل الشر. هذا المذهب الديني كما لا يخفى عليك يورث أصحابه ميلا عظيما للاحسان الى الحيوانات. ولكون قوبيدون اقل تحرجا منها في هذا الامر وا حرص دائما على فعل ما يرضى « اميل» كان امهر منهم أواسعد حظا في بحثه لانه بتلك الخفة في التسلق التي تمثل انسان الآجام في شخصه كان قد اصطاد من بين القنن الصوانية والادغال زوجا من هذا الطائر صغيرا نبت ريشه لكن اجنحته لم تطل لتستطيع الطيران فلما رأى الاطفال الزنجي دهشوا دهشة عظيمة لانهم ما كان يخطر لهم على بال أنه بهذا القرب منهم يتدخل في كل مكان وهو كالليل في السكون فابتهجوا برؤيته وزادتهم

(١) المرتجفون لقب لجماعة الاخوان في انكلترا وهم طائفة من رجال الدين انشأها جورج فوكس المولود في سنة ١٦٢٤ م. وأول من لقبهم به هو جورج بنيت في دربي (من أعمال انكلترا) لان جورج فوكس المذكور خاطبه وخاطب من حضروا معه بقوله: ارتجفوا اذ اسمعتم كلام الله. هكذا جاء في جريدة جورج فوكس نفسه .

فرحا رؤية الفرخين اللذين كانا شبيهين بكرتين من الزغب ركب فيهما منقاران احمران حتى إن بلالا نفسها أبدت من البشر والارتياح في هذه الساعة مادل على انها نسيت مذهبها القديم ·

ولعلمي ما يعامل به الاطفال الطيور عادة اذا وقعت فى أيديهم بقيت وحدي غير مشاركة لهم في هذ الابتهاج العام الذي ولده اصطياد هذين الفرخين ولكن ماذا كان فيوسعي انافعله أو اقوله ؟ فلوأني قلت لهم خلوا سبيل اسيريكم لاطلقوهما ولكن مع الكراهة والاسف . من أجل هذا رأيت أن الامثل بي الرجوع الى طريقة أخرى وهي أني وضعت الفرخين في حجرة سفلى من حجرات البيت كنا نضع فيها أدوات البستان فاتخذتها بيتا للطيور ثم أخذت أبين « لاميل » أنه يجب عليه ان يتولى بنفسه تغذيتهما لانهما اصبحا محرومين من أمهما التي كانت تعولهما وبالغت له عن قصد فيما يستلزمه ضعفهما الشديد من ضروب العناية ليقوم ذلك مقام ما كان يكنفهما من رعاية وليهما الطبيعي فكان من ذلك ان حبس نفسه طرفا من النهار في بيت الطيور ولم يلبث بهذه الطريقة أن عرف أنه قد أصبح أسيرا لاسيريه وصارت كراهته لهذا العمل أمرا محتما. والذي استفاده فيه من العبرة هو أنه لا يتأتى للإنسان حرمان غيره من حريته الا بفقد جزء من حرية نفسه ولذلك لم تمض بضعة أيام حتى جاءني راجيا اطلاق الفرخين ليمضيا فى سبيلهما ·

لما رأيتني نجحت في سوق العبرة « لاميل » في الا كنه صممت على الاستمرار في تجاربي فعلمت ان في ضواحي قريتنا راعيا صغيرا مشهورا بالبله يسخر منه جميع عرمة الاطفال فى القرية ويهزأون بسذاجته

وكنت أرتعد خشية أن يفعل «اميل» فعلهم لان القدوة شديدة العدوى، والضحك مما ينبغي الرثاء له واحترامه هو من ضروب القسوة التي في الاطفال ولكن أعانني ولله الحمد على ما كنت بسبيله ما اعملته من الفكر وما سنح لي من الفرصة . ذلك اني قابلت هذا الراعي الصغير ذات يوم في الحقول فتبينت فيه انه يميز كل شاة من شياهه على حين ان قطيعه كله لم يكن في نظري وفي نظر «اميل» الا شاة واحدة مكررة مئة مرة فتلك إذن مزية له علينا عاهدت نفسي عهدا اكيدا على الانتفاع بها في سياستي «لاميل» فعرضت عليه في اليوم التالي لتلك المقابلة ان يصحبني الى الكتبان إذ علمت بوجود ذلك الراعي هناك فلما رآه قال « وَيْكَأَنِّي به المجنون!» وهو الاسم الذي يطلق هنا على السخفاء والبله فتظاهرت له بعدم الالتفات الى ماقال ووجهت نظره الى خصيصته في تمييز شياهه بعضها من بعض بمجرد نظره اليها على ضعف عقله مع تشابهها علينا كثيرا فكان ذلك باعثا لدهشته وموضوع محادثة مع ذلك الابله تبين لنا منها انه على علم تام باسنان شياهه وطباعها بل بأقل الشيات الظاهرة فيها فتسنى بذلك «لاميل» ان يقتنع في نفسه بأن هـذا الجاهل المسكين اعلم منا في بعض الامور الخاصة به. ولكي استفيد من هذا الاقتناع طلبت من الابله قبول ولدي في مدرسته بضعة أيام يعلمه فيها ما أوتيه من العلم فقبل ذلك طيبة به نفسه منتظرا من ورائه مكافأته بل ربما كان أيضا معللا نفسه بحسن ظن الناس بصلاحيته لبعض الامور وكان هذا بحسب ماظهر لي من حاله أول اكرام ناله في حياته.

وأما « اميل » فانه كان على مايظهر لي اقل ارتياحا منه بكثير لهذا

الأمر لأنه بسبب حبه لنفسه وعجبه كان يتألم من ان يكون تلميذاً لشخص يعتبره هو ورفقاؤه احمق ويرى ان في ذلك غضاً من كرامته ولكني لم أجد وسيلة أخرى للوصول الى مقصدي. على أنه لاشيء عليه في ذلك فلشدّ ما سيفتخر على أقرانه بابداء ماتعلمه لهم وان قل ويظهر لهم من الشمم به مثل ما كان للاحمق عليه . استفدت له من هـذا التعليم فائدتين: اولاهما ان ملكة تمييز ادق الفروق التي بين افراد القبيل الواحد لاتقتصر على استعمالها في الغنم بل متى حصلت صح ان تتعدى الى جميع ما تكلم عنه علم التاريخ الطبيعي من صنوف الموجودات والفائدة الثانية وأراها أنفس من الاولى هي أن يعلم بأننا على الدوام محتاجون الى التعلم حتى من أضعف الناس عقلا .

يتوهم « اميل » أنه لايكون رجلا الا اذا لعب كما يلعب الجندي ولذلك تراني ابيح له شيئا من هذا اللعب، وافاة لميله ومراعاة لسنه ولكني منذ بضعة أيام رأيت منه في اثناء هذا اللعب ماراعني وأطار لبي اذ رأيت فتيان القرية منقسمين الى فئتين متحاربتين وهو في وسطهم يحمل لهم اللواء.

نعم كانوا يقتتلون بسيوف من الخشب ولكن لو أنها كانت من الصلب وكانت هذه الايدي الصغيرة العاملة بها ذات اعصاب قوية لتمثل أمامي قطعا مشهد من مشاهد تلك المذابح الفظيعة التي تصبغ أديم الارض بالدماء ويسميها الناس حروبا فقمت أنا وبطلا بما كان يعمله قدماء السابينيين [(١)] أعني اننا توسطنا بين الفريقين المتحاربين وحجزنا كلا منهما عن الآخر

---

(١) السابينيون أمة قديمة كانت تقطن الجزء المتوسط من ايتاليا اقام قسم منها في رومية مع تايتوس وبقي القسم الآخر في الجبال حتى اخضعه توريوس دنتاتيوس

رأى «اميل» مني حتما أنني تألمت لهذه الحادثة لانه لما رآني شحب لونه وألقى بنفسه بين يدي طالبا مسامحته .

واني في الحقيقة ولا أخفي عليك قد انجرح قلبي لهذا المنظر وان كنت أعلم انك في يوم ما ستعلمه من غير شك ان هناك حروبا مبنية على الحق والعدل وان من أجمل ما يتصف به الانسان ويحمد عليه الذود عن حوزة بلاده والموت في سبيل الدفاع عن رأيه ولكنه في السن التي هو فيها الآن لا يفهم هذه الدقائق ولا يرى في الكفاح على أي حال الا مايراه معظم الناس من كونه وسيلة للشهرة والتمايز وذريعة الى ظلم الاكفاء والنظراء وسواء اتخذ الاطفال لواءهم من الورق او الخرق البالية تراهم كالجنود منقادين الى وجدان واحد لا تقوى فيه ولا ايمان فتبعثهم غرائزهم الوحشية على ان يرفعوا أيديا لا ينقصها من أول نشأتها الا قوة القتل ليضربوا بها اخوانهم . اذا كانت الحروب تنتشب بين الحكومات فليس ذلك الا لان غريزتها قد سكنت قلب الانسان من أمد بعيد وكيف لا تسكنه ونحن نرى القائمين على الاطفال يصرفون عنايتهم الكبرى في اعلاء شأن عطش الانسان الى شرب الدم الذي يجعلنا كالوحوش الضواري فأي اسم من الاسماء الجميل ظاهرها كالشرف والظفر وحب الوطن لم يقرن بذلك الميل الذي تعبده الناس كما كانوا يعبدون وثن ملوخ [1] وانا استعيذ بالله من ان يكون قلب ولدي مغرسا لهذه الشهوة التي كلها كذب وقسوة .

لما انتهى أمر هذه الواقعة اخذت «اميل» بيده وانطلقنا فاتفق ان رأيت فى طريقي تلك الساعة كلبين ضئيلين يقتتلان ويعض كل منهما الآخر

(١) ملوخ هو معبود الفينيقيين والقرطاجيين وكانوا يقدمون له الاطفال قرابين

على عظمة قد ترض نصفها نقات له تأمل فتلك صورة جميع ميادين القتال .
ولست على يقين من أنه أدرك هذه المرة معنى ذلك الكلام ولكن اقل
مافى هذا الامر انه فهم سبب تأثري لانه وربك كان بالغا مني مبلغا عظيما .

أنا مع اعتقادي بما في تقبيح هذه الاوهام السيئة في نظر « اميل »
وتشهيرها من الفائدة له لا أرضى أن يكون جبانا ولو اعطيت في ذلك
مافي الارض جميعا . ترى الوالدين في الجملة يفرطون اثناء تربية أبنائهم
في اساءة التصرف بما فيهم من وجدان الخوف فانهم يجتهدون في ارهابهم
بكل مافي وسعهم من طرق الارهاب فيخوفونهم من السماء بحجة ان
سحبها تقل صواعق الانتقام ومن الارض بقولهم إن الله سبحانه قد
لعنها وغضب عليها بسبب خطيئة آدم ومن الحياة لان أعمالهم فيها ستعرض على
حاكم يحصيها جميعها ومن الموت بجعله مخوفا بمخاوف لا تنقضي الى الابد .

هذه التربية التي أساسها الارهاب والتخويف انما تلائم الارقاء
تمام الملائمة ولكني في شك مريب من أنها تنشىء رجالا احرارا فاذا
كان لابد « لاميل » ان يرتاع ويفزع فليكن ارتياعه وفزعه من وجدانه
وسريرته ولكني خلافا لاولئك المربين اجتهد في تطمين قلبه وتسكين
روعه من هذه المخاوف المبهمة الخيالية التي كثيرا ماتلازم اذهان الاطفال
واود لو اراه شجاعا جريئا على الاشياء وديعا مخفوض الجناح للناس . فالواجب
أن تكتسي الشجاعة حلة الشرف الحقيقي لا ان تتحلى منه بالبهرج الكاذب .

رأيت « اميل » كغيره من الغلمان الذين في سنه يخاف من الليل
ومن كل ماليس معروفا له فيوجد في أقصى البستان روضة من شجر

البندق المتوسط في الكبر لايجرأ على دخولها وحده بعد غروب الشمس كأنه يخشى أن يؤكل فجأة وعلى أي حال ليس فى الامر مايدعو الى الافراط في الاستغراب فان الاطفال لم يكونوا ليشتغلوا بأحدوثة الاصيبع [1] كل هذا الاشتغال الذي نعلمه منهم لو لم يبق فيهم أثر من الانسان الوحشي الذي كان يعيش محوطا بجميع مافي الكون من الاغوال وربما كان الذي يمنع «اميل» من الدخول في تلك الروضة مساءه هو اشفاقه من أن

(١) اسطورة الاصيبع احدى اساطير شارل بروات الكاتب الفرنسي الشهير المولود سنة ١٦٢٨ المتوفي سنة ١٧٠٣ م التي وضعها للصغار وسماها اساطير الجن وملخصها : أن حطابا ضاقت به الحال لان زوجه كانت تورا اقل حملها التوأم فاجتمع له سبعة ولد لاكبرهم عشر سنين ولاصغرهم سبع وولد هذا ضئيلا كالاصبع فسمي «الاصيبع» وكان غصة لوالديه مهضوما عندهما على كونه اذكي أخوته وادهاهم . اصابتهم سنة شهباء اضطرت الوالدين الى التواطؤ ليلا على اضلال الاولاد في غابة لكيلا يشاهدا موتهم جوعا فسمعهما الاصيبع فبات مسهدا وبكر الى الشاطىء فملأ جيوبه حصى ابيض وكان يلقي كل بضع خطوات من طريقهم الى الغابة حصاة ولما أضل الوالدان الاولاد وعادا طفقوا يصرخون فهداهم الاصيبع الطريق وسلموا ثم توطأ الوالدان أخرى ولكن لم يتمكن الاصيبع من الخروج لاخذ الحصى ولكنه ادخر الكسرة التي أصابته من الخبز ففتها وألقاها في طريقهم الى الغابة ولكنه لم يهتد اليها بعد الاضلال لان الطير اكلها فصعد الى شجرة فآنس بصيص نار في الظلام فأمه باخوته فاذا هو بيت الغول فقبلت زوجه ضيافتهم في غرفة بناتهما فجاء الغول وشم ريحهم وحاول اغتيالهم فاستمهلته الى الصباح وسمع الاصيبع فاستبدل تيجان البنات الذهبية بقبعاتهم فاشتبه الامر على الغول فذبح بناته ليلا وتسلل الاخوة لواذا ثم تبعهم الغول بنعله ذي الفراسخ السبعة فآووا الى كهف ادركه الغول من الغد فنام فوقه ليستريح فسرق الاصيبع النعل وعاد به الى زوجه قائلا إن اللصوص قبضوا عليه وطلبوا منه الفداء فأرسله بالنعل ليحضر له جميع ماله فصدقت العلامة وعاد بالمال الى اخوته فحملوه الى البيت وحسنت به حالهم . وموعظة الكاتب المقصودة هي أن الناس يكرمون الجميل من ولدهم ويمتهنون الدميم مع أنه قد يكون سبب سعادة جميع أهله . اه

يقابله فيها ذئب القبيعة الحمراء [1] وبالجملة فهو نفسه لا يعرف ان يعبر عما يرهبه والحقيقة انه يخاف من ذلك الشيء الذي يسمع عنه انه يجول في الظلام .

لما رأيت أن آثار الخوف ألصق بالنفس من جميع الآثار والانفعالات وان التظاهر بمقاومتها لا يزيدها الا ثباتا اقتصرت على ان حسنت لاميل دخول الروضة المذكورة مستصحبا الدبة لانها لا ترهب شيئا ولاستعدادها في كل وقت لاقتفاء أثره فلما رأى بهذه الواسطة أن له رفيقا لم يمتنع من الدخول ولم يلبث ان عرف ان الذي كان يشوش ذهنه الى تلك الساعة انما هو وحشة المكان وخلوه من الانيس . ولم تفتني الاستفادة من هذه العبرة أنا أيضا لانني قد فهمت بها جميع ماقد زاد في نفس الانسان من القوة بسبب اختلاطه بالحيوانات المستأنسة في اعصره الاولى .

(١) يشير الى اسطورة أخرى من اساطير ذلك الكاتب ملخصها أن جارية بارعة الجمال البستها أمها قبيعة حمراء زادتها جمالا فعرفت بها وأرسلتها يوما لجدتها وكانت مريضة بقرص وصحفة زبدة فصادفها الذئب في الطريق ولكن صده عن افتراسها حطاب فاستبان الذئب مقصدها فدلها على طريق بعيد وسلك القريب الى جدتها فاكلها ونام في فراشها فلما جاءت الجارية دعاها الى النوم معه مقلدا صوت جدتها ففعلت وراعتها أعضاء جدتها التقليدية فقالت : أي جدتي ما أطول يديك ! قال : ذلك لاحسن معانقتك . فقالت : وما أطول سافيك ! قال : ذلك لاحسن العدو . فقالت : ما اعظم عينيك ! قال : لاجيد النظر . فقالت : ما أطول انيابك . قال : أنا خلقت كذلك لآكلك . وافترسها .

قصد الكاتب أن الاطفال الحسان ولا سيما البنات مخطئون في الاصغاء الى كل من يكلمهم ولا غرو ان يأكل الذئب كثيرا منهم وما كل ذئب ذئب القبيعة الحمراء فان من الناس ذئابا يبصبصون ويتملقون للفتيات ويغازلونهن متبعين خطواتهن في الازقة والشوارع ولكنهم على ما يظهرون من اللطف والحب أضر عليهن من جميع الذئاب لانهم يفترسون شرفهن الذي هو اكرم من أجسادهن .

أنا الى اليوم ملتزمة مع (اميل) عدم الخوض في المسائل الدينية موافاة لرغبتك ولكن قد حصلت بيننا واقعة في الاسبوع الماضي ينبغي أن أقصها عليك : ذلك أننا رأينا في عصر ذات يوم من ذلك الاسبوع هيدبا[1] من السحاب رصاصي اللون كان أول مارأيناه قزعا[2] ثم تراكم حتى صار مكفهرا ثم اختلط فصار قطعة واحدة مظلمة أناخت على الماء بكلكلها وكنا نرى شعاعا أكدر من أشعة الشمس لا يزال يخترق هذا الستار الحدادي في بعض جوانبه ولم يكن الا قليل حتى غاب في شبه دجنة مخيفة منذرة بالمطر ثم انقطع هبوب الريح فلم يبد منه أقل نفحة وقلما كنا نسمع من بعد تنفس الخليج بامواجه وهي تعلو وتنخفض متثاقلة كأنها صدور المكروبين اللاهثين ونظرنا الى الشاطىء فلم نر فيه عود حشيش واحد يتحرك فكان الكون في سكونه هذا كالمشدوه الغائب عن رشاده يتوقع حصول أمر عظيم له ثم لم يكن الا أقل من ساعة حتى عصفت العاصفة بعد كمونها ثم صدع البرق قبة السحاب المتراكب صدعا متمعجا وقصف الرعد لاول مرة قصفا اهتزله جميع البيت فارتعدت فرائص «اميل» واسرع الي محتميا بي مستندا الى صدري كأن في قدرتي أن امنعه من هياج الفواعل الكونية ثم تعاقبت البروق والصواعق وانشأ ماء الخليج يغلي وهو أكدر مزبد كالسكب (البرنز) صهر في مرجل ثم أخذت الريح بعد ارتفاعها فجأة تبدد سيول المطر منزجرة وكنا نسمع هزيم الرعد في السحاب من بعيد ونرى وميضا خاثيا متتابعا ثم تبع ذلك كله الهدو والسكون .

---

(١) الهيدب السحاب المتدلي الذي يدنو من الارض مثل هدب القطيفة (٢) القزع قطع السحاب الصغيرة المتفرقة

ولما كان « اميل » اكثر من في الارض مسئلة سألني وهو متأثر قائلا: «اماه ماهذا الذى ثار غضبه فوقنا» خرت هذه المرة حيرة شديدة في اجابته لاني لو قلت له ان ذلك هو الله لكنت قد ألقيت في ذهنه معنى سخيفا لذلك الذات الكامل القدرة البالغ الحكمة المبرإ عن الانفعالات فاقتصرت على ان فسرت له بأحسن عبارة مناسبة لفهمه سبب هذه الظواهر التى ازعجته . على ان الغلام قد ادرك بحدسه من هذه الاصوات الشديدة التى سمعها من العاصفة ومن هذا الجو الممتلئ بالمفزعات الالهية بل ربما أدرك ايضا من عيني اللتين كانتا على رغمي اكثر من لساني كلاما — نعم ادرك من كل ذلك — ان من وراء هذه الآثار شيئا آخر وذلك ان الله (سبحانه) ليس ظاهرا للعيان ، فيشار اليه بالبنان ، ولكنه موجود يحس به الوجدان ، ويعرفه الفكر والجنان ، من أجل ذلك قمت انا «واميل» وادينا فرض العبادة لذلك المريد الذي لاحد لارادته القادر الذي بيده مقاليد السموات والارض وان كان عقلنا لا يصل الى ادراك كنه ذاته .

كل يوم تبدو لي صعوبة العمل الذي شرعت فيه فان طريقة التربية بالعمل التي أسير عليها تقتضي ان يكون في المربي معارف انا خلو من كثير منها ولكن هذا لم يمنعني من اعتقاد انها هي الطريقة الوحيدة في تقويم خلق « اميل » ثم اعلم أن حياتي بدونك انما هي فراغ أجتهد في ملئه بالقيام بذلك الفرض العظيم ولم يبق لي من غرق سفينة آمالي الاولدنا الذي أتشبث به تشبث الغريق بلوح النجاة واحبه لذاته ولك . على أن بعض هواجس مشؤمة تمر بخاطري من حين الى حين فتكدر صفاء ما في قلبي من نفيس عواطف الحب ذلك اني أقول في نفسي ماذا يكون الحال

اذا كان هذا الطفل بعد مابذلناه له من صنوف العناية يخون في مستقبل أيامه عهود والده وينكر مبادئه ويدوسها تحت قدميه ولا يكترث بما عراه من الآلام طول حياته ؟ اذاً لاقتلنه . . . كلا بل اقتل نفسي ولكن تحقق هذه الهواجس من المستحيل وأرجو أن يصلني كلمة منك تزيل عني هذه المخاوف المكدرة التي بلغ تشويشها لي الى اعماق نفسي . اه

الرسالة السادسة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ٣٠ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

وجوب اعتراف المربي للطفل بجهل مايجهله وانتقاد المربين وعدهم العلم بكل شيء
وانتقاد التعليم الديني والسياسي واستحسان طريقة زوجته في التربية
وبيان بعض شروط التربية التي منها ان ينسى المربي ما يعلمه
ليعود الى تعلمه مع الطفل

أنا أيتها العزيزة هيلانة أعرف فرط حبك لي وجميل انعطافك نحوي واقدرهما حق قدرهما ولكني لست معك فيما يخامر قلبك من المخاوف في شأن مستقبل « اميل » فاني وان كنت والده لاأرى لي حقا بحال من الأحوال في ايجاب أن يكون تلميذاً لي فمن ذا الذي يصح له ان يتبجح بأنه قد وصل الى الحق المطلق وان حسنت منه النية في البحث عنه واعتقد أنه يذوق المكروه من أجله . نعم انه ليؤلمني ألماً شديداً أن أراه في مستقبل حياته مخالفا لي في آرائي غير آخذ بمعتقداتي ولكني اكون أنا المخطئ الملوم في ذلك دونه لانه قد يكون سببه عدم حذقي في ايصال أفكاري

الى نفسه او حكمه على هذه الافكار بما عسي أن يكون هو الحق فيها أعني أنها اغلاط عقل صادق في بحثه عن الصواب مخلص في تلمّسه طريق الرشد.

على أنه لا فائدة في الاشتغال بالمستقبل فان الذي يعنينا هو الوقت الحاضر.

تقولين إن «اميل» محب للاستطلاع كثير المسئلة فابشرك بأن هذه أمارة حسنة على نجابته ولكني انصح لك اذا سألك عن شيء تجهلين حقيقته أن تعترفي له بجهلك اعترافا خالصا من المواربة وإن كان ذلك مخالفا لما عليه معظم الوالدين ومعلمي المدارس الذين لديهم كما ورد في الأمثال «لكل فتق رتق ولكل مسألة جواب» فكأنهم يتوهمون أنه يكون لهم بهذا نوع من السلطان على عقول تلامذتهم وانت بحمد الله في غنى عن التذرع بهذه الذريعة الخطرة لاثبات ولايتك على «أميل» اقول إنها خطرة ولا أحول عن وصفها بذلك فان في تعويد الطفل اعتقاد أن لكل شيء معنى محققا يمكن ان يتناوله من غيره بسهولة مبادرة إلى اخماد قوة الذهن ودعوة لها الى التبلد لأنه متى سبق اليه الوهم بأنه يوجد في الناس علم كافل بازالة جميع الشكوك التي تعترض الذهن في فهم معاني الاشياء لا يجد موجبا لتكلف البحث والملاحظة واما اذا اعترفت له بأنك لم تمعني النظر فيما يسألك عنه إمعانا يكفي لابداء رأيك فيه فانك تكونين قد عجلت بتعليمه أن اصابة الحق هي ثمرة عمل الجادّ ونتيجة بحثه وأي جواب يساوي هذه الموعظة؟

ثم ليحذر الوالدون والمعلمون أن يكون في ادعائهم لأنفسهم نوعا من العصمة في العلم استدباراً للغاية التي يسعون اليها. ذلك أن الناشيء اذا

كشف له المستقبل بغتة ما يقع فيه اولئك المصرفون لعقله من الاغلاط زعزع اعتقاده فيهم مرة واحدة وزالت من نفسه الثقة التي ارادوا أن يجعلوها محلا لها وليس ما اخشي مغبته على « اميل » من انواع الريب هو الحذر النافع الذي يكون فيمن تعلموا من صغرهم البحث في الامور وعدم التسليم بها قبل اتضاح وجه الحق فيها وانما الذي أخافه عليه هو مرض زوال الاعتقاد .

مما ينبغي التصريح به أن الصبغة الاعتقادية التي نراها في طريقة التعليم عندنا ناشئة من جميع مقومات أوضاعنا الاجتماعية فانه متى اعتبر أن القائمين على الدين وعلى السياسة قد فكروا في مصلحة الامة لزم بطريق البداهة أن تنزل من سماء علاهم طائفة من العلوم مقررة فيفرض على عقول الاحداث قبولها بلا نظر ولا مناقشة فانت تجدين في التعليم الديني اسرارا يتعاصى على عقل الانسان اكتناهها واعمالا وعادات ليس في مقدور أحد من الناس تغيير شيء منها واحكاما لا تقبل العرض على محك النظر بل تقيد قوة الادراك الى الابد فلا تجد سبيلا الى الجولان فيها [١] واما التعليم السياسي فهيهات أن يكون ما يلقيه فيه الاستاذ على

(١) انما دعا ارامسم لتوجيه هذا الانتقاد الى التعلم الديني كونه من غلاة أهل النظر وله ولامثاله بعض العذر في هذا الانتقاد لما دخل على الاديان من الفساد الذي دعا الى اختلاط الحق بالباطل والدين الحق لا يخالف النظر العقلي لان الاسلام يعلمنا أن أساس الدين العقل وما اخبر به الكتاب الالهي من أمور الغيب ليس فيه شيء ممنوع في نظر العقل ومن لم يصدق الا بما يراه لايمكنه أن يثق بقول مؤرخ ولا طبيب ولا كيماوي ولا طبيعي اذا قالوا وا كتشفوا شيئا حتى يراه بعينه ويكتشفه بنفسه وذلك يدعو الى أن يكون كل انسان أجهل الجاهلين .

تلامذته أقل مما ذكر إلزاما لان الاستاذ لما كان أجيراً للحكومة كان بالضرورة صدى يردد اصوات احكامها فبخ بخ لهذا النظام الذي لو لم يكن مؤديا الى استعباد النفس لما رأيت لي وجها في انتقاده وإنما كان مؤديا الى ذلك لانه بما له من الاثر في اماتة عزيمة الناشيء يحصر فائدة التعليم في مجرد تمرين الذاكرة فوارحمتاه لذلك المسكين الذي هو كالبعوضة حُمِّلت من تواريخ القرون الماضية وعلومها واقوال الثقات فيها ما أبهظها فعاقها عن الطريق ٠

على انه يندر والحق يقال أن يصل أرباب هذا الحصر والتضييق النفسي الى تمام الفوز الذي كانوا يؤملونه من ورائه فان تأثير الزمان الذي يعيش فيه الطفل أوما يوجد في طبعه أحيانا من المقاومة والمعارضة أو ما يتلقاه من آراء اهله الذين يتربى بينهم يخلف في كثير من الاحوال ظنون القائمين على التعليم الرسمي ويأتي بعكس ما كان في حسبانهم ولكن لا بد من الاعتراف بأنه لا ينجو من وحدة هذا القالب الذي تصاغ فيه الاجيال الناشئة على الشكل المطلوب الا العدد القليل وأما السواد الاعظم فإن مدار تعلمه يكون على التسليم والاعتقاد والوقوف عند حد ما تلقاه عن معلمه الذي يعيد عليه ما أخذه عن اساتذته فالتربية في مثل هذه الأحوال سلاح ذو حدين يتسنى به استعباد العقل كما يتسنى به تحريره ومرجع الحكم في ذلك الى المصادفة والاتفاق واني لن أرضى ان اكل مستقبل « اميل » الى مداحض مصادفات يتردد بينها الحق والباطل وتعتورها الحرية والاسترقاق ولو أوتيت في ذلك أنفس شيء في العالم كله ٠

على اني أعوذ بالله أن أجحد مالآثار السلف من المزايا والفوائد إلا أن في الاخذ بهذه الآثار كما في الاخذ بغيرها من الامور حداً وسطا يصعب تمييزه فالطفل الذي لايتلقى شيئاً من المجتمع الذي يعيش فيه يصير إما متوحشا وإما احمق وأما الرجل الذي يتلقى منه كل شيء بالتسليم مرتكنا على ثقته به مجتنبا مشقة النظر فيما تلقاه منه بدعوى أن من سبقوه قد كفوه مؤنة ذلك وكانوا اصح منه نظرا فانه لايكون ابدا الاضعيف العقل معجلا بوقف نفسه على جميع ضروب الاستعباد .

ثم اعلمي أن معظم اغلاطنا ومعتقداتنا الباطلة مبني على آراء يتداولها الناس ويرون تسليمها واعتبارها حقائق معصومة من تطرق الباطل اليها اسهل عليهم بكثير من استقصائها واستجلاء الصواب فيها بنور العقل فمثل هذه هذه الآراء تسري الى نفوسنا من أول نشأتها وينتهي أمرها الى أن تكون من الامتزاج بها بحيث يلزم لاستئصالها في المستقبل بذل جهد عظيم في أعمال القوة الحاكمة والاستعانة بشيء من الاقدام والبسالة . نعم إنه من الصعب جدا أن لا يعلق بنفس « اميل » شيء من تلك الافكار الفاسدة ولكن الذي يهمنا هو أن يكون ما يتصل به منها أقل ما يمكن وأن يجد في مستقبله من حرية نظره وسيلة لتمييزها والخلاص منها .

وجملة القول إن طريقتك في تربية « اميل » قد نالت من رضائي واستحساني اكمل حظ ووقعت من قلبي أجل موقع فان التربية عمل ملاكه بذل النفس وقوامه الحب وأنا أعرف من كبار الرجال من دأبهم الاحتراس والانقباض في معاشرة الاخصاء ومخالطة الاصفياء فامثال هؤلاء لاينبغي أن تعهد اليهم تربية الاحداث لانه يشترط فيمن يتولونها

أن يكون فيهم من انبساط النفس ماياخذ بقلوب الناشئين اليهم وأن يكونوا من المحدثين[1] فيها المبعوثين عليها ببعض البواعث الفطرية فربي الطفل ومعلمه الحقيقي المستكمل لهذه الشروط انما هو امه .

ثم إني مستحسن كذلك مارأيته من ادامة الدرس والمطالعة ليتيسر لك القيام بهذا الفرض الذي قدر لك ولكني اعظك بأن تجعلي هذه الحقيقة دائما نصب عينيك ألا وهي : ليس أول شرط في التربية أن يكون المربي عالما وانما هو أن ينسى جميع ما تعلمه ليعود الى تعلمه مرة أخرى مع الطفل . اه

الرسالة السابعة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ٢٣ اغسطس سنة ـــ ١٨٥ ﴾

بيان وجوب التدرج في تعليم العلوم للاطفال بلفت اذهانهم الى ماحولهم وانتقاد الكتب التعليمية

أذكر أن رجلا فاضلا من اصدقائي كان قد وجد في نفسه انبعاثا الى التربية فاوجب عليها الاشتغال بها ثم أنه ندب لادارة مدرسة كان غيره انشأها فالفى نظام التأديب فيها بالغا من الشدة غايتها اذ رأى فيها افرادا من التلاميذ يخصون بالعقوبة دون غيرهم فيقضون ساعات الاستراحة في فنائها كل يوم جثيا أو قياما في مواقف الجزاء ولم يكن يعوزها شيء مما تشرف به من طرق العتاب كالتكليف بمضاعف العمل والحبس والمنع من الخروج لانها كانت سائرة على الاصول القديمة القويمة فمالبث

(١) المحدثون بصيغة اسم المفعول هم الملهمون

صديقي هذا أن أبطل كل ذلك النظام التعذيبي دفعة واحدة لعلمه بأنه لا يرهب الا الجبناء ولا ينشأ عنه أثر للتهذيب في نفوس المتعلمين وقال للتلاميذ أنا اعلم من سيماقبكم بعد الآن انا انتم اسأتم . ذلك هو وجدانكم الذي لا ينجو من سوط عذابه من اعني من ضرب العصا .

كان شعار هذا المربي في تعليمه لا قلنسوة لعالم ولا لحمار [1]

وكان التلاميذ قبل وجوده في المدرسة لا يتسنى لهم ان يخطوا خطوة في دهاليزها الطويلة وفي عرصاتها وقاعاتها الفسيحة الا وهم مصطفون مثنى مثنى تحت رعاية كبير لهم يسمونه ضابط الرجالة تهكما به ويكرهونه من صميم افئدتهم ولا يفترون عن مماحكته وابتلائه بضروب الحيل والخبث فجمعهم المعلم الجديد ليلقي عليهم نبأً عظيماً فقال لهم : إعلموا أنكم من الغداحرار لا سيطرة لا حد عليكم وانه لن يرعاكم في سيركم وسيرتكم سوى عين الواجب الذي تشعرون به . ولا أراني بعد هذا في حاجة الى القول بان كلا منهم بمجرد سماعه هذا التنبيه قد اعتبر طاعة النظام من أمس الامور به وألزمها له .

وبينما كان في يوم من الأيام مجتازا حديقة المدرسة بصر بتلميذ تساق عريشة كرم ممتد على جدار عتيق يتدفق من فوقه ضوء الشمس وانشأ يأكل من قطوفه اكلاً لمًا فتظاهر له بالغفلة عن فعله ورجاه ان يلتمس له امين المدرسة فاتاه من فوره يتبعه الغلام النهاب والريبة تدب الى نفسه فقال المدير للامين كيف يصح ايها السيد أن لا يعطى هذا الغلام من الطعام

[1] القلنسوة في نظام التعليم الاوروبي شارة العلماء ينالها من أتم المدارسة وأدى الامتحان فيها

كفايته فانه لم يكد يخرج من قاعة المائدة حتى جاء الى الكرم وطفق يجني قطوفه خلسة فارجو ان تأخـذه الآن بنفسك وترده الى المطعم ليأكل ما يكفيه .

كان هذا المربي أقل الناس شبها بمديري المدارس وكان من أجل ذلك محبوبا لتلاميذه فاني كثيرا مارثيت لحال معلم الاطفال الذى هو شهيد الشهداء لمقتهم اياه مع إحسانه اليهم وعلى كل حال لست أدري هل كنت مخطئا في ذلك او مصيبا فـلا أخال الطفل كفورا بنعمة معلميه ولـكنهم هم الذين ارادوا أن يطعموه من باكورة العلم صابا وعلقما كيف لاوفي التعلم سعادة المتعلمين وفي التمرين والتدريب حياة لكل قوة من قوى الانسان ولا شيء الا وهو يطلب الوجود والظهور والنمو وهكذا شأن التلميذ وانما القهر هو الذي يحيل فرحه الى ترح ومرحه الى خمود فانه يجيء الى المدرسة وللحياة فيه دوي كدوي النحل فيجد مديرها عابس الوجه متمسكا بالكتب واثقا بها ثقة الظالم الغاشم فياله من تنشيط للاحداث وترغيب لهم في التعليم .

الكتاب الذي ينبغي أن يتعلم منـه الحدث هو صحيفة الموجودات والمدارس خلو منها .

انك اذا دخلت غرفة من غرف المدارس لاتجدين فيها سوى مكاتب ملطخة بالمداد ومقاعد من الخشب غيرمستوية القوائم وجدرانا اربعة عارية من الزينة وسقفا مرفوعا على خُشب غليظة خشنة يمتد بينها نسيج العناكب التي هي عوامل الضجر المحزنة فاذا نظرت خارج تلك الغرفة من نوافذها المفتوحة رأيت الطيور مطلقة السراح مغردة في الجو

كأنها تسخر من التلاميذ فان الكون الخارجي كله أصوات واضواء واشكال وألوان تدعو الطفل الى التعلم بواسطة مشاعره وأما هذه الغرفة فلا شيء فيها يلفت نظره فقلما يوجد فيها صورة وشيء من خرائط تقويم البلدان وما عساه يوجد من الصور فذميم قبيح ومن الخرائط فهو يشبه خط قدماء المصريين في غموضه وتجرده من الرونق وقصوره عن تمام البيان فاقسم بالله على المتولين أمر التربية ان يدخلوا في هذه المقابر التي أعدوها للاحداث نفحة من نفحات العالم الخارجي وشعاعا من أشعة الحياة .

كل أمة تعنى بالتربية حق العناية ينبغي ان لا تخلو مدرسة من مدارسها من نظارة معظمة (ميكروسكوب) لمضاعفة أجرام الاشياء التي لا ترى بمجرد النظر ومن مرقب (تليسكوب) تسهل به رؤية اشكال اقرب الكواكب الى الارض ومن كرة جوفاء تمثل في باطنها اقسام الدنيا (جيوراما) ومن مربى للحيوانات والنباتات المائية ومرآة للصور المائلة (استيريوسكوب) وبالجملة يجب ان يوجد فيها جميع الادوات اللازمة لتحصيل معنى الكون وآياته الكبرى في اذهان الناشئين

اعلمي ان اللفظ والخط طريقتان قاصرتان جدا عن ايصال العلوم الى نفس الحدث وان اللازم له انما هو رؤية الاشياء فلمربيه توجيه فكره ولو قبل تعليمه القراءة الى أمور كثيرة لا تخرج بحال عن متناول ادراكه ورأيي فيما عليه المربون الآن هو انهم يفرطون في التعجيل بتعليمه بعضا من فروع العلم كان حقها التأجيل وفي تأجيل بعض آخر كان أولى بالتعجيل وكان يجب عليهم في اختيار العلوم وترتيبها أن يرجعوا الى درس القوانين

التي يجري عليها الانسان في نمو جسمه ونفسه وعقله .

قولهم «لما يجئ وقتي» كلمة تصدق على معظم قوى الانسان في ساعة ما من عمره فالطفل الذي وصل الى ان يدرك من الاشياء أبعادها وعلاماتها الظاهرة يكون عقله في غاية القصور عن الاحاطة بما بينها من الروابط ويكون أيضا أشد قصورا عن النفوذ فيما تجري عليه من القوانين ويقصر عقله خصوصا عن تتبع سلسلة الاسباب التي نشأت عنها فاليافع يتأثر بالقضايا الشعرية وترتاح نفسه اليها ولا يميل الى القضايا المنطقية والاصول الحكمية ومن حاول استمالته اليها فقد عبث والسبب في هذا ان ضروب الاستعداد المناسبة لهذه العلوم العقلية لما توجد فيه أو أنه لم يوجد منها الا جراثيمها فالادراك لفظ عام يدخل في مفهومه عدة قوى متمايزة كل التمايز لا تنمو الا بالتدريج ولكل منها طور كمون ثم تظهر تابعة في ذلك لجملة من الحوادث تتغير بتغير الاشخاص وما يحيط بهم ولكنها على التحقيق محدودة بنواميس الكون والزمان فافكارنا ووجداناتنا لها اعمار كاعمارنا .

الشيء الواحد يقتضي ان يتعلمه الانسان عدة مرات ومن وجوه مختلفة. خذي لك مثلا. الطفل لا يرى في الوردة بادىء بدء الا وردة ثم اذا نمت فيه قوة الادراك قليلا انتزع من شكلها ولونها ورائحتها مثالا عقليا ممتازا يعرف به الوردة كلما وقعت في يده وهو في هذا الطور من الحياة لا يهتم بمرتبتها التي عينها لها علماء النبات في ترتيبهم ولا بتركيبها ومعيشتها فتلك طائفة من الشؤون والافكار يجب على مربيه الاحتراس التام من الخوض معه فيها اذا كان يعنيه ان لا يضل مدركته وكذلك الشأن في جميع الموجودات

اذا أردت أن اعلم «اميل» علم طبقات الارض (الجيولوجيا) مثلا وهو العلم الذي يعتبره العارفون أبا العلوم فاني انبهه أولا الى مايوجد فى الاحجار بل في حصا الطرق من اشكال المخلوقات العضوية المنطبعة عليها فان حبه للاستطلاع وميله للاستئثار بالمعرفة مع مساعدة الفرص يعودانه في أقرب وقت تمييز أهم العلامات التى توجد فى دفائن الارض من بقايا تلك المخلوقات بجميع ذلك مناسب لسنه أو قريب منها. ثم بعد ذلك ببضع سنين ادعوه الى ان يقيس مايكون قد جمعه من هذه النموذجات بعضه ببعض وان يرتبها على حسب مابينها من التشابه وفي هذا الوقت دون غيره اتلطف في تسريب معنى أطوار الأرض وعصورها الى ذهنه وأقص عليه تاريخها مستعينا بتلك الحصا والحجارة فقد قال شكسبير «ان في الحجارة لموعظة وذكرى» وأنا أقول ان فيها ماهو اسمى من ذلك فهي وحي يعلمنا كيف خلقت الأرض . ثم اذا بلغ «اميل» الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره اي صار في سن تؤهله لفهم كل ما اقوله له حق الفهم استعنت بعلم طبقات الارض على تعليمه حكمة التاريخ فهو امثل مقدمة لها .

فما كاشفتك به من افكاري هذه غناء عن تعريفك اننا لا ينبغي لنا في تعليم «اميل» ان نعول على شيء من المؤلفات الموجودة فالوجيزة منها والصغيرة والكتب المدرسية التي بين ايدي الاطفال جميعها وضعت لغير الوجهة التي نقصدها فانها مختصرات علمية توهم واضعوها انها تكون ملائمة لادراك الاحداث بسهولة عباراتها وليس العيب هنا في شكل الكتب وانما هو في أصل وضعها فإن أول شيء يتسنى للطفل ادراكه

من نظام الكون هو ماكان يدركه منه الانسان في أول نشأته قبل تقدم العلوم وتقسيمها فالمعلمون لا يفتأون ينسون ان التعاريف والتقاسيم والقوانين لم توجد الا بعد التجارب كما ان علوم اللغة متأخرة عنها في الوجود وكذلك علوم الدين ويغيب عن أذهانهم أن علوم الانسان لم تتكون البتة بالصورة التي يتعلمها عليها الاحداث الآن فان الأنسان لم يصل الى ايجاد طائفة من العلم محدودة الابالانتقال من حادثة جزئيةالى أخرى ومن سلسلة من الحوادث مرتبط بعضها ببعض الى غيرها وبعد ان وجدت له طائفةمنها أنشأ يستنبط لها القوانين التي تضبطهاثم تفرعت دوحة المعارف وتمايزت فروعها وانفصل كل علم من الآخر .

فالجري في تعليم الطفل على غير هذه الطريقة قلب لنظام عقل الأنسان فالمعلمون انما يلقون عليه نتائج العلوم وخلاصاتها قبل أن تؤسس قوته الحاكة بمبادئها وتدعم بمقدماتها فتريهم ينحدرون مرةواحدةمن الذروة التي رقي اليها العلم في عصرنا بعمل الاجيال الماضية الى ماهو فيه من حضيض الجهل والذي يستحسن أولئك المعلمون تسميته مبادىء العلوم انما هو في حق الطفل من ثمرات العقل المبالغ في تحضيرها ومن نتائج ربط الاشياء بعضها ببعض .

أنا لا أجري على هذه الطريقة في تعليم « اميل » فاني اود قبل أن اعلمه تاريخ الموجودات أن أعرفه بما في الكون فاجعل له به انسا بأن اوجه نظره الى حوادث الحرارة والضوء والكهرباء قبل تعليمه قوانين علم الطبيعة واعلمه شيئا من أوصاف اشكال الاجرام السماوية ومواقعها

من قبة الفلك قبل الخوض معه في علم الهيأة بل قصدي الى ان اشرح له في المستقبل ما أعلمه من نواميس الكون أقل بكثير منه الى ايقاظ وجدان الملاحظة فيه فان تعليم الطفل ليس بشيء يذكر وانما الأمر الخطير هو أن يؤتى وسيلة التعلم بنفسه وتحرك فيه دواعي الاقبال عليه فدروسي «لاميل» كلها لا يكون فيها الا ما كان له شأن في تنبيه عقله وتقويته لانه مرجع جميع علومنا على اختلافها .

رأيت مما قدمته لك أنه قد قضي عليك أن تكوني «لاميل» كتابا يأخذ عنه علمه فلا تستعيني بشيء من صغار الكتب وموجزاتها ومختصراتها وعليك أن تلتمسي له أبسط المعاني وأليقها بحالة ادراكه مع التدرج في ذلك بحسب ارتقائه في الفهم وان تجعلي تعليمك مطابقا لاحوال سنه .

الرسالة الثامنة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ١٥ اغسطس سنة ١٨٥ ﴾

(فوائد التصوير والمعارض في التربية)

لو أني عهد الي ببناء مدرسة كبرى للناشئين في أمة من الامم العظيمة لبذلت وسعي في أن ابث في جدرانها من الفن روحا وعقلا .

ذلك لان القائمين على التعليم لم يزالوا في سبات من الغفلة عما كان لمعاهد التربية من التأثير في خيال المتعلمين خصوصا في سنيهم الاولى . ولقد كان القدماء انفذ منا ادراكا في سر التعليم بالمشاهدة جروا في ذلك على نواميس الفطرة الانسانية الحقيقية .

ليست المعابد والبيع عند جميع الامم الا مدارس اتخذها الكهنة والقسيسون في الاديان القديمة والحديثة صحفا لمجموع عقائدهم ومذاهبهم بما وجدوه لذلك من الوسائل الكبري في فن العمارة ونحت التماثيل وصناعة التصوير وبقاء العبادات الى الآن يدلنا على درجة انتقاش الرموز والصور الاعتقادية في اذهان العامة فان مخترعات الخيال التي يبرزها الرسم للوجود الخارجي في صور فخيمة تبقى شائعة بين الناس بعد فناء الفكرة التي انتجتها بعدة قرون، يشهد لذلك بقاء مظاهر المعتقدات الجمادية مع أن الامم قد كفت من عهد بعيد عن توهم أنها لا تزال على عادتها في عبادتها .

اذا كنا قد رفعنا هياكل للآلهة الباطلة كالحرب والروع والظفر بالاعداء وجميع بلايا الانسان ومصائبه فما لنا لا نرفع للعلم هيكلا؟ وأي كلفة في هذا العمل على أمة عظيمة؟ لا يقال ان أول عائق دونه هو قلة المال وغلاء المواد اللازمة لاقامته لاني أرى اننا في غنى عن الذهب والمرمر والخشب النفيس وفي مقدورنا ان لا نتعرض في انشائه لشيء من صنوبر لبنان ولا من نفائس المعادن التي تم بها العظم والجلال لهيكل سليمان فان في الجبس بل في الورق المقوى غناء عن ذلك كله في سبيل التربية اذا وجد له أناس صنع اليدين يهيئونه ويستخدمونه في الدلالة على المعاني وقد أصبح اليوم من الميسور تحصيل أهم مثل الاشياء الخلقية والصناعية بنفقات زهيدة وذلك بفضل ما اخترع من طرق افراغ المواد في القوالب وان فيما يوجد بمعاهد التمثيل عندنا من تماثيل الزينة وصورها لبرهانا ناطقا بأن في قدرة المصورأن

ينقل الرائي الى رومية[1] وأثينا[2] ومنفيس[3] ببعض جولات يتحرك بها قلمه وبشيء من المغالطات البصرية لانه متى اتقن تمثيل ما يمثله من الاشياء في شكله ولونه كاد ان يحدث في الخيال مايحدثه أصله من الاثر فلا عبرة بالمادة وبما يتخذ من الوسائل لبث الروح فيها مادامت الصورة تنبه المشاعر وتؤدي الى العقل معنى صحيحا لما يراد تعريفه اياه ٠

كل دين اذا استكنهناه رأيناه يرجع الى فهم ماذهب اليه أربابه من الآراء في خلق العالم ونظامه[4] لكن فهم هذه الآراء هو في الغالب غاية في الصعوبة وانه لولا الاستعانة بالرموز في ادراكها لنبت عنها عقول العامة نبوًّا كليا. وأما الهيكل الذي اقصد وقفه للعلم فهو معرض تتجلى فيه الحوادث على الناشئين بل هو تاريخ حيٌّ محسوس للعالم الذي يعيشون فيه مواده كلها موجودة لكنها متفرقة فيما عندنا من المتاحف والمكتبات والمجموعات ونحن عنها غافلون فليس من الحق ان يكلف اليافع بالتماسها في اماكنها لان مافي هذه الاماكن من العظام النخرة والحيوانات المصبرة وجذاذ الاوثان المكسرة انما يفيد العلماء وأما الاحداث فاللازم لافادتهم ايجاد مشهد تجتمع لهم فيه المثل الحية الكبرى للانسان وغيره من المخلوقات

---

(١) رومية هي عاصمة ايطاليا الآن وكانت في غابر الازمان عاصمة مملكة الرومانيين ثم عاصمة لولايات السلطة الروحية ومقرا للباباكما انها مقره الآن (٢) اثينا هي مدينة شهيرة من القدم في بلاد اليونان وهي الآن قاعدة حكومة تلك البلاد (٣) منفيس مدينة كانت عاصمة لمصر في الازمان الغابرة اطلالها قريبة من القاهرة

(٤) هامش للمنار : « ان ماقاله المؤلف في الاديان غير مسلم على اطلاقه ويظهر انه لم يطلع على الدين الاسلامي الذي هو دين الفطرة والمرشد الى سننها في التربية والتعليم وان كان يستنير باشعة شمسه من حيث لا يشعر

على صورة جاذبة لنفوسهم .

هذه معارضنا العامة التي تقام في باريس ولوندرة قد تعلم منها الجهلة (وهم في كل أمة سوادها الاعظم) من مناشيء الصناعة وتوزع الاجيال على سطح الارض واحوال الترقي في الامم المختلفة اكثر مما يتعلمونه من جميع الكتب التي وضعت في التدبير السياسي وتقويم البلدان فكيف اذا عززت مشاهدة الاشياء وكملت بتعليم خاص. تلك المعارض لا تتسنى اقامتها مسانهة وهي فوق ذلك لا تحتوي الا على طائفة من الوقائع والامور المخصوصة واذا كنت قد نوهت بها فانما قصدت بذلك أن أبين لك ما يعود على الاحداث من الفائدة إذا أقيم لهم معهد آخر للعلوم تمثل لهم فيه صورها .

أصبح علم الكرة الارضية خلوا مما يستميل نفوس المتعلمين مورثا للسآمة والضجر بيمن مارسمناه له من الخوارت وألقناه فيه من الكتب أفلا يكون الحال على خلاف ذلك لو ان هذه الخوارت استعيضت بنسيج تصور عليه الارض وما فيها تصويراً اذا جال النور في ارجائه ضاعف مغالطة بصر الطفل فخيل له انه على الجانب الآخر للمحيط مثلا ؟ وليس يلزم لذلك الا مصور صادق في عزيمته باذل نفسه من أجل البلوغ الى غايته .

قام بفكر أمريكي شجاع اسمه جون بانفارد يوما من الايام أن يصور مجرى نهر المسيسبي [1] فركبه وحده في قارب مكشوف مصرا على انفاذ فكره غير مبال بما كان يعترضه من الصعوبات الكثيرة ويعتريه

(١) المسيسبي نهر عظيم في أمريكا الشمالية يصب في خليج المكسيك بالقرب من مدينة نوفل أورليانس وطوله ٥٥٠٠ كيلو متر

من الآلام الشديدة فيبست يداه وخشنتا بسبب استعمال المجذاف واحترق جلده بحر الشمس فصار عما قليل كواحد من هنود أمريكا في لونه وقضي أسابيع كاملة بل شهورا لم يصادف فيها انسانا يكلمه ولم يكن له رفيق سوى قرينته فقد كانت هذه الرفيقة تتكلم بأعلى صوت كلاما حقا لا خطأ فيه يفهم بعضه طيور النهر والاجمة . وكان يخرج في كل مساء من قاربه الى البر ويوقد نارا فيشوي عليها ما يصطاده ثم يرقد ملتفاً في غطائه مكفئا فوقه القارب ليكون له جنة دون الحيوانات الوحشية وسقفا يقيه طل الليل وكان عند شروق الشمس يهب من نومه ويمضي عامة يومه في اجتياز النهر من شاطئ الى آخر على التوالي طلبا لمنظر جديد فكان يسترعي طرفه في مكان خليج عميق وفي آخر اسراب من الطير وتلفته في ثالث جزيرة صغيرة علتها خضرة نضرة وهو لا يفتر عن تسويد مايلاحظه فلم يغادر شيئا مما يستحق التصوير الا رسمه خطفا واختلاسا ولما فرغ من تقييد اشاراته وملاحظاته اتخذ له في المدينة المسماة لويسفيل بولاية كنتوكي [1] بيتا من الخشب حيث أنشأ يصور ماقيده على النسيج وما كان أطوله فقد بلغ ذرعه ثلاثة أميال . لاشك ان ذلك المصور كان أهلا لان يأتي بطرفة من الطرف وان كان رسم مناظر المسيسبي ليس في الحقيقة الاحكاية صادقة لسفره خطها قلم الرسم خطاً بطيئاً ونحن على كل حال نرجو الله (سبحانه) أن يقيض لنا من يحتذي مثال جون بانفارد من المصورين وأن يهبهم من الاقدام والاخلاص

(١) كنتوكي هي احدى الولايات المتحدة في أمريكا الجنوبية سكانها ١٨٥٥٤٥٠ نفسا وعاصمتها فرنكفورت

للعمل ماوهبه فانه لو تحقق ذلك لاصبحنا بسطح الكرة التي نسكنها أعلم مما نحن الآن بكثير .

وليت شعري أي مانع يحول دون انفاذ عمل كهذا يكون تاريخا للارض ومن يقطنها من الامم ؟ ربما قيل ان ذلك هو مايقتضيه من إنفاق المال الكثيرة فأقول هـذا مسلم ولكنا ننفق في تبديل سلاح بآخر أو طريقة من طرق القتال بغيرها أو في بناء بارجة أو اقامة حكومة جديدة مدة بقائها ثمانية عشر شهرا على الا كثر ننفق في هذا أضعاف ما تقتضيه مناطريقة التربية المؤسسة على نواميس الفطرة الانسانية اه .

لاشأن لنا فى ذلك وعلينا التسليم والامتثال فان هيكلا كالذي وصفته تتجلى فيه الوقائع والمعاني انما هو صورة من صور الخيال لا وجود له في الخارج ولن يوجد بلا شك فيجب علينا اذن بناؤه فى المستقبل فى ذهن «اميل» بمواد اخرى . اه

الرسالة التاسعة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم فى ٣ فبراير – سنة ١٨٥ ﴾

التربية والتعليم بالفانوس السحري والتمثيل والمعارض

وهمت أيها العزيز في دعوى ان ذلك الهيكل الذي تمنيت اقامته للعلم لا يوجد ولن يوجد فانه موجود بالفعل في سايدنهام [1] على غاية القرب

---

(١) سايدنهام قرية من قرى انكلترا واقعة على بعد ثمان كيلو مترات من لوندرة بنى فيها القصر البلوري للمعرض العام الذي اقيم في سنة ١٨٥١

من لوندرة واسمه القصر البلوري وفي نيتي ان أزوره أنا « واميل » متى امكنتني الفرص وصار في سن تؤهله لادراك مافيه من مواد التعليم نعم اني لست على يقين من مطابقة طريقة بنائه لآرائك تمام المطابقة ولكن أقل مافيه على ماسمعته عنه أن القصد من انشائه موافق لقصدك وقد يدهشك ان تعلم ان ليس للحكومة يد في بناء هذا القصر العامي (وانما أصفه بذلك لان المقصود الاصلي من اقامته انما هو تربية طبقات العامة) فان كل مافيه من البساتين الواسعة والبناء البلوري والآثار القديمة والتماثيل وجل الاشياء المفيدة ملك لجماعة من المتساهمين وقد عهد برفعه الى مشاهير العلماء والصناع والاثريين فكانوا يباشرون بانفسهم افراغ المواد في القواليب وتحصيل مثل الاشياء. ذلك لان الانكليز اذا قصدوا تحقيق غرض مفيد أو إنشاء معهد جديد لمنفعة عامة اعتمدوا على أنفسهم بسبب ما آتتهم ضروب الحرية ووسائل العمل الذاتية من قوة العزيمة وشدة البأس غير راجين من الحكومة مساعدة مالية ولا قولية لعلمهم ان العمر ينقضي دون الوصول الى ما يرجون فهم متى أرادوا أقاموا تماثيل لعظمائهم ورفعوا هيا كل لفكرة يبديها الواحد منهم.

أراك تشكو من عدم وجود معاهد للتمثيل عندنا خالصة للاطفال فاعلم أن لاطفال الانكليز واحدا منها ذلك أنك في صبيحة عيد الميلاد تجد معظم تلك المعاهد كأنها قد انفكت عن الاختصاص بالقصص الجدية والهزلية ولا يقبل فيها من الكبار الا من كان مولعا بسماع الاساطير

كاسطورة اهاب الحمار [1] واسطورة الاصيبع فكل واحد منها يصح ان يعنون بعهد الرءوس الشقر لان الاطفال في شهرين أو ثلاثة من السنة يكونون هم المتصرفين في اختيار نوع الالآ هي العامة والمتمتعين بكل ما في المعاهد من المقاعد المخملة والموسيقي وضروب الغرور والفتنة ويؤكد لي الناس هنا أن كثيراً من تلك المشاهد يحصل فيه التمثيل مرتين في اليوم

(١) اسطورة إهاب الحمار هي من اساطير شارل برولت الذي سبق التنويه بذكره في الرسالة الخامسة والعشرون وملخصها أن ملكا كانت له زوجة يحبها جدا ورزقت منه بنت فائقة في الجمال ثم مرضت وعند احتضارها استحلفته أن لا يتزوج الا بمن تكون أجمل منها فلم يجد في عقائل مملكته من تحقق فيها الشرط الا بنته فافضى اليها بميله الى تزوجها فانكرت عليه الامر فصمم فاشتكت الى جنيتها فارشدتها الى أن تطلب منه حلة كالزمن في لونه فاستصنعها لها فاوعزت اليها بطلب أخرى كلون القمر فلما كان أقرب من تقديمها لها ثم بثالثة كلون الشمس فكان ماطلبت وكان لأبيها حمار يحبه كثيرا لانه كان يجد تحته كل يوم مقدارا وافرا من النقود فلما أعيت الحيلة تلك الأميرة وظنت أن لا خلاص لها امتلأ قلبها حزنا فاوحت اليها الجنية بأن تطلب إهاب الحمار (جلده) فقدم لها بعد استغراب فزادها ذلك جزعا فقالت لها الجنية كفى فهذا وقت خلاصك فالبسي اهاب الحمار وأخرجي فانه لا يشعر بك أحد وسا تبعك بحليك وحللك أينما قصدت فخرجت في ذلك الاهاب وساحت في الارض فدخلت مملكة أخرى فاستخدمتها زوجة مزارع في رعاية الديكة وكنس معلف الخنازير لرثاثة حالها وقذارتها فرآها ابن ملك تلك الجهة من خصاص كوخها وقد تعرت عن إهاب الحمار ولبست حلة من حللها ففتن بها وذهب الى أهله مدنفا سقيما وحار الاطباء في أمره وقالوا إنه لا مرض به الا الفكر وبعد الحاح من والديه طلب ان تصنع له الخادمة التي تلبس إهاب الحمار قرصا ففعلت ودست فيه خاتمها لانها قد فهمت حقيقة الامر فلما تناول الخاتم في فمه قال لوالديه إني أريد أن اتزوج بصاحبة هذا الخاتم فنودي في المدينة بان أية فتاة يوافقها الخاتم الذي في يد الملك تكون زوجة لولي عهده وكانت نتيجة ذلك أن تزوجت به وعاشا في نعيم ورغد . واسطورة الاصيبع تقدم تلخيصها في هامش الرسالة الخامسة والعشرين

احداهما بعد الظهر لمن يتعجل في النوم من الاطفال الذين لا يقوون على السهر والثانية في العشيّ لليافعين والآباء والامهات وللشيوخ الذين حفظوا للشباب في ناحية من اذهانهم شعاعا من ضيائه ولمعة من بهائه وينبغي على ذلك ان أول شرط يلزم تحققه في النظارة ان يكونوا صبياناً اومستصبين والا فكيف يروقهم سماع مايروى هنالك من اقاصيص الجن وما يمثل من الاضاحيك؟ نعم إن مواضيع تلك الألاهي البهجة هي في الجملة غاية في الابتذال وانك لتأسف على مايضيع في سبيل تربية الادراك بهذه الاماكن من نفقات الزينة والثياب وغيرها من عتاد التمثيل لان مايحصل فيها من تغيير المناظر قلما يفيد الا اثارة وجدان الاعجاب والدهشة ولكن ما أشد ما يبديه الاطفال عندها من دلائل الفرح المنبعث عن السذاجة وما ابلغ مايظهر من تشوفهم اليها واعظم مايكون من بريق ابصارهم وحلقتها بسبب استغرابها والافتتان بها خصوصا اذا جاء دور ذلك المنظر المعروف المسمى منظر الانقلاب والتحول فلشد ما تخفق القلوب هنالك خفة ومرحا . ومهما كان في تلك المرائي من الابتذال فلا ينبغي أن يستخف بما يتجلى للأطفال فيها من تلك القصور المسحورة وامطار العسجد والشرر والانوار المشتملة على جميع مايرى في الفجر القطبي من الالوان المتباينة والجزر السعيدة (الجزائر الخالدات) والنساء العائشة في السحب وفي الاشجار والازهار وبالجملة لاتصح الاستهانة بتلك المخترعات الخيالية السامية التي تمثل في اضاحيك المناظر فاينما طار بنا الخيال وان على اجنحة من الورق المقوي ولم يرفعنا الا قليلا فانه يفكنا ساعات مما يبهظنا من اغلال العوائد والحاجات . تلك المناظر الغرارة لن تنفك أن تكون محبوبة للعامة والاطفال لانها تفتح

لهم جزءاً من ابواب الكمال المطلق البالغ أقصى غاياته .

لما رأيتني لا أملك الآن الذهاب « بامبل » الى القصر البلوري ولا الى معهد التمثيل عولت على الاستعانة بآلة يطاف بها هنا في المدن والقرى وهي الفانوس السحري وكأني بك تضحك من ذلك ولكن أي مانع يمنع من أن تكون تلك الآلة المستعمله لتحصيل اللذة والاعجاب من وسائل التعليم أيضا فليس ذنبا للفانوس السحري انه قلما استعمل الا لتمثيل الصور المضحكة الغريبة في دارة مضيئة بل هو لا يكون الا مفيدا اذا قصد به الجد ولو ان العلماء تفضلوا على المصورين بارشادهم الى ما يختارون من مواضيع العمل والى طريقة التصوير على الزجاج لادى الفريقان للاطفال فيما أرى فوائد حقيقية وقد سمعت ان المتولين امر التربية في انكلترا سبقوا الى اتخاذ هذه الطريقة في بعض المدارس لتأدية شيء من معاني علم الفلك وتقويم البلدان والتاريخ الى عقول الناشئين .

انت تعلم ان علماء الفلك قد رسموا صور الاجرام السماوية الكبرى وخططوا آثار ذوات الذنب والشهب والخسوف والكسوف أو انتزعوا صورها بآلة التصوير الشمسي (الفوتوغراف) فلو أننا أردنا ان نجعل الفانوس السحري الذي هو الآن مشهد الاوهام والمغالطات مشهد الحقائق أيضا كفانا في ذلك ان ننسخ على زجاجه رسوم السماء وما فيها مصورة على الحالة الفطرية تصويرا مضبوطا .

اذا كان المراد تمثيل الارض في هذه الآلة فلست على يقين من صلاحيتها لتحصيل صور جميع ما فيها من سلاسل الجبال الكبرى ومجاري الانهار العظمى ومجاهل الصحارى المريعة واشكال السواحل الوعرة المغمورة

بالمحيط ولا حيلة لنا في ذلك فعلينا ان نكتفي بمبلغ طاقتنا من تصويرها فيها .
على ان الطفل يروقه نظر الاشياء تفصيلا أكثر من النظر فيها جملة فهو
اذا نظر الى صور الاقاليم وهيئاتها فانما يلتمس أثرا يريعه ويدهشه كصخرة
غريبة الشكل أو نبات أجنبي أو حيوان عجيب او انسان مغاير لنا بلون جسمه.

وأما التاريخ فلا شك في صلاحية الفانوس السحري لتعليمه فانه يتأتى
به إحضار خيالات من يتحدث عنهم من الماضين فلا مانع من ان ترسم
على صفحته صور الشجعان الغابرين بزيهم وبزتهم وصنوف ماوجد من
الصور الغريبة كابي الهول والثيران ذات الاجنحة وذات الرؤس الانسانية
واللحى السوداء والجنيات والا لهة وغيرها من الصور الخرافية لانها اذا
كانت خرجت من الليل فلا عجب ان تعود اليه .

أنا لسوء حظي لست عالمة ولا مصورة ولكني أرسم رسما مناسبا
لحالتي وكنت أرى منك احيانا استحسان رسومي الكثيرة الالوان نعم اني
لا أحسن طريقة التصوير على الزجاج فانها حرفة تتعلم وكمال سأفتخر بأن
يكون « اميل » هو صاحب الفضل علي في كسبه واصعب ما عليّ في
ذلك فيما أرى إنما هو الحصول على مثُل متقنة لأني اخال أن الواجب على
المربي هو أن يكون دقيقا فيما يعلمه الطفل وا كره أن لا ابرز الاشياء
لولدي في صورها الصحيحة وقد وعدني الدكتور وارنجتون وهو موافق
لي في كثير من افكاري أن ينتقي لي من لوندرة صورا منتزعة بآلة التصوير
الشمسي (الفتوغراف) أو رسوماً أخذت من علماء الطبيعة وعلماء الآثار
والسياح وانا بفضل معونته على أمل من انشاء مشهدي الصغير عما قليل . اهـ

الرسالة الثلاثون

(من هيلانة الى اراسم في ١٢ فبراير سنة ـ ١٨٥)

تعلم الاطفال الضرب في الارض ومعرفة جهاتها بالعمل وتعلمهم الصناعة بمعالجة ما يشترى لهم من اللعب

احب أن أصف لك «اميل» فاما صورته فقدعرفتها في الرسم الذي ارسلته اليك منتزعا بآلة ادجير التصويرية (الفوتغرافية) واما سيرته واحواله فهي التي أريد ان أحدثك عنها فأقول :

أرى له جراءة على السير والتجوال لا توجد في أترابه فيه ما اظنك تسميه بغريزة خرت الارض [1] وقد بلغ تمكن هذه الغريزة من نفسه مبلغاً ما أراني فيه قادرة على إضلاله ولا هو يحتاج في الاهتداء اذا انا أضللته الى القاء الحصى وفتات الخبز في الطرق لتكون كالصوى والاعلام [2] لأنه يهتدي بنفسه ولا يلبث أن يميز بمهب الريح وحركة السحاب الجهة التي ينبغي ان يؤمها وأرى ان الذي أظهر هذا الاستعداد فيه هو ما استفاده بالعمل من صحبة (قوبيدون) فانت تعلم ان في عيني هذا الزنجي ورأسه بيت ابرة مغناطيسية .

لا انكر أن مثل هذه العلوم من الاوليات وذلك يؤكد وجوب أن يتعلمها الاطفال وكلامي في ذلك عن خبرة وتجربة فانني تربيت في مدرسة

---

(١) خرت الارض (كنصر) عرفها ولم تخف عليه طرقها ولعل لفظ (الخارطة) اوالخريطة مأخوذمنها (٢) تشيرالى أسطورة الاصيبع التي سبق ذكرها

داخليـة كان التلميذات فيها غافلات عما وراء المدرسة من شؤون الحياة ومتاعبها . وكنت بعد ذلك اذا خرجت الى المزارع والرياض لا أعرف الشمال من الجنوب ولا أميز بين الشرق والغرب واخجل ذلك الخجل الضار أن أسألك عنها خشية ظهورك على جهلي . ولو كان هـذا الجهل خاصا بمثلي لكان الخطب سهلا وأراني صادقة اذا قلت ان كثيراً من اهل النهاية في العلم ليسوا بأوسع علما مني ببعض مواضيع مساحة الكرة الارضـية العملية . أنا لا أدري بالضرورة ان كان كتب على « اميل » أن يكون سائحا وجوّاب آفاق ولكني أرى أن الناس محتاجون في جميع أطوار الحياة الى معرفة الجهات والامكنة احتياجا تختلف درجاته فبعضهم احوج الى التوسع فيها من بعض وان صدق النظر اذا تعزز بالتجارب كان للانسان ركنا من اركان الحرية .

يأكل « اميل » على المائدة كالانكليز أعني انه يأخذ السكين بيده اليمنى والشوكة باليسرى يأكل بها وقد انكرت هذه العادة اولا ثم تبين لي انها اسهل فان استعمال كلتا اليدين معا يمكن من القطع والتناول فضل تمكين فالانكليز عسر (جمع أعسر) في الاكل دون الاعمال الصناعية ولست أدري ماهو عذرنا في ترك تمرين عضو من اعضائنا على العمل فهل كانت اعضاؤنا زائدة عما نحتاج اليه في استعمار الارض ومقاومة مايعترضنا من العقبات المادية في سبيل الحياة فنستغني عن بعضها ونغفله ؟

قرأت في ترجمة حياة (جمس وات) المهندس الانكليزي الشـهير انه كان يستعمل في طفولته ادوات والده النجار في اختراع لعب لنفسه أو تحويلها من شكل الى شكل . ويقال ان هذا التمرن ساعده كثيراً في

تدريب يده على الصناعة وقوّى ما كان في نفسه من الاستعداد لعلم الآلات (الميكانيكا) حتى صار ملكة راسخة فيه . ولست أطمع أن يكون « اميل » مخترعا لآلات جديدة ولكني أرغب أن يكون ماهراً في تحريك أصابعه ولهذا لا أمنعه من تكسير لعبه ليرى ما في جوفها — كما يقول — اذا تعهد لي بإرجاعها الى أصلها .

على اني لاحظت أمرا أحب أن أعرضه عليك وهو أن لُعَبَ الاطفال تكون مناسبة لطبيعة البلاد التي ينشؤن فيها . فأهل السواحل يلعب اطفالهم بما تحدثه في نفوسهم صناعة الملاحة . وقد أجاب قوبيدون الذي هو كالقرد في الخفة والمهارة رغبة « اميل » ورفيقيه فصنع لهم بسكينه مركبا شراعيا صغيرا انزلوه في خليج الجبل باحتفال حافل فكان بذلك قدوة لهم في هذه الصناعة البحرية حتى انهم انشأوا لهم اسطولا مؤلفا من طرادات وسفن من ذوات السارية ومن ذوات الساريتين وقوارب وزوارق وبعض هذه السفن مسلح بمدفع من الخشب فكان لسان حالهم يقول: ها نحن أولاء مستعدون ، فليهاجمنا المهاجمون ، . وكنت اذا سئلت عن قيمة هذه الاشياء السابحة على وجه الماء اظهر ترجيح ما يصنعه الاطفال من سفن اللعب على ما يبتاع من التجار من نوعها وان كان أحسن منها صنعا .

يحب « اميل » العمل ويميل الى سماع القصص كما هو المعهود من مثله .

وأنا موافقة لك في انتقاد توسع الناس في مخاطبة الاطفال بما يعلو ادراكهم وافهامهم وهذا من آفات التربية التي يجب تجنبها وما أعظم الفوائد والمزايا التي يستفيدها الاطفال من تعليم امهاتهم الشفوي اذا تجنبنا أحدث

عندي هذا الفكر النظر في مايؤثر عن جميع الامم قبل اختراع الكتابة والتصنيف مما كان الاعتماد في حفظه على الذاكرة. فقد قرأت في كتاب لااذكر اسمه الآن ان بعض اليونانيين كانوا يعارضون قدموس[1] في وضع الحروف الهجائية لهم محتجين بأن اعتياد الناس على اثبات حوادث التاريخ على الالواح يضعف الذاكرة بالتدريج . وكان لهم وجه في هذه المعارضة فهي تشبه المعارضات التي توجه الآن الى كل ضرب من ضروب ارتقاء الانسان .

نرى الاطفال قبل تعلم القراءة والكتابة ينتحلون كثيرا من الافكار والآراء فأهم شيء يبتديء به المربي هو النظر في اختيار أمثل مايودعه في نفوسهم من المعارف ثم في اختيار امثل الطرق لايصال ذلك الى اذهانهم الخالية ونقشه في ألواح نفوسهم الصقيلة وكثيرا ماخرجت مع «اميل» عن أساليب لغتي وقواعدها لاجل ذلك وما كان أشد اغتباطي وسروري عند ما كنت أُراني قد ملكت سمعه بتكلمي بلغته والنجاح في هذا يتوقف على اخلاص القلب ونسيان النفس وهذان الامران انما يحصلان بالرياضة والمزاولة على ماأرى .

من الثابت المقرر ان للاطفال شعرا خاصا تعرفه الامهات حق المعرفة ولكننا نحكم فيه شعرنا وخيالنا فكيف السبيل الى حفظ هذه القوة الشعرية وبقاء غضاضتها بحيث لا يسقط عبثنا بها زهرها ولا يذويها ويذهب بنضرتها لاحلال شعرنا محلها :

---

(١) قدموس هو الرجل الفينيقي الذي أنشأ مدينة طيبة ونقل الحروف الهجائية من مصر الى بلاد اليونان

الدنيا مملوءة بالحكايات التى يدعى انها وضعت للاطفال وامثالها حكايات (رولت) وأرى ان مافيها من الصنعة والحذلقة يخرج بها عن مهد الطفولية الى مستوى الكهول ومرتبة الشيوخ. وأفعل الحكايات في استمالة «اميل» وتحريك رغبته وميله ليس مما يمهد في الشعور العام والحس المشترك أعني مما يجول في اذهان البالغين دون الولدان الذين في السادسة أو السابعة. فالحكايات الخرافية القديمة جدا التى يخفف الدرس والصنعة مافيها من معاني الشعر الفطرية هي التي تقع من نفسه موقع القبول في مثل هذه السن .

فمن الحكايات المتداولة في البلد الذي نسكنه ما فيه ذكر المرَدة والاغوال والجنيات والتنابيل (القصار جدا) وهو مايذهب بنوم الاطفال في ليالي الشتاء ويجذبهم الى السمّار[1] لسماع تلك القصص محدقين بابصارهم الى السامر . ولي أن اعتقد أن هذه الحكايات مختزلة من أشعار وقصائد قديمة ضاع أصلها وتناقلت الناس ما بقي من معانيها مرضع عن مرضع وأم عن ام حتى انتهت الينا في شكل يخالف شكلها الاول قليلا أو كثيراً .

زعم عالم من كرنواي الاقيه احياناً في منزل صديقنا الدكتور أن لديه وسيلة هو واثق بأنها توصل الى معرفة أصل هذه الخرافات ومناشئ تلك الحكايات والذي فهمته عنه من هذه الوسيلة هو أنه يستعين على تلك المعرفة من حيث هو عالم أثري بلحن تلك الحكايات ونحواها من حيث مشابهتها لما نخترعه من الحكايات وعدم مشابهتها لها فهو يرى انه كلما كان معنى الحكاية بعيدا عن تصورنا واختراعنا كانت أوغل في القدم. فاذا بحثنا في شأن

(١) السمار بتشديد الميم جمع سامر وهو الذي يحدث في الليل

الجنيّات في هذه الحكايات نرى انها في الاعصر القديمة كانت توصف بأنها مجردات منزوية عن الناس ، شرسة صعبة المراس ، وقوى طبيعية رفعت الى مرتبة الآلهة وألبست شعار الدين . ثم ما زالت تقرب من الناس وتتشكل بشكل الانسان قرنا بعد قرن وتأنس به حتى صارت اناثا يتزوج بها الرجال . ومما يروونه في هذا أن رجلا تزوج بجنية وعاشا معاً عمراً طويلاً في كوخ . وقد كان من طول أنسه بها أن نسي كونها جنية إلا أنها فرت ذات ليلة متعلقة ببعض اشعة القمر . كذلك شأن المردة فان هذه الكائنات الوحشية المشوهة كانت تعرف في الزمن القديم بأنها مثار الوساوس المخيفة والهواجس المفزعة وبكرور الزمان ومرور الايام اقتربت من الانسان في احوال معيشته وضعف سلطانها في نفسه وتأثيرها في وهمه وخياله وتحول الرعب الذي كان مقرونا بذكرها وتصورها الى الضحك والسخرية وهكذ تنتهي دولة الخرافات وتزول .

لاريب انك واقف على قصة يعقوب مواثب المردة وقاتلهم الذي كان يعيش في كورنواي على ما يروى في الاساطير «فأميل» يحب حديثي عن غزوات هذا الشاب الشجاع ابن احد الزراع واشهر وقائعه التي سار بخبرها الركبان ما يروي انها وقعت في جبل ميخائيل قديس انكلترا وهو صخرة تكاد تكون بازاء منزلنا وكان المارد الذي يخطف الناس والبهائم قد تبوأها منزلا واتخذها مثوى له . وقد كان اعظم خدمة قام بها حماة الحق في عصور الهمجية ـ إن لم اكن واهمة ـ هي مقاتلتهم السلبة والوحوش الضارية وقتلهم لهم فانهم بذلك قد طهروا الارض من العتاة والبغاة الذين كانوا يعيثون فيها فساداً وبهذا الاعتبار نرى اليونانيين قد انصفوا في

رفع مكانة هرقل [1] وتيزيه [2] وجعلهما من انصاف الآلهة كذلك فعل يعقوب بالمارد فانه هاجمه في مغارته وانتصر على تلك القوة الوحشية الفاتكة بالحيلة فكان جديراً بأن يكون خلفا لأولئك الشجعان الاقدمين .

لهذه الخرافات فضل وقيمة ولو انها الغيت من التعليم القولي لاسفت كثيراً فان امام الطفل في هذا العصر الذي كله حقائق زمنا طويلا يتسنى له فيه التحقق باخلاقنا وعوائدنا الحقيرة فلنغتنم فرصة فجر حياته القصير الامد الذي ترتاح فيه نفسه للاحاديث الخرافية وتتأثر بغرائب الاساطير لنودع فيها انواع الوجدان الاعلى ، ونبعثها على حب الاعمال الجليلة والسجايا الفضلى ، فان طبع الطفل يتكون وينشأ في قوالب المثُل التي تكون لها مكانة في نفسه عند ما يلقى اليه خبرها وتمثل له صورها . نعم ان «اميل» لن يكون قاتل مردة — واين المردة اليوم — ولكن قصاري ما في قص هذه القصص عليه من الفائدة انها تهز نفسه وتحرك اريحيته بما فيها من ذكر غزوات عصر الابطال ولو كنت أجد منه انقباضا وشكا عند ما اقص عليه تلك الوقائع التي أبالغ عن قصد في بيان اخلاص ابطالها وعلو نفوسهم واماناتهم لساءني ذلك واحزنني .

نحن في شؤن الحياة لانزال دون غايات الكمال المبتغاة فيجب علينا — ان لم اكن واهمة — ان نعجب بما يروى عن أولئك الابطال من فضيلة

---

(١) هرقل أو هرقول اليوناني كما هو في أساطير اليونان (ميثولوجيا) ابن جوبيتر (المشتري) كبير الآلهة من زوجه ألكمين وأعظم الشجعان الذين كانوا يقتلون التنانين والضواري والافاعي العظيمة . (٢) تيزيه من شجعان اليونان المشهورين وهو ابن (احيه) ملك اثينا قتل مينوتور وهو بحسب خرافاتهم وحش نصفه ادمي ونصفه ثور واشتهر في وقائع عصر الابطال .

الشجاعة وان بعد احتمال وقوعها حتى لا نكون في اسفل دركات الجبن .

في نفسي أمر انا في أشد الحذر من الافضاء به الى «اميل» لسببين احدهما انه لا يفهمه والثاني انه يذهب بما لهذه الخرافات من الشأن الرفيع عنده وهو ان تلك المردة التي هي موضوع تلك الاساطير ليست سوى اشخاص هذه الصخور الكثيرة في كورنواي . فالحق والحق أقول ان هذه الاجرام الصوانية الهائلة تحتمل في كل يوم أقصى ما قدر في هذا العالم على كل قوة ذات مقاومة غير مألوفة أن تحتمله ذلك ان تنبالا كان يتسلق تلك الصخور العظيمة المحيطة بذلك المكان الذي يسمونه نهاية الارض « Land's End » وينقر باداة من الحديد نقرة يضع فيها قرطاسا من البارود ذا فتيلة ويشعل الفتيلة ويكر راجعا فيكون الانفجار ويتصدع الصخر وتتزلزل الارض ويضطرب البحر . فيعللون في الاساطير مثل هذا التزلزل والاضطراب بسقوط المارد .

يتراءى لي أن محو الخيالات من اذهان الاطفال لا يفيد المربين شيئا فاين تلك الحكايات والقصص الغريبة التي كان الاطفال يفتتنون بها لما فيها من السذاجة والغرابة ؟ لقد ضاعت ونسيت وصار عصرنا هذا وهو عصر القصص والروايات الخيالية أبعد الأعصر عن القصص والاساطير المذكورة فان القصص التي ندونها في هذا العصر لا تمثل الا الوقائع المعهود للناس نظيرها لاننا بما كنا من أهل الحقائق المعتمدين على الوقائع الثابتة ومن سكان المدن الآهلة والحواضر البعيدة عن الوهم والتخيل كانت عنايتنا في التربية محصورة في ايداع جميع اذواقنا ورغائبنا فى نفوس اولادنا . أقول ماقلت لا لاني ادعي الحكمة والفلسفة واعوذ

بالله من دعوى الاشراف على الغيب والحكم على الاستقبال ولكني اسائل نفسي عن حال هؤلاء الاطفال الذين صاروا شيوخا وهم في سن اللبان وقد قطعنا عليهم طريق الوهم والخيال فنحن نعلمهم قيمة الفضة وهم فى طور يجهلون فيه الحسن المطلق والجمال الذاتي . ومن العبث ان يقال ان ما تصفه لنا الاساطير من الاخلاق الفاضلة والمزايا العظيمة لا أثر له في الوجود فان عدم وجود أولئك الرجال والنساء الموصوفين بما ذكر من الاخلاق والمزايا فى أنديتنا وسمارنا وعدم تجوالهم فى اسواقنا وشوارعنا يجب ان يكون من الاسباب التى تحملنا على عدم اخراجهم وطردهم من جنة الطفولية حيث يتمتع الاطفال في عالم التصور والخيال . فأستحلف القائمين بأمر التربية بالله (تعالى) ان يدعوا لهم متبوءا فى البيوت .

وأما انت يا عالم الخيال، من الجنيات والابطال، الذي هززت قلوبنا في طور الطفولية، وحركت نفوسنا للخيرات والفضائل النفسية ، بما كشفت من النقاب عن وجه الكمال، وابرزت من مظاهر الجمال والجلال، فلا تزل ولا تحتجب عنا في جو هذا العصر الوخيم، المثقل بضروب الحسبان والهموم الذي شغلت أهله الاغراض المادية ، وطلب المنافع الجسمانية فاننا نصغر ونحقر اذا صرفنا اولادنا عن الاعتقاد بعظمتك الخيالية، التى علمتنا الحسن الذاتي والعظمة الحقيقية .

أرى من الخطأ ان تعاب هذه الخرافات ببعدها عن الحقيقة فان هذا وإن كان مذموما بالنسبة الينا فهو محمود بالنسبة الى طور آخر من أطوار العمر . فما يظهر لنا بعيداً عن الحقيقة حقيقي في نظر الطفل . أخذت هـذا الحـكم من طبع « اميل » الذي ابتهج بأني سبرته واختبرته فهو على عدم

سماعه شيئاً من الدين متدين بطريقة خاصة به وله قوة عجيبة في ابتداع الصور الخياليـة التي يمتاز بها الانسان في طور الطفوليـة وتضعف فى سائر اطواره بالتدريج فانه يرى وراء كل حادثة كونية كالمطر والريح وغروب الشمس قوة حية بل ذاتا مشخصة فقد فرّ منذ ايام من البستان مذعوراً لانه رأي سحاباً مركوماً ظهر فى السماء باشكال غريبة وقال لي إنه رأى فيه رأس شيخ ذي لحية بيضاء. أليس لمثل هذا التأثر الناشيء من الخوف خوف الاجلال والاعظام الفضل في ادراك معني الالوهية الاول الذي فهمه الانسان . اهـ

الرسالة الواحدة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٥ مارس سنة ــ ١٨٥ ﴾

تعليم القراءة والخط والرسم

لم يتعلم « اميل » القرآءة ولا يكاد يعرف حروف الهجاء وربما كنت أنا الملومة علي ذلك لانني لم احثه على التعلم الا قليلا. ذلك أنني لا أنفك اذكر تلك الغضاضة والكراهة للتعليم الاول وما سببها على ماأرى الا الاكراه عليه وهضم ما كان يجب لطفل صغيرة مثلي من حق الحرية والاختيار. وأرى أن حملي «اميل» على التعلم لأن غيره يتعلم كما كان يقال لي جناية عليه لان عاقبة هذه الحجة أن تطبع الناشيء على التقليد الاعمى والاقتداء بالناس في جميع عاداتهم من غير تفرقة بين الحسن والقبيح . ولم نختار ركوب الصعب في هذه السبيل ولدينا المركب الذلول وهو حمل الطفل على التعلم

بالتشويق والتنويه بما في المطالعة من اللذة فقد يستغني الانسان عن الأشياء التي يجهل فوائدها ومزاياها .

أنا جاهدة في تلمس الوسيلة التي تنبه اشتياق «واميل» الى الحروف المطبوعة وتبعث فيه الميل الى معرفتها . واذا علم أن القصص العجيبة والاساطير الغريبة التي افكهه بملحها وافاكيهها كلها مأخوذة من الكتب فلا بد ان يجدّ به الميل وتحمله الرغبة على ان يأخذ تلك الحكايات من مصادرها ويستخرجها من ينابيعها بنفسه في يوم من الايام • واذا تولدت هذه الرغبة يوما مافكل مابعدها يتبعها من نفسه واني لا أفتأ انتظر تولدها وانبعاثها الحسن فيه • وقدطال تأخرها •

نحن مع صيرورة القراءة حاسة سادسة لنا بما رسخت ملكتها فينا لم نحط خبراً بالعقبات التي تحول دون وصول الطفل الى معرفة الحروف الهجائية بسهولة وانا باحثة عما عساه يكون منشأ لهذه العقبات الثابتة الراسخة ويشق علي الوقوف عليه وربما كان منشؤها ان ما دون علم القراءة والكتابة من سائر العلوم يساعد بعضها على معرفة بعض ويعد متعلم احدها ويؤهله لفهم الآخر اذاهو انتقل اليه لما بينها من الصلة واتحاد طرق الدلالة واما علم القراءة والكتابة فانه يخالفها في ذلك لانقطاع الصلة بين الاشياء وبين هذه الاشكال والرسوم الصناعية التي وضعت للدلالة عليها فاذا انتقل المتعلم من مسميات الاشياء الى اسمائها المرسومة في الورق انقطع الاتصال به فجأة

لا يصعب على « اميل » ان يميز فيما رآه من صور الاشخاص المرسومة وجوه اصحابها اذا كان رآها لان الشكل في الصورة والمصور

يكاد يكون واحداً فاما الاسم المكتوب فانه لا يمثل له شخص المسمى بحال من الاحوال فهل توجد طريقة لربط هذين النوعين من الاشياء في فكره وأعني بهما الرسم والكتابة ؟ هذا أمر يطلب منك الجواب عنه .

أنا أكلم « اميل » بالفرنسية وهو يتكلم مع أهل كورنوايي بالانكليزية فهو بهذه الطريقة يتعلم لغتين من اللغات العصرية بلا مشقة بل لا حرج عليّ اذا قلت بلا شعور منه بذلك الا انه يغلط فيهما غلطاً غريباً فيمزج احيانا بعضهما ببعض مزجا يكون من أشد الاضاحيك استضحاكا . مثل لنفسك غلاما يقول مخبرا لك بأنه يريد الخروج (Je voudraistogo out) ألست تترب لهذا الخلط ضحكا . لا غرو فما كان تكوّن اللغات المختلطة فيما سبق الا في مثل هذه الحالة وهي تجاور جنسين متمايزين واختلاطهما زمنا في مكان واحد . أنا اعتقد اني أعلم « اميل » وهو في الحقيقة معلمي لانه قد فتح عيني وهداني الى عدة مسائل ذهب تعبي في البحث عن حلّها في الكتب سدى . وليت شعري هل تصدقني اذا قلت لك انه يعلمني التاريخ ؟

يعرف « أميل » الرسم والتصوير وان كان لمّا يعرف القراءة والكتابة فهل ولد مصورا ورساما ؟ لا أنكر أن النظر الى خرابيشة [1] يضعف هذا الاعتقاد أو يذهب به ولكنها على كل حال صور آدميين وحيوانات ومساكن وغير ذلك . وهو لا يكتفي بأن يحاكي بالقلم العادي أو الرصاصي شكل ما يقع عليه بصره بحسب ما يتفق له بل أراه يحاول التعبير عما في نفسه من الوجدانات وما في فكره من الحكايات بما يرسمه

(١) جمع خرباش أو خربوش وهي الخطوط الفاسدة غير المنتظمة ويقال خربش الخط

على هـذه الاوراق من خرابيش الخطوط والصور . انظر كيف حاول أن يكتب اليك مكتوبا - استغفر الله قد اخطأت في كلمة يكتب وكلمة مكتوب وكان ينبغي أن أقول : يرسم لك خطا بربائيا [1] وأنا لا أخشى أن يصعب عليك فهم الرسم الذي يرسله اليك فارجو أن اكون أنا في هذه الدفعة شامبوليون [2] هذا الرسم فأقول :

يمثل لك الرسم ريحا عصوفا هبت لليلتين من شهر ابريل وظلت تعصف الى الليلة الثالثة منه وليس هذا مما يحصل هنا نادرا ولله بيوتنا فانها مبنية بالصوان (وهو الحجر الكثير الوجود في الضواحي) ولولا ذلك لتداعت اولدكت بقوة العواصف والاعاصير الشديدة التي تضطرب لها هنا السماء والارض والماء . على ان البحر لم يرمنذ سنين بمثل هذا الاضطراب الذي أحدثته هذه العاصفة ولا يجد الواصف لهذه الحالة وصفا الا ان يقول ان حجاب الروع والفزع قد أسدل على هذا الكون الذي لا نهاية له .

لا يسمع من لغط الناس المشؤم في هذه الحال الا اخبار الغرق والغرقى تتردد من ساحل الى ساحل ولم يكن لخفراء السواحل يومئذ هم منذ طلع الصباح الا مراقبة البحر الهائج بمناظيرهم المقربة للبعيد يصوبونها الى الافق من على تلك الصخور الوعرة المحيطة بالخليج وكانوا لا يكادون يبصرون في ضوء ذلك الصباح الملون بخضرة البحر الحواء (الضاربة الى سواد) على ان

---

(١) البرباني الخط الذي يوجد على جدران البراني وهي هياكل ومعابد معروفة في مصر (٢) شامبوليون هو اول من حل الخط البرباني والهيروغليفي بقراءة حجر رشيد المشهور

أشعة أبصارهم قد خرقت تلك الحجب الجوية وعلم الناس انهم ميزوا على بعد من وراء تلك الامواج المتراكبة المصطخبة سواد سفينة قد وقعت في شعب مخيف فانكسر ساريتها الكبرى وتحطمت جوانبها فسقطت تضطرب كحوت أصيب بجروح عظيمة فصار يتقلب على جنبيه وكان مما يثير الخوف ان الامواج التي كانت تهيجها العواصف فتعلو بغأة كالجبال ربما تتناول السفينة المتلفة من حين الى حين فتقذفها على تلك الصخور الصم . وصار يتسنى للانسان في ذلك الجو المطبق المحزن ان يميز في ضوئه السنجابي اللون أيدي الناس في السفينة تشير بقطع من الشراع .

لم يكن للناس حينئذ من أمنية الا نجاة هؤلاء الغرقى على أنهم ما كانوا يجهلون صعوبة انقاذهم وتعسره . نعم إن أهل كورنواي اولو شجاعة ونجدة ولكنهم مع ذلك اصحاب حذر وفطنة . هدأت الريح قليلا بعد شروق الشمس كامدة شاحبة والبحر ما زال متماديا في طغيانه ، مصراً على عدوانه ، فكان يخيل لرائيه انه يتحرك بنفسه وأنه اخذته حمى نافض من القاصف فاحدثت فيه هذه القوة العجيبة في الرعدة والاضطراب وكان بعض الصيادين المحنكين يرمون بأبصارهم الى الامواج يتتبعون حركاتها باعينهم المدربة ثم ينغضون رءوسهم وتعلو وجوههم كآبة اليأس وكأن لسان حالهم يقول :لا حول لنا ولا قوة على انقاذ هؤلاء المساكين.

أتى على الناس نحو نصف ساعة وهم يتراوحون بين اليأس والرجاء كان عليهم كنصف قرن. ذلك انهم كانوا يرون بعض اخوانهم بين مخلب الموت ونابه وهم يرجون منهم النجدة فلا يجدون لانجادهم سبيلا . وبينما هم في هذه الحالة اذا بزورق النجاة قد احضر فصاح الناس صيحة واحدة

كانت منبعثة عن جميع الصدور وهذا الزورق يمده الملاحون للدواهي الكبيرة وقد أحضر بقوة السواعد والخيول ووضع في مكان من الساحل يرجى منه الوصول الى الغرقى وما عتم أن امتلأ بالناس على وهنه وخفته وعظم الخطر في ركوبه وقد تحمل «قو بيدون» الذي تطوع في هـذه الخدمة منذ سنتين أو ثلاث كل مشقة في الذود عن مكانه وحفظ مجذافه وكان الذين ركبوا الزورق يحسدونه على شرف التعرض لمخاتـل المحيط ونخاخه وما نجح في ذوده ودفاعه هذا الا بقوة حقوقه المكتسبة بسابق هذه الخدمة . أنزل الزورق في البحر وانحنى المجـذفون الجريئون على مقاعد تعلو نصفها الامواج واوغلوا في البحر وكان «اميل» على ما أرى يأسف أن لم يكن له من السن والقوة ما يؤهله لمساهمة رفيقه قوبيدون في هذه السياحة الدالة على جراءة الجنان ، وشرف الوجدان ، وأراه قـد اكتسب في هذا المشهد من العبرة باخلاص المخلصين ، والاسوة باحسان المحسنين ، مالا أبيح لنفسي التعبير عنه بالكلام ، ومحاولة شرحه بفصاحة البيان، لئلا اضعف من قوته، واشوه من صورته، فان حضور المشاهد العظام، ورؤية الاخطار الجسام، تعلمنا بغير كلام، وتربينا بدون إلزام ؟.

غاب الزورق ساعات والناس في قلق مميت واذا بصائح يصيح ! ها هو ذا راجع ، وكان يقترب من الشاطىء حقا والناس في ريب من نجاحه في مسعاه الشريف . وما كان اشد شجاعتـه في مساورة غضب الامواج الثائرة وانت ولاشك تعرف ماتأتي به صناعة الملاحة من هذه العجائب اعني الزوارق المنشأة من الهواء والبلوط التي هي في الخفة كالريشة وفي القوة والمتانة كما يحب الخير ويرضى . كان يخيل للرائي في كل لحظة

أن الفواعل الكونية المصطخبة ستبلع بقوتها هـذه الصدفة الخشبية التي تطاولت بجراءتها الى منازعة البحر في غنيمته ولكنها تطاولت فطالت وحاربت فظفرت فكأن هذا الزورق كان انسانا يسبح وقد اعطته جنية طلسمها ليتقي به مفزعات النوء وما كان أبدع منظر رجاله والماء يتدفق من فوق قلانسهم المشمعة وثيابهم المزيتة وهم راجعون اعزاء ظافرين وان كان الموج نال منهم وترك اجسامهم كاجسام الضفادع ونحوها من حيوان الماء وقذف بهم أحيانا في مهاوي عميقة كبطون الاودية وطفر بهم أخرى الى قنن عالية كشعاف الجبال يظهرون بها للابصار في ضوء الشمس السقيم وكلما غلبتهم الامواج على مجاذيفهم فنزعتها من أيديهم بادروا الى استرجاعها بقوتهم كما يأخذ الشجاع سلاحه من عدوه . صاح قوم من الملاحين كانوا على صخرة قائلين « نجوا »

فلما سمعت هذا الصياح شخصت ببصري الى الزورق الذي كان يدنو من الشاطىء دنواً غير محسوس وانشأنا نميز بين رجال الزورق ثلاثة من الغرقى شاحبي اللون شحوبا مفزعا وفتاة صغيرة ليس فيها أدنى علامة على الحياة .

وصل الزورق بمشقة شديدة ورسا في مرسى من المراسي المحمية بالخليج فلم ألبث أن تلقفت بعض التفصيل عن حادثة الغرق فعلمت أن انقاذ الغرقى كان عسرا خطرا وانهم لقوا الألاقيّ الشديدة ويظن انهم قضوا يومين على الطوى . وقد وجدوا ممششين كالطير البحري حول بقايا أدوات السفينة التي لم يدمرها البحر كلها تدميرا ولاشك انهم لما صاروا عرضة لجميع شدائد الجو تسلقوا هذا الموضع الحرج عند اغتيال

الامواج سطح المركب وثبتوا فيه بخوارق الشجاعة وقد تعب منقذوهم في تخليص الحبال من أيديهم التي أيبسها البرد وكانوا عاجزين حتى بعد نجاتهم عن مدافعة النعاس الذي كان ينيخ عليهم بكلاكله ٠

كان الناس يتساءلون : من هم ومن أين أتوا ومما كان يزيد في سوء حالهم انهم ما كانوا يحيرون جوابا لانهم ما كانوا يفهمون خطابا فحسبت انهم يعرفون غير الانكليزية فخاطبتهم بالفرنسية وبالالمانية بل استنفدت جميع ما أعرف من اللغات فلم أر في وجوههم أمارة على فهم شيء منها. وكان في الميناء بعض الملاحين الروسيين واليونانين والنرويجيين فلم يكونوا أسعد مني حظا في مخاطبتهم ٠ تجلت هذه الحادثة بشكل الامور الغريبة فكأن هؤلاء الغرقى في نظر الناس أموات بعثوا ولم يعرفوا لغات الاحياء٠

وأما الفتاة الصغيرة التي يظهر انها بنت خمس فكانت نجاتها كمعجزة من المعجزات وكانت أبصار الملاحين قد زاغت دونها ولم تهتد في الضباب الذي أثارته الامواج اليها ولكن فويدون لمح بعينه التي تحاكي عين الفهد شبه كتلة معلقة في بقايا أدوات السفينة وخاطر بنفسه في التسلق لاكتشافها أشد المخاطرة فألفاها بنتا قد لفت في نسيج ولبوس وعلقت على ارتفاع عشرين قدما وسط الحبال المتقطعة وكانت مغمى عليها من البرد والجوع والخوف فأخذها وألقاها في الزورق فظلت في غيبة نعاسها كذلك الطائر البحري المسمى موتيا الذي يري متخدرا طافيا على سطح المحيط ٠

أدرك هؤلاء الغرقى في الوقت الذي كان يجب انقاذهم فيه اذلم يمض على ذلك بضع ساعات حتى هاج البحر هيجة حطمت بقايا السفينة وبددت الواحها تبديدا وكانت القرائن تدل على انه لم ينج من ركابها الا هؤلاء ٠

اخذ الغرقى الى ملجإ الملاحين ليساعدوا على ضعفهم وطلبت أنا ان تضم البنت اليّ والفضل كله في هذا البر لاخلاص تو بيدون وليت شعري من أي البلاد هي؟ إن ملامح وجهها وشعورها الحالكة وجلدها الذهبي تدل على انها من البلاد الجنوبية . هل هي يتيمة ؟ وهل غرق ابوها ؟ومن هو صاحب اليد التي علقتها في بقايا السارية ؟ تلك اسرار محجوبة عني ولكن الظاهر أنها ليست لاحد الذين نجوا من الغرقى ولا بد أن نقف قريبا على خبر السفينة ومن فيها وسأكتب اليك بما اعلمه من ذلك واستودعك الله قائلة إن من حبك أنّ اتأثر بمصائب الناس واهتزّ لها .

(حاشية) عرف اسم السفينة وهو (أياكوكو) وغرقاها من البيروفيين الذين يتكلمون الاسبانية غير الصحيحة هذا كل ماعلم الى الآن عن هذه الحادثة البحرية المحزنة . اه

الرسالة الثانية والثلاثون

﴿ من الدكتور اراسم الى زوجته في ١٨ ابريل سنة ــ ١٨٥ ﴾

التدرج الفطري في تعليم الرسم والخط والقرآءة

تلقيت رسم « اميل » فاغتبطت به ولله ما تفضلت باضافته اليه من الشرح الذي كان كالمفتاح لمغلقه فلو لاه لما نفذذهني في سرّ خطه البربائي . لا شك ان هذه البقعة الكبيرة السوداء تمثل العاصفة والبحر المضطرب والسماء المظلمة بالسحب وهذه يدي رهن لمن شاء على أني أري فيه السفينة

الغريقة وإن كانت قوانين علم المرئيات لم تراع في الرسم بالتدقيق وذلك الشيء الطافي على وجه الماء لا بد أن يكون زورق النجاة واما هذا الوجه المصبوغ بالمداد فلا وجه للخطإ في معرفته فهو وجه قويدون وكأني أرى بعين الارتياح في الصورة الصغيرة الملقاة على الارض تلك الفتاة المغمى عليها التي نجت من الغرق. أراك تجدينني فهمت ذلك الرسم الذي لا أعرف من آثار ولدي سواه وقد علقته هو وصورته على جدار حجرتي .

إن صناعة الاطفال تذكرنا دائماً بطفولية الصناعة وإن تصوير بعض اشكال هذا العالم الخارجي هو ملكة غريزية في نوعنا وربما كانت هي التي تميزنا عن غيرنا من سائر الحيوانات اجلى تمييز فان انسان (الغاب) الوحشي الذي لا نعرف لغته ولا تاريخه قد علم عنه اليوم انه كان في زمن ماينقش بالظران [1] على الحجر أو على قرن الايل القطبي صورا سمجة لا أثر للاتقان فيها كصورة الفيل القديم ذي الفروة المسمى بالموث كما رسم بعض الحيوانات الاوابد الغريبة التي كان يغالبها في التسلط على الآجام والغاب .

لدينا كذلك برهان على ان مجتمعات الانسان الاولى مارست فنون التقليد من قبل ان تضع لنفسها قوانين ثابتة تكفل لها حاجيات معيشتها .

أستنتج مما قدمته ان تعليم الاطفال ينبغي ان يبدأ فيه بالرسم وهذه هي الطريقة التي تتلمسينها لنقل الطفل من التصوير الى الكتابة . قد أحسنت النظر اذ انتبهت الى ان حروف كتابتنا لا صلة بينهما وبين ماوضعت للدلالة عليه بشكلها وانه ماتم الا المواضعة والاصطلاح فان الطفل مارأى

(١) الظِران بالضم والكسر مع تشديد الراء جمع الظرّ وهو الحجر المحدّد

في الكون شيئاً هو (ا) أو (ب) ولكن اختراع هذه الحروف هو من أعظم الآثار وضروب فوز العقل الانساني المخلدة في صفحات تاريخه. واذ كري ان الامم القديمة كانت قد استمدت من زمن طويل للحروف الهجائية بممارسة الرسم ثم انتقلت منه اليه فقد استمد الفينيقيون حروفهم من الخط الكهنوتي القديم وأما ابناء هذا العهد فان هذا الاتصال بين الرسم والخط مقطوع في نظر الطفل الذي يتعلم القراءة والكتابة بخطهم فانه ينتقل فجأة الى عالم معنوي لا يجد فيه شيئا يسترشد به ولا رابطة القياس والمماثلة. وبعد هذا يندهش معلمه من استثقاله ما يراه أمامه من العقبات. ليس هو الذي يحق له المعارضة في مثل هذه الطريقة المضادة للعقل بل ان كل ذي ذوق سليم وحكم صحيح يحق له ذلك.

كل ما يتعلق بالخط يحملنا على اعتقاد أن الحروف الهجائية التي اخترعت أولا ربما لا تكون الا صورا لبعض أشياء كانت تنسب اليها أكثر من غيرها والخط ابتدئ باختصار في الرسم وليت شعري هل بقيت تلك الآثار البربائية بتمامها من الحروف الهجائية للغات الحديثة؟ أقول إن هذا الامر محل للشك وإني أعرف رجلا كيسا كان يرجع أشكال حروف لغتنا المطبوعة الى بعض الصور الخلقية. نعم أن مضاهاته كانت احيانا تشف عن بعض التكلف ولكني أود عن طيب نفس اتباع طريقته للتوفيق في ذهن «اميل» بين طائفتين من الاشكال تظهران لأول نظرة متباعدتين كان بينهما بحرا رهواً. فاذا رسم مثلا مسطحا مستديرا يمثل به الشمس اكتب في أسفل هذا الرسم اسم هذا الكوكب بالفرنسية « Soleil » معتنيا باظهار حرف O مكبرا. فاذا كان الرسم «منزلا» « Maison» أو ثعبانا

« Serpent »أو طريقا متعرجا « Zigzag »او عيناً باصرة « œil » بذلت جهدي في بيان وجوه الشبه التي عساها توجد بين الحرف الاول من هذه الكلمات والاشياء التي تمثلها في الذهن فان «اميل» يفهم بهذه الطريقة أن الخط هو كيفية أخرى للرسم بها يبين الانسان مراده باوضح مما يحاوله بالرسم وفي زمن أقل .

أن الذي يحير الطفل ويضله هو إلزامه باتباع طريقتنا في النظر بدل أن نستدرجه من المعلوم الى المجهول استدراجا سهلا فترينا نبادر الى صب المعاني العقلية في ذهنه صبا على حين أنه لم يكتسب بعد ملكة تميز هيآت الاشياء المادية . نضطره الى ذلك بفضل مالنا عليه من الولاية المعنوية على اختلاف درجاتها فينا ولكني أرى أننا بهذه الطريقة نجني على ذهنه جناية تقضي بالاسف فان الزامه بالتعلم وقهره عليه يسلبان معظم ميله الى الملاحظة والتعلم بنفسه وضرر الاستبداد في البيوت لم يكن أقل من ضرر استبداد الحكومة .

أرى ان الرسم والكتابة والقراءة هي ثلاثة ضروب من التمرين مرتبط بعضها ببعض بحيث لا ينبغي التفريق بينها في التربية الاولى على ان الرسم هو الذي تجب البداءة به فان في ذلك مزايا كثيرة اولها كفاية الطفل مؤنة ما للدرس من السآمة والملل في أول أمره فان معظم الاطفال يكرهون الكتب ، وما منهم الا له ميل الى الصور ، بل إن فيهم دافعا طبيعيا يحملهم في الغالب على ان يرسموا بأيديهم ما يقع تحت أبصارهم فالرسم عندهم ضرب من اللعب خصوصاً اذا مارسوه بدعوة الغريزة واجتهدوا

من تلقاء أنفسهم في أن يمثلوا أشد الاشياء استمالة لهم. ولا انكر أن ملكة التمثيل والمحاكاة لا يستوي فيها جميع الاطفال ولكن التأسي كافٍ في تنبيهها غالبا .

ليت شعري هل ولد الانسان رساما ؟ هذا مالا اعلمه وانما الذي يثبته لنا التاريخ أن فنون الرسم كانت في جميع الامم سابقة لانتشار الكتابة والعلوم واذا كان الامر كذلك فالتاريخ يعيد نفسه في الاطفال كل يوم بأعيننا .ومن مزايا الرسم أيضا انه يربي القوة الحاكمة في نفس الطفل فإن في فتح أبواب الكون له قبل فتح الكتب امامه مبادرة الى ارشاده الى ينبوع العلم . فمحاكاة الجماد أو الحيوان أو النبات توجه نظره دائما الى الصفات المقومة لماهية ما يحاكيه وان جاء الرسم ناقصا . الرسم هو تمثيل أشكال الاشياء وحدودها بخطوط فيجب أن يكون الراسم قد رآها وقام في نفسه معنى ما يميزها عن غيرها من العلامات والصفات الأصلية . وأما الكلمات المكتوبة فانها لا تقتضي هذا العمل في الملاحظة فانه متى عرف الطفل التهجية وتركيب الحروف يمكنه ان يسمي عددا لا نهاية له من الكائنات الحية والجمادات التي ليس له بها أدنى معرفة وتوجد له بذلك ملكة غاشة متى قويت وثبتت بالعادة اضلت معظم العقول البسيطة التي لا همّ لها الا القشور .

لا يوجد الاستقصاء والتعمق في معرفة الاشياء الا حيث يوجد القياس والمضاهاة فاذا لم يعتد الطفل التفكر فيما يرى وملاحظته يكون قليل الاهتمام جدا بتفهم ما يقرأه .

آخر ما أذكره من مزايا الرسم أنه اعداد أولي كبير النفع في تعلم الخط فان « اميل » بتخطيط صور الاشياء التي يستملحها تخطيطا حسنا

أورديثا يمرن أصابعه على الحركة ويكتسب نوعا من الخفة والدقة لتكوين الخطوط التي منها تتألف حروفنا الهجائية ولكن الغرض انما هو اعداد الذهن للانتقال من الرسم الذي هو كتابة الصور الى الخط الذي هو رسم المعاني فلو انتا تيسر لنا ان نربط في حكم «اميل» التمثيل الخطي للاشياء المشهودة بالعلامات المعنوية التى تقوم مقامها لكنا كاننا وضعنا على البحر الفاصل بينهما جسرا على أنه لاشيء أيسر من تصغير الرسم في العمل فان «اميل» كلما رسم شجرة أو ثمرة أوحيوانا أقول له إنك قد رسمت حروفا من حيث لاتدري غير أنه توجد حروف أخرى أصعب من هذه رسما وقراءة يكتبها المتعلمون فاذا هجت فيه بهذا القول داعية الشوق وحب الاعجاب هيجا شديدا اكتب له الكلمة الموضوعة للشيء الذي رسمه وأحرضه على محاكاتها — افعل ذلك كله وأنا أضحك .

سواء عندي نجح في ذلك أولم ينجح مادام يجتهد في كتابة تلك الكلمة ولا شك انه يجتهد في ذلك اذا حمل عليه بالحذق والمهارة ولا بد من إعادة الكتابة عدة مرات قبل ان يكتسب شيئا من ممارستها ولكن الاصل باق على كل حال . وبهذه الطريقة يعرف «اميل» من هذا الحين السبب في الكتابة وكيف ان الناس قد استبدلوا برسم الاشياء حروفا اصطلاحية تدل على مايدل عليه الرسم وتفضله بكون مساحتها أصغر ووقت وضعها أقصر . هاتان هما مزيتا الخط على الرسم وهما اللتان أطيل له الشرح فيهما لانهما أقرب الى فهمه وأدنى من علمه .

الطفل يجري في تعلمه تكوين الحروف عادة كما يجري الدولاب فما احسنها طريقة للدخول فى عالم المعقول .

ثم اني عرفت بعضا من المصورين كانوا لا يستصوبون مطلقا ترك ملكة المحاكاة والتقليد مطلقة بلا قيد في الطور الاول من الحياة ويرون ان الطفل انما يرسم في الغالب بالهوى لا بمقتضى الفطرة كما يعتقد وهذا الاطلاق يفسد عليه عمل يده بما يعتاد من عدم النظام ولو صدقناهم في ذلك لقلنا بوجوب الولاية والتأديب في تعليم الفنون الجميلة. هذه مسألة يمكن اختلاف آراء الناس فيها كثيرها من المسائل ولكنها على كل حال ليست محل نظري فاني أراهن بألف ازاء واحد على ان « اميل » لن يدعي استحقاق جائزة رومية على الرسم فأي وجه لي في الخوف أو الرجاء في ان يصير بعد مصورا؟ إن ما أرغبه أن يكون رجلا ولا شك في أن الشعور بما يوجد في الكون يعين على انماء العقل والطبع . ومهما كانت رداءة رسومه فان أقل ما فيها أنها تشهد له ببعض التفات توجه الى ما يحيط به من الاشكال وهذا يكفيني منه الآن . فاذا كان ممن لهم ملكة حقيقية في الفنون فلا بد أن تظهر هذه الملكة فيه يوماً ما . أليس من الشواهد التي تذكر في هذا المقام ذلك الراعي الصغير الذي كان يتعلم الرسم بنفسه في اثناء رعي نعاجه ولما تكمل فيه بعد بواسطة التعلم في المدرسة صار (الاستاذ رفاييل)

أرى أيضاً أن تعليم الكتابة كان يجب أن يسبق القراءة أو أن هذين التمرينين يجب أن يتصل أحدهما بالآخر . كان اندروبل — وهو من اعلم اهل عصره ولا بد أن تكوني سمعت شيئا من سيرته في انكلترا — يبحث من سنين عديدة عن طريقة معقولة لتعليم القراءة والكتابة ولما كان في الهند اتفق انه رأى يوماً من الايام امام مدرسة في ضواحي مدراس ثلة من احداث الهنود يرسمون بأصابعهم حروفا على الرمل فوقف يلاحظهم

ملاحظة المتأمل وبعد أن عرف طريقتهم ضرب بيده على جبهته قائلا :
« قد وجدت مطلوبي » ليت شعري كيف كانت هذه الطريقة ؟ هي ولا
شك طريقة بسيطة جدا . ذلك ان أطفال الهنود لما كانوا أقرب منا الى
الفطرة وكانوا لذلك اعمل بمقتضيات العقل كانوا يبتدئون برسم الكلمة
التي يرونها مكتوبة ثم يبحثون عن اسماء حروفها ويتهجون مقاطعها ثم
ينتهون بقراءتها .

أخص فائدة أراها في هذه الطريقة أنها تشغل اليد والفكر فان الذي يتعب
الطفل ويسئمه عند مايقف امام كتاب انما هو التفاته الذي يطلب منه
بلا بصيرة فان عمل الانسان بنفسه وبحثه وتخمينه وسيره من المعلوم الى
المجهول طريقة فضلى في مخاتلة الضجر وخداعه .

لست والحق أقول معجبا كثيرا بطرق التعليم المخترعة فانها تفوق
الحصر ومعظمها خيالية لا تنطبق على ما في العالم الخارجي مطلقا . ويحضرني
أن هولاندیا أعرفه خطر بفكره أن يجمع مجموعة من النعال وأراك تقولين
ضاحكة : هـذا خاطر غريب . نعم انه غريب ولكنه وقع فان الانسان
لا يكون هولانديا بلا شيء وقد وجدت في خزائنه المقفلة بالزجاج كثيراً
من الانموذجات المفيدة ففيها من جميع الانواع ومن جميع البلدان والاعصر
من البابوج ونعل المشخصين الى جرموق الصينين ومن نعل متوحشي
أمريكا الشمالية الى بابوج كبراء الترك ففي هذه المجموعة من الانموذجات
المتعلقة بطبقات التاريخ المختلفة قد نسي صناع النعال شيأ واحداً الا وهو
شكل قدم الانسان . اذا صح ما أقول فربما دعاني الى توجيه مثل هذا
اللوم الى واضعي طرق التعليم . ذلك انهم يتعقلون كما ينبغي وبعضهم ليس

مجردا من ملكة الاختراع ولكن ينقصهم شيء من التفصيل وهو في الحقيقة هين ألا وهو شكل عقل الانسان في أطوار حياته المختلفة ٠

الطريقة الفذة التي أراها تلائم حالة التلميذ انما هي سلامة ذوق معلمه ولا أقصد بذلك أنه لاموصل غيرها يمكننا ان نسترشد به في التربية بل اعتقد ان كثيرا من الطرق العلمية التي استعملتها الاجيال الفطرية ولا يزالون يستعملونها ربما استعملت استعمالا مفيدا في تعليم الاطفال ٠ لاشك أنك سمعت الحديث عن آلة (الحاسب الصناعي) التي أدخلت في بعض المدارس لتسهيل بعض عمليات الحساب على التلامذة بواسطة استعمال كرات من العاج ٠ هذه الآلة وان لم اقف على مزيتها تمام الوقوف أنا على يقين من أننا أخذناها عن الصينين وهي الحاسب الكروي المسمى في مملكة السماء (سوان بان)

وعلى كل حال أعوذ بالله أن أنتقد مثل هذا الاخذ بل آسف من عدم رجوعنا كثيرا الى الطرق الصناعية والممارسات العملية للامم المتأخرة لتسهيل الوصول الى بعض العلوم الاولية على المبتدئين ٠

هؤلاء الاقوام المتأخرون هم أطفال التاريخ قد عرفت الآن بعض القوانين التي جرى عليها في جميع جهات الارض تكون اللغات والكتابة والفنون والديانات والصناعة ولم نقف عند حد معرفة مناشيء العلوم فقط بل أدى بنا البحث في دوال المعاني اثناء اطوار الحضارة الاولى الى معرفة استعداد العقل البشري وطرقه المتعاقبة في الوصول الى العلوم فاما ان اكون مخطئا خطأ فاحشا واما ان يكون هذا الترتيب الطبيعي في الترقي هو الذي ينبغي اتباعه في تربية الاحداث ٠

طرق التعليم عند الأمم التي وقفت فيها حركة الترقي والتقدم عبارة عن شؤون دائمة وحالة وجود ومعرفة مستمرة فلا ينبغي أن تكون الا وسيلة وقتية للطفل في الاجيال المتمدنة فانه وان كان في الاصل جاهلا مثل هؤلاء الامم يمتاز كل يوم عن الوحشي والبربري بملكة التحول التي كأنها مرسومة في اعضائه فهو يدرج بسرعة على معارج حالت بين الاجيال الدنيئة وبينها عقبات كؤود فلا يقف في عروجه هذا الا عند الحد الذي تضنه له استعداداته وملكاته الشخصية ونوع القوم الذين يعيش بينهم وتأثير الزمن فيه . فنسبة طرق التعليم الى التربية كنسبة الاوضاع والقوانين الى المجتمع فهي لا تلائم الا حاجة وقتية من حاجات العقل فيجب اعتبارها جميعها وقتية . فيكون من الحمق حصر عقل التلميذ في بعض الاشكال التعليمية كما كان من الجور في القرن السادس ارادة ابقاء الأمم على قوانين القرون الوسطى وعقائدها .

الرسالة الثالثة والثلاثون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ٢٢ ابريل سنة ـ ١٨٥ ﴾

تربية قوة الخيال والتلطف في مخابرة الاطفال

أرى أن « اميل » على ما وصفته لي قد حبيت اليه بدائع الخيال وغرائبه وأنا مسرور بذلك مهما بلغت درجته في نفسه لأني لا احب من الاطفال من كان مشككا مرتابا فان الارتياب فيهم من دلائل نضوب

قوتهم الخيالية وعقمها . ولست أدري ان كان حنين الانسان الى ماوراء هذا العالم المشهود من أسباب شرفه أو من أمارات خسته وكلا الامرين في نظري سيان اذا كان هذا الحنين يرفع نفسه من حضيض هذا الكون المادي ويسمو بها الى مايتمثل في الخيال من معارج الكمال الروحي وأنا اقاسمك الاسف على مايضيعه القائمون على الاطفال من قوة الخيال التي كانوا يجوبون بها مفاوز عالم الغيب وهم متعلقون بشعور جنياته . ذلك لان لله (سبحانه) حكمة في قسمة المواهب بين الناس حتى فيما هو اشدها خطرا وهو المواهب الخيالية فلم يهبها لنا عبثا فليس لنا ان نسعى في اماتة قوة من قوانا لمجرد حكمنا عليها بأنها وهمية أو خلو من الفائدة بل الاجدر بنا في شأنها أن نطلب لها مايقابلها ويوازنها فقوة الخيال مثلا سيأتيها الزمن بما يعارضها من قوة ملاحظة الحوادث الكونية وملكة التعقل والاستدلال فاستحلف المربين بحق الحياة وقدرها في نفوسهم أن لا يقسروا من قوى الاطفال وان لا يمحوا منها شيئا فان الانسان لم يبلغ من الغنى بها حدا تزيد فيه عن حاجته .

ان لنا في الكون لعبرة فلننظر الى حوادثه فاننا نرى جميع الموجودات في حركة واضطراب وتغالب وجلاد وترق وازدياد ونشاهد أن القوى المتعاندة تزدوج فتولد نظاما والفواعل المتباينة تأتلف فتنشيء ملائمة ووئاما فأي ضرر يلحق الانسان اذا جري فى تربية نفسه على هذا المثال.

الرسالة الرابعة والثلاثون

﴿ من اراسم الى هيلانة في ٢٣ ابريل سنة ـ ١٨٥ ﴾

خطابه « لاميل » وحثه على تعلم الكتابة

اليك مكتوبا « لاميل » في طي مكتوبي لك وهو :

ولدي العزيز لقد ابهجني مكتوبك الذي ارسلته الي وانشرح به صدري كثيرا غير اني انبهك الى أن هناك طريقة أخرى للكتابة هي الى الكلام اقرب من طريقتك اليه واحثك على المبادرة الى تعلمها فاسأل والدتك أن تعلمك طريقتها في قراءة رسومي القامية التي تغاير رسومك بعض المغايرة . في نفسي أمور كثيرة أروم الافضاء اليك بها فهل لديك ما تحب ان تكاشفني به فاني على عدم تمتعي حتى الآن برؤيتك مشغول الفكر بك عامر الفؤاد بحبك فاذا وافتني كلمة منك استبشرت بها وهشت لها نفسي ولست أدري كيف أصف ما أجده من الفرح لو منّ الله عليّ بلقائك فضممتك الى صدري.

الرسالة الخامسة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٢٠ يونيه سنة ـ ١٨٥ ﴾

الصحة في تغيير الهواء وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء

كان « اميل » عليلا وكنت مشفقة عليه في بداية مرضه من الحمى

الحصبة ولكنه لم يصب بالحصبة والسبب في عدم اخبارك بذلك هو أن الدكتور كان قد تعهد بأن يكاشفك بسير المرض ثم انه لما لم يجد فيه أدنى خطر عليه رأى من العبث أن يوقظ ما نام من همومك ويحرك ما سكن من دواعي قلقك ولقد عجلت اليه العافية فلم يمض عليه خمسة عشر يوماً حتى رد له لباس الصحة وثابت اليه أوابد القوى واما أنا فكان شأني غير ذلك لان ما قاسيته من التعب في ليالي سقمه التي لازمت فيها السهاد وما كان يساورني فيها من الحزن والاشفاق قد تزعزعت له صحتي ووهت به عافيتي وللطب الانكليزي في مثل حالتي هذه دواء لابد أن يكون هو سيد الادوية على ما أرى وسندي في هذا الرأي ما أراه من ثقة الاطباء به في وصفه لمرضاهم ومن اذعان هؤلاء له طيبة به نفوسهم وهذا الدواء هو تغيير الهواء .

نعم ان الهواء الذي نستنشقه في مرازيون جيد غير ان أخص ما يعول عليه أطباء الانكليز في ايصائهم المرضى بتغيير الهواء لتجديد قواهم انما هو الانتقال من مكان الى آخر والنظر في مجالي الكون ومشاهده وتغيير ما التزموه من عاداتهم وإني والحق أقول قد اعجبت بهذا الرأي بعض الاعجاب لاني أعلم أن ضواحينا التي يتوارد عليها السياح كثيرا غاصة بضروب المحاسن الحقيقية ولهذا السبب لم أعارض في هذا الرأي بل اذعنت له اذعان المريض المطيع الذي يجل أحكام العلم ويكبرها .

لم تكلفنا معدات السفر كبير عمل ولا مزيد عناية فان السيدة وارنجتون بفضل خبرتها بطرق البلاد وجهاتها قد تكلفت بأن تشرع لنا طريق السير وسقط قوييدون على مركبة عتيقة من المركبات المكشوف

مقدمها مرت عليها أيام كانت فيها أسعد حالا بأصحابها وعلى فرس كبير السن لا يزال فيه على كآبة منظره من القوة مايقدره على احتمال مشاق الصعود والهبوط في انجاد هذه الجهة واغوارها الكثيرة فاستأجرناهما باجرة تليلة وفي صبيحة يوم ظعننا استوى الزنجي البارّ على كرسي المركبة استواء السائق المختال المعجب بنفسه .

كان وجه « اميل » وقد زال شحوبه وعاد اليه لونه يتلألأ فرحاً ويزهو بشرا وطلاقة لانه لاشيء يلذ للاطفال كتوقع الحوادث ولكنا لم نصادف في طريقنا شيئا منها نقص عليك حكايته فلم نلاق سلبة ولا وحوشا ولا أسارى مقيدين في مغارات الصخور مع اننا قد جبنا أرضين مقفرة تحدها سواحل قحلة مهجورة معرضة لجميع مايطرأ من ضروب هياج البحر وطغيانه .

لم يكن خروجي الى التنزه لمحض التداوي بتغيير الهواء بل كنت أرمي الى غرض اخر ايضا وهو أن ينفعل « اميل » بما يشاهده من المناظر الحلوية وصورها المدهشة فتنتقش لها في نفسه آثار حية فانه يقال ان أول شيء بعث في نفس بايرُون [1] تباشير ولعه ولهجه بالشعر انما هو منظر مايوجد في هضاب ايقوسيا من البحيرات وقمم الجبال ولست اعتقد أن « اميل » سيكون بايرون عصره بل لا اجد شيئا من الحق في التطلع الي ذلك ولكني أتكدر واحزن ان رأيته من حيث هو انسان لايتأثر بما هو مسطور في صفحات الكون من جيد الشعر وبديعه .

(١) بايرُون هو اللورد بايرون الشاعر الانكليزي مؤلف القصص الكثيرة التي منها قصة الغلام هارولد وقصة الدوق جوان ولد في سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٢٤

قد وهمت فيما علقته على هذا السفر القصير من الامل الكثير في تنبيه القوى الحاسة في « اميل » وها أنا ذا أعترف لك بخطائي صاغرة إذ قد تبين لي اني تعجلت في هذا الامل فاني رأيته لا يشوقه الا النظر الى الجزئيات واستطلاع وقائع الارياف وهو من حداثة السن بحيث يصعب عليه ادراك الاشياء في جملتها ومجموعها .

أرى ان الطريقة المثلى في تنبيه الاطفال وبث روح الملاحظة في نفوسهم هي ان لا نطلب منهم الملاحظة ولا يحملون عليها وقد سرت على هذه الطريقة في سياستي «لاميل» فلم اشذ عنها الا مرة واحدة . ذلك أننا كنا في رأس ليزارد [1] وما أكثر عجائبه وان أردت تخيلها فمثل لنفسك صخوراً هائلة على جميع الاشكال بعضها قائم وبعضها ساقط وشيء منها متصل وآخر منفصل يهيج بينها البحر ويصطخب ومنها ماغمره البحر فطوق جيده بقلادة من الزبد ولم يبد منه سوى رأس مخروطي أملس مصقول لا تفتأ الامواج تغسله ثم تصور ان بصرك يتتبع من بعيد خط السواحل فيرى مايتخللها من نقطة الى أخرى من الصدوع العظيمة والوهاد والمنارات المظلمة فاذا وقف الانسان وسط هذه المشاهد الكبرى كانت حيرته في اختيار المكان الذي يشرف منه عليها . وقفت أنا واميل تجاه (كينانس كون) وهو أحد الخلج التي يرى فيها البحر أجمل ما يكون وسط الاطلال وقطع الصخور وأخذت بيده ثم قلت له انظر الى هذا المكان نظراً بليغاً وانقشه في حافظتك فلعلك لن ترى هذا المنظر بعد اليوم .

كأني بك تقول هل القوة الذاكرة مما يأتمر بأمرنا فنأمرها بالحفظ

---

(١) هو رأس من رؤس سواحل انكلترا في الطرف الجنوبي الغربي لقونتية كورنواي

والذكر ؟ فأجيبك بأن لي بعض الحق ان أعتقد هذا اذا رجعت الى مادلتني عليه تجربتي . ذلك أني أيام كنت فيما يقارب سن «اميل» سافر والداي الى مقاطعة أوفرني [1] واخذاني معهما وفي يوم من أيام أقامتنا هناك صعدنا على احدى شماف الجبل المسمى مندور وهناك نشدني الله والدي جاهرا بصوته أن لا أنسى ما كنت اشاهده في تلك الساعة ما دمت حية ولا أراك الا سائلي عن نتيجة هذا الاقسام فاعلم ان جميع ما كان ينبسط أمام ناظري في ذلك الوقت من المشاهد المحدقة بي وهي مشاهد الجبال والربى والوديان لا يزال مرسوما في لوح ذاكرتي ومن هذا تعرف السبب الذي حملني على اتباع هذه الطريقة مع «اميل» ثم ان والديّ قد اوصياني بعد هذه المرة بحفظ منظر آخر لا اذكره الآن فلم يُجْدِ هذا شيئا في الحفظ. وأنا استنتج من ذلك انه ان تيسر في وقت ما ان يكون للمربي شيء من السلطان على حافظة الاطفال فلا ينبغي الافراط في استعماله لانه وسيلة فعالة.

اذا وكل «اميل» لنفسه كانت دهشته بالاشياء التى يراها أكثر من اعجابه بها وهذا مما يحملني على اعتقاد أنه لابد في رؤية الامور على حقيقتها كال الرؤية من شيء من الخيال . خذ لذلك مثلا وهو ان الطفل لا يعرف من البحر سوى دائرة الافق التى يحويها بصره وهي دائرة ضيقة بالنسبة الى الواقع فان حجاب المسافات يحول بينه وبين ماوراءها من بقية البحر فاذا كان الشاعر يفنى عن شهوده وترتفع نفسه اذا وقف أمام مشهد المياه الجليل فذلك لانه ينظر بفكره الى ماوراء الافق من امتداد المحيط فانه

(١) مقاطعة أوفرني هي اقليم قديم من أقاليم فرنسا قاعدته كلير مونت فيراند تكونت منه ومن جزء المونت لوار والكروز مقاطعتا كانتال وبوي دودوم .

متى انفك ساعة من ربقة عجز المشاعر الظاهرة اتسعت في خياله حدود العالم المشهود فيضيف الى هذه البقعة المائية المضطربة التي لا يرى منها الا جزءاً حقيراً مهما كانت دقة بصره صورة عدم التناهي والجلال وكلاهما من مدركات العقل لادخل للحس فيهما وبالجملة فانه يري الجلال والعظم في ماهية البحر ومعناه الذهني لا في صورته المرئية .

فخلو نفس «اميل» من ملكة التفكر التي لا بد أن تظهر فيه بتقدمه في السن يكشف لي سر عدم اكتراثه بما يراه من مناظر الكون بل تقليده غيره في الاعجاب بها كما يبين لي سبب انبعاث شوقه الى بعض جزئيات ما كانت تخطر ببالي مطلقا ولهجه بها لهجا شديدا . ذلك أن معظم الصخور التي يتكون منها رأسا ليزارد ولندس اند (طرف الارض) وضع لكل صخرة منها اسم خاص بها كانه يخاطب الخيال ويوقظه فيريك الدليل الخريت منها صور العمود وعرين الاسد والمطبخ والمنافيخ والمقلاة والفرس وراس الدكتور جونسن ووجه الدكتور سنتاكس وغيرها فمن هذه الاسماء ما ينطبق ولا شك على مناسبات خرافية تختلف درجة قربها أو بعدها من الحقيقة غير ان منها ايضا ماهو مبني على وجود وجوه شبه ظاهرة للعيان بين مسمياته الاصلية وبين تلك الصخور التي وضع لها ومن المحتمل أن تكون هذه الالعاب الكونية والصور الاتفاقية والحجارة التي تمثل هيأة الانسان أو شكل شيء من الاشياء مع عدم نحتها بالمنحات هي التي بعثت في نفوس الاولين فكرة صناعة التماثيل ومهما كان أصل هذه الصناعة فان هذا الفن الفطري الاضطراري الذي نقشته على الصوان يد الخالق القادر هو من الغرائب غير المألوفة التي هاجت شوق « اميل »

الى معرفتها فانه كان يجتهد من نفسه في ادراك ما بين قطع الصخر وبين بعض الاشياء المعروفة له تمام المعرفة من وجوه الشبه التي لم تعزب ايضا (كما يدل عليه اسماء تلك القطع) عن فكر صيادي السواحل السذج البسلاء .

من عهد ان رأيت جميع النموذجات الاصلية لفن العمارة ظاهرة في المغارات وسلاسل الصخور لم يسعني الا الارتياب في ان هذا الفن من مخترعات الانسان . ذلك لانك تجد فيها أصل النافذة القوسية والقباب بما يقومها من الارتفاع والانحناء والدعائم الثقيلة والعمود الرفيع المخطط والشبابيك الطويلة المقبوة والعماد وغيرها من الاشكال الكثيرة فليس على الخيال الا أن يتوجه الى هذه الكتل الصخرية المتراكمة حتى يميز النظر من بينها مُثُلا لمعابد عتيقة وصفوفا من تماثيل صخرية ذات وجوه ناقصة وزخرفا رمزيا ووحوشا خرافية لو فصلت من الصخر لكانت شخوصا مستقلة .

كان بودي على كوني لست من العلماء ولا من الاثريين ان اعلم «اميل» في هذه الفرصة الجميلة بان ألقي في ذهنه معنى للآثار السلتية[1] التي لاتخلو منها بعض جهات كورنواي وا كثرها شيوعا هو كما تعلم الدوائر القسيسية[2] والاحجار الطويلة القائمة في الارض على قواعدها كالمسلات والرءوس الصوانية الطبيعية التي صارت بعد عمل صناعي قليل هي الحصون الاولى للبلاد تحميها من لصوص البحر وكان أشد هذه الاثار استمالة لي مدرج

(١) السلتية نسبة الى السلت وهم شعوب قديمة من الناس كانوا يقطنون بلاد الغول وشمال ايطاليا وبريطانيا العظمى وايرلاندا (٢) نسبة الى القسيسين لانهم هم الذين كانوا مختصين بهذه الدوائر فلا توجد في غير معالمهم

يلدّين في رأس ليزارد ومما يحمل على الظن بأن يد الانسان هي التي نحتت هذا المدرج في الصخر ما يشاهـد في بعض ارجائه من آثار اعمال تلك اليد الفطرية التي محا نصفها كرور العصور وما نبت من الاعشاب الدقيقة على سطح الصخور. ومن الاقوال المروية في شأن ذلك المدرج أن الدوائر العظيمة الناتئة في سمك الحجر كانت فيما غبر من الزمن صفوف درجات وان السلت قد انتهزوا حينئذ فرصة وجود منحن خطته يد الفطرة ووهدة يزبد البحر في قاعها فجعلوها مسرحا لابصار النظار وعملوا لجمهم حولها. اذا صحت هـذه الرواية فليت شعري ماذا كان المنظر الذي كان يحشر الناس له في هذا المكان؟ ان كان ذلك هو الكون وعظمه فانه مشهد جدير بإثارة وجدان الاعجاب والاكبار خصوصا في هذه البقعة ولكني ارجح ان ذلك الاجتماع كان لقضاء بعض المناسك الدينية لوجود جملة من الصخور السوداء ناهدة على سطح الامواج تجاه المدرج يقال ان القسيسين كانوا يتخذونها مذابح للقرابين وتلك شعائر أقل مافيها العظم والجلال.

يوجد أيضاً في هذه الناحية حجارة عمودية يتألف من تناسقها دوائر متناسبة الاجزاء تسمى بالكروملك يكتنفها نبات الخلنج الادكن الحزن فيورث رائيها الغم والخوف ولكن أنى «لاميل» أن يكون له كبير اشتغال بمثل هذه الآثار القديمة وهي خلو من أثر صناعة النقش ومجهولة التاريخ وكيف يرجى منه الاهتمام بها؟ على أني أرى أن نفسه قد انفعلت بآثار كامنة فيها لما شاهدناه ستظهر فيه يوما واني استند في هذا الرأي على أمر صبياني جدا غير ان كل شيء في عالم الطفولية هو أكبر مما يظن به ودونك قصة هذا الامر:

كان يوم ١١ يونية عيدميلاد «اميل» فاراد ان يشهر هذا اليوم العظيم بمأدبة خفيفة موافاة لما تقضي به عادة أهل البلد الذي نسكنه وانه فوق ذلك قد عمد في هـذا العيد الى اختراع افتجره افتجارا فقد أخـذ بثوبي وسار بي الى بستان فرأيت فيه وأنا في غاية الدهش كوما من الاحجار المتوسطة في الحجم مرتبـة مرصوفا بعضها فوق بعض بنوع من الحذق والصناعة وقد عددتها فوجدتها سبعة فعلمت من ذلك أنه قد استفاد من مدرسة قدماء السلت فانه لما فهم من الآثار التي زرناها على طول الساحل انها اقيمت تذكارا الحادثة من الحوادث طبق ما رآه على نفسه فأصبح كما ترى وله ان يقول ما قاله هوراس[1] من قبله وهو « قد رفعت لنفسي أثراً »

على اني أسائل نفسي لماذا تسمى سن «اميل» بسن التمييز والتعقل؟ فليت شعري أي شيء يتعقله الطفل في السابعة من عمره؟ لا أراه يتصور الجزئيات فانه لم يعمر من الزمن مايكفيه لتصورها ولا يدرك الكليات فانه يجب لادراك هذه ان يكون العقل قد وصل الى حد معلوم من الرشد وإني اذا حكمت بمقتضى ماأدتني اليه تجربتي واختباري أقول ان «اميل» لا يزال أكثر انبعاثا الى العلم بالاشياء منه الى الحكم عليها فالذي يهمه ويشغله انما هو كيفيات الموجودات الظاهرة وبعض دلائل الفكر واماراته وسأبين لك مرادي بمثل آخذه من ضروب تسليتنا فانظره في المكتوب الآتي. اهـ

---

(١) هوراس هو شاعر لاتيني شهير ولد في سنة ٦٨ ومات في سنة ٨ ق. م

الرسالة السادسة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٢ نوفمبر سنة ـ ١٨٥ ﴾

تعليم التاريخ الطبيعي بتمثيل الفانوس السحري

فرغت من اقامة معهد التمثيل الصغير كنت حدثتك عنه في بعض مكاتيبي السابقة ولي أن أقول ولا فخر انه ناجح مؤد الى الغاية المقصودة

استحضر لي الدكتور وارنجتون من لوندرة فانوسا سحريا وهو آلة جميلة معدة لان تجلى فيها المناظر المتعاقبة بواسطة الضوء واللون ومن خواصها انها تكبر مايمثل فيها من الاشياء تكبيرا في غاية المناسبة وترسم على حجابها الذي هو من النسيج صورا لايمكن أن يرى أظهر ولا أوضح منها لذلك تراني قد قمت بما أخذته على نفسي من رسم معظم الصور وتلوينها على زجاجها مختبرة مايكون للوهم من الاثر في النفس عند النظر اليها وقد بدا لي أيضا أن من المفيد أن أؤلف بين ماتمثله هذه الآلة من المشاهد المختلفة بتنسيقها وجعلها على شكل قصة وجيزة تجعل التمثيل مرتبا متواصل الاطراف يستميل النفوس ويبهج الانظار . ولما انتهيت من هذا العمل دعوت الى المعهد في الشتاء الماضي عشرين طفلا من الولدان والولائد مخالفة في ذلك سنة الكونتيسة ديكاريانياس فانها كانت تشخص في بيتها القصص المزلية وتأمر بوابها بأن لا يدخل أحدا وسبب هذه المخالفة اني أعتقد أن الانسان لا يمكنه أن يلتذ بشيء من مروحات النفس الا

اذا كثر عدد حاضرها وانهم اذا كانوا أطفالا تكون الاستفادة أعظم . والنفع أتم .

ابتدأت التمثيل بعرض أشياء في غاية البساطة كداخل ضيعة أو طاحون والمعيشة في سفينة ثم مثلت هذه السفينة في يوم آخر وقد نقلتنا الى بلاد بعيدة وكان أبعدها عن أخلاقنا وعوائدنا ادعاها الى اثارة الاستغراب وتهييج الشوق في نفوس النظارة الصغار فكانوا يحبون أن يروا بيوتا بنيت على خلاف طريقتنا في البناء وشوارع وساحات ورحبات عامة فيها رجال ونساء غريبو الازياء والهيئات وكان فيما عرضته عليهم صورة صيد الحيوانات الوحشية خصوصاً أضخمها وأضراها كالفيل وفرس البحر والكركدن والاسد والنمر فلم أعدم منهم تحمسا في الدهش والاعجاب بها ثم أريتهم قافلة تجوب الصحراء فشاقهم منظرها كثيرا . ولقد كفتني هذه التجارب في الاقتناع بان في فانوسي السحري عزيمة « ياسمسمة افتحي » [1] واني أن لم استعن به على فتح أبواب المجهولات لاصدقائي الاحداث كنت مخطئة ملومة .

يتشوف الاطفال كثيرا الى معرفة كيفية تكون الحيوانات والنباتات والصخور وتتشوق نفوسهم الى معرفة طريقة نشوء جميع مايشاهدونه كل يوم . من أجل ذلك آذنت جماعة النظارة [2] جهراً بأننا سنمثل على الدوام قصة ذات بهجة وجلال مؤلفة من عدة فصول تسمى تاريخ الارض .

استغنت عشية هذا التمثيل بجميع مافي الفانوس من قوة الاستمداد

«١» عزيمة سحرية خرافية لفتح الابواب المقفلة ذكرت في كتاب الف ليلة وليلة «٢» النظارة هم المتفرجون .

وبصور اعتمد في رسمها على آراء علماء طبقات الارض من الانكليز وبقليل ماحصلته من العلم بمطالعة الكتب واستقر رأيي على ان أجعل في التمثيل لفواعل الكون وقوى الطبيعة لسانا تفصح به عن الحقائق والحوادث وهو تجوز يمكن ان يسمح به في قصص الغناء والتلحين الشعري على انه لم يكن المقصود من ذلك قرض الشعر بحال بل كان الغرض منه ايضاح مالم نكف آثار الضوء والالوان المتنوعة في اظهاره على الحجاب اظهاراتاما بعبارات في غاية السهولة .مثال ذلك ان أقول للنظارة : أتدرون ماذا كان يقول المحيط الذي هو أصل الاشياء لما غمر سطح عالم ازهقت روحه مياهه ؟ الحق أقول انني لم أقف على كلامه ولكني إخال أنه كان يدعو الحياة دعاء الانبياء ويسألها أن تزيل الوحشة من اعماقه المظلمة ولجبه القاحلة .

ولا غرو فقد بدا في أشعة الضوء السحري أقدم ماعرف من أشكال الحيوانات كالاودامبا (١) واللنجولا (٢) والاورتوسيراتيت (٣) طاغيه البحار السيلورية (٤) والتريبوليت (٥) وغيرها من مخلوقات الكون الاولى التي رسمت صورها اعتمادا على بقاياها الاثرية أوعلى ماانطبع على الصخور من تلك البقايا .

(١) الأودامبا حيوان هلامي من المكونات الاولى توجد آثاره ولا تعرف أخباره (٢) اللنجولا حيوان رخو ذو محارة مخروطية مستطيلة يشمل جنسه عدة انواع بادت ولم تبق الا آثارها واعضاء الحركة في هذا الحيوان توجد في رأسه (٣) الاورتوسيراتيت حيوان هلامي رخو يقوم فيه الذراعان مقام الرجلين محارته ذات فلقتين يشتمل جنسه على عدة انواع بعضها عائش و بعضها بائد فلم يبق الا آثاره (٤) السيلورية نسبة الى بلاد السيلور وهم أقوام كانوا يقطنون بلاد الغال في بريطانيا العظمى (٥) التريبوليت حيوان رخو محارته ذات فلقتين

ثم تلا ذلك ظهور أول أرض انحسر عنها الماء فنهدت على سطحه وكانت طوائف من الجزر كان يخيل للنظار بواسطة المغالطة البصرية انهم يشاهدون الاعشاب الشجرية تنبت منها وذلك كالسيجيلاريا [١] والاستجماريا [٢] وغيرهما من المثل الاصلية للنباتات القديمة ولست أنكر أن جميع هذه المناظر هي صور في نهاية الحقارة بالنسبة لما تمثله من المشاهد الكبرى للكون في عصره الاول ولو ان انسانا كان قدر له أن يشهد خلق الاشياء حضر في معهد تمثيل تلك الصور لما وسعه الا أن يضحك منها لانها ليست الا اشباح لاعب ولكن لا يعزب عن ذهن هذا الساخر أن هذا التمثيل انما جعل للاطفال وأن القصد منه هو تعليمهم وهو غرض جليل يجب الاغضاء عن حقارة ما يتخذ من الوسائل للوصول اليه .

كان يتلو كل عصر من عصور تاريخ الارض فترة جهالة عمياء وسكوت عام كان يدل كما نبهت النظارة اليه على اشتغال الدهر بعمله البطيء الخفي .

ظهر في الفصل الثاني من القصة سلسلة مناظر مختلفة آذنت بحصول بعض الحوادث الكبرى على سطح الأرض منها ان جزراً نتأت من الماء وتواصلت فكانت بدايا تكوُّن القارات المستقبلة ومنها أن ظهرت نباتات وحيوانات جديدة لم يكن عهد لها وجود في العالم الى ذلك الحين . وأخص ما أثار دهش النظارة من تلك الحوادث وهاج اعجابهم دور ظهور

(١) السيجيلاريا نوع من النباتات البائدة التي لا يوجد منها الا آثارها يحتوي على نحو ستين صنفا ويوجد في الطبقات الفحمية من الارض (٢) الاستجماريا نوع آخر من تلك النباتات

الزواحف وقد حملني مارأيته من ذلك على اعتقاد أن بين طفولية الكون وطفولية الخيال مناسبة ومطابقة لما خلته من ارتياح نفوس تلامذتي الصغار لمشاهدة صور تلك المملكة الحيوانية البائدة فاني قد مثلت لهم الليبيرانتودون [١] وهو ضفدعة كالثور في الضخامة والاختوزيور [٢] ذوالعين الهائلة والبليزيوزيور [٣] الذي عنقه كعنق الثعبان والميغالوزور [٤] فيل الزواحف الذي رأسه كرأس الضب والهيليوزور [٥] ذو الظهر الشائك وصنوف الحيات الطيارة المسماة بالبترودا كتيل التي تشابه ذلك الوحش الخرافي ذا الاجنحة الذي وجهه وجه امرأة وجسمه جسم عقاب واسمه الهازلي فأثارت دهشهم واكبارهم لها بمقادير اجسامها الهائلة وقوة الدفاع فيها ثم تلاشت نوعا بعد نوع كما تتلاشى الاحلام.

كانت النظارة يعتقدون ان جميع هذه المخلوقات كانت عائشة على وجه الارض لأني كنت اؤكد لهم ذلك بذمتي وكان هذا التأكيد مصدر استغراب جديد لهم على أني ماقصدت اضلال احد منهم ولا التمويه عليه بل قصصت عليهم بالايجاز كيفية معرفتي إياها وبينت لهم ماأضفته من عندي الى ماعرف حق المعرفة من تركيبها وتاريخها ولو أن سائلا منهم سألني عن سبب امحائها من على وجه الارض لأعضلني سؤاله على أني كنت اجيبه أننا معاشر الموجودات قد زج بنا في محيط الدهر زجا شديدا

(١) الليبيرانتودون هو نوع من الزواحف البائدة أثبت وجوده العالم الانكليزي المسمى اوين بما عثر عليه من بقاياه (٢) الاختوزيور نوع من الضب فني فلم تبق الا بقاياه (٣) البليزيوزيور نوع آخر من منه (٤) الميغالوزور نوع ثالث منه اضخم من السابقين (٥) الهيليوزور نوع من الزواحف الهالكة وجدت بقاياه في أرض انكلترا.

والدهر كما تعلم منشأ التقلب وقد وجد في طبائعنا الاستعداد لجميع ماقدر لنا من ضروب تصاريف الحياة واستحالاتها فيهما كان عمر الزواحف القديمة طويلا فلا بد أنها قد مرت بما قدر للكون من النظام العام كما كانت تمر اشباحها على الحجاب المعد لقبولها .

آذن الفصل الثالث من القصة بمناظر خلوية اجتهدت في أن أمثل فيها بعض آيات العصر الذي يسميه علماء طبقات الارض بفجر حياة الارض الحالية (أيوسين) وظهر بعد الزواحف الضخمة جسام الحيوانات الثديية كالميجاتيريوم [1] الهائل والدينوتيريوم [2] مارد المردة في عصرها والمستودنت [3] كبير الحيوانات البائدة الصفيقة الجلود وغيرها مما لم أذكره وان كان من أغربها . أحضرها سحر الفانوس فعرضها على الانظار برهة ثم لما رأت ان هذا الكون الذي نعيش فيه لم يخلق لها حتى ما كان منه في حيز الوهم والمغالطة لم تلبث ان لبت دعوة العدم فزالت على التعاقب كما بدت .

على أن ماتلا هذه العصور الاولى من الاستحالات والانقلابات في النباتات والحيوانات التي كانت موجودة فيها قد آذن بان الارض صائرة الى أحوال العصور الحالية فأنشأ الاطفال يتدرجون في الشعور بانهم في أرض يعرفونها مع ماكان لا يزال يوجد من التباين بين مافيها وبين مايعرفونه من أرضهم . كانت تتجلى أمامهم غابات تقارب أشجارها أشجار غاباتنا تجول فيها أيّل ضخمة الاجسام تعدو وراءها السباع التي لا يزال

(١) نوع من الحيوانات الثديية انقرض وبقيت بقاياه (٢) نوع آخر منها أرقى من الفيل توجد بقاياه في الارض الرملية والحجرية (٣) نوع من الزواحف البائدة الهائلة .

نسلها يفترس فرائسه الى اليوم في الصحاري والقفار .

لم يكن البرد الى ذلك الحين قد كدر صفاء هذه المشاهد التي كان يسبح فيها ضوء الشمس ممزوجا بحرارتها القوية ولكن في آخر العشية بدت تباشير الثلج فكان لها مناظر محزنة متعاقبة استبعنت في ابرازها للعيان بكل مافي فانوسي من قوة الاستعداد ففهم منها النظارة أن حيوانات العصور الاولى قد أهلكتها هذه المؤثرات المبيدة أو انها أوت الى أقاليم أخرى أشد حرارة من اقاليمها الاولى وكان صاحب السلطان على هذه الاقاليم الباردة هو الوعل القطبي والفيل ذو الفروة المسمي بالموث وكان يخيل للاطفال ان الارض صائرة الى الفناء وخلتني أطالع في عيون اكثرهم التفاتا آيات القلق والحيرة ولم أر من الضروري أن أسري عنهم هذا القلق فقد تكفلت بذلك الحوادث استغفر الله بل صور الحوادث

بدت امامهم مغارة نحتتها يد الفطرة في سمك الصخور فكانت ملجأ أوت اليه الحيوانات الوحشية كالدب والضبع الذي هو نوع من الكلب وغيرهما من النزلاء التي ترجع في نسبها الى أنواع من الحيوانات قد أصبحت اليوم مستأنسة ثم ظهر لهم خلق جديد هو عجيبة الكون ذلك هو الانسان . رأوه على ضوء نار اوقدها لنفسه في جانب منزل من الارض وهو شبه حي عرف كيف يختطه لنفسه فليت شعري ماهو ذلك الخلق ومن أين هو ؟ لاشك ان مثل هذين السوآلين هما من الاسئلة المعضلة التي يحار الانسان في الجواب عنها والمناقشة فيها امام اطفال لا تتسع عقولهم لها على اني لست متثبتة في العلم بالاجابة عنهما من أجل ذلك رأيت من الحزم أن أطفىء فانوسي وأكف عن الخوض فيهما .

اجابة لطلب جميع النظارة — كما يقال في اعلانات معاهد التمثيل — قد استعد معهدنا لايجاد عدد عظيم من المشاهد ستمثل في قصتنا .

عقدت النية على الاستمرار في دروس التمثيل هذه وعلى أن أحكي لأصدقائي الاحداث بواسطة الفانوس تاريخ الانسان ومغالبته لفواعل الكون وما اتخذه من آلات صيده وأدوات عمله الاولى وتجاربه الصناعية مذ كانت الصناعة في مهد طفوليتها ثم أبين لهم بعد ذلك بهذه الطريقة عينها ما عرف من المجتمعات القومية والعوائد القديمة وآثار الفنون الاولى فاني أرى انه لاشيء الا ويمكن أن يفهمه الاطفال على شرط اطلاعهم على كل ما نحدثهم به من الاشياء والنزول معهم في التعبير الى الحد الذي تطيقه أذهانهم

لست أغبي عن قيمة صناعة رسم الاشباح ولا أجهل ما تساويه تلك الألاعيب الخيالية ولا خفاء في اني لا أدعي أني اذا استعرضت امام « اميل » بعض الصور لما كانت عليه الارض والناس في عصورهم القديمة أكون قد علمته علم الطبقات الارضية أو علم التاريخ. واني أعلم أيضاً أن كثيراً من الصور السحرية لا تلبث أن يزول أثرها من أذهان الاطفال كما يزول من حجاب الفانوس ولكن كل هذا لاشيء فيه فحسبي أن يثبت في أذهانهم صورة أو صور تان فان تم ذلك رجوت لهم في مستقبلهم أن يجتهدوا في تحصيل العلم بأنفسهم من المدرسة الكونية أو من مدارسة الكتب وعلى كل حال فليس الغرض من تعليمهم في الصغر أن يحصلوا العلم وانما الغرض منه ان تبعث فيهم روح الشوق والميل الى المعرفة . اه

الرسالة السابعة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٤ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

« بقية أخبار السفينة الغريقة وسرعة تفاهم الاطفال باليسير من الكلام »

لقد زها « اميل » بالمكتوب الذي أرسلته اليه وأعجب به اعجاباً كثيراً وكان فيما رأيته شديد الحنق من عجزه عن قراءته بنفسه وهو على انتظاره بلوغ أهلية الترسل قد طلب الي أن أكتب اليك بما لقفناه من أخبار حادثة الغرق بعد الذي أخبرناك به فأقول : قد ابتلي ملاحو السفينة بضروب المحن وأنواع الشدائد ثم اخترمتهم المنية فلم تبق منهم إلا واحداً أنشأ يستجم ويستجمع ما تبدد من قواه وتيسر التفاهم معه بواسطة ربان اسبانيولي يعرف لغته . ومما استفيد من أقواله أن السفينة الغريقة المسماة (أياكوكو) كانت لرجل من الملاحين في بلاد البيرو [1] شحنها بضاعة وقصد بها انكلترا فما هو الا أن أحاطت بها ريح عاصفة من أشد ما يمكن تخيله من العواصف فأغرقتها . ومما يوجب الاسف أن غرق ذلك الرجل أصبح مما لا سبيل للريب فيه وقد كان استصحب بنته وهي في الخامسة من عمرها لاسباب لا تزال في طي الخفاء وكان من في السفينة يدعونها «لولا» وهو اسم مختزل فيما أظن من دولوريس .

عهدت الى بعض الناس هنا بمراسلة أهل الفتاة في بلدهم ولما يجبه

(١) بلاد البيرو جمهورية في امريكا الجنوبية عاصمتها ليما وسكانها ٣٠٠٠٠٠٠ نفس

أحد منهم ويقول الملاحون أنها فقدت والدتها من بضع سنين وليس لها أخ ولا أخت ولم يبق من ذوي قرباها الا أباعدهم ويؤخذ من كلامهم أن صاحب السفينة كان من المثرين ولكن ما أدرانا أن ثروته لم تكن قصورا في اسبانيا [1] لان البيرو هي اسبانيا وراء البحار.

اثار سوء حظ هذه الفتاة في نفسي عواطف الرحمة والحنان فأمسكتها حتى يأتيني فيها أمرك وأنا على يقين من أن عملي هذا لا يقع منك الا موقع الرضا. نعم اني قد لاحظت في احوالها وهيآت افعالها شيئاً من الجفاء والوحشة ولكنني أرى على هذا الجفاء الصبياني مسحة من الحسن والطلاوة كما ان وجهها تبدو عليه مخايل الجمال والنضرة وهي الآن تعلم «اميل» ما تعرفه من الاسبانيولية على قلته وهو أيضاً يعلمها الفرنسية والانكليزية ولا غرو فان الاطفال يتفاهمون بالنزر من الكلم اسرع ما يكون . اه

الرسالة الثامنة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٧ يوليو سنة ـ ١٨٥ ﴾

تعليم السباحة وتربية العضلات

أنا مع اشتغالي بتربية عقل «اميل» أرى أن اخص ما يجب الاشتغال به في سنه هذه ان تعد فيها اعضاء سليمة قوية لاحتمال متاعب الحياة من أجل ذلك تجدني احثه على ممارسة الرياضات البدنية والاكثار من

---

(١) يشير بقصور اسپانيا الى المثل الفرنسي المشهور وهو قولهم إن فلاناً يبني قصوراً في اسپانيا يضربونه لمن يتعلل بالاماني الباطلة ويحلم بادراك المقاصد الخيالية .

قبض عضلاته وبسطها اختياراً واقتحام العقبات التى لا يخرج عن وسعه اقتحامها . نعم ان لي رجاء قويا في ان لا يصير من المصارعين ولا احب ان أرى فيه مثالا صغيرا لذلك المصارع الشهير المدعو ميلون دوكرتون وإن اوتيت من أجله أنفس شيء في الدنيا ولكني أرى أن كل ضعف يلحق الانسان بدنيا كان أو عقليا يصير سبباً من اسباب استعباده .

بدت على قوبيدون منذ حين سمات الكدر لكون «اميل» لا يزال جاهلا بالسباحة ولما كان يفضي اليّ بأسفه من ذلك كنت اعترض عليه بأنه لا يزال من حداثة السن بحيث لا يستطيع أن يمسك نفسه على الماء وهو اعتراض لم يكن له قيمة لانه اذا كان ما يعتري الانسان من الخوف عند وجوده في مكان مجهول له هو اكبر العوائق التي تعطل جري حركاته في هذا المكان فلا يكون تقدمه في السن الا من اسباب ازدياد هذا الخوف وقوته . والذي يستفاد من كلام الزنجي البار انه كان يسبح من عهد ولادته وهو يقصد بذلك ولا شك انه لا يذكر تعلمه السباحة كما انه لا يذكر تعلمه المشي على الارض لان هذين النوعين من الرياضة هما في نظره من الامور الفطرية . انتفت عني شكوكي ومخاوفي بتأكيده ان لا خطر على «اميل» من تعلمه ذلك الفن وقد رأيت ان من مزايا تعلمه انماء العضلات وتقويتها وكأنه يوسع مجال حرية الانسان في حركته ومرحه في برزخ يصل بين عنصري التراب والماء . وهو فوق ذلك وسيلة من وسائل النجاة ومن هذه الجهة يكون تعلمه فرضا علينا لا نفسنا ولنظرائنا . على أنني كنت أعرف في قوبيدون انه وان كان يغلب عليه التهور في تعريض نفسه للخطر يحرص كل الحرص على حياة «اميل» فلا

يعرضها لما يخشى منه ولو سيقت له في ذلك الدنيا بحذافيرها .

يوجد على مقربة منا شبه بحيرة صغيرة ناشئة من اجتماع مياه غدير يصرفه عن الانصباب في البحر مايعترضه من الشعاب والكثبان رآها تو بيدون موافقة لتعليم «اميل» مبادىء السباحة فأنشأ يعلمه فيها غير متخذ له منطقة من الفلين ولا مثانة مملوءة بالهواء ولا غيرهما من الآلات الاخرى التي تستعمل احيانا ان لم أكن واهمة لمساعدة قوى المبتدئين في السباحة ولما كان يقال له في ذلك كان يجيب بلسانه الساذج قائلا يجب ان يكون الطفل فلينة نفسه وأرى ان طريقته في التعليم سهلة جدا على حسب ماتيسر لي من الحكم عليها فأهم شيء بنيت عليه هو بثوح الثقة في نفس المتعلم وقد أكد لي من رآه في وقت التعليم انه من أجل ان يكون قدوة في ذلك لتلميذه كان يستلقي على ظهره في الماء ناظرا الى السماء سادا فاه متنفسا بأنفه وقد برز جزؤه من الماء فكان لسان حاله وهو في هذا الوضع يقول لناظريه ها انتم أولاء ترون ان الانسان لا يصح ان يغرق وانه اذا غرق بعض الناس فانما يغرقون مختارين .

لم يلبث هذا الاستاذ أن أبدى كثيرا من التيه والفخر بتقدم تلميذه غير أنه كان يرمي في سبيل نجاحه الى غاية أبهر من ذلك وأظهر فكنت أسمعه يهمهم متهكما بالسباحة فى البحيرة قائلا : ماأحسنها من سباحة في مغتسل دعني من البحيرات وحدثني عن البحر تجدي أذا صاغية فهو الذي يمسك من يسبح فيه ويسنده ويزيد في قواه ولكني كنت أعارضه وانها «عن الذهاب «باميل» اليه وعن تجربة سباحته فيه لما كان يخامر قلبي من الروع والفزع المنبعث عن المبالغة في توهم ما عسى ان يكون في ذلك من الاخطار لاني

أكبر هذا الخلق العظيم وأجله إجلالا مشوبا بالروع فانه كثير ما اغتال اناسا في نواحينا ولا بدا ان أقول ان «اميل» أيضا كان يشاركني في هذا الروع بعض المشاركة فإن البحر خلق حيّ مضطرب يرتفع ويجذب السابح فيه اليه مصطخبا وفى كل صفيحة من صفائح امواجه شخص بل عدو لذلك السابح عامل على إهلاكه وفى دوام روحات هذه الامواج وجيآتها مايمثل للانسان اضطراب بحر الازل بعوالم المخلوقات ويقوم له منه أكبر موعظة وذكري تنبيه الى ضعفه وعجزه .

لم يطل عهد نفور «اميل» من البحر وخوفه منه وها اناذا مبينة لك السبب الذي قمع ذلك النفور وشرد هذا الخوف فاقول :

إنه يفهم من سجنك معنى مبهما ولم أرد ان أكشف له حقيقة هذا الامر الذي يهيج الكلام فيه ساكن الآمي ويثير كامن اشجاني لسببين أولهما أنه يصعب عليه فهم مرادي من الكلام (فماذا عسى أن يفهمه من قولي له ان والدك سجن بسبب سياسي) وثانيهما ان سوء ادراكه للحوادث التي حصلت قد يبعث في نفسه بغض فرنسا وعداوتها لذلك تراه قد جره امساكي عن الخوض في هذه المسأله الى أن يخترع لها حكاية يعللها بها فهو يتوهم أنك أسير في قبضة جنية أو غول أو تنين وانك رهين قلعة يحصنها البحر وربما كان الباعث له على هذا وجوده يوماً ما فوق صخرة وغشيان المد إياه وإحاطة الامواج به احاطة ذلك الكلب الخرافي ذي الرءوس الثلاثة المقول في أساطير الاولين بأنه حارس جهنم ومهما كان الحامل على ذلك الاعتقاد فانه قد وطن نفسه على أن يحمل حملته الاولى لتخليصك مصاحبا لعزم

كعزم أشراف المائدة المدورة [1] أو كعزم شاب باسـل قتال للوحوش غلاب للاغوال. على اني لا يسعني الا اتهام الزنجي الخبيث بانه زين له أوهامه وحبب اليه خدع نفسه ليحمله على مشايعته في آرائه وموافقته لافكاره .

دخـل عليّ البيت كلاهما ذات يوم ووجه قوييدون تعـلوه فترة الريبة وقد غلب على « اميـل » مايغلب على كل ظافر بطلبته من الفرح فلم ألبث ان فطنت الى المكان الذي جاءا منه وهاج غضبي عليهما الى حد ان صار وجهي أحمر كالجمر وعنفتهما على مخالفتهما لامري فـلم يتزعزع « اميـل » لهذا الهياج بل تلقاه بثبات الشجعان واجابني وقد بدا على وجهه من الاصرار مالم أعهده فيه من قبل فقال اني اريد ان اتعلم السباحة لافك والدي من اسره وآتيك به فما سمعت منه هذه الكلمة وشاهدت لحظه المعرب عن حرية ضميره وخلوص طويته ورأيت ثقته بنفسه المنبعثة عن سذاجته وعلمت مقاصده النبيلة حتى سكنت ثائرتي وكفت بادرتي فبششت في وجهه بعد العبوس وتبسمت له وضممته الى صدري واشبعته تقبيلا في جبينه الذي كان لايزال مندي بماء البحر .

الرسالة التاسعة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٨ يوليو ـ ١٨٥ ﴾

اخباره بالعفو عنه

اذا صح ما نشرته الجرائد الانكليزية وماذاع من الاشاعات في

---

(١) أشراف المائدة المدورة هم رهط من الاشراف عددهم اثنا عشر يجعلهم كتاب القصص القديمة من رفقاء أرتوس وهو شجاع قصصي من شجعان بريطانيا العظمى

الهواء لم تبق حاجة «لأميل» في ان يتسلح تسلح الاشراف ولا ان يطوي البحار ليخلصك من قبضة التنين الذي يعتقد أنك في اسره لان الناس هنا يتكلمون بحصول عفو سياسي وإني كنت أتمنى أن يحصل لك من الحكومة فوق هذا العفو عمل يكون جزاء لما لحقك من الضرر وتحقيقا لمقتضي الانصاف ولكني لم اطلب لك شيئاً من ذلك فلا تعجل بالرفض واعلم ان قلبي يرقص طرباً كلما فكرت في وقت التلاقي . اه

الرسالة الاربعون

﴿ من الدكتور وارنجتون الى هيلانة ... ﴾

بشرى بالحرية

ايتها السيدة .

علمت الليلة في لوندرة خبراً ابادر بابلاغك اياه ذلك أن زوجك قد منح نعمة الحرية وفي الختام لك مني السلام والاحترام . اه

الكتاب الثالث

في اليافع

شذرات مقتطفة من جريدة الدكتور اراسم

الشذرة الاولى

حررت في مرازيون في سنة ـ ١٨٥ الداخلة في سنة ـ ١٨٦

حب الزوجة والولد والوطن

منذ سنة تغيرت شؤون حياتي كلها .

وجدتها هي بعينها[1] ولما تلاقينا كنا كأننا لم نفترق في حياتنا فان النوى لم يغير شيئاً من ضروب وجداننا ولا من عاداتنا لبقاء قلبينا على ما كانا عليه من الارتباط والاتحاد وغاية ما حدث اني اراني الآن آنس مني في جميع أيامي السالفة بحسن معاشرتها نعم إنها لم تبق طفلة كما عهدتها ولكنها لم تأخذمن مرور الايام الاما يزيد المرأة في القلوب محبة وفي النفوس تأثيراً فكأن روحها وملامح وجهها تكملت وتطهرت بادائها فروض الامومة المقدسة .

---

(١) يريد زوجته أم « اميل »

كنت اوشكت أن اقنط من ثمرة فتي لولدي ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أن الذين هم اكثر الناس اشتغالا بالتربية لم يرزقوا أولاداً أورزقوهم وحرموا من رؤيتهم وربما كان هذا هو الباعث لهم على الاهتمام بالتربية وجعل البحث في شؤونها غايتهم ليؤدوا بذلك ما فرضه الله عليهم منها بنوع آخر من الاداء.

فليت شعري بماذا استحققت أن اكون أسعد من هؤلاء مع كونهم أجدر مني بالسعادة ؟

ما أشدني حنواً وتأثراً عند تقبيل ولدي إياي وما أعظم زهوي واعجابي به عند ما آخذ بيده واتنزه معه في المزارع وان الدنيا لترى في عيني جديدة وهو معي كأن لم أرها منذ سبع سنين . لا جرم أن الانسان لا يبصر وهو رهين السجن محروم من الحرية فكل ما كنت أراه من أشجار وصخور عمرت عمر الدنيا القديمة كان يخيل الي انه لم يخلق الا بالامس .

خطر في ذهني ساعة خاطر العود الى فرنسا ولكن الف مانع — وان شئت فقل الف وهم — قد يحول بين المرء وبين معيشته في وطنه وما أدراك أن من هذه الموانع ما يعتريني من الالم الممضّ الذى لا أستطيع التعبير عنه اذا رأيت أمة عظيمة عهدتها حرةً قد أصبحت في قبضة حاكم وجميع ما يحصل في هذا الوطن لا يقل عن ذلك ايلاما للقلب ولا ازهاقا للنفس .

يوجد في جميع عصور التاريخ رجال بررة صالحون رأوا من الواجب عليهم لأنفسهم ولأوطانهم أن يخدموا هذه الاوطان وهم بمعزل عنها فمثل هؤلاء هم فيما أرى أشد حبا لها لانهم سواء قربوا منها أو بعدوا عنها يحيون بنفحاتها وينتعشون بمجاهداتها في سبيل الخير وبما لها من الآمال فى الوصول اليه . جرحهم في صميم افئدتهم ما مس أمتهم من القروح وإن كان

يبدو من حال الامة عدم شعورها بألمها كأن في مرور الزمن عليها واعتيادها احتمالها من قوة التأثير مايكفي لاندمالها جميعا . مثل هؤلاء المتطوعين بالاغتراب والنفي يلومون الناس وحوادث الدهر ولكن اذا حاول محاول امامهم أن يغض من كرامة فرنسا ويحط من شأنها استشاطوا غضباً وتبيغ الدم فى عروقهم . ذلك أن هـذه القطعة من الارض التي تنازلوا عن سكناها مختارين قد تغلغل حبها فى أحشائهم وأخذ بمجامع قلوبهم فتراهم يبـذلون الوطن نفسه فى اعزاز شأن المعنى الذي قام فى اذهانهم منه ويفضلون الحكم على انفسهم بالبعد عنه على رؤيتهم اياه مهيناً ذليلاً

كأني بسائل يقول : لماذا اتخذت هـذه العادة وهي تقييد أفكارك ومذكراتك كل يوم بحسب المصادفة والاتفاق . فأجيبه إن هذا مطوي ايام معيشتي فى السجن انشره للناس لاني لما لم يكن لي فيه أنيس اطارحه الحديث كنت اكتب كاني اراسل نفسي .

الشذرة الثانية

(تعليم المسميات قبل الاسماء)

لم تخلف طريقتها في تربية « اميل » أملا من آمالي فلتبق على ماهي بسبيله من تهذيبه وتثقيفه بما تقدمه له من الأسى وبما توحيه الى نفسه من الثقة بها على اننا من عهد أن أنعم الله علينا باللقاء رأينا من المفيد ان نقسم العمل بيننا الان التعليم ــ ان لم أكن غاليا في حكمي ــ هو من وظائف الوالد

غالبا وأما التربية فانها من أعمال الوالدة وان أردت ان تعلم أين نحن من قيام كل منا بعمله فأقول :

لما يدرس «اميل» شيئا درسا منتظما فهو انما تقف دروسه الاولى في علم التاريخ الطبيعي متفرقة على نحو من الاتفاق وذلك بعماينة ما كان يجده كل يوم على شاطيء البحر من أنواع المحار والصدف. ثم اني أمكنه حينا بعد حين من النظر بالمنظار المعظم (الميكرسكوب) - وهو آلة شائعة الاستعمال جدا عندنا - محركا اجزاءه بنفسي فيكبر له بعض عجائب المخلوقات غير المتناهية في الصغر وأريه بالمرقب (التليسكوب) - وهو آلة أرصد بها النجوم ليلا - عجائب المخلوقات غير المتناهية في الكبر . وقد ملأنا أناء من الزجاج بالماء المالح ووضعنا فيه حيوانات هلامية وحيوانات قشرية وأسماكا وكنا نجدد ماءه كل ثمانية أيام ومنه تلقى «اميل» كل ما عرفه فيما أرى من علم حياة الحيوانات التي تعيش في جوف البحر. وفي بعض الاحيان أكرر بمشهد منه بعض تجارب سهلة جدا في الكيمياء والطبيعة وهو على جهله باسمي هذين العلمين يدرك بعض الادراك تأثير بعض الاجسام الفطرية في بعض . وفي ذات يوم رآني أصنع مقاييس للحرارة والهواء ومع كونها لم تكن من الاتقان في شيء بدا لي منه أنه أدرك استعمالها في الجملة لاني رايته يريد محاكاتها. جميع ما تقدم هو كتب تعليمنا حتى الآن.

لا بد ان اكون أنا «واميل» تابعين في التعليم لمذهب ارسطاليس لان اغلب درسنا يحصل في وقت التنزه فاني ادع لامور الكون وحوادثه تنبيه ذهنه غير متعرض لها بشرح ولا تفسير الا ان يكون اجابة عما يوجه الي من الاسئلة مجتهدا في أن يكون الشرح واضحا والبيان وافيا . وقد عرفت من

محاورته أن الوسيلة الى اصغائه الي هي تتبع سلسلة افكاره عند محادثته ٠ ان كثيرا ممن يأخذون على أنفسهم تعليم الاطفال ليبالغون لهم في البيان ويفرطون في الشرح كما لو كانوا في حاجة الى أن يثبتوا بذلك لانفسهم انهم على معارف واسعة وعلوم جمة . انا لاأعلم «اميل» شيئاً بل اتعلم معه فعوضا عن كوني أعلمه طريقتي في النظر اجتهد في معرفة طريقته وتمييزها وما لا يميل الى معرفته بحال أجهله مثله أو اتجاهله . نعم ان هذه الطريقة ليس من شأنها أن تعلي قدر الاستاذ في نظر تلميذه وانه لابد في اتباعها من تنزه العقل عن الغرض وتنازله عن بعض شهواته ولكن ماهو متبع الآن من نقش صيغ العلوم وقوانينها وقضاياها في اذهان الاطفال ليس هو الا كرقم الالفاظ على الرمل ٠

ملكة البحث عند الطفل هي كغيرها من الملكات تنمو بالاعتياد والمراس فان الشوق الى معرفة الاشياء يتولد في الانسان ولا يولد معه وانما يكتسب ذوق الملاحظة الاستقلالية بالملاحظة نفسها ، ولا ريب ان لي ان اعين تنبه «اميل» والتفاته بأن اريه مالا يراه في الاشياء لاول نظره اليها غير انه في هذه الحالة يجب ان يكون هو مصدر الميل الى ذلك ايضا وان يكون صدور هذا الميل منه فطريا . ثم ان الاطفال في الجملة مدفوعون جداً بسائق الطبع الى الاكثار من السؤال فرأيي ان التعجيل لهم بالجواب قبل السؤال وتجاوز حدود ما يطلبون معرفته هو مما تخبو به نار هذا الاستعداد المبارك لان ذلك يفضي بكثير منهم الى التزام السكوت ليكفوا انفسهم مؤنة سآمة الدرس وطوله اهـ ٠

الشذرة الثالثة

(تربية الذكور مع الاناث وتعليمهما معا)

اني اخشى مغبة افراطي وافراط هيلانة فى ميلنا الى تلك الصبية التي ألقتها العاصفة بين أيدينا الجواز ان يطلبها بعض ذووأمرها يوما ما وكيفما كانت نتيجة هذا الميل فلا بد لي هنا من اثبات امر يتعلق بعلم تركيب الانسان ومنافع اعضائه فأقول : كانت دولوريس لما التقطناها وآويناها الى بيتنا محلا لجميع العيوب التي توجد فى نظائرها اللاتي من قبيلها وبلادها. كانت مع ظرافتها مكسالا وانية قليلة العناية بشأن نفسها وان كان لا بد من التصريح قلت انها كانت كثيرة الوساخة وكان هذا الاغفال منها لنفسها مع مقدار عظيم من التغنج والتدلل من موجبات كدر هيلانة وحزنها ولم ينجع فى الكسر من زهوها والمطأمنة من صلفها ما اتخذته لذلك من العظات وضروب التوبيخ وانواع الايلام الخفيفة . ولما كان فيها من حدة المزاج بل والتهييج عند مخالفتها فيما تريد كانت لا تبدي أدنى اشتهاء للتعلم . أفرغت هيلانة جهدها في ايقاظ عقل هذه الحسناء ناعسة الغابة[١]

---

(١) يلمح المؤلف بقوله «هذه الحسناء ناعسة الغابة» الى أسطورة من أساطير الكاتب الفرنسي شارل بيرولت المسماة حكايات الجن ملخصها ان أحد الملوك وزوجته ابتليا بالعقم مدة طويلة ثم رزقا فتاة حسناء فجعلاها في كفالة سبع جنيات وأولما لهن ولمية أعدا فيها لكل واحدة منهن صحفة فاخرة لها كيس من الذهب الخالص فيه ملعقة وشوكة وسكين من الذهب أيضاً وفي أثناء جلوسهن على المائدة جاءت جنية عجوز

من سباته فاخفق مسعاها وبطل أثر ما استعملته من التعاويذ والطلاسم لرد هذا السحر الذي لا يدري أية جنية خبيثة من جنيات البيرو زمتها به على ما يظهر . واذا أردت أن تعلم من الذي أبطل هذا السحر فاعلم انه «اميل» ذلك لان ميل « لولا » الى ان تعجبه وان تحامى ضروب سخريته بها وانواع زرايته عليها كان أشد تأثيرا في ارادتها من جميع عظاتنا ونصائحنا كان هذا اول سلطان «لاميل» على قلبها ولا خطر فيه في سنهما .

من ذلك الحين وقع التنافس بينهما اما من جهته فلشدة زهوه وفخره بما له من التقدم عليها فى علومه القليلة وأما من جهتها فلغيرتها ورغبتها فى منازعته ذلك التقدم والمرجو من هـذا التنافس أن يعود دائما بالفائدة على كليهما فان درسهما مجتمعين احسن واتقن منه منفردين لانه اذا اعتبر « اميل » نفسه اعلم من «لولا» اجتهدت في التبريز عليه في ميدان المطالعة .

ارى ان هـذه الصحبة تفيدهما في اخلاقهما ايضا فائدة كبرى فان الاطفال على علم تام بما يشتركون فيه من العيوب ولا يبقي بعضهم على بعض في تشهيرها وتعييره اياها لذلك نرى «اميل» قلما يوقر «لولا» فيما يراه من النقائص وهي أيضاً لا تقصر في ان تكيل له الصاع بمثله بدون

ثامنة لم يكن حضورها في الحساب فقدمت لها صحفة بلا كيس فظنت ذلك احتقارا لها فخافت احدى الجنيات ان تسيء هذه العجوز الى المولودة فخرجت ثم ان كلا من الاخريات منح المولودة صفة جميلة ماعدا العجوز فانها قالت ان الفتاة ستخرق يدها بمغزل وتموت فجاءت الجنية التي كانت خرجت وقالت أنها لا تموت ولكن يغشاها النعاس مائة سنة ولا يوقظها الا ابن ملك من الملوك ثم اتفق ان الفتاة رأت مغزلا في يد عجوز فتناولته فخرق يدها فسقطت نائمة ثم نقلت الى قصر في غابة وبعد مائة سنة أيقظها ابن ملك وتزوجها .

ان يكون في هذه المشاغبات الخفيفة ما يكدر صفو مودتها الشريفة في شيء وكأني بقائل يقول ان هذه المزايا بعينها توجد في معاشرة الاخ لاخته ووجودهما معا فاجيبه بأني فى شك من ذلك لعدم تمام الشبه في الجهتين.

زرت فيما مضى مدرسة للصم البكم كانت تنقسم في أول نشأتها الى قسمين احدهما للذكور والآخر للاناث فلم تلبث التجربة أن كشفت عيوب هذا التقسيم فان الصبايا اللاتي كن مقصورات فى قسمهن كان يبدو عليهن التأخر عن الغلمان سنة أو سنتين ولم يكن الغلمان اقسهم بارعين فى التقدم والنجاح فخطر فى بال القائمين على المدرسة ان يجمعوا الفريقين فى غرف واحدة فكانت نتيجة هذا التغيير محمودة فانه لم يمض الا يسير من الزمن حتى زال تأخر احد الفريقين وانحطاطه عن الآخر وتقدم الآخر تقدماً لا نزاع فيه. ذلك لان العجب الذي هو خلق فطري فى الذكر والانثى والطمع الذي هاجه فى نفوس الغلمان وجود منافسات زاهيات بأنفسهن بينهم واهتمامهم بأن يظهروا فى اعينهن ممتازين عنهن كل ذلك ساعد من الجهتين على ازدياد درجة معارفهم فى دروسهم مع انهم كانوا هم التلامذة الاولين لم يتغيروا وانما ظهر أن قواهم تضاعفت. لماذا لا يصح فى حق الناطقين والناطقات ماصح فى حق الصم البكم.

انما يعارض القائمون على تربية الناشئين فى الجمع بين الذكور والاناث بحجة المحافظة على الاخلاق والآداب ولو كانت هذه المعارضة مبنية على سبب صحيح لكانت وجيهة سديدة ولكن لابد أن نجيب هؤلاء المعارضين بأنه لم يفكر أحد مطلقا في جمع هذين الصنفين في قاعات النوم العامة ولا شك ان تقسيم عال المدرسة وافنيتها والرياضات

المدرسية بالحكمة والتدبير يجنب كثيراً من المضار التي يخشى منها على الآداب والاخلاق .

على ان العمل العقلي انما جعل لتذليل الغرائز والشهوات الخبيثة وقمعها لا لتنبيهها وتقويتها وإني خلافا لاولئك المعارضين أرى ان في التفريق الكلي بين الصنفين خطرا على الفضيلة فان فرط الاحتراس والاحتياط الصادر عن الرياء والنفاق لا يكون منه الا دعوة الفساد الى الاحتيال للتطرق الى الاخلاق من سبيل الشر فلا يلبث أن يظهر فيها. وان كثرة بث روح الحذر في اطهر المعاملات واعفها توقظ في اليافعين ماهو نائم من شهواتهم وتظهر ما يكون كامناً من أشواقهم فينبغي أن تزال هذه الحدود المادية ويعتاض منها بحدود الله التي فطرهم عليها وجعلها في نفوسهم سياجا لما فرضه عليهم .

لا أريد مما تقدم أن الذكر والانثى في التربية سيان يصلح لاحدهما كل ما يصلح للآخر كلا بل كل منهما يقتضي تربية خاصة لاختلافهما في المواهب والفروض والغرض المخلوقين من أجله . على اننا نرى النابغين والنابغات من الصنفين يتكافؤن ويتناسبون في بعض ذرى العلوم والفنون الجميلة والشعر فالاجدر بنا أن نفكر في اعداد الازدواج بين ما أوتيته الانثى من رقة الوجدان وما أوتيه الذكر من حصافة الجنان فان في ذلك لذة حياة الصنفين وان في تربية شطري النوع الانساني منعزلين كانهما لا يشتركان في شيء مما خلقا لاجله تعجيلا بقطع الصلة الاجتماعية وأما تقديم الصبية الى الصبي وتفهيمه أنها ستكون له في مستقبله رفيقة في العمل والكدح في

سبيل الخير والعدل والحق فهو أكثر انطباقا على مقتضى الفطرة وعلم الاخلاق وعلى كل حال ستتعلم « لولا » و«اميل »معا الى ان تقتضي الحال التفريق بينهما وإني لأرجو لكل منهما خيرا كثيرا من وراء هذا الاقتران العقلي . اه

الشذرة الرابعة

الجزيرتان — والتعليم بضرب الامثال

يحسن احيانا في حوار الاطفال ان يكون تفهيمهم الحقائق على طريقة ضرب الامثال.

سألني «اميل »منذ أيام لماذا وجد في الناس فقراء وبدا لي من «لولا» كثرة اهتمامها بمعرفة العلة في ان فيهم اغنياء .

جرى على الالسنة جواب مشهور لهذين السؤالين وهو «ذلك ما أراده الله »وما كنت لاجيبهما بمثل هذا التعليل لانه فيما أرى ليس من شأنه ان يؤدي الى اذهان الاطفال معنى كبيرا لعدل الذات العلية وما كنت أيضاً لادخل معهما في أعوص مسائل علم الاقتصاد السياسي وأصعبها. من أجل ذلك رأيت ان أحسن جواب أخرج به من هذه الحيرة ان أقص عليهما قصة فقلت :

روي انه كان يوجد في مكان سحيق من بحر لست على يقين من معرفته جزيرة بني فيها الاغنياء قصورا من المرمر وزرعوا في أرضها بساتين وحدائق ذات بهجة ربوا فيها من الازهار ما يندر وجوده في غيرها واحتفروا

بركا توفيرا لأسباب اللذة ولم يكن في الدنيا مايعادل زخرف موائدهم فقد كان يطاف عليهم بصحاف من الذهب فيهـا اقشار ضخمة طبخت بمرقة سرطان البحر (وهو ألذ ألوان الطعام في ذوق «اميل ») وكانوا في لباسهم بالغين حد الافراط في التأنق خصوصا نساءهم وكان أولادهم يلعبون الكجة[1] في الميادين العامة بكرات من الماس .

وأما فقراء تلك الجزيرة فكانوا يمشون حفاة وكانت صباياهم تغدو كل يوم في اسمال من الثياب فتطوف بأبواب الاغنياء التماسا لما ألقاه خدمهم من قمامات موائد العشية · ولم يقتصر الاغنياء في سوء معاملتهم على استعمالهم في الاعمال الشاقة الممقوتة بل كانوا يحتقرونهم وبلغوا من ذلك الى حد انهم كانوا يحظرون على ذوي الثياب الرثة منهم أن يوجدوا في المتنزهات العامة ولم يكن لهذا الحظر من سبب سوى خوفهم على بسطها السندسية أن تدنسها أقدامهم أو خشيتهم أن يكون منظر بؤسهم قذى في عيونهم وهذا هو الاقرب الى الحقيقة .

من أجل ذلك كله غادر الفقراء المدينة ذات ليلة وآووا الى جبل ليأتمروا بالاغنياء فكان رأي الشبان منهم أن يأخذوا أسلحتهم ويسطوا عليهم وهم نيام في مضاجعهم ويقتسموا أموالهم فقام من بينهم شيخ حكيم وتربص بهم حتى قرت شقشقتهم ثم قال اياكم أن تفعلوا من ذلك شيئا لاسباب ثلاثة أبديها لكم : أولها أن الاغنياء يقوم على حراستهم في صروحهم خدم

(١) الكجة بالضم والتشديد لعبة : يأخذ الصبي خرقة فيدورها ويجعلها كأنها كرة ثم يتقامرون بها وتسمى هذه اللعبة في الحضر باسمين فاما الخرقة فيقال لها التون وأما الآجرة فيقال لها البكسة

هم شر منهم وكلاب أضرى من الحراس أنفسهم . ثانيها اني لاأعتقدان سطوكم هـذا عليهم وسلبكم لاموالهم يكون من العدل لانهم قد كسبوا هذه الاموال التي تحسدونهم عليها أو كسبها أسلافهم من وجوه شريفة أو خسيسة ثم ملكوها من بعدهم بمقتضى قوانين أرى مع كوني لاأدرك كنهها كال الادراك انه لابد لوجودها من سبب لان جميع الناس محافظون عليها مطيعون لاحكامها حتى الآن . ثالثها أن مايجوز أن تنزعوه اليوم من أعدائكم بنابتكم عليهم يجوز أن يسلبه غداً منكم غيركم بقوته وضعفكم فعلينا اذن أن نفكر جميعاً في اتخاذ وسيلة أخرى . لابد أنكم سمعتم بوجود جزر أخرى في البحر غير هـذه الجزيرة التي قضى علينا نحس طالعنا بالولادة فيها فقد حكى لنا فقراء الملاحين اخواننا الذين يحضرون الى هنا بسفينتهم مشحونة بالارزاق ومواد الزخرف التي يستعملها الاغنياء أنهم رأوا غير مرة في اسفارهم أرضين تنهد من الماء مكللة بالنباتات والاشجار الكبيرة المثمرة ويستفاد من حكايتهم أن احدى هـذه الجزر خالية من السكان ولا ينقصها الا ارادتكم حتى تصبح جنة جمة الثمار دانية الجنى فان لنا سواعد قوية تساعدنا على العمل وها أنا ذا مع شيخوختي سأكون لكم قدوة فيه وأمدكم بنصائحي عند الحاجة هذا هو رأيي قد أفضيت به اليكم فانظروا ماذا تفعلون .

فتلقى جميعهم نصيحته بالقبول وماعتموا أن هاجروا الى تلك الجزيرة متعاقبين على سفن واهنة صنعوها بأنفسهم من ألواح خصاصهم فشمل الاغنياء فرحا لسفر هؤلاء الغوغاء ولم يستطيعوا كتمان فرحهم بل كانوا يصفقون ويجهرون بقولهم حبذا هـذا الخلاص .

قلما كانت تلك السفن تقلّ الا اشخاص المهاجرين لانهم كانوا لايملكون شيئا . استغفر الله بل حملوا معهم فيها ادوات عملهم .

مضى على سفرهم بضع سنين انقطعت فيها اخبارهم واختلفت أقوال أهل الجزيرة في شأنهم فمن قائل بأن البحر ابتلعهم ومن واهم بأنهم أكل بعضهم بعضا وبينما هم في هذا الاختلاف اذ رأوا ذات يوم سفينة مشحونة بالغلال وعروض التجارة رست على ميناء جزيرتهم فلم يلبثوا ان عرفوا من لهجة ملاحيها وبعض ملامح وجوههم انهم من سكانها السالفين وقد أخبرهم هؤلاء الملاحون انهم آتون من جزيرة أخرى استقامت فيها أمورهم ونجحت نجاحا عظيما لانهم ماحرثوا الارض وأحيوا مواتها حتى جللتها الحصائد وملأتها المزارع والمواشي فاعتبر الاغنياء هذه الاخبار من الاساطير وقهقهوا لسماعها قهقهة المجانين .

على ان الملاحين لم يكونوا مبالغين في شيء مما قالوا فانه كان يخرج من أرض تلك الجزيرة القفرة على نحو من السحر حقول مكسوة بالزروع وقرى ومدن وطرق وترع وكان سكانها في معيشتهم على وفاق تام لانهم كانوا منها في غبطة وهناء وقد ضربت عليهم السكينة رواقها فكانوا يعتبرون ابناءهم بذورا لخلف أرقى وأكثر منهم ولذلك كانوا يبكرون بتعليمهم العمل وانشائهم على حبه .

اصبح الامر على خلاف ذلك في جزيرة الاغنياء فكانت الثروة فيها تنقص من يوم الى يوم لان سكانها لما كانوا من فرط الكبر والكسل بحيث انهم يستنكفون ان يتولوا بأنفسهم حرث الارض لم تلبث ان امتلأت طلولا وتعطلت جميع الحرف والصنائع لفقد عمالها وتبع ذلك زوال مواد

الزخرف وتداعت الصروح والقصور فلم يوجد من الرجال من يقيم مُنآدها.

فزع الاغنياء في بداية هذا الانحطاط الى صناع الجزائر المجاورة لهم فلم يجيبوا دعوتهم لانهم كانوا على بينة مما كانوا يعاملون به اخوانهم فلم يرضوا لانفسهم ماقاساه هؤلاء من ضروب الاهانة .

ثم ان من بقي في الجزيرة من سكانها كانوا يملكون كثيرا من الذهب والفضة وانهم اشتروا من التجار الاجانب كل ما كانوا في حاجة اليه مدة من الزمن ولكن كل كنز لابد من نفاده بالغا من الكثرة مابلغ خصوصا اذا كان أصله لايتجدد ومن أجل ذلك لم يمض الا بضع سنين حتى غاضت اموالهم وأنشأوا يندمون ولات حين مندم على مافرط منهم من القسوة والظلم في معاملة الفقراء .

صاروا الى حالة محزنة جدا فقد تخلى عنهم من كانوا يحوطونهم من الخدم والحشم لعجزهم عند دفع أجورهم وعجزت خيلهم عن جر عجلاتهم لفقدها من كانوا يقومون على تغذيتها واصلاح شأنها وكانت نساؤهم تري في الشوارع منتعلات نعالا من الديباج مشوهة الاعقاب ولابسات جلابيب من الحرير المذهب كلها ممزق ومخرق لانه يخجل اولئك السيدات الجليلات ان يرقعن ثيابهن بأيديهن فاذا نظر اليهن ناظر وهن في هذه الاهدام بهذا الصلف والعجرفة دعته حالهن الى الضحك والاستهزاء بهن لو لم يكن من القسوة واللؤم الاستهزاء بالتعساء البائسين ولو كانوا من الاشرار.

وجملة القول ان جزيرة الاغنياء المترفين قد اصبحت جزيرة الفقراء المعدمين . كان القحط يزداد فيها من سنة الى اخرى فقد ضعفت الارض عن التحصيل لعدم ما كان يخدمها من الايدي وكاد الاغنياء يموتون جوعا

في صروحهم ولو لم يتداركهم أولئك الفقراء الذين اخرجوهم من ديارهم بالافراط في سوء معاملتهم ويساعدوهم بما فضل عن حاجتهم لهلكوا عن بكرة أبيهم .

كان « اميل » كثير الاصغاء اليّ في حكايتي لهذه القصة وما فرغت منها حتى ابتدرني بقوله : يستفاد من القصة اذن ان العمل هو سبب الغنى والثروة فاجبته ان هذا ليس مطردا ولكن أقل فائدة له انه يغني الامم التي تعرف مناهج العدل وتسلكها . اه

الشذرة الخامسة

الخط الديواني

أنشأ « اميل » يخط بالقلم خطا مناسبا لحاله ولكني في شك من جريه على قواعد الخط في شيء مما يكتبه .

كان الخط فيما مضى كأنه من صفات الكاتب الذاتية وكان يدل على حالة من أحوال الهسواء فيه الحسن والقبيح ولذلك وجد متوسمون يعتقدون انهم يقرأون في خط من لا يعرفونه من الناس ضروب استعداده النفسي ولا بدع في هذا فان كل أعمال الانسان منبعثة عن أخلاقه وسجاياه فلا شيء من الاستحالة ولا من البعد عن الحقيقة على ما أرى في أن يكون الخط وهو الاثر الدقيق المثبت لصنوف الوجدان وانواع المعاني على الورق سمة من سمات النفس وامارة من امارات الطبع يشهد لذلك أن كثيراً من الذين خطوطهم بين أيدينا قد غيروا في حياتهم طريقتهم في صوغ

حروفهم عدة مرات فلا يمكن أن يكون هذا التغيير الذى يحق لنا المراهنة على حصوله بغير شعور منهم أجنبياً عن بعض استحالات حصلت فى عقولهم. ومن الامور التي اعتقد الباحثون في هذه المسألة انهم تنبهوا اليها ولاحظوها ان أقرب أطوار الكاتب الى الفطرة هو ذلك الطور الذي يكون فيه خطه موسوما بأقرب السمات اليها ايضا .

اخترع الناس في هذه الايام للخط طرقا لاشك ان لها مزية في تهذيبه وتقويم يد الكاتب ولكنها متى انتشرت وعم استعمالها تحدث الخطوط وتشابهت فلم يبق بينها فروق تميز بعضها من بعض فنحن في هذا القرن قرن السكك الحديدية والاقلام الحديدية نسارع كلنا الى تحقيق الوحدة في كل شيء .

لو أن هذا الميل الى الصناعة اقتصر على امارات الفكر وقوالب المعاني لكان الخطب هينا ولكنه لم يقف عندها بل تعداها الى الفكر نفسه.

أنا على يقين من وفرة علومنا ومعارفنا فليست هي التي تعوزنا فقد وجدت طرق سهلة صيرت مبادىء العلم وآداب اللغة والفنون الجميلة قريبة المتناول لجميع الناس وكل يوم يتحدث الناس بانتشار أنوار العرفان بيننا وهو أمر انا بعيد عن المنازعة في جلالة خطره وعظم شأنه ولكني لا أرى علي حرجا ان سألت نفسي هذه الاسئلة وهي : هل ارتفع عقل الانسان في هذا القرن الى مدارك أسمى مما بلغه في القرن الثاني عشر ؟ هل حصل له من قوة النفس والانبعاث الذاتي الى العمل والاخلاق الممتازة التي تجلى في صورة مجتمعه المظلمة والاعمال البديعة أكثر مما كان له في ذلك القرن؟ هل ارتفعت قوة الادراك مع انتشار تساوي الناس فيها كل يوم ؟

وأسفي أني التفت حولي عراني الذهول وملكني الدهش لما أراه من غلبة الاوساط في العقل وكثرتهم وأسمع الناس يرددون القول بأن العقل والاستعداد قد شاعا في هذه الايام حتى عمّا السابلة والغوغاء ولو أنهم قالوا ان كل واحد أصبح فيه عقل غيره واستعداده لكان هذا القول أصح واقرب الى الصواب . نعم ان قرننا قد وصل الى طريقة بديعة في الاكثار من الدواليب والالات الحاكية للفكر وقامت المهارة في الفنون مقام الاستعداد الفطري والعزيمة وازهق التكلف في آداب اللغة روح الالهام والسليقة واستنزلت الدسيسة والخداع في مجرى الحياة وشؤونها الفضل والجدارة عن عرشها وحلا محلها فترانا الآن مسوقين بلاشعور منا على طريق عام الى محو ضروب الفضل والرجحان في العقل والخلق محوا تاما فعليك أيها الانسان من الآن ان تقنع بأن تكون كجميع الناس .

ولا شك أن هذه الحالة التي عليها العقول الآن ترجع الى أسباب كثيرة ليس من غرضي استقصاؤها هنا منها نظام معيشتنا وفقدان الحرية السياسية عندنا واهتمامنا المتزايد بالمصالح المادية ومنها أمر لا يسعني اغفاله والا استحققت اللوم وهو أن التربية بالحالة التي هي عليها اليوم أقرب الى ستر عيوب الاطفال واخفاء مواضع الضعف فيهم ببعض طرق التعليم السريعة التي تكاد تكون آلية محضة . أقول انها أقرب الى ذلك منها الى قصد اكتشاف ملكاتهم وقواهم النفسية وتنميتها فترى القائمين على التعليم عوضا عن تفهيمهم أن الغرض من مجاهداتهم وكدحهم في التعلم انما هو نيل الفخر بأن يكونوا عمالا نافعين يجعلون غايتهم الارتقاء الى المناصب

ونيل الغنى ويقتضون منهم أن يبلغوا اليها وهم بذلك يحكرون بحمل الاحداث على أن يتبينوا أن المواضعة والصنعة هما أقرب طرق النجاح وأحسن وسائل الفلاح .

الشذرة السادسة

(مذهب تشغيل المتعلمين بالاعمال المادية الشاقة)

توجد في بعض المدارس بانكلترا عادة قديمة يدهش منها الاجانب كثيراً وهي ان التلامذة — فيما يوجد منها بمدينتي اتون وهارو وهي التي يدخلها أبناء السراة غالبا — يخدم بعضهم بعضا وليس أمر الخادمية والمخدومية فيها متعلقا بمكانة التلميذ في قومه ولا بغنى أهله أو فقرهم بل بالاقدمية وبعض الدرجات المدرسية فيجوز أن يلزم الطفل الغني السري بتنفيض ثياب الطفل الفقير الوضيع وتأدية مطالبه وتنظيف غرفته وايقاد ناره وتسوية طعامه وحمل كتبه اليه في قاعة الدرس فيقع الالزام بالخدمة على من تجعلهم المدرسة في الدرجات الدنيا من أقسامها .

والذي أستهجنه من هذه العادة هو مايكون بين التلميذين الخادم والمخدوم من رابطة التابعية الذاتية فان الاقدمين من التلامذة يسيرون أحياناً مع من يعدونهم خدما لهم من اخوانهم سيرة في غاية القسوة حتى انه ليقع منهم في حقهم ما تقرأه في قصص موليير[1] المضحكة من الشتائم

---

(١) موليير هو أكبر شاعر قصصي فرنسي ولد في باريس سنة ١٦٢٢ ومات في سنة ١٦٧٣ مسيحية

وضربات الاكف وجميع ضروب سوء المعاملة التي كانت تقع من صغار الموالي على خدمهم بأرجلهم وايديهم الخفيفة الحركة . أولئك الخدم الصغار الذين كانوا بالامس ارقاء صبرًا على الذل مستسلمين للجور يصيرون في الغد سادة قساة متجبرين. وهكذا شأن الدنيا وبمثل هذا تنتقل جميع أنواع العتو والطغيان من سلف الى خلف .

لا أرى فيما عدا هذا العيب شيئا في هذه الطريقة فانه لا ضرر مطلقا في أن يقوم بخدمة المدرسة التلاميذ أنفسهم . ولقد عرفت فيما مضى مدرسة كان يديرها رجل وافر العقل عالي الفكر اختار هذ المذهب وتيسر له أن يجني منه فوائد كبرى في تربية الناشئين. ذلك أنه عهد بمعظم أعمال مدرسته الى جماعات من الغلمان واليافعين منقسمين الى طوائف على حسب مقتضيات أذواقهم وضروب ميلهم الفطري لانهم كانوا في هذه الاعمال مختارين متطوعين فكان الواحد منهم اما بابادا أو كناسا أو وقادا للمصابيح أو موقظا لاخوانه في الصباح أو منظما لقاعة الدرس وكانوا يتناوبون خدمة المائدة وكانت الاعمال المسخرة التي تقتضي أكثر من غيرها إخلاصاً أجل من غيرها أيضا في نظر التلاميذ لان رئيس المدرسة كان يتظاهر بتمييزها عن غيرها بما كان يوزعه من شارات الشرف على من كان يدعوهم اقدامهم الى مباشرتها . وليتك زرت هذا المكان حتى كنت تشاهد مقدار التحمس المفرح الذي يبديه كل تلميذ في القيام بعمله الذي كأنه فرض اختياري أوجبه على نفسه. كان من مزايا هذه الخدمة البيتية للتلاميذ انها كانت تسلية لهم من عناء الدروس لانه كان من رأي رئيسهم ان في المراوحة بين الاعمال استراحة من مشقتها وكان من غرضه فوق

ذلك أن يلقي في نفوسهم معنى احترام جميع الوظائف وكل فروع العمل اليدوي فان الانسان لا يحتقر من غيره مايباشره هو بنفسه .

تعرض لي في بعض الاحيان أحوال تحملني على اعتقاد أن ماندعيه من حب المساواة ليس الا رياء ونفاقا لاني أرى من لا تفتر ألسنتهم عن اللهج بهذه الدعوى لا يجرون على مقتضاها في اعمالهم فالطفل الذي يرى في المدارس أو البيوت أناسا استؤجروا لخدمته يستنتج من ذلك طبعا ان الاعمال الشاقة أو الكريهة هي من حظ الطبقة السفلى من قومه ولا يفيده في محو هذا الاعتقاد من نفسه ان تحدثه في المستقبل عن ضرورة تقسيم العمل بين الناس او عن غير ذلك من المسائل النظرية الكثيرة فانه يعلم كال العلم ان ليس للخدم أن يأكلوا على موائد سادتهم ولما كان يتوسم في والديه انهما يعدانه لان يكون من العلماء ويكفيانه بذلك مؤنة الاشتغال ببعض الاعمال التي من شأنها أن توسخ يديه أو تقذر وجهه كان رأيه في هذه الاعمال لا بد أن ينتقل الى من يقارفونها من الناس فيحكم عليهم بحكمه عليها وبذلك لا يكون الا كثير الانسياق الى احتقار جميع الصناع والزراية عليهم .

صممت أنا وهيلانة على تكليف «اميل» بعمل كل مايلزم لفراشه وحجرته وثيابه ولا أكره مطلقا ان أراه يمسح نعليه ويسوي عند الحاجة طعامه فان الفائدة التي تعود عليه من ذلك ليست قاصرة على كونه يتعلم عدم امتهان من يكسبون قوتهم بمثل هذه الاعمال بل فيه أيضا تنمية لحريته الشخصية بتعويده على الاستغناء عن مساعدة غيره فالاسير المسكين من يعجز عن خدمة نفسه .

الشذرة السابعة

رؤيا منام

(فيما يجب أن تكون عليه التربية وفي آثارها اذا كانت كما يجب)

رأيتني ممتطياً جوادا أسيح في بلاد مجهولة لا أدري أهي من الدنيا القديمة أو الجديدة ولكني بحسب مابدالي من ظواهرها أرى انها لابد أن تكون واقعة على تخوم بلاد الالدورادو [١] او الاوتوبيا . [٢] بصرت في طريقي بحظائر مسيجة بأسيجة خضراء فيها قطعان من البقر والغنم وغيرها من الحيوانات المجترّة التي لاتوجد قط في مراعينا تسوم آمنة لا كلب يحرسها ولا راعي يراقبها ولاحظت في انتظام طرق الري في هذه البلاد وحسن توزيع الماء بين جهاتها على نمط يثير الاستحسان ويدعو الى الاعجاب انه كان من مزاياه امتلاء جوّ ريفها بالنسيم البارد المنعش على مافيه من حرارة النهار. وشاهدت سلاسل من الهضاب مكللة بالاشجار كانها في تتابعها واتصال بعضها ببعض تخط للرياح والسحاب طريقها، ضرب الغنى سرادقه حول قرى هذا الريف وظهرت على أهله

(١) الالدورادو كلمة اسبانية معناها بلاد الذهب وتطلق على بلاد يزعم الناس أن ضابطا من مدينة بزار اكتشفها في أمريكا الجنوبية وأنه كان يوجد بها من الذهب وخيرات الارض شيء كثير ثم اطلقت هذه الكلمة على بلاد الرخاء والنعيم

(٢) الاوتوبيا كلمة يونانية تطلق على بلاد وهمية جرت أمورها على أحسن مايخيل من النظام وصفها كاتب اسمه توماس موروس في كتاب له

آثار النعمة والاغتباط. نساؤه حسان وولدانه اسوياء أصحاء الابدان يبشرون حكومتهم بأنهم سيكونون نسلا قويا باسلا .

ثم رأيت حواضر هذا القطر فلم أكن لرؤيتها أقل مني دهشا لرؤية قراه ومما أرشدت اليه فى احداها بناآن كانما أقيما في عصر يسميه أهلها الآن عصر الهمجية احدهما سجن والآخر مأوى للمساكين وقد أصبحا من أهلهما خلاء لعدم اللصوص والبائسين ومع انهما لم تبق لوجودهما فائدة حفظهما القائمون على شؤون المدينة ليكون فيهما ذكرى لتاريخهم .

حدد في هذه البلاد ماللناس وما عليهم من الحقوق والفروض وما للحكومة وما عليها من ذلك وامتاز بعضه عن بعض امتيازا بينا ولهذا تجد الرعايا لا يولون حكامهم من شؤونهم الا ماايس من مصلحتهم ان يتولوه بأنفسهم وحقيقة الامر ان القوانين فيها على قلتها جدا وصدورها عن رأي من اختارتهم الامة نوابا عنها لا سبيل لها الا على ما كان من الاعمال متعلقا بالحكومة ولما كان الناس جميعا هم الذين قد سنوا لانفسهم هذه القوانين لحماية كل منهم كانت مخالفتها وعدم الامتثال لاحكامها حمقا وسخفا. على انهم يؤملون تعديلها والتقليل من سلطانها بترقية العلوم وبث اضواء العرفان .

رأيهم هو حاكمهم المطاع أمره النافذ قوله ولم يعهد ان ملكا من الملوك المتنعين في صياصيهم المتترين بحصونهم كان له من المعاقل والمتاريس مايعادل ماحيط به ذلك الحاكم من ضروب الكفالة وانواع الضمان المؤيدة له القائمة على اعزازه فالقوم احرار يتفكرون في كل ما يكتبون ويكتبون كل يتفكرون وقد يدهشهم كثيرا على ماأرى أن يعلموا ان فوق الارض أمما في قدرتها ان تستسلم لحاكم وتلقي بنفسها في قبضة ظالم .

لاقيت في هذه المدينة شيخا لا أذكر أين ولا كيف لاقيته وقع التعارف بيني وبينه فأخذ على نفسه ان يشرح لي نظام حكومتهم ويطوف بي على المعاهد المعدة للمنافع العامة لاني لم أر في المدينة قصورا بنيت لبعض الافراد توفية لاسباب لذاته ولا مسالح ولا دوراً للجيش ولا مواخير للفحش.

لما راقني ماشاهدته قلت للشيخ هل لك ان تخبرني باسم ذلك الواضع الكبير الذي سن لكم هـذه القوانين؟ فتبسم ضاحكا من قولي وقال أراك آتيا من عالم آخر فاعلم أن قوانيننا ليست من وضع البشر واني أراني الآن مضطرا الى ان أقص عليك تاريخنا في كلمات قلائل فاستمع لما أقول: اننا قبل اليوم بنحو قرنين لم نكن أحسن حالا من غيرنا من الامم وآخر ملك تولى علينا ولا نذكر منه شيئا حتى أسمه (لان النسيان أحسن عقاب للمسيئين الاشرار) خلع من عرشه بعد حكم اسخط عليه جميع رعاياه وألبهم على نبذ طاعته والخروج عليه ثم عرض الثائرون بعد خلعه صورا مختلفة واشكالا متنوعة للحكومة وكادوا يقتتلون على اختيار حاكم لولا ان أباءنا بما كان لهم من الحكمة والدراية تراجعوا وقال بعض لبعض ان الاولى لنا ان نرجيء الفصل فيما شجر بيننا وان نترك لاعقابنا النظر لانفسهم فيما هو خير لهم فانه لاخير في أحسن الاوضاع ولا في أعدل القوانين ان لم نجد في اخلاق الناشئين وسيلة لاستبقائها وحينئذ اتفق القوم على ان يبقوا من قوانينهم القديمة أكثرها مطابقة لحكم العقل حينا من الدهر وان ينشؤا الجيل الجديد في هذه الفترة على حب الحرية والاخذ بها ثم لعلك لم تر مدرستنا انها اصل نظامنا السياسي فيما بنا اليها .

اخذني الى مكان على مقربة من المدينة فما هو الا ان تجلى لنظري في

اشعة الشمس المشرقة قصر أو هيكل فوق ربوة شجراء قدعادل اتساعه وانفساح ارجائه ماله من الفخامة والجلال لو أردت ان أصف لك جملته لعييت بذلك. بني كل قسم من أقسامه الداخلية على طريقة حديثة في فن العمارة وبلغ من الازديان بما وضع فيه من التماثيل والصور وآثار الفنون الى حيث ان جدرانه كانت تكاد تكفي ان تكون وحدها طريقة من طرق التعليم لكون ماحوته ينقش على اذهان التلامذة ومشاعرهم وينقسم هؤلاء الى عدة أمم يمثل كل منها جيلا من أجيال الانسان وقد وقع ذلك البناء في وسط مشاهد تأسر القلب وتأخذ باللب بما فيها من ضروب التباين ووجوه التخالف فتجد حوله الآجام والصخور ومساقط الماء وتحته البحر.

وقفت على احدى حلقات الدروس فاذا بغلمان يمارسون أنواعا مختلفة من الرياضات البدنية كالمصارعة والعدو والرماية بالقوس وا كثر ما دهشت له في هذه الحلقة أن معلميها كانوا من هنود امريكا الحمر الاصليين كما تبينت ذلك من لونهم ونحافة أعضائهم وما كان على شعورهم من مواد الزينة الوهمية.

قال لي الدليل أن هذه القبيلة المتوحشة لم تأت الى بلادنا الا من عهد قريب وإنما جذبها الى حدودها حسن اخلاق قومنا ورقة طباعهم فاننا لم نعتبرهم اعداء لنا كما يفعل غيرنا بل دعوناهم الى مشاركتنا في نعم الحضارة وأرشدناهم الى ما تحصله لنا من الفوائد والمزايا مبينين لهم مقدار رجحانها على البداوة. ولما كنا لا نجهل ما لهم من المواهب الفطرية التي نحن محرومون منها عرضنا عليهم معاوضة المنافع ومبادلة المرافق فقبل فريق منهم ذلك منا وهاهم أولاء الآن يروضون ابناءنا على احتمال الآلام الجسدية غير مغضنين من جباههم وعلى استعمال أبصارهم واسماعهم في اجتناب

ما ينصب لهم من الحبائل وابطال أثر مايكاد لختلهم من المكايد ويعودونهم على البسالة في ثني اعضائهم ولينها موافقة لسلطان الارادة وعلى تعرف اخلاق الحيوانات وعوائدها في حالتها الوحشية .

وفيما نحن نجول داخل هذا المكان الذي هو منقسم كما قلت الى دارات مختلفة للتربية والتعليم شهدت أحد الاعياد التى تقام في هذه الدارات التاريخية أو العلمية من حين الى حين تخيل لي اننا فى أثينا (عاصمة بلاد اليونان) إن لم اكن واهماً وابصرت قلعتها المسماة بالاقروپول شاخصة أمامي على صخرة يعلوها معبد وتماثيل وآلهة صنعت من النحاس الاحمر والمرمر ورأيت في الجانب الغربي لهذه القلعة دهاليزها التى اقامها بريكليس [1] وكنت اشاهد طوائف من الفتيان في ازياء يونانية يشخصون اليونان في أطوارهم واحوالهم تشخيصاً يقرب من الفطرة ويتكلمون بلغتهم ويمثلونهم في تنزههم في المدينة او غدوهم الى مرافى بيريه [2] ومونيخي [3] وفالير [4] فاستغربت ما رأيت مع قلة استغراب الحالم واقسمت بأثينية پروماخوس لا كتنهن هذا السر .

فلما رأى صاحبي شدة ولعي بمعرفة حقيقة مارأيته قال لي إن الامر في غاية السهولة: ذلك أننا لما تبين لنا بالاختبار أن التاريخ في تعليمه للأحداث يمر باذهانهم مرور الظل غير تارك له فيها آثاراً بينة اجتهدنا في أن نجعل له جسما تخلد فيه صورته فترى تلاميذنا لا يقتصرون في تعلمه على مطالعة

---

(١) بريكليس أحد رجال حكومة اثينا الاقدمين (٢) و (٣) و (٤) بيرية ومونيخي وفالير كلها مدن يونانية فيها مرافيء

ما كان في العصور الخالية بل هم يعيشون فى تلك العصور . فقلت له لا بد أن تكون جمهوريتكم قد بلغت من الثروة غايتها حتى تقوم بنفقات هذه المعاهد. فكان جوابه انها غنية لمهارتها في طرق الكسب ولانها هي التي تد بر نفقاتها بنفسها . على اني ارجو ان لا تخدع بما تراه فان ما تظنه بذلا للمال واسرافاً فيه هو في الحقيقة تدبير له وتوفير ولو صح مانسمعه عن أوربا القديمة لكان ماتنفقه امها على حكوماتها فى جانب التبذير وماتنفقه على التعليم العام في طرف التقتير وأما نحن فأمورنا تجري على خلاف ذلك فحكومتنا لا تكلفنا أو لا تكاد تكلفنا شيئاً وننفق كل ارزاقنا على مدارسنا فكان لنا بالسير على هذا السنن مايسمى في عرف التجارة صفقة رابحة ولله طريقتنا في التربية فإننا ببركتها استغنينا عن اتخاذ جيش دائم وكهنوت وغيرهما من الاثقال التي توقع الحكومات في مهواة الفاقة وتؤديها الى الخراب .

هذه الامة التي ضل عني الآن اسمها لاتقصد في تربية عقول أبنائها وتقويم طباعهم الي اعدادهم لان يتبعوا فى مستقبلهم نظاماً مقرراً كائنا ما كان بل قد عقدت النية على أن تقبل ما ينتج من التربية الحرة المؤسسة على نواميس الكون وأصول العلم من الثمرات فبعثها اقدامها على أن تمهد بمستقبل بلادها الى معارف الاجيال الجديدة وعلومهم فهي تعتبر المدرسة أمة في سبيل نشأتها لها قوانينها كما أن للحكومة قوانينها وترى تلك القوانين كانها مقدمة لهذه وتبكر بتعليم التلاميذ ممارسة مايتحلى به الرجال من الفضائل القومية .

ليس لمعلمي المدرسة على التلاميذ أدنى سبيل الى التأديب ولكنهم

لا يسلمون عليها بما يقترفونه فالمخالفون يحاكمون الى محكمة ينتخب اعضاؤها من اخوانهم لمدة معلومة ومن مصلحة هؤلاء الاعضاء أن يعدلوا في أحكامهم وان لا يطيعوا فيها دواعي الهوى والغرض لعلمهم أن الاعتداء على حقوق الناس قد يعود عليهم ضرره في الحال أو في المآل . ويقوم امام المحكمة محاميان أحدهما من جانب المدعي والثاني من جانب المدعى عليه فيبينان لها وقائع الدعوى بالرزانة والوقار ثم يصدر المحلفون المتطوعون أحكامهم وهي واجبة الاحترام على الدوام وما يحكم به من الجزاء يصير على كونه غاية في الخفة شديد الارهاب والزجر لانه يؤدي الى لوم المحكوم عليه وتأنيبه من المدرسة جميعها لا من معلميه فقط .

يقيم الصبايا التلميذات بهذه المدرسة في قسم آخر منها غير قسم الصبيان ولكنهن يحضرن معهم في غرف التعليم بعض الدروس العامة التي تلقى نهارا .

قال لي الشيخ إننا نعول كثيرا في طريقة تربيتنا للناشئين على ما للنساء من التأثير المعنوي في النفوس فمن اللاتي نعهد اليهن بتوزيع الجوائز والمكافآت على التلامذة فترى المهرة من هؤلاء في الرياضات البدنية يختبرون أنفسهم امامهن في ساحتها ببعض الحركات التي هي مظاهر البأس والقوة والمستعدين منهم لان يكونوا خطباء المستقبل يمثلون بين أيديهن على منبر المدرسة ويثير بعضهم على بعض في ميدان الفصاحة والبلاغة حربا عوانا كل ذلك في سبيل ارضائهن وهييج اعجابهن ولما كان المعروف فيهن انهن صائبات الرأي سديدات الحكم في مواد الفنون كان معلمو المدرسة تطيب أنفسهم بالركون الى رأيهن في امتحان الشعر والموسيقى والتصوير

فاذا صرن محكمات في الذوق أعلنّ حسان الاعمال ونوّهن بقدرها وتوجنها تاج الشرف والفخار . كذلك يعتاد احداثنا على أن يستشيروا النساء ويسترشدوا بآرائهن ويلتمسوا تصديق وجدانهم لحسن أعمالهم فيما تبديه لهم من ترقبهم منهن من دلائل استحسان هذه الاعمال بتلقيها بالابتسام والبشاشة وينشؤن على أن يعتبروا عيون ربات الجمال مرايا تمثل لهم فيها الفروض التي كتب عليهم أداؤها .

لا يزال صدى الكلمات الاخيرة التي سمعتها من ذلك الشيخ يرن في أذني اذ قال لي في نهاية حديثه: «لو طال زمن مكثك بيننا لشاهدت من مستحدثاتنا مالا أشك في أنه كان يبعث في نفسك دواعي الدهش والعجب فحسبك أن تعلم كيف اننا قطعنا ما كان يربطنا بماضينا من قيود الذل والبؤس والاستعباد التي كانت كالثلج جمودا وبرودة وتقيا لحرارة الحياة أن تعرف أن الامم الحرة انما تنشأ برجالها الاحرار وان آباءنا لم يخطئوا أن التمسوا في وجدان كل انسان أقوى ناصر على الاستبداد لاعتقادهم أن أحسن الحكومات أقلها وجودا فتراهم قد فضلوا أن ينقشوا في نفوس الاحداث وجدان العدل والحق الذي لا تغيره الحوادث ولا تمحوه الكوارث على أن يدونوا لهم قانونا نظاميا في كتاب ربما ان رياح الفتن وعواصف الثورات الداخلية كانت مزقته من زمن بعيد وجملة القول إن الحكومة عندنا ليست هي التي تدير المدرسة بل المدرسة هي التى توجدها وتنشئها .

الشذرة الثامنة

تجلي العلم في العمل

زرت بالامس أنا واميل و «لولا» مسبك قصدير فى بانزانس واقع على ضفاف خليج الجبل ولست أقضي العجب من منعطف هذا الخليج الذي كأنه في عظمه وجماله صدر تيتيس [١] احاطت به السكة الحديدية فجعلت له من شريطها قلادة. يوجد المسبك تجاه الخليج ويتألف بناؤه من أماكن قديمة تقوم على أعمدة من الخشب تغطيها سقف من البلاط الاسود لا يتردد الناظر اليها في ان يحسبها سقائف لانخفاضها وانفراجها للرياح من كل ناحية.

رأينا في احدى السقائف أكواما من تراب اسمر يسمى بمعدن الحجر جمعت فيها ووزعت على غير نظام وتنحصر أعمال المسبك في احالة هذا التراب الادكن الى معدن يطلبه التجار كثيرا .

كانت زيارتنا للمسبك في نحو الساعة التاسعة من المساء أي بعد غروب الشمس بزمن طويل في ليلة ظلماء. كان يتخلل ظلامها بصيص نار الافران التي بنيت بالآجر وجعل لكل منها باب حديد في وسطه ثقب مستدير كأنه حدقة من نار .

يصهر القصدير وبعد مكابدته محناً مختلفة يتجرد مما كان ممتزجا به

(١) تيتيس جنية من جنيات اساطير اليونان

من المواد المكدرة لصفائه وهي الحصا والكبريت والنحاس فاذا تم ذلك جاء وقت صبه وهي الساعة المشهودة : يخرج هذا المعدن الثقيل الصافي من ثقب في أسفل الفرن وقد بلغ من الحرارة درجة البياض ويسقط في خابية من الحديد المصبوب فيذكر الناظر ساعة باستدارة سطحه ولمعانه القمر في احدى ليالي الصيف أبيض ساطعا .

اذا صب القصدير في الخابية آخر مرة (ولا بد من اذابته أكثر من مرة) ألقيت عليه اغصان من الشجر الاخضر خصوصاً أغصان التفاح فتفوره وتهيجه وويل حينئذ للعمال والناظرين الذين لا يبادرون بالابتعاد عنه ليتقوا عوادي هذا المعدن الغضبان ذلك ان فقاقيع الهواء التي تنفصل منه ترتفع معها قطيرات محرقة تسمع لها نشنشة تنبجس من كل ناحية انبجاس الشرر من باقة نار الزينة .

لا جرم أن « اميل » و«لولا» لم يدركا السر الكيماوي في جميع هذه الاستحالات التي تعاورت معدن الحجر قبل صيرورته قصديرا بل ربما لم يحصل في ذهنهما من مجموع ما حصل من الاعمال الا معنى في غاية الابهام ولكن قد شاقهما من هذا المنظر جدته فانهما رجواني ان آخذهما الى المسبك مرة أخرى .

أرى أن القائمين على تربية الناشئين قد افرطوا في التفريق بين العلم وبين ما يربطه بالصناعة من الروابط ومع كوني لا أنكر أن ما في المدارس من المعامل الكيماوية والمجموعات التعليمية والدروس العامة هو من المساعدات العظمى على التعليم واقصد قصداً أكيداً أن استعين به على

تعليم ولدي في مستقبله تراني أفضل الآن أن اختلف به الى معهد آخر تتمثل فيه امامه الاعمال وتتراءى له الوقائع .

زرنا معاً متحفا من متاحف الدفائن الاثرية فى بانزانس وهي ليست كثيرة في بلاد كرنواي والكثير فيها انما هو المعادن المفيدة كالرصاص والقصدير والنحاس وغيرها من المعادن الحجرية الغريبة فلم يلفت ذهن « اميل » ما في خزائنه من قطع هذه الدفائن المرتبة الا قليلا وأما دولوريس فأخص ما استرعى نظرها ما يوجد فيها من فلذ البلور وبعض الحجارة التي لو تناولتها يد الصناعة لصارت من مواد الزينة الجميلة .

ثم أخذنا طريقنا بعد ذلك بأيام الى منحت كبير يمتد مكشوفاً على ضفاف المحيط بين جبال من الصوان بعجتها يد الانسان فكان مرآه فى نظر الغلامين أحسن من جميع متاحف الدنيا .

ففرق عند الطفل بين أن يرى من وراء الزجاج معادن حجرية رتبت في رواق ترتيباً خالياً من دواعي التأثر وبين أن تتمثل أمامه الصخور فى وضعها الطبيعي ويشاهد الارضين وقد شاه وجهها وانقلبت ظهراً لبطن وكتل البلاط الاسود والرخام السماقي فى جسامتها المريعة. وقد تناوبها المصدع وبارود المدفع فأوسعاها صدعا واشبعاها كسراً وقد هاج شوق « اميل » منظر أعمال النحت هيجا شديداً فطفق يخاطب النحاتين ولا بدع فالانسان فى سنه لا يستنكف أن يخاطب كل من يراه لان قلبه حينئذ لا يكون افسده الكبر. وقد استفاد من محاورته معهم فلم تذهب عليه عبثا. وان فتى ايقوسياً اسمه هوج ميلار صار من اشهر العلماء فى بريطانيا العظمى ببركة تكسيره الاحجار ونحتها من منحت حجر رملي

قديم واستولى استيلاء المالك على اقاليم ذلك المنحت الحافل بالدفائن الاثرية واصبح اسمه كأنه علم له .

ربما احتذى «اميل» مثال هذا العالم اذا زرنا معا اقليم ديفونشاير فاعتضد المطرقة وحمل المنحات فاني أراه مدفوعا على ذلك بسائق الطبع لانه يشتهي كغيره من اترابه أن يهجم على مايلاقيه من العقبات فيدمره ويزيله ولان الدقائق الاثرية التي يستخلصها الانسان بنفسه من الصخرة أغلى في نظره كثيراً مما يجده منها مرتبا في المتاحف ذلك لان آثار الاجسام العضوية تكون غالبا من الاختباء في باطن الحجر بحيث إنه لا بد قبل استخلاصها من تمييزها منه بل ربما صح لي ان أقول أنه لا بد من تخمين وجودها بما يبدو من تحت غطائها الجافي من سمة تدل عليها أو طرف من أطرافها ثم إن الصخرة تارة تكون صلبة فتقاوم منحات الناحت وتحتمله وطورا تكون هشة فتتلاشي وتتفتت وفي كلتا الحالتين يهدم الخرق والخطأ بنقرة واحدة عمل الدهر في قرون كاملة وما أكثر ما يتعلم الطفل في هذا الجهاد نعم ان «اميل» سيخدم فيه غير مرة وسيتفق له أن يخسر لقطاته او يعيبها على حين اعتقاده أنه حصل عليها سالمة من كل نقص ولكن لا شيء في هذا فان مثله من اليافعين اذا غلبته العقبات المادية وجد عليها وبعثه ذلك على الانتقام لنفسه منها فلا يلبث أن يظفر بها .

كأن مشاهدة المناحت واسطة ينتقل بها الذهن من علم طبقات الارض الى فن العمارة فسيذكر «اميل» اذا عرض له في طريقه ما في المدن من الابنية العظيمة ان حجارتها نحتت من قاع البحار القديمة واذا رأى المعابد والقصور احضر نوع حجارتها في ذهنه الصخرة التي نحتت

منها والمخلوقات العضوية القديمة التي صارت هذه الصخرة رمساً لها .

العلم الذي يحصله الانسان بعرق جبينه ربما لا يكون واسعاً ولكنه يكون متينا راسخاً. خذ لذلك مثلا الزهرة التي تجنى من غور بعد اقتحام ما كان دونها من العقبات يكون لها في ذاكرة جانيها آثار أقوى مما يكون لزهرة رآها بلا عناء مجهزة محفوظة في إحدى صحف المجموعات النباتية وما يجمعه المرء بنفسه من المحار والصدف على شاطيء البحر يدرب بصره على ادراك ما يميزه من صفاته الظاهرة اكثر مما يدربه على ذلك ما يوجد منه مرتبا ومعنونا في رواق معدله فالبحث يكسب البصر واليد دربة ومرانة.

أنا لا أشك في أن التجارب الكيماوية والطبيعية مفيدة لمن منحوا الميل الى التعلم ولكني أرى ان عامة الاطفال قد يبدون من الارتياح الى العلم معمولا به في الصناعة ومن الانفعال بما يرونه من آياته فيها أكثر مما يبدونه لمثل هذه التجارب وقلما يوجد معمل من المعامل الكبيرة إلا وهو أيضا مدرسة كبرى للعقل فما أبهر ما يُرى فيه من قوى للطبيعة مقيدة ومطلقة و «كلّ» مؤلف من عجلات واسنان تسحق الحجر سحقا وتمضغ الحديد مضغا وتقطع الخشب قطعا وآلاف مؤلفة من انباض البخار الذي يحرك جسم هذا الكل وانسان استبدل بأعضائه هذه الاعضاء الصلبية في كده وكدحه فحلت محله وجرت على مقتضى ارادته وقام هو عليها يلاحظ مجاهداتها العجيبة بعين قريرة ساكنة . نعم ان هذا المشهد لا يأخذ أول الامر الا ببصر اليافع ولكنه متى كان فيه شيء من الشوق الى العلم لا يلبث ان يسأل عن سبب هذه الحركات الاستقلالية وعما

للمواد بعضها في بعض من التأثير المتناوب وبالجملة عن سر الطرق التي تحيل المادة الفطرية الى محاصيل صناعية .

ليس أحقر الاشياء بأقلها دائماً في صنعه اثارة للشوق ولا ملاحظته بأقل جدوى في التعليم فعلبة الكبريت والدبوس والشمعة (كما بينه فاراداي[1] حق البيان) لها بعلمي الطبيعة والكيميا تعلق يدركه كل واحد من الناس ويعرفه لاول نظرة .

أنا أعلم أن تحصيل علم عدة من الصناعات والاختصاص به يقتضي أن يعيش الانسان أضعاف عمره ولذلك لا أرجو مطلقا أن « اميل » اذا رأى غيره يشتغل بحرفة يحيط خبرا بأسرار العمل فيها . على أن الشبان أقل حاجة الى الوقت من غيره فلو أن القائمين على التعليم أحسنوا في توجيهه الى غايته ما شككت ابدا في ان الطفل الذي بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره يتعلم في المعامل شيئا كثيرا .

وجملة القول ان لدينا في جميع المدن الكبرى بل وفي القرى كثيرا من معاهد العمل التي لو اختلف الطفل اليها لادرك بالعيان والحس بعض قوانين المادة وتعلم حب العامل وتعظيمه ولكانت أقل فائدة له من ذلك ملاحظة طرق الصناعة أو الزراعة ان لم يباشر شيئا من اعمالها بيديه وتلك مزية أخرى له فليت شعري هل يصح في نظر العقل أن تغفل هذه الينابيع المتدفقة للعرفان وتبخس حقوقها من العناية وتكون دراسة الالفاظ هي موضوع الاهتمام والرعاية .

---

(١) فاراداي عالم انكليزي من أشهر علماء الطبيعة اشتهر بتأليفه في الكهربائية ولد في سنة ١٧٩٤ ومات سنة ١٨٦٧ مسيحية

الشذرة التاسعة

(انتقاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية واقرائهم كتبهما)

تناظرت مع هيلانة غير مرة في ضرورة تعليم « اميل » تينك اللغتين واقرائه ما ألف فيهما من الكتب ولست ذاكرا لك من هذه المناظرات الا ملخصها فأقول : الواجب أن يربى كل طفل تربية من ينبغي أن يكون من كبار الرجال فتلك هي الوسيلة التي يفضل بها عامة الناس ويمتاز عنهم في مستقبله ولهذا كان حقا على المربي أن يعرف طبعه ويبحث في ضروب ميله ويَخْبُرَ أنواع استعداده العقلي . ولما كان الفضل والامتياز يحصلان في هذه الدنيا بكيفيات مختلفة وينالان بطرق شتى كان أول فرض عليه أن يبحث في هذه الطرق عما يلائم طبعه ويناسب استعداده .

فالذي أعيبه في طريقة المربين عندنا هو إغفال ما للناشئين من القوى وضروب الاستعداد الذاتية وعدم اعتبارها في شيء من التربية . ذلك أنك ترى بعض الناشئين مثلا قد ولد رحالة ليضرب في الارض ويجوب آفاقها وأخص حاجة له فيما خلق لاجله هي معرفة اللغات الحية ليتفاهم بها مع الاجانب في بلادهم فيبدأ المربون بتعليمه لغتين مهملتين انقطع التخاطب بهما من على وجه الارض . وترى آخر خلق ميالا الى معرفة علم القوى المحركة وقوانين التوازن (الميخانيقا) يلقون به في بحر من الكتب ماله من قرار وتجد ثالثا أعد للتجارة ورابعا سخر للزراعة

لا يراعي مالكل منهما من الميل الى ما أعدله بل يتبع فى حقهما ماقضت به العادة وجرى عليه العرف وهو أنه لابد لمن يريد الاشتهار بالعلم في هذه الدنيا من سجنه في المدرسة ثمان سنين • كم رأينا من متعلمي اللاتينية واليونانية من يقضي عليهم بأن لا يتعلموهما في حياتهم لأنهم متى خرجوا من المدارس واشتغلوا بمصالحهم قلّ وأيم الحق أن يخطر ببالهم تصفح كتاب فرجيل [1] أوديوان عمير [2] والنظر في صحفهما البالية التي قضوا في مطالعتها كثيرا من ساعات النصب والسآمة. ولست أقصد بقولي هذا تجريد أية معرفة من معارف العقل كائنة ما كانت من الفائدة مطلقا ولكن لا حرج علي ان ارتبت في أن ما يخسره كثير من التلامذة من زمنهم في تعلم تينك اللغتين لا يساويه ما يعود عليهم من الفوائد بتعلمهما•

أنا أعلم كل ما للمتنصر لهما من وجوه الاحتجاج على ضرورة تعليمهما فله أن يقول إن معرفتهما حاسة سادسة لنا ندرك بواسطتها دقائق آداب لغتنا وانه لا يسع احداً من الناس انكار ما كان لمطالعة الكتب القديمة المؤلفة بهما من التأثير المبارك في عقول الناشئين الذين تغذوا بلبان معارف الاقدمين حق التغذية وأن مطالعة هذه الكتب تخلصنا من شواغل وقتنا المادية وتعارض عصرنا الذي تساوت فيه الناس وانحت درجات التفاضل بينهم واشتغل أهله بالحقائق الثابتة دون غيرها بصور الابطال وما سما

(١) فرجيل هو شاعر لاتيني شهير ولد سنة ٧٠ ومات سنة ١٩ قبل المسيح

(٢) عمير هو أشعر شعراء اليونان الاقدمين لا يعلم مكان ولادته ولا تاريخها (المنار : كذا كتب المعرب والمعربون السوريون يعربونه « هومير » ويكتب بالقلم الافرنجي هكذا « Homer-ero »)

وأفاد من مخترعات الخيال وتستر مواضع الضعف فينا بحجاب الجمال الظاهر بدون أن تغير من طبيعتنا شيئاً ثم ان بُعد أهل تلك العصور عنا ومباينتهم لنا في الاخلاق والعوائد مما يساعدنا أيضاً على أن نبصر من خلال كتبهم الشعرية ضياء منتهى الكمال المطلوب .

وفوق ذلك فان هذه الكتب حافلة بالاناشيد الوطنية التي كان من آثارها ما تراه في عهد الجمهورية الجميل من احتقار الملوك وجر ذيل الخيلاء عليهم فلقد كفت نفحة هبت من رومية أو من اثينا في إثارة بغض السلطان المطلق بقلوبنا في القرن الثامن عشر فان حكماء هذا القرن وزعماء الفتنة الفرنسية فيه قد استمدوا مما وعوه من الكتب المدرسية اصلح الصور لايقاظ العقول وبث روح الحياة السياسية في النفوس وكان لخيالات الغابرين في ذلك الجهاد الذي قام في سبيل الحق من البلاء ما كان للاحياء أنفسهم فلا نقل لبني غراقوس [1] وبُرتوس [2] وقاتون اوتيقا [3] انهم قد ماتوا بل هم أحياء يمينوننا على كفاحنا ويعاضدوننا في جهادنا ويسمعوننا من اصواتهم ويشهدوننا من أسامهم ما يقوى عزيمتنا على السعي وراء الحرية التي هي غاية النفوس الابية .

أنا لا انازع في أن معرفة اليونانية واللاتينية قد تكون من الرياضات النفسية المفيدة. ولكني أقول إن لرياضة النفس وتربية العقل طرقا شتى

---

(١) غراقوس حاكم روماني اشتهر في اسبانيا ورزق بولدين سميا بالغراقيين وكانا من قضاة الشعب (٢) بروتوس احد قتلة القيصر الروماني (٣) واما قاتون اوتيقا فهو حفيد قاتون القديم وهو ضابط روماني كان من حزب بومباي وبعد ان شهد معه واقعة فرسالا انطلق الى افريقيا وقتل نفسه

وان من الظلم الفاحش قصر معنى التعليم على فرع واحد من العلوم فقد يكون الانسان عالما يشار اليه بالبنان وخطيبا باهر البيان وسياسيا حصيف الجنان (وفي أمريكا مايشهد لصحة ذلك) وهو لم يقرأ في حياته كتب «أرسطو» [1] ولا ديموستين [2] ولا شيشيروز [3] باللغة التي الفت بها. ذلك ان مراقبته بنفسه للامور ومعاملته للناس واختلاطه بهم ودراسته لآداب لغته واستعداده الفطري كثيرا ماتغنيه عن الزخارف المدرسية فرأيي هو ان الاحوال التي تحتف بالطفل ومايكون فيه من القوى والملكات الذاتية هي الواجب التعويل عليها في تحديد الطريقة التي ينبغي سلوكها في تربيته فان طرق التعليم انما أوجدت للاحداث ولم توجد الاحداث لها.

لما أعلم حق العلم ضروب استعداد «اميل» ولا حالة عقله حتى أحكم على أليق انواع التعليم به وأشدها ملائمة لطبعه والذي ارجوه له هو ان لايكون بعيدا عن العلوم ولا عن اداب اللغة ولست أرى من وجوه الاعتراض على الجمع بين هذين النوعين من المعارف سوى مايقتضيه تعلم اليونانية واللاتينية من الزمن فان انفاق سبع سنين أو ثمان من العمر في تحصيل لغتين مهملتين تحصيلا في غاية النقص غالبا هو إسراف كبير في عصر لايحصل الانسان فيه متوسط المعارف الضرورية إلا بانفاق معظم حياته واني باحث الآن فيما اذا كانت اضاعة ذلك الزمن الطويل في تحصيلهما لازمة لطبيعة الصعوبات التي يصادفها المتعلم فيه أوانها ليست من لوازمها وان من الميسور التغيير فيها والتقليل منها.

---

(١) ارسطو حكيم يوناني مشهور (٢) ديموستين اشهر خطيب يوناني أثار مقدونيا على فلوبس وألب اثينا على الاسكندر (٣) شيشيرون اشهر خطيب روماني

أول سبب فيما أرى لطول مدة تعلم هاتين اللغتين هو افراط المعلمين في تعجيل تعليمهما للاطفال لانهم يبدأونهم به قبل ان يكونوا تعلموا او راقبوا شيئا بأنفسهم فتراهم لجهلهم كيفية صوغ الالفاظ وتركيب الاساليب التي هي قوالب المعاني لا يكادون يتمتمون بلغتهم نفسها مضبوطة ولحبسهم بين جدران المدرسة من نعومة أظفارهم اعتادوا اعتبارها سجنا تعاقب عليه الاجيال الناشئة تكفيرا لسيئة جهل آبائهم الاولين فهم لا يعرفون شيئا من الكون وقد حالت المدرسة بينهم وبين المحابِّ البيتية والجواذب الاهلية وهي التي كانت تحبب العمل اليهم وتشعر قلوبهم قدره فأصبحوا لا تصل اليهم حرارتها الا من بعيد جدا. ففي أول عمل لهم يرنون به قوائم الناشئة تفاجئهم الفاظ وحشية وصيغ نحوية وتراكيب مجهولة فيتصيدون اتفاقا بأيديهم العسراء من محابرهم الكدراء ضروبا من مخالفة القياس وأنواعا من ضعف التأليف تجري بها أقلامهم ولا تدركها افهامهم . فرحمى لهم من حيارى ذاهلين لا ينفعهم تعاقب التمارين ولا تتابع الامثال فليس تكرار الاغلاط والخطآت الواحدة في تعلم لغة مجهولة هو الوسيلة الى اصلاحها .

أنا أحب ان يرى ولدي قبل تعلم اللاتينية شيئا من العالم وان ينفتق ذهنه باحتكاكه بالصناعة ودراسته تاريخ الموجودات فان كل واقعة ترقبت تولد في نفس مراقبها اللذة وتنمي فيه شعور الحاجة الى المعرفة فاذا حصل له بكسبه بعض معان بينة صار بهذه الواسطة أحسن استعدادا لفهم ما يتلقاه عن غيره من المعاني ولو ظهرت في صيغ مبهمة من الالفاظ .

ثم ان من أسباب طول المدة — التي تقضى في تعلم اليونانية واللاتينية على ما أرى — ان المربين يعلمونهما للاطفال قبل ان يطلعوهم على شيء من

أحوال الرومان واليونان والانسان لا يحسن تعلم لغة قوم الا في بلادهم. ومن أجل ذلك سأهتم عند تعليمهما « اميل » بأن اجعل له من آثار اهلهما بلاداً يتعلمهما فيها. وفي هذا المقام تظهر فائدة انشاء معاهد التعليم التي من قبيل القصر البلوري. نعم إني على يقين من أن مشاهدة ما يكون في مثل هذه المعاهد من التماثيل والصور ومُثُل المعابد والمباني الاثرية العامة لا تعين التلميذ على فهم شعر عمير وفرجيل ولكن اليونانية واللاتينية اذا اقترن تعليمهما بتعليم تاريخ قوميهما وما يشهد لهم من دلائل التقدم القديم لا تبقيان لغتين مندثرتين اندثاراً تاماً كما لو علمتا مجردتين.

ذلك أن لفنون الرسم من التأثير في نفوس الناشئين ما هو فوق المظنون بها كثيرا بسبب اجالتها العقل في آثار الغابرين وسياحتها بالنفس في أعمال الماضين ولان سن الايفاع هي السن التي يسهل فيها اندماج اليافع في شخص غيره لسبب سهل الادراك وهو أن معنى الاستقلال الذاتي لا يظهر الا قليلا في هذا الطور من الحياة. فبكثرة هذا النوع من المعيشة مع اليونان والرومان فيما بقي من آثارهم ينتهي التلميذ بان يهتم باخلاقهم وعاداتهم وشؤونهم قبل أن يعرف لغتهم فتراه يتابع بعقله الاسطول اللاتيني في سلامين [1] ويشهد خلف بومباي [2] واقعة فرسالا [3] ولا يسبقن الى خاطرك أن هذا الوجود الفكري فيما غبر من الزمن ليس هو الا وهما محضا فانه لا شيء مما كان في الماضي قد مات موتا تاما.

(١) سلامين وتسمى الآن كولوري هي جزيرة في خليج أثينا (٢) بومباي قائد روماني شهير له غزوات كثيرة كان فيها ظافرا (٣) فرسالا مدينة باقليم تساليا القديمة من بلاد اليونان هزم فيها قيصر الروم القائد بومباي

لم تجد طريقتنا في تعليم اللغتين اللتين نحن بصدد الكلام عنهما نفعا لانها لا تزال عليها مسحة من تعليم القرون الوسطى وهي التي طبعها عليها القسيسون والرهبان اذ لا تزال العقبات تقوم في سبيل دراسة آثار الاقدمين دراسة صادقة واولها ما للدين المسيحي من الاوهام والوساوس في آلهتهم التي تراه على قهره اياها لا يزال يعتقد أنها مضرة حتى في انهزامها امامه فان رجال هذا الدين مع استئثارهم على توالي القرون باللغات القديمة واحتكارهم معرفتها كانوا يعنون في تعليمهم بازهاق ذلك الروح الذي ألهم الصناع ماظهر على أيديهم من تحف الصنائع وطرفها وكانت فنون الوثنيين وآداب لغاتهم من الغنائم التي اهتم أولئك الرجال بحفظها غير انهم كانوا يحترسون كل الاحتراس من اظهار آخر ما اكتشفوه من أسرارها للاحداث وكان من مصلحتهم ان لا يزيلوا عن تلك الاسرار الا طرفا من حجابها لانه كان لابد لما يعيه الخلف من آثار السلف أن يردهم يوما الى عبادة الطبيعة وجمالها . ومن أجل ذلك كان رؤساء الدين لا يفتأون يذكرون الناشئين بأن آلهة الوثنيين آلهة باطلة لا أصل لها الا الكبرياء والكذب وانه لا ينبغي النظر اليها الا من بعيد مع الاسترشاد في ذلك بهدي الدين المسيحي .

أنا لا أحترس كل هذا الاحتراس في تعليم « اميل » تينك اللغتين واقرائه كتبهما فانه لابد لمن يزاول دراسة أمر من الامور أن يكون له فيه شيء من الاعتقاد فما ضره لو أنه أخلص في الاشتغال بهرقل [1]

« ١ » هرقل بطل خرافي مشهور باعماله العجيبة .

واعماله ومن ذا الذي ينقم منه ان قدم قربانا للالهات العفيفة[1] ولمنروة[2] الحكيمة الابية فان في كشف حقيقة الاشخاص الخرافيين الذين وجدوا في خيال الاقدمين وكانت حياتهم ملاءمة كل الملائمة لخيال اليافعين وازالة الوهم من عقول هؤلاء في شأنهم - في ذلك تعجيلا بزعزعة عقيدتهم في النوع الانساني . ولا يظن ظان اني أقصد بما أقول أن أوقف « اميل » عند الوثنية فاني انما أريد بهذا القول أنه لا بد لمن يريد النفوذ الى أسرار لغة قوم من اختلاس آلهتهم .

الشذرة العاشرة

التقليد والذاكرة

مثل هاتين القوتين في فتنة العقل والتغرير به كمثل الفتانات الخرافية التي كانت تظهر في بحر صقلية وتستهوي الملاحين بشجي صوتها فتوردهم في شبابه مورد الهلكة فانهما بعلو مكانتهما وجلال خطرهما في دراسة اللغات وبخداعهما العقل أحيانا في آدابها بما يأخذانه عن الغير من محاسن القول وطرائفه يأكلان الاستعداد الحقيقي أكلا وقد يكون الذنب في ذلك على المربين دونهما لما ينهجونه من طريقة التربية فان أحدا لا يرتاب في كون تينك القوتين من المواهب الخلقية الميمونة بيد أن هذا لا ينبغي أن يكون سبباً الافراط في تنميتهما فانك ترى التلميذ الذي تربى على طريقتنا

« ١ » الالاهات العفيفة في أساطير اليونان هي الاهات الفنون التسعة بنات المشتري

(٢) منروة هي في الاساطير المذكورة الاهة الحكمة والفنون والحرب .

يصف لك بما قرأه في الكتب أشياء لم يرها في حياته ويتفوه أمامك بجمل من القول المنثور أو المنظوم تدل على ضروب من الوجدان هو لم يشعر بشيء منها قط ويبدي من الهيج والانفعال في بعض أحوال لا علاقة لهما من حياة غيره مالا أثر له في نفسه ولو أنك سألته أن يتغنى بذكر الاشجار وظلالها والانعام ورعاتها والربيع وازهاره لوجد فيما يذكره من محفوظاته جميع ما قاله فيها فرجيل[1] وهوراس[2] من النعوت والاوصاف ومع أنه قد يكون خيرا له أن يذهب الى المزارع ويرى بنفسه ما يحصل فيها وكيف يحصل تراه شديد الاحتراس من موافاتها خشية أن يخسر فيها اللاتينية وما تواضع عليه الاقدمون من الصور اللفظية لتأدية ما كان يعرض لاذهانهم من المعاني والافكار واذا استوصفته قتالا انبرى يصف لك ما استعمل فيه من الآلات وكيف كان اصطدام الجيشين بالفاظ مطنطنة وعبارات مجلجلة وهو لم يشهد شيئاً من ذلك أبداً. فاذا كان مرادك اختباره في محاصرة العدو وجدته قد انتهى من حصاره كما انتهى فرتوت[3].

عرفت فيما سبق تلميذا كان يبدو عليه كثير من مخايل النجابة نال

« ١ » راجع الهامش عدد ١ من تعليقات الشذرة التاسعة. « ٢ » هوراس هو شاعر لاتيني مشهور ولد في سنة ٦٧ ومات سنة ٨ قبل المسيح « ٣ » فرتوت هو إسقف مؤرخ من الفرنجة ولد سنة ١٦٥٥ ومات سنة ١٧٣٥ ق. م. وهو مؤلف كتاب الفتنة السويدية والفتنة الرومانية وتاريخ الاشراف الكرام والمؤلف يلمح الى واقعة لهذا المؤرخ وهي أنه كان يكتب تاريخا لحصار رودس وانتظر طويلا ورود انباء صحيحة له عنه فلم تحضر فأتم تاريخه قبل ورودها ثم قال انني متكدر من ذلك ولكن قد انتهيت من حصاري.

اكليلا مكافأة له على قرضه شعرا وصف فيه زج سفينة فى البحر وهو لم ير فى عمره سفينة ولا بحرا .

ثم ان الشبان فى هذه الايام لا يكادون ينفلتون من المدارس الا وهم رافضون لآثار السلف نابذون لها ظهريا غير انه لا معنى لهذا الا انهم يتناضون عن مثل الغابرين مثلَ الحاضرين لأن محو طيّات التقليد وغضونه من النفس وارجاعها الى صقالتها الفطرية ليس من السهولة بالمقدار المتوهم فاننا كل يوم نقرأ في وصف الكتاب والشعراء المبتدئين قول واصفيهم في الواحد منهم انه نابغة يفتش على نفسه فليقل لي بربه هذا الفتاش أين أضل نفسه حتى أصبح ينشدها .

ان تربية تكون بدايتها اضلال وجدان الاستقلال الى حد انه ينبغي لاجل الاهتداء اليه تلمسه سنين طويله لمن الغرابة بمكان .

أنا لا أشتهي ولا أرجو أن يكون «اميل» ميالا الى وقف نفسه على دراسة آداب اللغة . ولو أني وهيلانة دأبنا في تحبيبها اليه وافلحنا في حجب حالة عقله بزخارف الذاكرة لاخفقنا في مسعانا الى غايتنا المطلوبة . فاتقاء لهذا الخطر تراني مصمما على ارجاء تعليمه اللغات القديمة واقرائه كتب مؤلفيها . وقد جعلت له مشاهدة الاشياء مقدمة على علم الالفاظ فاصبحت علومه على ما فيها من النقص لها أصول فى الخارج ترجع اليها ودعائم في الواقع تستقر عليها . وسعيت في ايتائه من آلات الضبط والدقة العقلية ما هو لازم للانسان في بحثه عن الحسن والحق اكثر جداً من سعيي في الافضاء اليه بالعالي أو بالغيري من المعاني .

وقبل أن اجعل البحث في مثل الاقدمين في مكنته سأعنى كل

العناية بتنبيهه الى ان هذه المُثل لاتقلد فانه من السخف المحقق أن نباري الغابرين مباراة نحن على يقين من غلبنا فيها من قبل أن ندخلها وكيف لا نكون مغلوبين لهم ونحن نرضى لانفسنا طريقتهم في الكلام والكتابة؟ والذي لا غضاضة علينا في اخذه عن كتاب اليونان والرومان انما هو روح آداب لغتهم وما يناسب كل زمان وكل قوم من أساليب الانشاء وترتيب المعاني والدقة في التعبير عنها وانتقاء الالفاظ اللائقة بها. فكما أن من يعاشر بعض خواص الاجانب يقتبس شيئاً من خصائصهم بغير أن يكون ذلك موجبا لمشابهته لهم بحال من الاحوال كذلك معاشرة الاقدمين بواسطة ما تركوه من آثارهم توحي الينا شيئاً من عوائد العقل واللسان المناسبة لكافة الاقوام المستضيئين بضياء العرفان .

التقليد الخسيس سواء قلد فيه الغابرون أو الحاضرون لا يقتصر سوء أثره على اضعاف الذوق والميل الى الفنون بل يسلب الناشئين ايضاً شرف النفس وكرامتها. فلشدّ ما ينخدعون بما تؤديه لهم الالفاظ عند قبولهم إياها من المعاني صحيحة أو فاسدة لان أساليب الإنشاء والالفاظ والجمل تفعل في نفوسهم ما يفعله السحر الحقيقي فتراهم يتوهمون انهم يتفكرون فيما يقولون ويكتبون والحق انهم يرددون ما فكر فيه المفكرون. ولعمري ان هذا هو اصل بعض الاباطيل التي تحاول من قرون عديدة اطفاء نور العقل. ذلك ان ضروب الاستعباد متلازمة فمن قبل واحدا منها فقد أخذ على نفسه الانقياد الى جميعها. ألا ترى الشاب المتعلم الذي اعتاد تقليد ما يصفه المقلدون بالمُثل الحسنة يصاحبه في سيرته وأطواره روح اللين والانقياد الذي ألفه من التقليد فتجده يجبن ويفزع عند كل عزيمة ذاتية .

ثم إنه قد يخاطر بحياته في براز أو يعرضها للهلكة في ساحة قتال لانه يرى ذلك مستحسنا في نظر الناس ولكنه اذا دعي الى مقاومة عادة بربرية او تأييد حق قل ناصروه ورأى ان من وراء ذلك الاستهداف للسخرية الزراية عليه نكص على عقبيه نكص الجبان وفر فرار الرعديد .

مثل هؤلاء المخلوقين المجردين عن ذواتهم يجدون طريق عيشهم ذلولا ويأتيهم رزقهم بلا نصب ولكن ما أكثر مايسومون أنفسهم من الخسف! وما أحط مايسفلون بها اليه من دركات الذل اعرفت امرأة بَرْزَةً [١] محبوبة حسنة المحاضرة وكانت أرملة ولها ولد كان قبلة آمالها فبدالها يوما من الايام ان تنشئه على أحسن آداب المواضعة المعروفة فرأت ان الاستشهاد باقوال الكتاب اللاتينيين في المقامات المناسبة من المحاورة والتمثل بأشعارهم وايراد أمثالهم من الامور التي لا بأس بها بل رأته يكسو المحاور اذا كان خصيبا بردا من الخطر ويلقي عليه مسحة من جلال القدر فارسلت ولدها الى المدرسة فغادرها كيوم دخلها خفيف العقل لم يستفد من العلم الا قشورا وصحبوبا عند الناس ولكونه أوتي ذا كرة مباركة كان يتكلم في كل موضوع ويناقش كل شيء ولا يبدي رأيا الا قوبل بالاستحسان لانه يسهل على كل انسان ان يرضي الناس عنه اذا سلم لهم مايقولون ولم يعارضهم في شيء من آرائهم فكان ثرثارا فاقد الخلق حسن الصورة عقيم الفكر . أرادت والدته ان تصيره رجلا من الاكياس أو نائبا لأحد الحكام أو معتمدا سياسيا لحكومته في بعض البلدان وان أحببت ان تعرف ماذا صيرته قلت انها صيرته طفيليا.

طريقتنا في التربية تظهر بادي الرأي سخيفة مضحكة وان جاز ان

(١) البرزة المرأة الجليلة التي تظهر للناس ويجتلف اليها القوم .

تكون مما يتعاصي على الافهام ادراكه وربما لا تطابق أية طريقة غيرها مطابقتها لمقاصد حكامنا ونظامنا السياسي .

التلاميذ في مدارسنا مفترعون مدينون تبكر الحكومة بتأهليهم لعملهم على نظام معنوي يشف عن حذق واضعه فأنت ترى القائمين على تربيتهم يوزعون عليهم متاعا من الآراء والعلوم التي يجب عليهم تقلدها في مستقبلهم مراعين في ذلك الدقة العسكرية التي تراعى في توزيع متاع الجند ويناذونهم «الهوينا» أيها الاحداث اياكم ان تحيدوا عن الخطة المضروبة لكم . ثم ان منهم من يولونهم ادبارهم ولا يصغون الى ندائهم وان كثيرا من هؤلاء يتحيزون الى فئة الآخذين بحرية النظر ويتضاعف عددهم كل يوم ولكن لشد ما يلاقون على ذلك من العقاب فانهم يحرمون من تقلد الاعمال العلمية في المدارس الجامعة ومن القيام بالاعمال الادارية في الحكومة فلا يولى أحدهم شيئا منها وفوق ذلك تراهم إن لم يسيروا سيرة مرضية أخذت الحكومة على نفسها تعليمهم كيف يسيرون بما تتابعه لهم من ضروب الايذاء وما تبلوهم به من العقوبات والنكبات السياسية ولا غرو فانهم فى قبضة حاكم ماهر والذنب عليهم في انهم لم يعرفوا من قبل ان لهم واليا يقوم عليهم واستاذا يرشدهم .

ولما لم يكن هذا هو الفلاح الذي أرجوه «لاميل» وكان الذي يعنيني من أمره قبل كل شيء انما هو حفظ كرامته وشرفه من حيث هو انسان كان نصيب هذه الطريقة مني محض الاعجاب بها دون أن ارضاها لتربيته . اه

الشذرة الحادية عشرة

﴿ في المؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها ﴾

أجد في نفسي انبعاثاً كثيراً الى اعتقاد أنه لا شيء أضر على كتاب الاقدمين وأدعى الى هجر مؤلفاتهم من اطراء المعلمين إياهم واعتيادهم الإعجاب بما كتبوا .

ذلك ان هؤلاء بإلزامهم الطفل حفظ ما يختارونه له من هذه المؤلفات وإرشادهم إياه الى ما يجب عليه أن يراه فيها من ضروب المحاسن خشية أن يقصر فى احترام آثار سلفه وا كراههم له على ملاحظة جميع ما فيها حتى علامات الفصل والوصل ـ بذلك كله لا يفلحون غالباً الا في أن يكرّهوها اليه وهي أحسن أعمال عقل الانسان

فالإفراط في الوقاية من جانب المعلم يصير سببا للضعف من جانب المتعلم وافراط ذلك في اعجابه بما يعلمه يذهب بالحمية من نفس هذا فيما يتعلمه .

والمقصود من التعليم على أي حال إنما هو انشاء القوة الحاكمة في نفس الطفل وأنا في شك من بلوغ هذه الغاية بالجري على تلك الطريقة فانه على فرض وجود التلاميذ الذين يكون فيهم من الامتثال ما يكفي لان يروا الحسن فيما يمدح لهم والقبح فيما يذم (وفي التلاميذ من هم كذلك) لا تكون اذواقهم من أجل ذلك اسمى من اذواق غيرهم ولا اكثر منها دربة

بل هذا مما يدعو الى سلبهم قوة تمييزهم الامور بأنفسهم فتكون همتهم في مستقبلهم مصروفة الى تلقي من تعتبر آراؤهم حجة من الناس لا الى النظر في الامور والحكم عليها حكماً مستقلاً .

سأدع ابني وشأنه في انتقاء كتبه فلا اجنبه الا ما يكون منها ضاراً بالاخلاق لاني أود ان يكون هو صاحب الخيار فيما يفضل في نظره من كتب الآداب فاذا ضل ذوقه في الاختيار عولت في رده الى الصراط السوي على ضروب نمو عقله لا على ما يدعو اليه كدري من أنواع التوبيخ والتأنيب ومع كوني لا أضن عليه بالارشاد متى سألني أياه تجدني اقصد أن يلتمس فيما يطالعه تنمية افكاره وتربية ضروب وجدانه الذاتي .

ثم اني قد اشتهي ان أقدم له بعض كتب مخصوصة واغتبط لو أنه اتفق معي في التأثر بما فيها غير اني لا أجدني محقا في اقتضاء ذلك منه لان الاعجاب بالشيء من أجل ان يكون مفيدا لا بد ان يصدر عن نفس المعجب ولان الانسان في كل طور من أطوار حياته منفردا كان أو مجتمعا يتصور للحسن كمالا يطابق بالضرورة بعض أحوال تتعلق بنفسه أو بمنافع أعضائه . يدلك على ذلك اننا لا نكاد نعرف الآن ماقرأناه في عهد شبيبتنا من الكتب ولا مؤلفيها ولا نحس بشيء من الميل الى كتب الادب التي طالعناها في ذلك الزمن ولم يبق من الشعراء والكتاب الذين كانوا اساتذتنا فيه بكتبهم من يصحبنا في شيخوختنا الا النزر اليسير . اهـ

الشذرة الثانية عشرة

لايستر وجه الشمس من كاشف

قضية لامحيص من تسليمها فاننا في طور الانتقاد الذي لاينفلت من تحليله وتفتيشه شيء فقد تناول الاديان وآداب اللغات والتاريخ والاوضاع القومية فلا تجد عبادة من العبادات الا وقد وجه اليها العلم ضروبا من البحث لاقبل لها بمقاومتها وأصبح ما كان يخاله الناس من اللغات والنقوش البربائية والحروف معميات لاسبيل الى الاهتداء الى معانيها وقد نبذت مغاليقها وألقت بين يدي العلم مقاليدها وأسلمت اليه أسرارها ولم يغن عن الاغاليط التي شيبها مر الدهور أنها قبعت رءوسها في ظلماتها وسترت نواجها في حنادسها فانه لم يبق في مكنتها ان تفلح في التغرير بالعقل بما لها من القدم فقد عرف سبب حدوثها وكشف الستار عما كانت ترتعد له فرائص الاقدمين من المجردات الخالية فعرف الانسان نفسه وكله دهش واستغراب لخوفه وفزعه لانه قد عرف اليوم كيف نشأت الآلهة(١) ورأى مذاهب كان لها ما

(١) يشبه كلام المؤلف هاهنا أن يكون تقريرا لمذهب الماديين ويدل بفحواه على أنه لايعتقد بالله ولا بملائكته ولا بصحة المذاهب الدينية في حدث العالمين وينسب الى النواميس الكونية كل ما كان وما يكون ويزعم أن العلم قد هداه الى أصل معنى الالوهية وهذا كله من غرور العقل نعوذ بالله منه ومن الغلو في النظر ومايؤدي اليه من الاشر والبطر. كيف يصل العقل الى معرفة كنه الاله وهو لم يصل الى معرفة نفسه تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا والعذر له ولأمثاله انهم نشؤا على دين مناقض للعقل

للبديهيات من القوة والرسوخ تضاءلت وتلاشت امام العلم بالنواميس الكونية التي كان يتوهم أن هذه المذاهب فوقها وأبصر أسرارا مستغلقة كانت تتاعصت على العقل أذعنت اليه الآن ففي يحكم فيها بكشف أصلها وبيان منشإها .

من الظلم والاجحاف عدم اعتبار هذه الحركة العلمية في تربية الناشئين فكيف يصح أن لا يدخل المدارس ما وصل اليه العلم من نتائج بحثه الا بعد قرن من ظهوره لو دخلها .

﴿ انتقاد آداب اللغتين اليونانية واللاتينية ﴾

أنا لا أريد الآن أن اشتغل من وجوه الانتقاد الا بما يتعلق بآداب اللغتين اليونانية واللاتينية وأقول قد اعتاد المعلمون أن يفردوا هذه الآداب بالدرس دون بقية آثار الاقدمين كما لو كانت آداب كل لغة فرعا مستقلا عن تلك الآثار ولا أراهم يستندون في ذلك الا الى وهم عُنيت من قبل بدحضه ولهذا تراني ذكرت «لاميل» اسماء آلهة عمير (هوميروس) وما ورد من صفاتهم في أساطير الهنود وقصصت عليه أشهر وقائعهم وسيكونون من معارفه القدماء ولم يبق عليه الا أن يعرف كيف كانوا يواصلون الاسفار ويجوبون الاقطار وكيف كان الواحد منهم يبدو في هيآت متباينة وهو أمر لما يجيء وقته .

ذكرت من شعراء الاقدمين عمير ولهذه المناسبة أود لو أدري ما الذي يعود على التلاميذ من تفهيم المعلمين اياهم ان ديوانيه الموسوم أحدهما بالالياد (الالياذه) والثاني بالاوديسي هما من ابتكار رجل من الغابرين اذا كان جميع الناس اليوم يعلمون كيف تولدت القصص الشعرية الحماسية في الامم القديمة والحديثة .

لا ريب أن في هـذه القصص محاسن كبرى وعبرا جليلة غير اني سأتحامى كل التحامي أن أجعل سيرة أخيل [١] مثلا نموذجا « لاميـل » يحتذيه في سيرته فان هذا البطل الذي عبس ولها عن مصلحة أمته وقعد عن منازلة أعدائها في حومة الوغى ان أبى عليه قومه جارية رقيقة كانت محلا لاطماعه وكان بهذا سببا في طول مدة رزايا الحرب وشـدائدها لم يكن حقيقا برضا الآلهة عنه وميلهم اليه فهم باشتغالهم به واعانتهم اياه على خصمه لشجاعته غير مراعين اغفاله لواجبه قد جعلوا عاقبة الحرب عبرة سيئة وهي ظفره بهكتور [٢] أي ظفر الطيش الحربي بالوطنية الصحيحية

لم يقتصر الاقدمون فيما جهلوا من الامور على نكرهم بعض الاصول التي هي الآن أساس وجدان الانسان بل تركوا لنا ميراثا من الاباطيل والمذاهب الفاسدة التي تدعو دراسة كتبهم الى بقائها ان لم يقارنها الاحتراس والحذر فإن سحر ما يحفظ الناس من آثارهم قد حمى كثيرا من المظالم القومية قرونا عديدة من وثبات العقل ولا يزال يذودها عنها وان المغرم منا بالمطالعة المفرط في المعيشه بين كتبه المفرّط فيما بين أبناء وقته يرى في أكثر أوقاته قليل التأثر جدا بما شاع في الناس من العادات السيئة الكثيرة التي يرجع أصلها الى أخلاق الاقدمين وعوائدهم .

الحضارة اليونانية كان لها من وجوه الحسن مايثير الاعجاب بها ولو أن «اميل » كاف بدراستها كلفا صادقا لما كنت في الا غاية الرضا عن

«١» اخيل في أساطير اليونان هو بطل يوناني ابواه تيتيس وبيلي قتله باريس في حصار طرواده . «٢» هكتور في هذه الأساطير هو ابن بريام وعقيبة وزوج أندروماك ووالد استنيا كس قتله أخيل أخذا بثار باتروقل .

ذلك ولكني لا أحب أن يكون خدعه التشدد في ميله اليها لما فيها من وجوه القبح أيضا فلشد ما احتقر فيها الرقيق وبخست قيمته ونسيت حقوق البائسين والمغلوبين فلم يحض عليها أحد الهم الا صيحتين أو ثلاثا انبعثت من أعماق وجدان الانسان ووصلت الينا بعد اختراق حجب ما مر من الازمان ولكم هلك في سبيل تلك الحضارة من أجيال وباد من أنسال ولم يكن فيها أحد يعنى بتخفيف مضض البؤس الذي كانت تقاسيه الدهماء ولم يكن العمل يستوجب للعامل أدنى حق من الحقوق لانه لم يكن يصلح الا لأيدي الطغام. ثم ان ظاهرها ومنظرها كان مونقا فان ما ازدانت به من الفنون والشعر والدين السمح والآلهة الباسمين في وجوه الابطال كان يكسو تلك الامة المغتبطة برود آجمت كل ما للكمال المنشود من ضروب العظم والبهاء ولكن العبرة بالمخبر لا بالمنظر .

التاريخ الروماني هو دون التاريخ اليوناني بكثير لا لأن رومية لم تنتج رجالاً كباراً بل لانها كانت تفرط في عبادة القوة وقد لاقت جزاء هذا الافراط فانها بعد أن استعبدت غيرها من الامم آل أمرها الى استعباد نفسها. فلتقل لي هذه الامة الفاتحة وقد أظهرت للعالم ما للفتح من النتائج اللازمة ما هي الامم التي علمتها والشعوب التي اصلحت شؤونها . أرى الناس تملهم أخبار غزواتها وتهزهم احاديث نصراتها ولا أرى أحداً منهم يستقصي أسباب مصائبها ليشفى من جنون الحرب ويبرأ من هوس القتال .

إني اذا أقرأت «اميل» اليونانية واللاتينية وفجرت له بذلك ينبوع الآداب القديمة والتاريخ كان قصدي منه ولا شك توسيع عقله وتنمية

إدراكه بيد أني أرمي الى غاية أخرى أ.كز في نفسي من هذا وهي أن انشى في نفسه الاستعداد للسلوك في هذا الكون ذلك لان ماتتضمنه تلك الآداب من أسى الاقدام النفسي والاخلاص في العمل وحب الوطن أشد في قلب اليافع تأثيراً وأبلغ في نفسه موعظة من جميع ما يقوله الخطباء ويوصي به الحكماء بل في نفس التحمس الذي يبدومنه في استحسانها بذل لنفسه لانه يخرجها من معقل امتناعها ويخلعها عن عرش صلفها ليسويها بمن استحق الحياة استحقاقاً صحيحاً . وإني لاقنط من فلاح الطفل الذي لا يروقه شيء وأما من آنس من نفسه التأثر بما لغيره من بهاء العظمة ورونقها فذلك الذي أوتيت نفسه سرا من أسرار الله.ان فضائل الغابرين أبلغ من فضائل الحاضرين في جلب الخيال بما عليها من مسحة القوة والبسالة وأعمال اليونان والرومان لبعدها عنا بحسب ترتيب الازمان يحليها البعد والغرابة ببعض السمات التي قد تغالي بها فتجعل لها من القيمة فوق ماتستحقه ولكن ذلك لايزيدها الا لجاجة في دعوة الناشئين الى اجلالها واعظام قدرها واذ علمت ذلك رأيتني غير مخطيء في التعويل على تأثير الاقدمين في ترقية أفكار ولدي وتهذيب خلقه .

على اني أعلم حق العلم ان جميع ماخلفوه لنا لا يدعو الى الاعجاب على السواء فما سيبيون[1] الذي جندل انيبال ودمر قرطاجة[2] مثلا بالبطل

(١) سيبيون واسمه ايمليان الملقب بالافريقي الثاني كان رابع أولاد بولص اميل ولد في سنة ١٨٥ ومات في سنة ١٢٩ ق.م تبناه عمه الذي هو ابن الافريقي الاول من أسرة سيبيون وكان على يده انتهاء الحرب الثالثة بين رومية وقرطاجة فكانت هي خاتمة هذه الحروب فانه أخذ قرطاجة في سنة ١٤٦ ق.م (٢) انيبال هو قائد قرطاجة تولى قيادة الجيش في الحرب الثانية التي حصلت بين قرطاجة ورومية وبعد انتصاره =

الذي سأسترعي الى سيرته ذهن «اميل» كلا بل سأوجه كل همتي الى تفهيمه ان ما يلاقي من الهزائم اجلالا لوجدان الحق أعلى منزلة وأعظم خطرا من الانتصار ببيض الصفاح وسمر الرماح وان المجد الصحيح انما هو في علو النفس وشرفها وسأقول له ارأيت اليوم الذي انتصرت فيه رومية على قرطاجة فذلك هو اليوم الذي وفى فيه ريجولوص [1] بعهده فانطلق الى افريقية وحده لا يثنيه عنه لجاجة زوجته وأولاده ولا دعاء اخوانه وأصدقائه مع علمه بأنه ملاق حتفه وساع الى هلاكه. في ذلك اليوم ظهر ان رومية قد برزت على قرطاجة في صدقها ووفائها ولم يكن تبريزها عليها في غير هاتين الفضيلتين الا أمرا مرتهنا بوقته اذ كان لا بد لقرطاجة من الغلب والقهر

لا مراء في أن الجمهورية الرومانية أيام مجدها وعلوها كانت تسفر عن أخلاق شريفة وطباع كريمة وليس كذلك حالها في عصر تدليها واضمحلالها ولو أني أردت تبصير « اميل » علة هذا التدلي لحصرتها في اعواز الفضائل الجمهورية إعوازا كان سببا لنجاح الحكم المطلق في رومية وطول مدته. فلست أخشى على الحرية ما قد ينتابها من الاخطار المادية ولا أخاف على رومية أن يقف بأبوابها التركينيون [2] أو بورشينا [3]

= في مواطن كثيرة هزمه سيبيون فانتحر بالسم تخلصا من انتقام الرومانيين. واما قرطاجة فهي مدينة افريقية قديمة. (١) ريجولوص قائد روماني قتله القرطاجيون لانه ارسل من قبلهم الى رومية للمفاوضة في المبادلة بالاسرى فتكلم في مجلس الشيوخ بما ينافي هذا الطلب وعاد الى قرطاجة فمات صبرا « ٢ » التركينيون هم بعض ملوك رومية الاولين « ٣ » بورشينا هو ملك اتروريا حاول اعادة التركينيين الى ملك رومية فهدده موشيوس سيفولا فولى مذعورا

يتمنون الاستيلاء عليها مادام فيها امثال موشيوس سيفولا [1] وإنما الذي أخافه على أمة من الامم هو خسة الضمائر ولؤم السرائر .

نفوسنا هي مواطن الظلم ومكامن البغي فالذي علينا هو أن نحاربه فيها ونجليه عنها قبل محاربة الملوك الظالمين واجلاء الجبابرة الغاشمين ومن أجل هذا لم يك ينفع بروتوس [2] وأنصاره أن بقروا بطن القيصر فان قلب رومية كان مقروحا بالداء القيصري .

كان أولى بذلك الرجل وقد أراد أن ينزع تاج الملك ممن كان مستمداله ان يرجع أولا الى قلبه فينزع منه كبر الاشراف ثم ينزع ان استطاع من نفوس قرنائه ما علق بها من الرذائل والنقائص التي تقتضي وازعاً يردمن جماحها ويكف من نزعاتها ولولا تقصيره في ذلك لاستحق ما أتاه من الاعمال الدالة على الشهامة والبسالة أن تبيض به صحف التاريخ بل كان من شأن هذه الاعمال أن تؤخر استقرار حكم الاستبداد ولكنها لم تستطع أن تقوم بالامة من وهدة انحطاطها .

حدثت في أخريات أيام الجمهورية الرومانية أحداث كثيرة شوهت محاسنها كالنظام العسكري الوحشي واهدار الدماء وضروب التعذيب والاطماع الخسيسة وبيع الضمائر وتناوب أرسال [3] الضعفاء والاوغاد التسلق بعجلة الظافر . على أنه كان لا يزال يظهر في جهات مختلفة من

---

(١) موشيوس سيفولا هو رجل روماني أراد أن يقتل بوشينا ملك اترورياها فاخطأه وقتل كاتب اسراره واراد ان يثبت لهذا الملك ثبات الرومانيين فوضع يده اليمنى في جذوة نار مستعرة (٢) بردتوس واسمه مرقص جوليوس احد قتلة قيصر الروم
(٣) الارسال جمع رسل بالفتح وهو القطيع من كل شيء

قرارة الدهماء المنهوكين المنحطين بعض الاخلاق الفاضلة ظهور الصخور التي تشرف على ماحولها من المياه المنخفضة . ولا قنوط من ارتقاع شأن الحرية ما بقي في الناس أباة للضيم موقنون بظفرهم في التدودعنها فان هؤلاء يشهدون الجهاد في سبيلها وقد يلاقون الهزيمة فيه ولكنهم لا يشهدون اندثارها اندثارا لا قيام منه . وانما تزهق روح الامل من حياتها متى انحازت العقول بعد كلالها وهي صامتة الى حكومة مطلقة لكنها ساكنة مطمئنة تلين للمحكومين كلما شعرت بازدياد أمنها وزوال مخاوفها فأضر نظام سياسي على أمة من الامم انما هو الحكم الاستبدادي المجرد من الصرامة والقسوة وكذلك كان حكم أغسطس للرومان .

كان عجب الامة في ذلك الحكم لا يزال يتغذى ببعض ضروب من الغرور غريبة ككونها لا تزال خير أمة بل أميرة الامم ، وكون أعلامها وألويتها لا تزال مبجلة في الخارج ، وكونها تنتصر على المتوحشين من حين الى حين ، وكونها صاحبة الآلهة وصحف الكاهنات والفنون الجميلة والآثار العظيمة التي تروق الاجانب ، وكونها جددت بناء رومية وهي المدينة الابدية من قواعدها الى سقوفها — كل هذا صحيح ولكن واحسرتاه فليست تعبئة الجيوش ولا انشاء القلاع والحصون ولا بناء المعابد مما يغني عن الامة من سقوطها شيئا فقد بقي معبد المشتري المسمّى بالقابيتول في رومية بعد فناء الرومان .

ليس لي الا كلمة أقولها في شعراء عصر اغطس وهي أن احسن هؤلاء الشعراء قطعا في نظر المطمين فرجيل وهوراس فهما اللذان يحب هؤلاء

أن تجعل كتبهما في ايدي الناشئين ا كثر من غيرها وان كان كلاهما قد تجرد في معظم ما كتب من شرف النفس وكرامتها . ألم يلاحظ من قرأ عنينية [1] فرجيل ان نفس مغزاها ملكي وهو مغزى ما كان يرد ـ على ما أرى ـ في ذهن شاعر زاهر الخيال في أيام الجمهورية الجميلة فقد وصف فرجيل ممدوحه المسمى عنيّ بالانسان الذي تجلت فيه العناية الالهية وتوحدت في شخصه الامـة وبأنه المنجي لامته المؤسس لجيله ومثل هـذه المعاني يرى عليها أنها موسومة بميسم الملك الذي برزت في عهده ومطبوعة بطابع القرن الذي ظهرت فيه وسواء كانت حسنة أو قبيحـة من حيث الفن فهي تشف عن حالة العقول في ذلك العصر وتسفر عن الخطة التي رسمتها لنفسها الحـكومة الذاتية حتى في نفوس الخيار من الامة .

أن أجود الاشـعار وأحسنها ليس في استطاعته ان يحجب دناءة النفس ولا أن يستر خسة الطبع . ولقد كان شعراء اللاتين قدوة سيئة لخلفهم بما كان يصدر عنهم من ضروب التمليق الخسيسة وانواع المدائح التي كانوا يطرون بها اغسطس تحقيقا لاغراضهم ونيلا لامانيهم فأسسوا به في الدنيا من حيث لا يشعرون وظيفة الـكتاب والشعراء المتزلفين . على أن فرجيل وهوراس كانا أميري هذه الصناعة ولم يكن غيرهما فيها الا عيالا عليهما

ألخص لك ما تقدم فاقول ان دراسة آثار الاقدمين تختلف ثمراتها باختلاف الطريقة التي تباشر بها فاجلال هؤلاء بلا قيـد ولا تمييز ولا نقد يؤدي الى ما تؤدي اليه جميع ضروب الوثنية وهو صغار النفس وضعتها

---

(١) عنينية فرجيل قصيدة قالها في مدح عني وهو امير طروادي ابن انكيز والزهرة وصفه فيها بأنه مؤسس النسل الروماني

ذلك بأن ما يؤثر عنهم من المحفوظات والخرافات والكتب والاشعار الحسنة له من الظلم والتحكم في النفوس ما لا تقل الخشية منه على الناشئين عن خشية ظلم الحكام الغاشمين وتحكم الطغاة المستبدين . وبهذا يبطل العجب من أنه يوجد اليوم من تلاميذ اليونان والرومان من يلتمسون في علوم البيان وسائل للذود عن مصالح الغابرين ومغالطاتهم ومنهم من يرومون منها دروعاً حصينة للحرية تكف عنها عوادي الباغين .

نحن على ما فينا من النقائص كلها أحسن من الاقدمين حالا وارفع شأنا وان جاز علينا التدلي والانحطاط كما جاز عليهم لان فينا قوة النهوض والارتقاع الى ما انحططنا منه وان لنا عليهم لفضلا كبيراً بسمو وجداننا فكأننا بتأخرنا عنهم في الوجود قد أخذنا على انفسنا ان نكون خيراً منهم لان وجدان الواجب كوجدان الحق ينمو ويرتقي بمرور الزمان ولعمري انه لا ينكر ما للتمدن المصري من ضروب التأثير في النفوس والعقول الا مكابر خبيث الطوية ولست أريد بما قلته أننا اصبحنا بهذا التمدن اكثر من الاقدمين أخلاقاً فاضلة وطباعاً باسلة ومعارف واسعة وتحمسا في الميل الى الحسن . لا ألبتة بل أريد أن معاني العدل واحترام حق الغير قد شاعت فينا ورسخت في نفوسنا فصرنا اكثر منهم اهتماما بمن يخالفوننا في العناصر والاحوال القومية والاقاليم وألوان الجلود فنحن الآن من حيث كوننا من بني الانسان اقل من اليونان والرومان بعدا عن كل ماله مساس بالانسانية .

الشذرة الثالثة عشرة

السفر من اركان التربية

لا يخفى على أحد ما لما تتأثر به النفس وتحفظه الذاكرة في الصغر من اللصوق والتمكن. هذا شكسبير[١] يدعو حاله الى اعتقاد أن معظم الفضل في بلوغه تلك المكانة العالية في الشعر يرجع الى نشأته بالقرب من نهر الآون[٢] الانيق الذي تفيض مياهه على مدينة استراتفورد[٣] وما يحيط به من الاودية الخصبة الغنية بالشجر والنبات ومجاورته لغابة اردان[٤] التي كانت متنزهاله في سنيه الاولى من حياته. يدلك على ذلك انه لما كتب فيما بعد القصة الهزلية التي عنوانها «كما تحب وترضى» اتخذ هذه الغابة نفسها محلالاهم منظر من مناظرها ومثّل اما كنها للنفوس وجلّى مواقعها للاذهان بأوجز العبارات وأوضح الاشارات. لم يكن هذا الا لكونه مع نزوحه عن مركز استراتفورد الذي هو مسقط رأسه لم ينس منظر هذا الريف بل حفظه في مطوى من مطاوي نفسه. وهذا أوليفار جولدسمث[٥] ذو العقل الثاقب والذكاء المتوقد لم يذهله حين أقام في لوندرة ماشاهده فيها من الاختلاط والتشوش عن ذكر قرية لشوى التي نشأ فيها ولم ينسه ما كان

«١» شكسبير هو أشعر شعراء الانكليز كما مر «٢» نهر الاون هو احد أنهار انكلترا المشهورة وهو قريب من مدينة استراتفورد «٣» استراتفورد هي أهم مدينة في مركز استراتفورد «٤» غابة اردان هي في هذا المركز ايضاً

«٥» أولفيار جولد سميث هو شاعر وقصصي انكليزي شهير ولد سنة ١٧٢٨ ومات ١٧٧٤ مسيحية

يراه هناك من جدول الماء والطاحون والكنيسة وفندق الحمائم الثلاث وسياج العضاة وغير ذلك من خصوصياتها بل مدحها في القصة التى كتبها بعد وسماها الكميت (الا برن). وكان واشنجتون ارفنج[1] الكاتب الجوني الرحالة الذي استهوى النفوس ببدائع ظرفه وخلب الالباب بدقائق وصفه يحمد الله (تعالى) ان أنشأه على ضفاف بحر أوتسون[2] ويقول: ان ما كسبه طبعي المختلف العناصر من الخير والتهذيب يصح ان ارجعه الى محبتي لهذا النهر في صغري فقد كنت في حدة الحمية الصبيانية اكسوه بعض الخصائص النفسية واعتقد ان له روحا يقوم بها وأعجب بما في طبعه من الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة ذلك لانه ليس من الانهار التى تبسم صفحاتها عن خداع وتضمر السوء بما تحتها من الشعاب المهلكة والصخور الغدارة بل هو طريق مائي بهيج جم الى عظم عمقه كثرة اتساعه يحمل السفن التى توكل الى أمواجه بقلب سليم ونية شريفه وكنت اتخيل نوعا من المجد والعجب في استقامة مجراه وسكينته وسلامته الباهرة .

انما مثلت ببعض الشعراء لانهم هم الذين نعرف شيئاً من أحوالهم النفسية في حياتهم. غير اني لا أرتاب أبداً في أن مايحتف بالناس من الاحوال والامور الخارجية لا يحدث في نفوس جميعهم أثراً واحداً وانهم يختلفون أيضاً في درجة التأثر بها وان ما شاهده الانسان في صغره يلازمه في كبره ويصير جزأ من نفسه وما صحبه من الاشياء وهو يافع لا يجانبه في كبره بل يظهر أثره في صورة خلقته وفي مجرى أفكاره .

---

(١) واشنجتون ارفنج هو أديب وقصصي أمريكي ولد سنة ١٧٨٠ ومات سنة ١٨٥٩

(٢) بحر اوتسون هو خليج متسع على السواحل الشمالية للقسم الانكليزي من أمريكا

ليس كل ما يحيط بالانسان مما تتناوله مشاعره يصلح على السواء لحفظ صحة عقله فقد روى أن ملتون [1] كان يتألم ويشكو مر الشكوى وهو يتلقى دروسه فى مدرسة كمبردج الكاية من ضواحي هذه المدينة معللا شكواه بأنها خلو من الظلال الوارفة التي تجذب الهات الشعر وتؤويها. وكان روبرت هول الكاتب الانكليزي الذائع الصيت الذي كان يتعلم في تلك المدرسة بعد ملتون بقرن ونصف ينسب أول نوبة أصابته من نوبات الجنون الى استواء الارض بمركز كمبردج وخلوها من الربى والهضاب الشجراء

الناس وان اختلفوا في درجات تأثرهم بفقد ماهم محتاجون اليه لا أظن أنه يوجد منهم من لا يتأثر البتة بما يكون من العيوب والمناقص في المناظر الريفيــة التي يراها على الدوام اللهم الا قليلا لا يعتد بهم واذا صح ذلك فلشد ما يبلغ هــذا التأثر السيء من أذهان الاطفال فان الرجل البالغ قد حصل له من قوة النفس والخيال ما يكفي لمفاعلة ما يحتف به من الاشياء فحسبه في معظم الاحيان أن يخترق قلبه شعاع من أشعة الحب أو يكون في نفسه وجدان قوي او تجتمع في ذهنه بعض المعاني حتى يرتقي بالريف المبتذل الذي لا قيمة له في ذاته من شيوع الابتذال الى الاختصاص بشرف الخيال وليس هكذا حال الحــدث الذى بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره فانه في هــذه السن لا عمل له في فطرة ما حوله من المخلوقات لانه ليس في استعداده اذ ذاك ما يكسوها بهاء ويزيدها رونقا ورواء بل هو يتأثر بها كما هي فمن الفوائد الكبرى له ان

(١) ملتون شاعر انكليزي شهير ولد سنة ١٦٠٨ ومات سنة ١٦٧٤.

يولد أو يتربى بالقرب من بعض المناظر الكونية العظمى كمنظر نهر جميل أو بحيرة أو جبل أو غابة .

منظر الريف في كورنواي منظر مهيب غير انه واحد لا تغير فيه وليت هذه البلاد كانت أكثر اشجارا مما هي الآن فان مثل اليافع الذي لا يرى قط الا ناحية من نواحي الكون كالصخور أو البحر كمثل من لم يقرأ الا كتابا واحدا .

لا بد في تربية الانسان خصوصا في صغره من تنوع الفواعل لتتنوع آثار انفعاله بها ذلك لان كل فرد من أفراده يميل الى بعض المناظر دون بعض حتى يكون هذا البعض الذي يميل اليه كطبعه في الاختصاص به ومعنى هذا ان ضروب الحسن في الطبيعة تقابلها في نفوس الناس مناسبات ذاتية وليس المنظر الذي يتخيره الانسان ويرتاح اليه يأتيه على الدوام عفوا بل لا بد من السعي وراء تحصيله فمن الناس من ينشأ اتفاقا في سهل من السهول ويكون ميله للمناظر الجبلية ويوافق هذا قول أحد الكتاب في وصف رجل لا أذكر الآن من هو : انه عربي ولد في ظل شجرة تفاح بنورمنديا[1]

بلغ «اميل» السن التي تبدو فيها حاجة الناشيء الى الاختلاط بما حوله والمربون يخدعون هذه الحاجة في معظم المراهقين بايتائهم قصصا في الاسفار هي ولا ريب أدعى الكتب الى التفاتهم اليها واشتغالهم بها غير انه مما لا نزاع فيه ان وصف البلاد بالغا مابلغ من قوة البيان وضبط التحرير لا يرتقى في تأدية العلم بها الى درجة المعاينة بل هو أدنى منها كثيرا فلا يمكن أن يستغنى به عنها . من أجل ذلك كانت سن الثالثة أو الرابعة عشرة هي السن التى

(١) نورمنديا إقليم من الاقاليم الفرنسيه القديمة التي دخلها العرب الفاتحون

يظهر فيها هوس الملاحة في رءوس الصغار من سكان البلاد المجاورة للبحر كانجلترا فكم من صغار من هؤلاء البسلاء يصيبهم من ولوعهم بالتجوال في الاقطار السحيقة مرض لا يحد ولا يوصف كما يصيب العصفور الخطاف في الفصل الذي يهاجر فيه رفاقه. فيتسللون من بيوت أهليهم فلا يعودون اليها في حياتهم . واما سكان البلاد الاخرى فان حب السفر لا يكون في الكثير منهم الا حاجة وقتية لانهم بعد ان يقضوا بضع سنين على سفر يركبون فيه متن المهالك يرجعون الى أوطانهم فيعيشون معيشة الاستقرار.

الذي يدهشني من المربين هو قعودهم حتى الآن عن البحث في الانتفاع بالأسفار في التربية وجعلها ركنا من أركانها . إن قيل إنما يمنعهم من ذلك حاجتهم الى الزمن قلت إن السفر الى أمريكا مثلا لا يقتضي الآن من الزمن أكثر مما يلزم لتعليم التلميذ شكل الكرة الارضية تعليماً فيه شيء من الحق على ما في السفر ومعاينة الاشياء من الفوائد الكثيرة التي لا يستفيدها المتعلم من أي درس من دروس تقويم البلدان كتابية كانت أو قولية وإن قيل إن ما يقتضيه السفر من النفقات هو الذي يخيف المربين منه ويصدهم عنه قلت قد فهمت هذا الاعتراض الا أنه يوجد من الطرق غير واحدة للسفر بدون كبير نفقة وإنما أكبر العوائق في هذه السبيل هو حذر الآباء والامهات وخوفهم على أولادهم فان فكرة غياب الغلام الغر عن نظر امه ووكله لامواج البحار ومخاوف الاسفار وتخليته ونفسه مما يهيج نفوس الامهات وتثور له قلوبهن . لا جرم ان اهتمامهن بأولادهن حقيق بالاحترام والاجلال ولكن ينبغي ان يفهمهن القائمون على التربية أن ليس في الغياب شيء يقطع أواصر الرحم وان عرى المحبة

والوداد تجمع بين القلوب الشريفة والنفوس الكريمة مهما اتسعت مسافة البعد بينها وأنه لا خوف من الحرية الا على الابناء الذين لم يبكر بتعليمهم الاستقلال بالسير في هذه الحياة . على أنه لا يصح أن تكون محبة الوالدين لاولادهما الاعزاء مقصودا بها لذتهما بل لابد أن تكون غايتها الحرص على مصلحتهم فان رحمتهما بهم تدب اليها شبهة الاثرة اذا انحصرت في ابقائهم في كنفهما وان أخل ذلك بتلك المصلحة .

وفوق ذلك فانه لم يكن من العبث أن استعملت فى ايامنا هذه قوة البخار في طي المسافات الشاسعة وتقريب الاقطار المتنائية وأبعدت الملاحة في فتوحاتها ورخصت للناس أسعارها فاصبح السفر الى البلاد المسامتة لنا من أسفل معتبرا عند شبان الانكليز من قبيل التنزه وتمضية وقت الفراغ في البحر وقد شعر النوع الانساني بنمو اجنحته للرقي فلا محيص من التسليم وأنا أخشى ان لا تغني حكمة الشيوخ الزاجرة عن السفر ولا الجدول الاطلانطيقي شيئاً مما يجده خلفنا في نفوسهم من الحمية والحاجة الى رؤية العالم .

جميع الامم الحرة أمم رحالة لا يعوقها بعد المسافات ولا اختلاف الاقاليم ولا العقبات المادية بل ولا تعلقها المتين الاعمى بالزاوية التى تعيش فيها من الارض .

القوانين التي جرى عليها توزيع أجيال النوع الانساني على البلدان قد تحدد بعضها بالفطرة وبعضها بالتاريخ وكثير منها بسياسة الحكومات ومازال الحاكمون في كل عصر يعنون أشد العناية بان يعيش المحكومون ويموتون

في الارض التي ينبسط عليها سلطانهم سواء في ذلك الاغنياء منهم والفقراء وقد استنتجوا من كون هذا الامر مفيداً لمصالح ملكهم أنه من الفروض التي لهم على رعاياهم ونجحوا في اقناعهم بذلك وكان من أوهام المربين وخيالات الشعراء وأفكار رجال الدين ما تضافر في قرون طويلة على أن يغرس في القلوب غريزة يشترك فيها الانسان والجماوات وهي حبه للمكان الذي ولد فيه نعم إنها من الغرائز الحسنة ولا تنس أنها هي السبب في تألف الجماعات ولكن لا يعزب عن ذكرك أيضاً أنه يسهل أن يساء استعمالها ليبقى المستضعفون من الناس عبيداً للاقوياء الغاشمين .

لما كانت جماعات الانسان في بداية نشأته قد انحصرت كل واحدة منها في بقعة من بقاع الارض كانوا معتادين من صغرهم على المعيشة في الاماكن التي يجدون فيها مايقتاتون به ووصلت بهم هذه الحالة الى حد أنهم قد عدوا هذه العادات الانحصارية من الفضائل وأما أنا فلا أعدها الا معيبة ولا أقدرها بما لا تستحق فمازال الفلاح اللاصق بأرضه يقلبها ويزرعها أدنى منزلة في الجملة من المدني والمدني نفسه يستفيد ويرتقي كثيراً اذا اتسع نطاق معاملاته مع العالم .

الامم التي تكون عالة على أرضها اجنبية عن لغات غيرها في وسعها ولا شك أن تقوم بعظائم الامور وجلائل الاعمال لكنها تكون أكثر من غيرها استهدافا لقوارع البغي السياسي فانها لا تتأثر من تعطيل القوانين ولا من إبطال كفالات الحرية ولا من دوس حقوق الافراد واهتضامها ذلك لان أبناءها يلتصقون وهم كالمستميتين بقطعة الارض التي تؤويهم وقد دنسها الدم الذي سفكه عدوها الظافر وجعل منه قرابا لسيفه

فالاغتراب أشد رهبة فى صدورهم من جميع المصائب ولو أحاطت بهم فوادح الخطوب القوميـة من كل ناحية فاذا نفي بعض ذوي الوجاهة والنفوذ من الاحزاب المستضعفة إما بحكم الضرورة أو بما يتخـذ من طرق القهر في زمن الفتنة كان النفي أبلغ المحن في نفوسهم ألما فتراهم حيارى لا يدرون أين يذهبون ولا ماذا يصنعون وقد صارت الدنيا في اعينهم وهم خارجون من ديارهم صحراء يعوزهم فيها الدليل ووحشة لا يجدون فيها الانيس .

وأما الامة التي يعتاد أفرادها من نعومة أظفارهم على قطع أجواز البحار ولا يكونون بمعزل عن لغات الامم الاخرى وعوائدها ويدرسون أبعد ضروب الحضارة عنهم وأشدها اختلافا فانه لا يكون لصروف الدهر عليها سبيل ولا يخشى بنوها بطش القوانين الخاصة ولا التغريب بل يكونون أصـدق من فليبس الثاني [1] اذا قالوا متشبهين به ما كانت الشمس لتغرب عن حكومتنا

ولقائل أن يقول : إن عادة السفر قد تضعف في الاحداث العاطفة الوطنية فاجيبه اني لا أميل قطعاً الى عموم معنى الوطنية واتساعه فما التمس من تكون الدنيا كلها وطنا له اذ لا يكون الانسان انسانا الا بشرط أن ينتسب الى طائفة معيـنة من البيت الانساني وأن يكون له لغة وأمـة خاصتان به غير أنه لا ينبغي أن يتوهم ان حب الوطن الحقيـقي يضيع كثير من معناه اذا تجرد عن روابط الوثنية المادية التي كثيرا ما تشوهه وتبخس قيمته فليس الوطن مطلقا عبارة عن الجبل أو السهل أو الغدير الذي يولد الانسان

(١) فليبس هو ابن امنتاس أحد ملوك مقدونيـة الخمسة الذين تسموا بهـذا الاسم حكم من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٣٦ ق . م وفتح بلادا كثيرة .

بجواره اتفاقا وليس هو من القرميد او الحجر ولا هو بالمكان الذي يحصره سطح يقدر بالفراسخ المربعة كلا ليس الوطن شيئا من ذلك ولكنه معنى يقوم بالذهن بل تاريخ الامة بل آثار سلفها وان شئت فقل انه وجود كلي تشعر جزئياته بالمعيشة فيه ولا شيء من ذلك كله يضيع في ركوب متن البحار ولا في اجتياز المفاوز والقفار اذا نقش على لوح القلب وتحققت به النفس .

***

جاءتنا أخبار من بلاد البيرو بواسطة بعض معارفنا تحمل على الاعتقاد بأن دولوريس قد سلبت أموالها بتواطؤ حصل بين أقاربها وقد استفتينا العارفين بالقانون فكادوا يجمعون على ان هذه القضية الغامضة لا ينجلي غموضها ولا ينكشف سرها الا في البيرو وانها تقتضي ان نوسط فيها صديقا يعهد اليه بمصلحة الفتاة المهضومة فنقبنا عن هذا الصديق فلم نقع عليه

صنائع البر يستلزم بعضها بعضا فاننا وان لم نتبنّ هذه الفتاة الاجنبية قد التقطناها وآويناها الى بيتنا وصار من الحق علينا انصافها في بلدها .

فكرت في أن أسافر بنفسي للقيام بهذه المصلحة فرأيت غير واحدة من العقبات تدافعني عن تنفيذ هذا القصد: من ذلك ما يقتضيه قطع تلك الشقة البعيدة من النفقات وعدم احتمال الفوز بالحق في الدعوى والروابط التي تربطني بالبقاء في أوربا وبالجملة فان سبعين اعتراضا قويا قد وقفت بي موقف المترددين الاقدام والاحجام فقد تعاهدت أنا وهيلانة بعد الذي ذقناه من ألم الفراق ان لا نفترق ولا أدري ان كان في مكنتها احتمال سفر شاق كهذا. ولو أنه اقتضى ان نحتمل مضض الفرقة مرة ثانية لما تريثت في اطراح خاطره .

على ان هذا الخاطر لا يزال يساورني والحالة التي أصبحنا فيها بسبب

كفالتنا لتلك الفتاة العزيزة علينا وما يلحقنا من تبعات التقصير في شؤونها لم تكد تترك لي حرية الاختيار في السفر بل قد شعرت بوارد يأمرني به أمرا.

وأقول على اي حال : أفلا يجوز ان يكون الانسان منافقا يتخذ المقدور من حيث لا يشعر ستاراً لإخفاء نفاقه ؟ أفلا يصح اننا مع اعتقاد امتثالنا في العمل لحكم الضرورات تتبع في أغلب أعمالنا ماتوحيه الينا شهواتنا أو نمزج المصلحة التي نتخيل اننا نقوم بها لغيرنا بشيء من الاثرة أو يكون ميلي الغريزي الى التجوال هو الذي قد تنبه في نفسي واجتهدت في مواراته بحجاب صنيعة المعروف أوان تكون لي غاية خاصة أو سبب خفي يدفعني الى تغيير الهواء الذي أنا فيه ؟؟ .

لست أقطع بشيء من ذلك ولكني كلما تساءلت خيل لي ان قصدي الاول انما هو نفع الولدين اللذين اخذت على نفسي تربيتهما .

لو كان في وسعي ان لا استفتي الا ميلي وذوقي لجاز أن لا تكون البيرو هي المكان الذي أتخذه من الارض موضوعا للدرس والتعليم وذلك لفرط بعدها ولكن ما أوسع السفر اليها من ملعب يتجلى فيه كثير من الوقائع والمرائي اذ يرى المسافر سموات مجهولة له يعمرها من الكواكب مالا ينير أقطارنا الكامدة ليلا وبحارا مشحونة بالغرائب وسواحل قاصية ابرزها للعيان فعل الجبال النارية وخليطا من الاجيال الآدمية التى لم يتم امتزاجها وتسفر اخلاقها عن تاريخ تام .

سن المراهقة هي السن التى يكون فيها التأثر قويا فهي التي تنتقش فيها على المخ صورة العالم الخارجي أتم انتقاش وأدقه وعند « اميل » الآن من العلوم الصحيحة ــ ان لم أكن واهما ــ مايكفي لاشتغاله بالكون وسيؤهله

درس الوقائع الكونية المحسوسة لدرس المعقولات فان تعليم فن الالفاظ ومحسنات اللغة لحدث لم يشاهد شيئا بنفسه ويراقبه ويحس به كنثر الزهر في كهف . اه

الشذرة الرابعة عشرة

﴿ التربية بركوب البحر ﴾

عن ميناء لوندرة في ٣ مارس سنة ـ ١٨٦

في البحر:— تقرر أن يقلع أصحاب السفينة التى تقلنا في يومين وها نحن أولاء نتام فيها من الآن .

ذلك اني كنت قرأت في الصحف الانكليزية منـذ ستة أسابيع اعلانا بأن سفينة تسمى المونيتور تسافر عما قليل الى بلاد البيرو فلم ألبث عند وصولي الى لوندرة ان سألت عنها ولاقيت ربانها في أحواض الميناء وهو رجل في نحو الثانية والاربعين من عمره اسمر قصير بادن تؤذن بدانته بأن ستنتهي بسمن مفرط مع ما هو فيه من عيشة الجد والنشاط ويطري الناس خبرته ومتانة سفينته وإني قلما صادفت وجهاً أطلق من وجهه ولا أدل منه على الذكاء والاستقامة. وقد تبين لي انه عرف في استراليا ربانا جسورا انقطع للملاحة لا يعرف غيرها كنت سافرت معه فيما سبق واتخذته صديقا فلما علم اني صديق صديقه أقبل عليّ بصدر رحب وقلب سليم وكان من نتيجة هذا التعارف ان اتفقنا على أن أكون طبيبا للسفينة كما كنت لذلك الصديق وان يكون « اميل » تلميذا بحريا في مدة السفر.

لما سمعت والدته بهذا ارتاعت في أول الامر لما توقعته له من سوء الطالع في ذلك العمل فاجتهدت في تسكين روعها مبينا لها مقاصدي منه.

بلغ « اميل » الآن من السن أكثر من ثلاث عشرة سنة واصبح طويل القامة قوي الجسم يتمتع بصحة تامة من اسبابها فيما أرى نظام المعيشة الذي جرى عليه وقد بدا لي ان اشتغاله بتعلم الملاحة فرصة مفيدة لتربية قوته البدنية وشد أعضائه وتذليل عضلاته باعمال تقتضي من المهارة مثل ما تقتضيه من الشجاعة الحقيقية فاني وهيلانة ما قصدنا قطعا أن نجعله واحدا من اجنة العلم الفاسد الذين لا حياة لهم الا في رءوسهم فليعجب من شاء بأولئك المراهقين السقام المخدجين [1] الذين اعجزهم الدرس عن العمل فليس هذا هو الكمال الذى نطلبه « لاميل »

رأيت الناس في مكان لا يحضرني اسمه الآن يجرحون باطن الصدفة في بعض الحيوانات الرخوة بطرف خنجر ليحملوا هذه الحيوانات على توليد اللؤلؤ بالصناعة فذلك يشبه أن يكون شأن المربين مع أحسن التلاميذ فهم يتلفون بناهم وينهكون أجسامهم ولا أدري أي قصد لهم في ذلك سوى الحصول على مجموع من المعاني تحجر في اذهانهم تواضعوا على أن يسموها علما !! غير اني في شك من أن ما يحصله المتعلمون من تلك المعاني يعوضهم شيئاً مما خسروه في سبيل تحصيله من قواهم وما اتلفوه من صحتهم . ولست أقصد بقولي هذا تثبيط المتعلمين عن العلم فان الانسان خلق ليعلم وإنما أريد ان يفهموا أن العمل البدني والعمل العقلي متكافئان في لزومهما

(١) المخدج هو الذي يولد ناقصا بعد تمام مدة الحمل .

لتقوية العقل واحصافه فعلينا ان نربي كل ما وهبه الله لنا ولا نستخف بشيء منه

استشرت «اميل» قبل اعتزامي على هذا الفكر فألفيته مملوء النفس به لأنه كجميع اترابه يحب الجديد ويأنس من نفسه فخرا بتعلمه حرفة. ويجب في هـذا المقام أن أبين مرادي وهو أني لا اعتقد بحال انّ من حقي أن اختار لولدي عملا تقوم به معيشته كما أني لا أدعي لنفسي حق الزامه الايمان بعقيدة دينية أو سياسـية على أنه لما يأت وقت التفكير في الحرفة التي ينبغي أن يشتغل بها ولا أدري هل يعرف بنفسه مايلائمه من الحرف أم لا فان تربيته في غاية البعد عن نهايتها بل هي في بدايتها ولكني أرى أنه مهما حذق المربي في التبكير بانشاء الطفل على الميل الى النفع والطمع فيـه لم يكن ذلك منه عجلة مذمومة ولقد عرف « اميل » ممـا تلقاه على والدته من الدروس شرف العمل وكرامته فتراه يتخيل الآن أنه سيكسب أجرة سفره بتسلقه شُرُع السفينة وهو تخيل غير صحيح الا في جزئه غير أني تحاميت كل التحامي ازالة هـذا الوهم من نفسه وتركت له أن يفخر بأنه يطعم خبزه الجاف بكده ونصبه فان أقل مافي هذا أنه مفخرة كنت أكون جديراً باللوم لو أني حرمته منها .

ثم أن التعليم في سفينة تجارية مفيد ومقوّ للعقل خصوصا اذا كانت مدته لا تتعدى بضعة شـهور فحرية الانسان على ظهر البحار هي ان لا يخضع الا الى الواجب فطاعة البحار في الحقيقة فيها شيء من الاختـيار وهذه هي الخاصة الفارقة بينه وبين الجندي فالرجل الذي يرى من نفسه الجهل ببعض نواميس الكون فيبدي من قوتها مايكفي لامتثال أمر الربان

وهو يعلمه بقول موجز ما جهله من تلك النواميس يكون قد جمع في عمله هذا بين الاستقلال والحكمة .

لست أبالغ لنفسي مطلقا فيما لهذا التعلم من الآثار الحسنة والنتائج المفيدة فانا أعلم أن « اميل » لن يكون بحارا لمجرد مايمارسه من ضروب التمرن في حبال السفينة بيد ان بلاءه في ذلك لا يمكن أن يتخلف عنه استفادته منه فانه بواسطته يتعلم شيئا من أحوال البحر وبه يعرف اجزاء السفينة الاساسية وما يطلق عليها من الاسماء فكثير من أترابه لا يعرفون شيئا من أمر هذه الدنيا السابحة .

أخص ما أعنى به في هذا الامر أن يحصل في ذهنه بالاختبار والمشاهدة معنى من القوى الكونية العظمى وما يلزم للانسان في مقاومتها أو قهرها من ثبات الجاش وحضور الفكر وسيكون هذا أعظم درس له في سفره ومما لا يسعني إلا أن أضحك منه انني أسمع بعض المعلمين يقولون لغلمانهم المتبطلين الذين ورموا من صغرهم كبرا وغرورا انهم ملوك الخلق فهلا وصفوهم أيضاً بأن أيديهم البيضاء الرقيقة لم تخلق الا لتقود عجلة الشمس في أرجاء السماء ؟ رويداً أيها المعلمون قفوا هؤلاء الملوك امام البحر فانظروا ما يعتريهم من الرعب خشية أن تبصق أمواجه الكثيفة في وجوههم .

واما (اميل) فانه لا بد أن يتعلم من الآن ما يجب أن يبذله الانسان في سبيل سيادته على الفواعل الكونية وكيف ينبغي أن يكون معها فى كفاح مستمر ليحفظ سلطانه على عرش الماء .

حادثت الربان وهو رجل شهم في شأن ولدي وكاشفته بفكري في تربيته ففهم حق الفهم الدرس الذي أردت تعليمه إياه وهو أن من المفروض على الشبان أن يعتبروا العمل العقلي جزاء للعمل البدني ومكافأة عليه .

الشذرة الخامسة عشرة

مايتعلم في السفينة

في اليوم الخامس من شهر مارس بلغنا ميناجرافسند [1] حيث سلم معرف التاميز [2] زمام سفينتنا الى معرف البوغاز الذي أخذ الآن على نفسه ابلاغنا ماوراء مصب النهر .

في نحو الساعة السادسة من المساء برز الربان على ظهر السفينة وتعهد بنفسه ماشحن فيها من المؤنات كالماء والبقسماط وبراميل اللحم المملح واستوثق من سلامتها ثم قضينا ليلتنا على المرساة .

وقرب حد الظهيرة من الغد سارت بنا السفينة تجرها باخرة صغيرة الحجم شديدة القوة تسمى « نلسن » وفي وقت مرورنا حيال منارة « نور » هبت علينا ريح طيبة فامكنتنا من مد بعض الشرع ثم تغير لون الماء فصار ذا خضرة كدراء .

كانت تلك الساعة هي المعينة لنزولي الى حجرات المسافرين لعيادتهم فيها وليس القيام بشؤون الصحة في سفينة انكليزية كبرى من الاعمال

---

(١) جرافسند هي أحدي موانى انكلترا وموقعها في الجنوب الشرقي للوندرة

(٢) التاميز نهر من أنهار انكلترا يمر با كسفورد ولوندرة ويصب في بحر الشمال

(الوظائف) التي يؤجر صاحبها بلا كسب ولا كد فان « المونيتور » تحمل خمسة وثلاثين راكبا من الدرجة الاولى وقل منهم من يقوى على أول صدمة للبحر عدو الانسان ويكون آمنا من العثار فلم ينج من مرضه الاهيلانة وامرأتان أخريان أو ثلاث

وفي اليوم الثامن من الشهر بلغنا حوالي الكثبان فألقى معرف البوغاز مقاليد السفينة الى ربانها ونزل بالساحل ثم رجعت الباخرة الجارة بعد ابلاغنا هذا المكان من حيث أتت ووكلتنا الى قوانا أي الى شرع سفينتنا ولما رأى المسافرون والملاحون ان هذه البقعة هي آخر موقف يؤذن لهم فيه بالاقتراب من البر حمل كثير منهم المعرّف رسائل لاصدقائهم تتضمن بالبداهة آخر وداع لهم .

جاء دور البحارة الآن في العمل فمدوا أيديهم اليه بهمة وإقدام واشتغل الضابط الاول والثاني للسفينة بترتيب الحرس فعينا لكل حارس عمله ثم تدلت من جميع السواري وهي في نصف ارتفاعها انسجة طويلة نفختها الريح وصفقتها فانشأت السفينة تميد وأحست باستقلالها من وقت ان ثابت اليها اجنحتها وكانت قبيل هذا تبدو عليها علائم الكآبة والخجل ان ترى مقودة بغيرها .

أديرت على الملاحين كأس من خمر عسل السكر استحقوها كل الاستحقاق بكدهم ونصبهم .

مما عرفته من الاماكن في مسيرنا (بيشي هد) وهو راس في أميرية (قونتية) صاسقس وجزيرة وايت وستارت پوينت . وقد صار الماء الآن ذا خضرة بهيجة تطفو على سطحه أعشاب بحرية تشبه التبن

الطويل صادفتنا سفينة راجعة الى انكلترا فخاطبناها بأعلامنا الملونة وسألناها بهذه اللغة السرية أن تبلغ سفر سفينتنا مكتب الملاحة لشركة ليوده

انتهينا من اجتياز البوغاز فخرجنا منه وكان الجو صحوا فصعد المسافرون على ظهر السفينة لاستنشاق النسيم البارد ٠

فلما رأيت اللج مرة لم يكن مرآه فيها مثارا للعجب في نفسي ولكن أخص ماشغل ذهني منه الآن هو جملة العلوم التي استفادها الانسان من ممارسة البحر : انظر الى النظام الكوني تجد علم الهيأة الذي يبحث فيه عنه انما تولد من الملاحة فانه لولا أن حاجة الانسان الى الاهتداء في سيره على ظهر البحار دفعته الى درس الفلك لكان من المحتمل أن لايخطر بباله أصلا أن يتقصي سرا من أسراره فاحتياجه الى السعي في طلب الغنى هو الذي اضطره الى قياس الزمان والابعاد قياسا مضبوطا فترى الملاح الساذج مع انه لايعرف القراءة دائما حائزاً بالتحقيق لكثير من العلوم العملية . سله ان شئت وليكن ذلك عن بعض الامور الطبيعية تجد كلامه فيها يرجع الى ماقرره العالم الذي قضى سنين كاملة في دار من دور الكتب. واذا كنا الآن قد انشأنا نظن أن للرياح والزوابع قانونا فانما كان ذلك بسبب ماجمع من ملاحظات البحارة المختلفين في السفن الموزعة على جميع البحار. فأصبح أشد النواعل الكونية تعاصيا عن الضبط منقادا الى قانون ودخل أبعد الحوادث عن النظام في نظام العلم العام وكشفت المسابير اغوار قعر المحيط وقفاره المفروشة باسلاب فرائسه وأضحى الآن من الميسور رسم خريتة لتيارات البحر السفلية . ثم ان الفضل فيما عرفناه من العلوم الصحيحة عن شكل العالم راجع الى الملاحين .

خلق البحر مثالا الازل لانه مثال للحركة فشهد تولد اليابسات المتعاقبة وانعدامها وارتفاع الجبال وما وقع على مر الدهور من ضروب فعل الارض وانفعالها مما لا يزال يرتجف منه فؤاده وهو اليوم كما كان في مبدا العالم لا يعتوره نصب في جهاده وجلاده فتراه يعض بعض سواحله ويقرض ما يقاومه من الصخور الصوانية ويقتلع بعض أجزاء الارض من أماكن مختلفة فينقلها من أحد نصفيها الى النصف الآخر ليبني بها سواحل جديدة وجزرا ورءوسا لابد أن يهدمها بعد وبدأ به على العمل يتحول من مكان الى مكان على تعاقب العصور بالقوة الساكنة التي توجد فيها لا يموت من الاشياء وكما انه رحم للخلائق العضوية الاولى هو أيضا أكبر مستودع للحياة .

من المحقق الذي لا مرية فيه أن ممارسة البحر قد وسعت دائرة علومنا ولكننا قد استفدنا منه ماهو أجل من العلم نفسه الا وهو ما يتحلى به الرجال من الفضائل التي ينميها في النفس الجهاد مع المحيط المخوف فلولا هذا الجهاد لما عرف الانسان شيئا يستحق المعرفه فما أمثل الملاحة طريقة للتربية ! فذلك المربي القاسي العبوس وأعني به البحر يبث كل يوم في اذهان غلمانه الذين يتغذون بلبان معارفه أن النفوس متساوية وان الفلاح إنما هو في الاعتماد عليها ويعلمهم من البسالة مالا تزعزعه الخطوب ومن الصبر ما يقوون به على احتمال كل ضروب الحرمان واقتحام جميع المخاطر ومن ذا الذي في وسعه أن يصف ما آتى الجنان من الثبات وما ألبس النفس من درع القوة وهو وان غلبه الملاحون بمثابرتهم على قهره وثباتهم في طلب

الظفر به يحق له في نفس هذا الغلب أن يفخر بغالبيه فانه هو الذي انشأهم وهم تلامذة .

الشذرة السادسة عشرة

﴿ التربية بسفر البحر ﴾

يوم ١٤ مارس سنة — ١٨٦

اضطرتنا الريح الى أن نجتاز خليج بسكاي [١] وقد أكد لي الربان أنه وأمثاله يتحامون ما استطاعوا التورط في هذا المجاز الذي يهاب اسمه الملاحون انفسهم وهو على شدة تلاطم الامواج فيه لم يعق السفينة عن المسير وربما حدا بي ذلك الى اعتقاد أن من البحار ماهو كبعض الناس في كونها أمثل مما اشتهرت به .

منذ بضعة أيام أتيح لي فراغ من عملي فشغلته بدرس سفينتنا فاذا هي دنيا صغرى تطفو على الماء جعلتها جميع العلوم والصنائع ميقاتا لاجتماعها. ترى الملاح فيها يلجئه عوزه الى استئناف التمدن كل يوم فكأنه روبنسن [٢] في جزيرته يخترع معظم الفنون النافعة ليستفيد منها ذلك أنه لخلوه من الصاحبة يتولى بنفسه غسل ثيابه وفراشه واصلاحها وتدلك نظافة حجرته دلالة كافية على ما سيكون عليه بيته الخلوي في مستقبله فقد أوتي هذا الليث البحري من غرائز العناية بالبيت ما أوتيته النملة.

« ١ » خليج بسكاي ويسمى أيضا خليج قشقوني هو خليج في المحيط الاطلانطيقي واقع غربي فرنسا وشمالي اسبانيا « ٢ » يومئ الى روبنسن كروزو صاحب القصة المشهورة الذي كان في جزيرة مقفرة يخترع كل ما يحتاج اليه من أمر المعيشة

من مزايا السفينة أيضا أنها تؤدي الى كل من ترتاح نفسه للعمل من ركابها عملا يشغله فقد عاود توبيدون الاشتغال بالطهاية التى سبق له أن شرف باجادتها في أسفارسالفة وجعلت زوجته قهرمانة [1] واختصت هيلانة بمساعدتي في التمريض وبالعزف على البيانو تسرية للسآمة عن المسافرين وتقوية لقلوبهم وقلوب الملاحين أنفسهم الذين يجتمعون كل ليلة على السطح لاستماعه .

جاز «اميل »التمرينات الاولى وصارت قدمه قدم بحار وأنشأ يتسلق سلالم الحبال التي على جانبي السفينة وهو يؤدي الاعمال التي يعلمه الملاحون تأديتها بما يكفي من الحذق المنتظر من غرّ مثله. ومعيشة المتعلمين البحريين امثاله فى سفينة تجارية على مافيها من النصب والعناء معيشة صحية فان تعرضه لنسيم البحر يشهي اليه الطعام حتى انه ليكاد يلتهم حوتا من الحيتان المسماة بالكلاب البحرية لوقدم اليه ولله خفته ونضارته في قميصه الازرق ذي الطوق المنكسر الذي يبين نحره! جاء في غدوة اليوم اثر عمل شاق بالنسبة لطفل مثله ألقى برأسه بين ركبتيّ وهو يتصبب عرقا فأحببت ان أشجعه لاأن أطريه لان الاطراء هوسم النفوس يفرط فيه الآباء لابنائهم بما يعمّهم عليه من الرحمة العمياء فهم بذلك يعودونهم على ارضاء غيرهم وكان حقا عليهم في رأيي ان يعلموهم ارضاء وجدانهم • من أجل هذا اقتصرت على ضم ولدي الى صدري وتقبيله غيراني أحسست حينئذ بالعبرة في عيني وهو على كل حال قد اعتبر هذه الملاطفة مني مدحا له لانه انصرف من عندي للمضي على عمله مملوء القلب بالفرح ولا إخال أحدا ينكر استحقاقه

(١) القهرمانة الوكيلة

لهذا المدح أي لتلك الملاطفة .

ليس في السفينة أحد الا وهو يهتم بأن يكون نافعا من جهته حتى «لولا» فقد فاجأتها بالامس وبيدها كتاب كانت تطلع عليه طفلة في الخامسة من عمرها اتخذتها صديقة وتعلمها فيه الهجاء اه

الشذرة السابعة عشرة

طريقة صيد خنازير البحر

يوم ١٩ مارس سنة — ١٨٦

نحن الآن تجاه جزيرة ماديرا تجري بنا السفينة بريح طيبة كانت من بداية سفرنا تهب من الشمال الشرقي. وقد احدقت بنا في هذا المكان قطعان عديدة من الخنازير البحرية وأنشأت تمرح في الماء وتلهو بالزبد المتخلف على غوارب الامواج من انشقاقها بحيزوم السفينة في مسيرها فبادر جميع الركاب الى السطح لمشاهدتها وكان من «لولا» ما رأتها ان قالت : ويكأنّ هذه الحيوانات مغتبطة بعيشتها وكانها لم تصب بمرض البحر في حياتها

استعد ضابط السفينة لصيدها فوقف أحدهم عند الساري المقدم ورمى خطافا كان معه على واحد منها ظن ان أصابته أيسر وحينئذ جر الملاحون الحبل المعلق به الخطاف وهم في هذه الحالة يجب ان يكونوا خفاف الايدي اشداء السواعد والا وجد الخنزير المصاب وسيلة للرجوع الى الماء والانفلات من أيديهم وقد نجحوا في الرمية الثانية فاصطادوا أحدها ومما شاهدته فيه ان كبده يشبه كبد الخنزير البري ولحمه أقل جودة من لحم الثور على انه

يحضره في الذهن ان لم يكن بطعمه فبلونه لانه أحمر ضارب الى السواد ويستخرج من لحمه زيت جيد للاستصباح يستعمل في السفينة • اه

الشذرة الثامنة عشرة

(وصف ما يرى في البحر من المشاهد الطبيعية)

يوم ٢٢ مارس سنة ــ ١٨٦

نحن الآن مارّون أمام الجزائر الخالدات وان كنا لم نرها وهى مرتسمة على سطح الماء المتبسم الا كرؤيا الحالم وقد اضطرتنا الرياح المتناوحة الى التوغل في المحيط .

اننا منذ سفرنا نشعر بارتفاع الحرارة ارتفاعاً عظيما غير ان هذا اليوم هو أخص يوم أحسسنا فيه بدخولنا أقليما غير اقليمنا حتى ان «لولا» نفسها على ما بها من شدة التأثر بالبرد خلعت ثياب الشتاء وارتدت ثوبا ورديا.

كان غروب الشمس بالامس من أجل المناظر وأبهاها وكان الليل مهيباً والقبة السماوية المظلمة تزهو بلآلىء النجوم التي هي كالرمل عدا. ومالي وذكر اسمائها فلا فائدة في ذلك ويكفيني أن أسميها بالنور . ومما ميزناه منها الزهرة التي مع كفها عن دعوى الالوهية واقتناعها بان تكون في مصف الكواكب لم يضل عنها ميلها الى التغنج النسوي فلا تزال تحب أن ترى نفسها في مرآة البحر

في نحو الساعة الرابعة أو الخامسة من الغداة انشق النطاق الاسود

الذي كان مشدودا حول الافق يلأم السماء بالماء رويدا رويدا ثم بدا من بين حافتيه ضوء مخضر يحاكي ماء البحر في لونه فانتشر على الامواج وهو ضوء الفجر وساعة طلوع الفجر في العروض التي نحن فيها الآن من الساعات المشهودة على قصرها وقصر مدة الشفق أيضا فانه يخيل للرائي فيها أن العالم بأسره مضاء بالكهرباء وربما كان قصر مدة الشفقين سببا في ذلك .

مما حملناه معنا في السفينة ديك صغير وضمناه مع دواجن أخرى في أحد أقفاصها اسمعنا صياح التنبيه والايقاظ ثلاث مرات فكان لصوته الشبيه بصوت البوق في نفوسنا تأثير محزن قابض بسبب أحوال الغربة التي نحن فيها وكان يسري الى القلوب بلا عائق لانه كان يذكر المسافرين باوروبام القديمة وأراضيها ومعيشة المزارع وما يعالجه المزارعون من الاعمال الشاقة .

ثم تتابع انمحاء الكواكب من السماء فأخذت تنطوي في أعاليها وتصطبغ باللون الازدرختي .

ثم أشرقت الشمس فاذا الامواج أنفسها وقد ملكها الاجلال وتولاها الاعظام يخيل انها خشعت لهذا الينبوع الذي هو مصدر الضياء والحياة وصارت السماء كلها جذوة نار وترقرقت سبحات من النور الذهبي على صدر المحيط الذي برزت منه الارض بالتدريج تتلألأ بهاء ونضرة .

لم يقع بصري على « اميل » و« لولا » معا الا في هذه الساعة وحدها من النهار . رأيتهما جاثيين جثية عبادة واستغراق في المشاهدة

فليت شعري هل اقترب كلاهما في تلك الساعة من ادراك معني الالوهية بمراقبة جمال الكون وبهائه؟ . اه

الشذرة التاسعة عشرة

« وصف الاسماك الطيارة وكلاب البحر وطريقة صيدها وضوء المياه ليلا »

نحن الآن سائرون تحت خط السرطان ويرى على « لولا » انها لغرارتها تقلب وجهها في السماء تفتيشاً عن ذلك الحيوان البشع الشبيه بالسرطان البحري في شكل أرجله كما هو مرسوم في التقاويم التي جعل فيها من علامات منطقة فلك البروج وهي بذلك تستهدف لسخرية «اميل» وزرايته

تجري بنا السفينة بأقصى سرعة لما تزجيها رياح شديدة وقدمدت جميع شرُعها فجعلت حبالها تصرّصريرا . ذلك أنا أردنا اغتنام هذه الرياح الانقلابية (١) التي يسميها الانكليز رياح الشمال الشرقي التجارية .

يتدرج النهار في النقص ويكاد الآن يساوي الليل .

تنقذف من باطن المياه أسراب كالغيوم من السمك الطيار وتسف سفيف الخطاف فبينما كان أحد اللاحين البسلاء يوقد مدخنته (عود دخان التبغ) البارحة اذ لطمه جناح بارد مندى على خده فتولاه من ذلك دهش عظيم ثم التفت حوله فاذا هو بسمكة من ذلك الصنف تحت قدميه على ظهر السفينة ويندر أن تصل أمثالها في انقذافها الى هذا الارتفاع وانما جذبها اليه ضوء المدخنة .

---

(١) الرياح الانقلابية هي التي تهب بين دائرتي الانقلابين من منطقة فلك البروج

أخوف سكان البحر الاخرى التي لم يرها «اميل» حتى الآن واهيبها بلا نزاع كلاب البحر وللملاحين في صيدها نوع من الحماسة والنخوة وقد اصطادوا غدوة اليوم واحداً من هذه العفاريت (كما يقولون لانهم اطلقوا عليها أبشع الاسماء كلها) وذلك بواسطة هبرة من لحم الخنزير زنتها نحو خمسة أرطال ألقوها اليه وكان منظر صيده مؤثراً فاسترعى أبصار جميع المسافرين وبعثهم على الصعود الى ظهر السفينة لمشاهدته وكان أول عمل لهم بعد صيده أن بتروا ذنبه بفأس وهو احتياط أراه ضروريا على ما فيه من القسوة لانه شوهد غير مرة أن إغفاله كان سبباً في أن يكسر بذلك الطرف المرن ساق بعض القريبين منه أثناء معالجته التفلت من أيدي صائديه . ويأكل الملاحون أحيانا صغار كلاب البحر غير أنهم يقرّون بألسنتهم أن لحمها غير جيد وهم اذا قتلوا هذه الحيوانات فإنما يبعثهم على قتلها مجرد بغضهم لها ولشدّ ما يؤذونها بسبب هذا البغض وحجتهم فيه أن ما يصطادونه ويقتلونه منها التقم فلاناً أو فلانا من أصحابهم فان لم يكن هو الذي التقمه كان أخوه أو أحد أقاربه . ولقد حاولت صدهم عن ممارسة هذه الألاعيب الوحشية مبيناً لهم أن الانسان لا ينبغي له أن يعذب عدوه بعد غلبه فذهب نصحي ادراج الرياح ولكني آمل ان لا تفوت «أميل» هذه العبرة.

تبقى لكلاب البحر بعد موتها في السفينة رائحة خبيثة لا تزول الا بعد بضعة أيام وهكذا الأشرار يؤذون حتى بعد موتهم من يسعون لخلاص الناس من شرهم .

قلما يفهم الاطفال من القوانين شيئاً الا قانون القصاص ذلك أن

الملاحين اصطادوا دلفينا[١] عشية اليوم الذي اصطادوا فيه كلب البحر فما كان من « لولا » الا أن قالت وهي تنظر اليه نظرا يشف عن الرحمة « لقد استحق هذا فاني رأيته التهم كثيراً من الاسماك الطيارة الجميلة » . لقد صدقت فان ما التهمه منها لم يكن الا لقمة واحدة من لقمه وان سنة الله في خلقه أن من أ كل أ كل وقد اثبتها الملاحون لما بجعله عشاء لهم ولحم هذا الحيوان اذا غلي في الماء كان فيه شيء من الجودة الا أنه يكون ناشفا .

في نحو الدرجة السادسة عشرة والدقيقة الثلاثين من العرض الشمالي أنشأنا نري في السماء برجا جديدا يسميه الملاحون صليب الجنوب وهو مؤلف من خمسة نجوم .

وعجيبة أخرى أبصرناها في ذلك المكان وهي ان المياه تضيء ليلا وقد راع منظرها « اميل » و « لولا » فلم يستطيعا ان يفيقا من التلذذ بجماله وان كان قد بعث فيهما شيئا من الخوف فان كليهما سألني من ذا الذي أوقد النار في البحر ففسرت لهما بما في وسعي ما أعلمه من اسباب هذه الحادثة التي لم تعلم تمام العلم وقد علل العلماء وجود هذا الضوء في الماء بوجود حيوانات مضيئة تشبه النباتات فيه .

كان ذلك النور من شدة سطوعه بحيث ان « اميل » تناول كتابا من جيبه وقرأ فيه على انعكاسه عن الامواج الملتهبة هذا البيت من قصيدة لشكسبير وهو :

خير جزء فيّ روحي　　　وهي بالتحقيق روحك

« ١ » الدلفين صنف من خنازير البحر

ثم ان الله (سبحانه) لم يفض علينا جميع روحه وما أقل ما أفيض علينا منه غير ان هذا القليل الذي يهبه لنا يتصل بروحنا اتصالا حقيقيا[١]

والذي يدهشني من حادثة ظهور الضوء في البحار انها تقع عادة في أحلك الليالي . اه

الشذرة العشرون

(طريقة صيد السلاحف البحرية)

يوم ٣ ابريل سنة ـ١٨٦

صرنا تجاه الرأس الاخضر ولما رأى الملاحون سكون الريح في هذا المكان أدلوا قواربهم وسبحوا لصيد السلاحف البحرية وهذه السلاحف من عادتها ان تظهر قريبا من سطح الماء فتكون كأنها نائمة فوقه فتصطاد بنوع من السهام له أربعة أسنان يسميها ملاحو الانكليز بالحبوب وكل مايصاب منها بتلك السهام يجذب بعد صيده الى القوارب بواسطة حبال تكون في أيدي الرماة وقد رأيتهم اصطادوا منها في ساعتين ثماني، زنة كل منها من خمسة عشر الى خمسة وأربعين رطلا انكليزيا .

الشذرة الحادية والعشرون

(فخامة منظري الشروق والغروب في بعض الجهات)

يوم ٤ ابريل سنة ـ١٨٦

أعوزتنا الرياح الانقلابية التي كانت مواتية لنا أحسن المواتاة على

(١) يعني بالروح الالهي ما به حياة الخير والفضيلة والحق وهذا شيء من الله ليس لغيره صنع فيه فاضيف اليه

جرينا في فضاء المحيط وعوضنا عنها الآن رياحا خفيفة متناوحة تهب على التعاقب من جهات مختلفة للافق وانتقبت السماء في مواضع متفرقات منها بسحب بيضاء وسفرت في مواضع أخرى بزرقة شاحبة جميلة وللشمس في هذا المكان شروق يخطف الابصار ضياؤه فلا تقوى على احتماله وأما غروبها فقخم جليل . اه

الشذرة الثانية والعشرون

« أفاعيل الملاحين عند الاقتراب من خط الاستواء »

يوم ٩ ابريل سنة ـ١٨٦

تمطرنا السماء شآبيب ووابلا حارا وكل ما نراه يؤذن باقترابنا من خط الاستواء فترى الملاحين على ظهر مقدم السفينة مشتغلين بوضع لحى كاذبة لهم وتغطية رءوسهم بدوازم من الشعر وارتداء ثياب بشعة حتى انه ليخيل للرائي انهم في أمس عيد المرافع ويشهد «أميل» هذه الضروب من الاستعداد شهادة الخائف لعلمه حق العلم بما سيلاقيه فان كل تلميذ بحري لم يجتز خط الاستواء لا بد ان يقتحم صنوف بلائه ومحنه كما هي العادة فلا تزال شعائر الملاحين القديمة متبعة وان كانت قد فقدت كثيرا من مظاهرها الصبيانية الوحشية التي كانت تجعلها مخوفة جدا في قلب المبتدىء في الملاحة وعلى كل حال فالملاح طفل ولولا ذلك لما لاعب المخاطر ملاعبة الباسل المقدام.

الشذرة الثالثة والعشرون

« سرعة تغير الاقليم في بعض الاماكن والاعاصير المائية »

يوم ١٣ ابريل سنة ـ ١٨٦

اصطبغ «اميل» بالمعمودية البحرية فصار الآن من أولاد آلهة البحر. حالة الجو في اختلاف وتغير فمن رياح شديدة الى سكون عام ومن مطر هتان الى شمس محرقة ترمي رءوسنا بسهام اشعتها العمودية.

لفتنا الربان الى اعصار من الأعاصير المائية التي يخشاها الملاحون بحق فرأيناه من مسافة بعيدة وأكثر ما تثور هذه الاعاصير في جهة خط الاستواء.اه

الشذرة الرابعة والعشرون

« تبادل السفن صنائع المعروف »

يوم ١٥ أبريل سنة ـ١٨٦

صادفتنا سفينة قافلة من الهند أو من الصين الى بريطانيا العظمى وآذنتنا باشاراتها أنها مستعدة لحمل ما نحملها من الكتب ولما كان تبادل صنائع المعروف مما تحفظ به المودة في البحر أرسلنا لها بعض صحف انكليزية مضى على نشرها ستة أسابيع ولكن أخبارها يكون لها من الجدة عند ركابها ما للصحف الصباح عند سكان لوندرة وكتبت وكتب « اميل » كلمتين لصديقنا الدكتور وارنجتون

الشذرة الخامسة والعشرون

« موت احد الملاحين والاحتفال بجنازته في السفينة »

« وبيان الحقيقة في سبب تأثر الاطفال بفاجعة الموت »

يوم ٣٠ ابريل سنة ــ ١٨٦

تتناقص الحرارة ويتدرج الهواء في البروده لاننا صرنا في خط الجدي.

منذ يومين آلم نفوسنا فقد واحد من رجالنا

ذلك أن قطعة من قطع الاخشاب المنحرفة الوضع المستعملة في السفينة لشد حبالها لم يكن ربطها وثيقا فأتت عليها نفحة من الريح فهوت بها على السطح فصادمت في هويها رأس ذلك الملاح وهو قائم على الحراسة فلم آل جهدا في تجريب جميع الوسائل الفنية لايقاظه وتنبيهه ولكني لم أفلح لانه لم يبق فيه أدنى علامة على الادراك فسرى الوجوم في السفينة لان هذا الملاح الباسل كان محبوبا عند رفقائه وصاح الربان بصوت أجش وقد بدت على وجهه آثار الحزن مع اتقابه بالتجلد بأن تنقل الجثة الى غرفته.

استولى سكون الحداد على السفينة فما كنت ترى على ظهرها الا أنظارا شفت عن الاسى ووجوها نكرتها الاشجان وأسدل الليل على البحر بالتدريج حجب ظلماته كلها وأرخي عليه سدول أحزانه فما رأيته قبل تلك الليلة بهذا المقدار من العظم والكآبة وكانت الامواج باصطخابها تشكو شكوى الاحياء من مضض المصيبة حتى خيل لي أنها نفوس تناجي نفوسنا .

وارباه! ما كان اشأم هذا الصخب المتقطع الناشيء من ملاطمة الامواج لالواح سفينة تقل ميتا .

أقبل النهار وأدبر الليل بيدأن أضواء الشمس في اشراقها لم تقو على قشع ماغشي النفوس من سحب الا كدار الليلية فبقيت جميع القلوب مثلوجة متبلدة بضرب من الهول ذلك أن وجود الميت في بيت يبث فيه على الدوام الحزن مشوبا بالاجلال والرعب والسفينة بيت مضطرب فما يسهل انفصامه من عرى المودة بين من تطاوحت بهم النوى من العائشين في السفينة بسبب اشتراكهم في الحاجات والمخاطر .

تخلف يعقوب في ذلك الصباح عن اجابة داعي الشمس المشرقة وعهدنا به أنه كان على الدوام أول من يسمع دويّ صوته الشديد على ظهر السفينة فاصبح وقد قضى عليه أن لا يكون هو الصائح بكلمة « تمام » .

كان من أسباب اشتغال قلوب المسافرين والملاحين بالحزن أيضا ارتقابهم لما كان قريب الوقوع من دفن الميت ومع كون أعمال التجهيز كما كانت تؤدى في سكون كانها من وراء حجاب كنا نخلس الملاحين في بعض الاماكن روحات وجيآت خفية وقد أحدث السفينة بتنكيس الاعلام التي تزهو ذروتها عادة بارتفاعها فوقها فخرا بالامة المنتسبة اليها وفي نحو الساعة العاشرة برز الربان على ظهرها ثم أقبل على ملاحيه وقال بصوت منخفض قد حلت ساعة النحس فعليّ بالربان الثاني وأخبروه بأننا مستعدون ويعلم الله مقدار ما يشق علي من تأدية هذا الفرض ولكن من الواجب القيام بالواجب .

رتب الملاحون اكوام الحبال التي كانت تعيق السير بتبعثرها على

سطح السفينة ورفعوا أحد الاجزاء التي تتألف منها جدران السفينة فكان من ذلك نافذة شبيهة بالكوة كنا نرى منها البحر يتراوح بين الصعود والهبوط .

كان ناقوس السفينة يطن فيحدث عن طنينه المؤلم اذا انتشر على وجه الامواج أثر محزن يغادر جميع القلوب واجفة .

لما كانت السفينة خلواً من القسيسين كان من العادات المضطردة في مثل هذه الحالة بانكلترا أن يعهد بصلاة الجنازة الى ربانها . من أجل ذلك أخذ الربان مجلسه وهو مكشوف الرأس وبين يديه كتاب مفتوح والتفت عليه حلقة من المسافرين والملاحين يحفهم الوقار والخشية على تشوش هيآتهم وأوضاعهم ينتظرون البدء في الشعائر الدينية .

أشار الربان الى رجلين من الملاحين بأن يهبطا من أحد سلالم السفينة الضيقة فلم يلبثا أن صعدا يحملان الميت على نعش كبير مثقب وقد لف في قطعة من نسيج الشراع خيطت عليه وكان من الميسور تقدير ثقله بما كانا يعانيانه من الجهد في حمله ذلك أن العادة تقتضي في مثل هذا المقام أن يوضع في الكفن مع الجثة قذيفتا مدفع (القذيفة الكرة التي تقذف من المدفع) احداهما عند رجليها والاخرى عند رأسها .

ما برزت هذه الصورة المشؤمة من سدفة السلالم (السدفة الظلمة المختلطة بالضوء) حيث كانت تبدو منها ببطء حتى اقشعرت لمرآها أبدان الحاضرين وقد بسط على صدر المتوفى علم من أعلام السفينة عليه شارات السفن الانكليزية .

انشأ الربان يتلو صلاة الجنازة بصوت شديد معتاد على الامر والنهي

غير أنه كان يعتوره اللين حينا بعد حين فتتخلله نغمات ضعيفة مهتزة كأنها تنبعث من القلب وكان ما يحصل في نفسه من التنازع بين التمالك والسكينة التي يراها لازمة لكرامته من حيث هو رجل وبين عاطفة الرحمة التي كان يكاد يبدي بها يكسو وجهه هيأة غريبة جمعت بين القسوة والرحمة. وكان كاتب السفينة يتلو في ذلك الكتاب عينه الحكم الانجيلية وما كان يسع أحدا من السامعين أن لا يعترف بشيء من الجلال لهذا الضرب من التحاور في معنى الموت بين رجلين مستهدفين في كل يوم لآلاف من المعاطب قد شهد كلاهما كثيرا من اخوانهما يتخرمون من حولهما ويثوون في ظلمات البحر السرمدية.

هذا الذي كانا يتناوبان تلاوته لم يك يشبه الصلوات بحال (فالكنيسة الانجليزية لا يصلى فيها قط على المتوفين) بل كان عبارة عن فكرة مأخوذة من التوراة في معنى قصر الاجل ومصوغة في قوالب تشبيهات شعرية كتشبيه الحياة بعشب البوادي يخضر في الصباح ويذبل في المساء أو بالظل يسرى على الماء وتشبيه جمال الرجل والمرأة شوهته السنون بثوب اكلته الارضة. وكان جميع الحاضرين يفهمون نص هذه العبارات العبرية لانه كان مترجما الى الانكليزية.

على أن الساعة الاخيرة قد اقتربت فكف الربان عن التلاوة وأخذ يرقب عظم اتساع السماء والماء ثم صوب بصره آخر مرة الى ذلك الشيء وهو مدرج في نسيج يعرف الناظر اليه من خلاله شكل آدمي معرفة مبهمة وقد وضع على شفا الفوهة التي صنعت في جدار السفينة ليلقى منها في البحر. ولم تكن الا اشارة من الربان ان سمع صوت غليظ رخو لسقوط رجل

ميت في البحر فشوهد للامواج فوران شديد فترجرج خفيف فدوائر من الماء متداخل بعضها في بعض فلا شيء .

التأم الآذيّ (الموج) على الجثة كما يلتئم بلاط اللحد وقال الربان بصوت خنقته العبرة والانفعال : أنت في وديعة البحر .

كنت في كل المدة التي استغرقها أداء هذه الشعائر أرقب «اميل» حينا فحينا فأجده شديد التأثر وأما «لولا» فكنت أراها باكية.

يرجع تأثر هذين الغلامين الى سببين أولهما ان تجهيز الميت كان مقرونا من الوقار والهيبة بما يهز القلوب ثانيهما انهما لم يكونا شهدا الدفن قبل هذه المرة لجهلهما الموت حتى هذه الساعه . نعم انهما كانا يعرفان بالتحقيق ان كل شيء صائر الى الفناء فقد شهدا حيوانات تزول واخوانا يتخطفون من حولهم غير اني في شك قوي من كثرة اشتغالهما بهذه الطوارىء الطبيعية ووقوفهما بالفكر عندها والانسان لا يعرف الامور معرفة صحيحة الا اذا فكر فيها بنفسه ولا أعدم واهما يلقي علي تبعة هذا الجهل لاني أعلم أنه كان ينبغي من اجل انشاء «اميل» على الاصول القديمة التي يحبها ذلك الواهم أن اربيه على الخوف وان أحيط له الحياة في مواعظي بوعيد القبر ومخاوف الخلود ولكن ما حيلتي اذا كنت لم اجد من نفسي إقداما على ذلك فاني رأيتـه كثير الاغتباط بالحياة فصرفت جل عنايتي في تحبيب الواجبات الى نفسه لا في دناءة التخويف من عقوبات الآخرة أو التأميل في مثوباتها الغيبية .

المواعظ المحزنة لا تربي الوجدان بل تكدر صفاءه وتزعجه فو اشوقاه

الى الساعة التي يتأثر فيها اليافع بمشهد الموت فيأنس من نفسه الحاجة الى سبرغور ما قدر له في اخراه [1]

الشذرة السادسة والعشرون

اقاليم البلاد فصول ثابتة كما ان فصول السنة اقاليم مرتحلة

(يوم ٦ مايو سنة ــ ١٨٦)

الرياح باردة والسماء كدراء وتزعم « لولا » أن سفرنا استغرق الربيع والصيف والخريف وأننا داخلون في الشتاء وحقيقة الامر هي ان اقاليم البلاد فصول ثابتة كما أن فصول السنة أقاليم مرتحلة .

صارت الامواج من الثقل والضخامة بحيث أصبح مسير السفينة شاقا وقد هبت علينا ريح خبيثة هي ترفعنا الى الشرق نحو جزائر فوقلند [2].

الشذرة السابعة والعشرون

وصف بعض انواع الطيور التي في بوغاز ماجلان وطريقة صيد نوع منها

يوم ٨ مايو سنة ــ ١٨٦ .

اقتحمنا مدخل بوغاز ماجلان [3] وهو مجاز خطر ورأينا هنالك

« ١ » ما كرهه المربي لولده من انشائه على الخوف من العقاب والرجاء في الثواب غير مكروه ووصفه هذين الأمرين بالدناءة غير صحيح وأمله في آن ولده يسبرغور ما قدر له في اخراه وهم ظاهر وخدعة زينها له شكه في اليوم الآخر

« ٢ » جزائر فوقلند هي ارخبيل في المحيط الاطلانطيقي شرقي بوغاز ماجلان مملوك للانكليز « ٣ » بوغاز ماجلان واقع بين بتاغونيا وتيردوفو « ارض النار » اكتشفه رحالة بورتغالي اسمه ماجلان وهو أول من بدأ بالطواف حول الارض

طيورا يسميها الملاحون حمام الرأس الواحـدة منها في حجم البطة البرية أحد نصفيها أبيض والثاني اسود وكانت تحوم حولنا اسرابا وتصطاد بشباك تمد على كوثل السفينة (مؤخرها) فتنشب فيها اجنحتها في غدوها ورواحها عليها وتتورط فلا تستطيع انفكاكا

وشاهدنا طيرا آخر أثار العجب في نفس « اميل » بعلو قامته وارتفاع طيرانه وهو المسمى بالبطروش [1]

الشذرة الثامنة والعشرون

كثرة الزوابع في راس القرن

يوم ١٠ مايو سنة — ١٨٦

راس القرن حقيق بأن يسمى رأس الزوابع فقد هاجت علينا فيه هيجة خلنا فيها أن المحيط بأجمعه ينيخ بكلكله على سفينتنا الضئيلة على أنها تقاوم وتجري مع مايلاطمها من الامواج ويتقاذفها من المهاوي لا يقعدها عن ذلك زمجرة البحر فهو بهيمة كبرى وجدت من يروضها .

الشذرة التاسعة والعشرون

شجاعة الملاحين وتفضيلها على شجاعة الجنود وبيان أنها تكتسب بالتعلم

يوم ١٤ مايو سنة — ١٨٦

انتهينا من الطواف بالرأس ولكن ما أعظم ما بذلنا في سبيل ذلك من

«١» البطروش طير من فصيلة الطيور الراحية الارجل يعيش في بحار استراليا

الجهد وما أشد ما عانينا من المشاق فقد كانت الريح تزفزف ثلاثة أيام وثلاث ليال زفزفة بلغت من الشدة الى حد أن ساري سفينتنا الاكبر كان فيها يتنوّد تنود القصدة من بس الحشيش .

لم يكن يؤلمنا على ظهر السفينة سوى أيدي البحارين في ممارسة أعمالهم وما كان أشدني اعجابا في نفسي بسيرتهم في تلك الساعات التى قضيناها في مكافحة البحر ومغالبة الخطر فليست بسالة الملاح من قبيل بسالة الجندي ولكنها تفضلها في رأيي لأن الملاح بما له من الجرأة على الموجودات والفواعل الكونية يكافح الموت مواجهة فلايحول بينهماالا سمك لوح من الخشب وليس غرضه من الكفاح ابادة نظرائه بل هو في مدافعته عن حياته يعمل لتجيتهم من الهلاك وناهيك بالبحر عدوًّا أوتي من المدد ما هو اشدها رهبة في العالم بأسره فانك ترى السفينة على وهنها وكونها ليست الا دولابا من الخشب تطاردها الريح والبرد والبرق وجبال من الموج فهي في الحقيقة تقاوم قوى كون من الاكوان برمتها.

ولا مشابهة أيضا بين قدر الملاح وبين ما يفاخر به السفسطي من اجترائه على معاندة القدر باستدلالاته الدقيقة اجتراء باردآخاليا من العمل هيهات فان قدر الملاح هو ما يتجلى في عمله من قوة نفسه وهمتها فتراه مع استعانته بربه لاستمساكه بدينه لا يعتمد بعد ذلك الا على نفسه أعني على صحة بصره وضبط حركاته وقوة أعصابه فان قهره عدوه سلم اليه ولكن هذا لا يكون الا بعد ان يرى آخر سلاح له قد تحطم.

تلك البسالة تكتسب بالتعلم وهذه الثقة بالنفس تسري بالماشرة يدلك على ذلك ان « اميل » كان في أول عهده بالملاحة شديد الروع فما

لبث ان ذهب عنه روعه بالتأسي برفقائه لانه كان يرى من العار أن يرتجف فؤاده وتتزلزل قدماه امام هؤلاء الابطال وهم ثابتون في مواطنهم . كانوا يشغلونه حينا بعد حين بادارة الممصات (الطلمبات) ومعالجة الحبال. فلا شيء كالعمل البدني في تقوية القلب فبطالة المسافرين هي التي عند أدنى هيعة تملأ قلوبهم بالمخاوف وادمغتهم بالخيالات واما الملاح فليس للخوف متسع في وقته .

من مزايا الملاحة ايضا انما فيها من مكافحة الخطر ينمي في قلوب الملاحين حب الحياة فمن ذا الذي كان يحسب ان الانتحار لا يكاد يكون معروفا بينهم .

الضجر من الحياة من مميزات العصور الحديثة وهو أخوفها عندي على الشبان وأشدها ايلاما النفسي فاني أرى الاطفال يولدون غير مبالين بشيء سائمين من كل شيء خامدي الاحساس ميتي القلوب فكم من فتاة اذا انكشف لها وهمها الاول مرة فيما كانت تعتقده واقعا تمنت لو أنها ماتت قبل انكشافه وكم من فتى كسول لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ولم يعامله الجد الامعاملة الغلام العارم يصيح قائلا «ما فائدة الحياة» وليس من غرضي هنا ان ابحث عن اسباب هذه المصيبة الملمة بالنفوس والاخلاق وإنما غرضي أن أقول لكل هؤلاء المتبرمين: «انظروا الى الملاح تجدوا أنه هو الذي عرف قيمة الحياة لانه فى كل يوم يذود عنها اخطارا حقيقية لغاية نافعة وبذلك صار أهلا لأن يقدرها حق قدرها»

من أجل هذه الاسباب كلها أرى ان «اميل» الآن في ولاية

معلمين حاذقين وأما «لولا» فانها والحق يقال لم تبد من البسالة شيئاً يذكر لانها لبثت مختبأة في إحدى زوايا حجرتها فكانت كالنعامة التي يؤكد العارفون بأخلاقها أنها تتوهم أن غمر رأسها في الظلام منجاة لها من الخطر الملم بها وذلك ما اضطر هيلانة الى أن تكون قدوة لها في الاقدام تسكينا لروعها وكان هذا موجبا للاعجاب بها بحق .

«شجاعة النساء المحمودة»

من الخطأ أن يتوهم متوهم ان لا فائدة فى الشجاعة للنساء فانه إن كان يريد بها الشجاعة الحربية فاني قليل الاعتداد بها فى الرجال فاكون أقل اعتداداً بها في المرأة المترجلة ولكن لا يعزب عن ذهنه انه يوجد من ضروب الاقدار غير واحد فان النساء مستهدفات للمخاطر التي نحن عرضة لها ومضطرات لمغالبة ما نغالبه من حوادث الكون الخارجي وقد يوجد من الاحوال ما تتوقف حياتهن فيها بل وحياة اطفالهن على سكينتهن ورباطة جاشهن فقوة العزمة وثبات الجنان هما من الاخلاق اللازمة للمرأة لزومها للرجل .

من المصائب ان تسوء تربية الفتيات الى حد ان يتوهمن ان تكلف ضروب الفزع القاتل عند كل مناسبة خصوصا بحضرة الشبان مما يلفت الانظار اليهن فيقول من يراهن في هذه الحالة انهن يقصدن ان يظهرن في شكل الحمائم المروّعة. ويجمل ان يوعظن بأن الخوف لا حسن فيه مطلقا وانه يجب عليهن لا نفسهن اذا أحدق بهن الخطر ان يجتهدن في استشعار الاطمئنان والسكينة ان كن يردن ان يصرن مثاراً للاعجاب والاستحسان. ولا صحة لما يعتقدونه على ما يظهر من ان ثبات جنان المرأة يسيء خلقها بل

اجد جمالا وشرفا فائقين في تلك الذات اذا كانت مع تجردها من القدرة على المهاجمة بل ومن قوة المدافعة تقتحم الخطر بقوة جاش تكافيء قوة الرجل.

أنا أعلم ان من الاوهام السخيفة اعتقاد ان جفاء الطبع من لوازم الشجاعة ولكني أود لو أدري متى شوهد ان الشجاعة الحقيقية غيرت من رقة المرأة ورحمتها وغير ذلك من فضائلها. حاشاها من هذا وان الجبن والاثرة لهما اللذان يوجبان قسوة القلب وغلظه.

سل أمّا جبانا ان تشهد عملا جراحيا يعمل في جسم ولدها التسليه وتسري من ألمه تجبك بأنها شديدة الاحساس كثيرة التأثر وبئس العذر عذرها فما مرادها الا الاحتماء من كلفة التسخير. ثم لا يتخيلنّ احد ان قوة العزيمة والسلطان على النفس أو الشجاعة الحقيقية هي من الاخلاق التي لا ينتفع بها الا في طائفتين من الاعمال هما الحرب والملاحة فاني أرى ان منفعتها تتعدى الى كثير من الامور الاخرى لان الرجل والمرأة مهددان كل يوم في القوم الذين يعيشان بينهم بآلاف من الاعداء والمعاطب ولان البحر لا يقصد الا إزهاق أرواحنا وما أكثر ما يعرض لنا من الاحوال الخطرة التي يقصد فيها نقض اعراضنا والذهاب بحرماتنا . اه

الشذرة الثلاثون

مرح « لولا » في السفينة بعد زوال الخطر

يوم ٣٠ مايو سنة ـ ١٨٦

تشق سفينتنا « المونيتور » بجلالة خطرها عباب أمواج المحيط الهادىء وتتخذ لها فيه سبيلا وقد عادت « لولا » بعد زوال الخطر الى ما كانت عليه من

الابتهاج والسرور فهي تمرح وتمـدو على ظهر السفينة مع مالها من الحركات حافظة لتوازنها وتبدو قدماها الصغيرتان في خببها من تحت حلتها كأنهما فأرتان . اه

الشذرة الحادية والثلاثون

(وصف جزر جوان فرناندز)

(وبيان ان احداها هي التي كتب عنها قصة روبنسن كروزو المشهورة)

يوم ٢٥ مايو سنة ـ ١٨٦

رسونا غداة اليوم في جوان فرناندز لضبط مقياس الزمن (الكرونومتر) وهذه البقعة مركبة في الحقيقة من ثلاث جزر يتألف منها مجموع متلاصق الاجزاء وتسـمى الاولى منهـا ماساتيرا والثانيـة ماساڤويرا والثالثـة اسلادولوپوس وهي صخرة تكاد تكون جرداء أكثر الثلاثه تطوحاً نحو الجنوب ويلقبها الملاحون بجزيرة القيطس (عجل البحر) لان القياطس تأوي اليها طلباً للراحة والدفء .

الجزيرتان الاوليان ماساتيرا وماسافويرا معشوشبتان شجراوان ومع اجتهاد الحكومة التابعتين لها في تعميرهما لا تزالان قفرا لا يعمرهما الا المعز الوحشية وهي كثيرة فيهما ويقال إنها كانت تزيد عن ذلك لولم تسلط عليها كلاب وحشية مثلها تقاتلها وتفترسها . وليت شعري الى أي حالة تصير هذه الكلاب اذا ابادت جميع ما هنا لك من المعز ؟ لا بد أن يأكل بعضها بعضاً . وجزيرة جوان فرناندز تذكر بواقعة عظيمة جرت فيها وهي :

انه في سنة ١٧٠٤ رسا الملاح الانكليزي دامبير على ماساتيرا فألقى فيها وكيله على القوارب المدعو اسكندر شالكرك أثر مشاجرة احتدمت بينهما . ترك هذا التعيس في هذه الجزيرة القفر غير مزود اياه الا بشيء يسير من الغذاء والعدد فعاش هناك أربع سنين وأربعة أشهر من صيده وصناعته وفي سنة ١٧٠٩ اتفق لاثنين من صيادي الثيران الوحشية ان نزلا بالجزيرة فعثرا على ذلك الرجل فرقا لحاله وحملاه معهما الى أوروبا .

وكان شالكيرك قد قيد بعض مذكرات في طريقة عيشته على تلك الجزيرة البلقع فاستعان بها دانيال دوفويه فيما بعد على تأليف كتابه العجيب الذي عرفه الناس جميعاً ولشد ما يبديه الآن «اميل» و«لولا» من الاهتمام بمطالعة وقائع روبنسن كروزويه . اه

الشذرة الثانية والثلاثون

«الوصول الى خليج قلاو ووصفه وذكر نوع من الطير في تلك الجهة»

يوم ٥ يونيه سنة ١٨٦ -

يا بشرى هذه أرض هذه أرض

بعد ان سافرنا تسعين يوماً دخلنا خليج قلاو وهو من ابهى مناظر الدنيا وأبصرنا جزيرة لورنزو ترتفع حيالنا أقول ترتفع واقل ما في هذا اللفظ أنه حقيقة في استعماله هنا فقد نتج من حساب أحد العلماء أن سواحل سان لورنزو كسواحل الشاطيء المجاور لها ارتفعت عن سطح البحر خمسا وثمانين قدماً انكليزية من عهد العصور التي يعرفها التاريخ .

صخور هذه الجزيرة يعمرها آلاف مؤلفة من الطيور أخص بالذكر منها طيرا رأسه أسمر الى السنجابية وبطنه ابيض ناصع وذنبه أسود يقال إنه هو الذي يحصل منه أهل الجزيرة على السماد المعروف بالغوانو وهو ثروتهم الكبرى لأن الذهب والفضة كادا ينضبان من معادن بلاد البيرو فهي تتسلى عن الحرمان منهما ببيع القذر ولا غرو فالذهب مذهب ومفسد، والقذر موجد ومخصب. اه

الشذرة الثالثة والثلاثون

« بيان فوائد العقبان »

يوم ٦ يونيه سنة — ١٨٦

رسونا في مينا سيودال دولوس ريس

أخص ما أدهش « اميل » و« لولا » عند هبوطهما على البر كثرة العقبان التي تسكن سواحل هذه الجهة فإنها ترى عند كل خطوة في الشوارع وعلى سطوح المساكن وقد رأينا منها طائفة تبلغ الستين أو الثمانين نائمة وهي جاثمة على جدار ورؤسها مختبئة تحت اجنحتها ذلك أنها ليس من خلقها الجفلان ولا تخشى من السكان شيأ لانهم يجلونها. هذه الطيور في غاية الشره وشرهها نفسه نعمة من نعم الله على أهل تلك البلاد لانه يساعد على حفظ الصحة في المدن. وكان «لاميل» فيما أرى اخطاء غريبة في شأنها فانه لما سمع الزراية عليها ممن درسوا اخلاقها في الكتب كان يتخيلها سلابة تسكن الهواء أ كالة دنيئة للرمم فلم يمض الاساعات قلائل حتى زال الوهم وتبين له خلاف ما كان يتوهمه فعلم انها

محتسبة سخرها الخالق (سبحانه) في البلاد الحارة للقيام على تنظيف الطرق العامة فهي تنقيها مما يلقى على الأبواب من القمام واللحوم الفاسدة ومما يطرح فيها من الجيف ويدل ما تبديه هـذه الطيور من الاطمئنان الى الانسان والثقة به حق الدلالة على شعورها بنفعها له .

المسافة بين قلاو وليما فرسخان اسبانيوليان وسنبلغها غداً . اه

الشذرة الرابعة والثلاثون

التربية بالمعاينة

يوم ١٢ يونيه سنة — ١٨٦

مدينة ليما في نظري كثيرة الشبه جداً باحدى مدن أوربا وان الاوربي الذي يسافر من بلده الى الجانب الآخر من الدنيا فيقطع في ذلك خمسة آلاف وخمسمائة وتسعة وثمانين ميلا انكليزيا ليستحق ان يلاقي بعد هذا السفر من تركهم هناك من اليسوعيين والمحتالين والبغايا والراهبات ومعاهد الفجور .

في تلك المدينة شوارع لها من الرونق ما يناسبها وفيها ميدان أنيق يدعى «بالبلازاماير» في وسطه بركة نخيمة من البرنز ينبثق منها الماء في ثلاثة أحواض على أن هناك جدولا يخترق المدينة أفضله كثيرا على ذلك العمل الفني وهذا الجدول المسمى بالريماق يأخذ مياهه من مثالج جبال القوردبير وبعد أن يجري ثلاثين فرسخا يصل الى ليما فيقسمها الى قسمين متساويين تقريبا. ولست أدري اضلال أم حق ان أحس ببرودة مياهه اذا غمست أصبعي فيها كأن ماء الثلوج لم يمهله اندفاعه أن يسخن بحرارة الشمس .

ليست الحرارة في تلك الجهة من الشدة بالمقدار الذي قد يتوهم مع كونها لا تبعد عن خط الاستواء الا عشر درجات. وتعلل هذه الحالة بعلل مختلفة غير ان أخصها وضع المدينة فان المحيط الهادي يكنفها من أحد جانبيها ويكنفها من الجانب الآخر جبال القورديير القائمة شرقيها مكللة بالثلوج الدائمة وفي ذلك ما يساعد بلا ريب على ترطيب الجو وبينها وبين البحر فرسخان أسبانيوليان ولا تبعد الجبال عنها الا بثمانية وعشرين فرسخا فكأن البحر والجبال منطقة مزدوجة تمنطق بها الساحل لتقيه شدة الحرارة .

الذي يدهش «اميل »و « لولا » كثيرا هو أننا بحسب منزلة الشمس الآن في فصل الشتاء مع اننا في شهر يونيه على ان الحق أن لا شتاء في بلاد البيرو فان السنة فيها تنقسم الى فصلين فصل الرطوبة وفصل الجفاف ففصل الرطوبة يبتدىء من شهر ابريل ويستمر الى اكتوبر وفيه يغشى المدينة ضباب ثقيل فاتر يسميه أهل البلاد بالغروي وقد يبلغ أحيانا من الكثافة والإسفاف (الدنو من الارض) خصوصا في الغداة جدا لا نكاد نرى فيه ماهو شديد القرب منا من الاشياء ويقال ان هذا الحجاب يتمزق في شهر اكتوبر أو نوفمبر فترتفع قبة السماء سنجابية اللون ولا يلبث الطل أن يتلاشى بحرارة أشعة الشمس النفاذة وحينئذ يبتدىء فصل الجفاف أي الصيف .

لا ينبغي أن يفهم من قولنا فصل الرطوبة الفصل الممطر فانه قد يمضي قرن ولا تسقط على طول هذا الساحل كله قطرة من مطر . عرفت ذلك لاني منذ بضعة أيام كنت أسأل شيخاً من هذه البلاد هل تذكر

انك شهدت مطرا في حياتك فكان جوابه لي « قط » فسألته عن عمره فقال انه ثمانون سنة .

الضباب ندى يحيل التراب الى وحل ويكفي لاخصاب الارض هنا إخصابا متوسطاً . على أنه يوجد في أماكن أخرى من بلاد البيرو وديان وربى قريبة من الجبال ينزل فيها من السماء سيول حقيقية اذا أصابت الرمال القحلة أصبحت عما قليل حافلة بالنبات فالارض لا تسأل السماء الا أن تتصدق عليها بالماء .

فصل الجفاف بالضرورة أشد الفصلين حرارة على أن الناس هنا يؤكدون لي أنهم يجدونه مبردا بما يهب من نسيمي البر والبحر فكأن هذين النسيمين يقتسمان اليوم بينهما فيهب نسيم البحر في الجملة حوالي الساعة العاشرة من الغداة ويستمر على هبوبه متراوحا بين الشدة واللين الى الى غروب الشمس ثم يركد ويستتب السكون فاذا كانت الساعة الثامنة أو التاسعة من العشي جاء دور نسيم البر الذي يهب من الجبال فيبقى على هبوبه الى الغداة .

في رأيي أن سكان ليما اشد ما فيها غرابة وأدعاه الى المراقبة فلا أظن أنه يوجد في سكان بقعة أخرى من بقاع الارض ما يوجد فى ملامح وجوههم من الاختلاف العظيم وفي ألوان جلودهم من الفروق الدقيقة الواضحة . ذلك بأنهم أخلاط من سلالة المستعمرين (واعني بهم الاشخاص المولودين في أمريكا ممن هاجروا اليها من الدنيا القديمة خصوصا اعقاب

البيوت الاسبانية العتيقة) ومن الهنود والزنوج والخلاسيين [(١)] وغيرهم من الاصناف فترى من ألوان وجوههم كلما ثقفتهم الابيض الشاحب والاصفر النحاسي والاسود الكهربي وما يتخللها من ضروب الاختلاف الصغيرة المتولدةمن اشتباك الارحام واختلاط الانساب واني اذا اعتبرت في الحكم عليهم ماقام بنفسي من آثار الاتصال برؤيتهم لاول مرة حكمت بانهم متشابكون بالارواح كما تشابكوا بالاشباح .

تمتاز النساء البيض والخلاسيات عن غيرهن بعينين نجلاوين سوداوين تتوقدان ذكاء وبشعور طويلة غدائرها الثقيلة مرسلة ولون تقاوم وضاحته الفطرية حدة الشمس وانف مع خلوه من شبه الانوف اليونانية لايعوزه شيء من القنا [(٢)] وفم مزدان بالثنايا الجميلة على ما قد يكون فيه من السعة أحيانا وقامة وسيطة معتدلة وقدمان بلغتا من الصغر حدا يدعو الى العجب ويدين صيغتا صياغة دقيقة وجملة القول في وصفهن ان صورتهن هي صورة « لولا » اذا كبرت .

أنا لا أعلم الى الآن شيئا من أخلاقهن اللهم الاما يظهر لي من أنهن (اعني الغنيات منهن) يقضين أوقاتهن بين الزهور والعطور والاقراص العطرية والمربيات والحلاوى ولئن اعتمدت في الحكم عليهن على ماأسمعه عنهن ممن يحتفون بي لقلت إنهن يقسمن وقتهن بين دسائس العشق وشعائر العبادة ولا إخال أحدا لا يدهش اذا علم أن الاديار والكنائس تشغل من المدينة ربعها ومما أكده لي أهل ليما أن الرجال منهم شديدو الغيرة على

(١) الخلاسي هو الذي يولد بين ابوين احدهما ابيض والثاني اسود (٢) القنا مصدر قني الانف أي ارتفع اعلاه واحدودب وسطه وسبغ أي طال طرفه

نسائهم ولكني لا اعتقد شيئاً مما يقولون فانهم لو كانوا كذلك حقيقة لما اباحوا لهن الذهاب للاعتراف في اغلب الاوقات . اهـ

الشذرة الخامسة والثلاثون

ذكر شيء من أخلاق أهل ليا وأحوالهم وأهل بيت « لولا » ووالديها

يوم ٣٠ يونيه سنة — ١٨٦

مالبثت منذ وصلنا الى ليا ان التزمت الاشتغال بمصالح دولوريس واول شيء رأيت من الواجب البداءة به في هذا السبيل أن اجمع تفاصيل ما يعلمه الناس من الاخبار الموثوق بها في شأن مولدها ووالديها ودونك بالايجاز نتيجة ماهدتني اليه ابحاثي :

أما والدها فهو من بيت اسبانيولي كان رحل الى بلاد البيرو واستوطنها بعد الفتح بزمن يسير وأما والدتها فكانت من النساء ذوات اللون ويعني بهن الخلاسيات بحسب اصطلاح الناس هنا وكانت مع احتواء عروقها على شيء من الدم الهندي لا يتأتى لعين غير عين المستعمر الخالص الغيوران تكتشف فيها بقايا سمات صنفها التي امحى أكثر من ثلاثة أرباعها فانه لا قدرة لغير المستعمرين على ان يميزوا في الذات الجميلة لاول نظرة مايسميه الانكليز بأثر ظلف الشيطان المشقوق فهم يلتمسون هذا الاثر حتى في شكل الاظافر.

ويحق ان تعلم أنه مع خضوع هـذه البلاد للحكومة الجمهورية ومع تشابك الاجيال فيها لا يزال بعض البيوتات الاسبانيولية يرون من الامتياز ان يثبتوا صراحة انسابهم ونقاوتها من الاختلاط وان يحرصوا

على بقائها كذلك فان هذا في رأيهم شارة من شارات الشرف وفي رأي غيرهم والحق يقال نعمة يحسدونهم عليها يدلك عليه ان الخلاسيين في الطبقة الخامسة بل وفي الطبقة السادسة يدعوهم عجبهم الى التألم من ان يعرفهم الناس بهذه الصفة حتى انهم ليبذلون كل مايملكون لوضمن لهم الانفكاك من اماراتها التي تراها مع نهايتها في الخفاء وقرب تلاشيها تنم على خسة أصلهم كما تقرر في الآراء والافكار .

فلك ماحدا بي الى ان احدث نفسي غالبا بان معيشة الناس مجتمعين ربما كانت في بدايتها مؤسسة على حاجتهم الى احتقار بعضهم بعضا .

ومهما يكن من هذا الامر فقد كان زواج ذلك الاسبانيولي الحر بتلك الخلاسية معتبرا عند كل أهل بيته من سوء الحظ لانه كان قد علق بأذهانهم خزعبلات متعلقة بالجيل الاحمر ورسخت فيها شديد الرسوخ وكانوا يرفعون عقيرتهم افتخارا بأنهم لا ينفكون عن تخير الامهات ولا ادري ايكون هذا من اسباب الفرقة بين الزوجين فيما بعد ام لا غير انه قد عرف ان اقترانهما لم يقرن بالهناء والغبطة فقد ماتت هذه الفتاة الخلاسية في السابعة عشرة من عمرها بعد ان وضعت بنتا .

لم يطوح والد « لولا » بنفسه في الاعمال البحرية تطويحا تاما الا من بعد تأيمه وكانت السفينة التي غرقت به حيال سواحل بنزانس ملكا له وقد اجمع الناس على انه كان كثير الفخر ببنته وانه لعزمه على تربيتها تربية اعلى من التربية التي ينشأ عليها اغلب النساء في ليما حملها معه ليضعها في إحدى مدارس لوندرة الداخلية .

كان يحب هذه الطفلة وفي هذا أقوى موجب للظن بأنه هو الذي

علقها بمزيد الاحتراس والعناية في ادوات السفينة قبل أن تغتاله الامواج.

بلغ خبر الغرق ما وراء البحار غير انه شاع أيضاً في ليما أن هـذه المصيبة شملت الرجل وبنته فـلا شك أن ما ارسلته أنا وهيلانة من الرسائل إعلاما بنجاة « لولا » ومطالبة بحقوقها قد حجزها من لهم مصلحة في اعدامها .

ما نجا من الغرق الا ملاح واحد لم يرجع بعده الى ليما قط لسبب لا أعلمه فلم يتيسر له ان يكذب ما اذيع هناك عمدا من الروايات الموضوعة.

لما وصلنا الى ليما عرفت « لولا » بلادها ان لم أ كن واهما من خلال ما حفظته ذاكرتها من آثارها في الصغر غير أن هـذه البلاد لم تعرفها قط فقد كان من عرفتهم بها من آل بيتها يتظاهرون بالريبة فيها فيقولون نعم إنهم كانوا سمعوا بسفان غرق في البحر وبأنه عمهم أو ابن عمهم ولكن ما الدليل على أن تلك الفتاة التي عرفتهم بها بنته فانهم كانوا محقين كل الحق ان يعتقدوا موتها واما ما قدمه لهم من الاوراق الدالة على ثبوت نسبها له فكانوا يتعللون عليها بأنها مكتوبة بالانكليزية وهم لا يفهمونها بل هم ما كانوا يريدون أن يتكلفوا قراءتها .

ذلك ما اضطرني الى ان أقصد العارفين بالقانون فكان رأيهم في القضية انها من القضايا المعضلة المرتبكة وأنها تقتضي فراغا واسلاف نقود وعيثا كثيراً من عبث المحاماة وانت تعلم حالة القضاء في بلادنا وهو في بلاد البيرو ادنى منه أيضاً الى الطفولية .

عمال الحكومة الذين سألتهم في هذا الموضوع وان كان اغلبهم ينتمي الى بيت والد الفتاة متفقون على انه ترك بعض المال غير انهم يقولون وفي

قولهم امارات الريبة ان جل هذا المال ضاع في سداد ديون المتوفى والذي ظهر لي اشد الظهور هو أن المضي في هذه القضية يجر الى تشويش كثير من المصالح الخاصة التي لا شك في أنها اتسعت بعصبية السفان . تلك هي حالة الامور .

الشذرة السادسة والثلاثون

« فوائد الشدائد — بذل النفس للمحبوب اول الحب »

يوم ١٥ يوليه سنة — ١٨٦

كان منا خرق وطيش كادت عواقبه تكون علينا خساراً مبيناً . ذلك أني و« اميل » و« لولا » خرجنا عشية أمس تتنزه والساحل ممتطين افراسا فأوغلنا في سيرنا متسفين ولا يلبث الانسان بأدنى بحث في شكل هذه السواحل الظاهري أن يدرك ان البلاد نشأت من الزلازل الارضية .

من اسمى الافهام التي انتهت اليها حكمة العلوم الحديثة على ما أرى[1] ادراك أن للناس فوائد فيما يبتلون به من المصائب فان لها دخلا عظيما في تكون العالم المادي

وما ادراك ما هذه المصائب ؟ اذا رجت الارض رجاً وتولاها الاضطراب عم الفزع كل من على ظهرها ممن يشهدون زلزالها ورأيت الحيوانات جافلة حيرى لاتدري ماذا يراد بها .

---

(١) لقد طاش رأيه فان القرآن القديم نطق بهذه الحكمة التي رآها حديثة في آيات كثيرة جداً وتداولها المسلمون في منثورهم ومنظومهم ولكنه لا يعلم ذلك .

وان لمن شهد الزلازل من سكان هذه البلاد قصصا عنها يروونها للاجانب تحاكي قصص التوراة فكأيّن من قرية كانت بالامس عامرة سعيدة أصبحت خاوية على عروشها فلا يجد الباحث عنها في عرصاتها الا أطلالا بالية ورسوما دارسة. واذا انقضت الزلازل لم يكن للناس حديث مدة الشهر التالي لوقوعها الا قصصها المحزنة فمن رجال ذهبت عقولهم من الفزع وأموال لعبت بها أيدي الضياع ونساء واطفال وشيوخ خرّت عليهم بيوتهم نخنقهم ردمها .

لا يسلم تاريخ هذه الرزايا من اختلاط القصص به فما يحكيه الناس هنا أنهم شاهدوا في زلزلة ليلية على وميض البروق المشؤم أن الارض قد انشقت وبرزت هيا كل قدماء الانقين[1] من قبورها ثم عادت فغيبت في هذه المهاوي التي مالبثت أن التأمت عليها .

سكان شطوط المحيط في هذه البلاد أشد تعرضا للمعاطب فان البحر في بدء الزلزال يتقهقر عن الارض كأنه قد ملكه الذعر ثم يعاود الكرة وقد هاج غضبه واشتد صخبه ولجبه وهنالك تتكسر أناجر السفن وتتقطع سلاسلها وتأخذها أعاصير الماء فتدور بها دورانا وأما جسور المياه فانها تستسلم لضغط الامواج فتفتح أبوابها للخراب والهلاك .

وللبيرويين من المعرفة الصحيحة بما لارضهم التي استودعوها حياتهم وعيالهم وآمالهم من ضروب الختل ما يجعلهم في عامة أوقاتهم على حذر منها فتراهم لا يذوقون النوم الا غرارا مستعدين على الدوام للهبوب من بيوتهم لاقل لغط أو أدنى رجة سائلين ما الخطب ؟ فاذا قيل زلزلة برزوا جميعا .

(١) الانقين جمع أنق وهو أحد أشراف قدماء الهنود بأمريكا

على أن لهم بهذا القطر الذي تميد بهم أرضه كلف العاشقين لجماله وخصبه فانك تجد في البقاع المزروعة منه حقول الذرة وقصب السكر والقطن والفواكه الاسبانيولية كالبرتقال والليمون والرمان والتين والزيتون قد ازدوجت بجميع فواكه المنطقة الحارة كالموز والاناناس فتلك الارض المتزلزلة حبلى بالحياة فهي تنمو وتعلو وتتنفس ولا ينبغي أن ينقم منها أنها في عملها هذا تشوش عمل الانسان أحياناً بما لها من صنوف التدمير وضروب التخريب .

لم يسلم الشاطىء الذي كنا نتنزه عليه من فعل الزلازل الارضية التي لاشك في انها تبتدىء من سلسلة جبال الانذز [1] فان الانسان فيما يلاقيه هنالك من الشقوق والأنجاد والاغوار التي لا تلبث بعد انخسافها ان ترتفع لا يزال يعرف ميدان تكافح الفواعل النارية .

كانت «لولا» تسير على الساحل وكلها زهو وعجب باستقبالها «اميل» في بلادها ومرحبتها اياه غير مفكرة في شيء عسى ان يكون من الحبائل تحت هذا الساحل المتباين الذي دعثرته العواصف والاعاصير فهمزت جوادها بحدة مفرطة وأخذت به شطر البحر وكنا نحن نتبعها ولكن من بعد لبلادة فرسينا على ان «اميل» لم يلبث ان خف اليها خفة المستيئس لما نبهته هيماني الى الخطر الذي كانت ملاقية له فلما بلغ تلك الفارسة المرحة لم تكن الا على نحو مئة متر من هوة بين صخرتين كان لا محيص لها من التردي فيها بجوادها مرسلة الشعر في الهواء مشرعة السوط فأخذ بعنان فرسها وقسره على التحول بسرعة فرفع يديه قائما على رجليه

---

(١) سلسلة جبال الانذز هي سلسلة عظيمة من الجبال في أمريكا الجنوبية

ثم مالبث ان وقف كانه ألهم الوقوف بغأة .

فاما «لولا» فقد امتقعت (تغير لون وجهها) وارتعدت فرائصها لانها كانت أبصرت الهوة وشكرت « لاميل » همته بان قبلته تقبيلاً يشف عن الوداعة وسلامة القلب كالذي يقع من أخت لاخيها .

وفي يقيني ان هذه الحادثة لم تزد شيئا على مايضمره كل منهما للآخر من المحبة والوداد ولكني أحسب اني لاحظت من عهد حصولها فرقاً دقيقاً في رعايات «اميل» لها بزيادة تحدبه (تعطفه) عليها فكان بذل النفس للمحبوب أول الحب .

ذلك أمر لا بد أن تكشفه لنا الايام لاني وهيلانة قد عودنا هذين الغلامين على أن نصدقهما لمجرد قولهما فلا أخالهما يجسران على غشنا . اه

الشذرة السابعة والثلاثون

الآثار والمدن المجهولة في البيرو والموازنة بين القوى والاعمال

يوم ٢٨ يوليه سنة ـ ١٨٦

كثيراً ما نلاقي هنا هنودا أصليين يشتغل بعضهم بالتماس الثلج من رءوس الجبال ونقله على ظهور البغال الى (ليما) حيث يعتبر من أوائل مشتهيات المائدة وبعضهم بنقل الملح اليها من سواحل البحر على قطعان اللاما[1]

ياله من بون بعيد بين ما عليه هؤلاء الهنود الآن من الذل والشقاء وما كانوا فيه من العظمة والرخاء .

«١» اللاما حيوان من حيوانات البيرو بامريكا يشبه الجمل

معابد الانقين التي يرشد أهلها السائح الى زيارتها وطريقهم الحربي المشهور الذي اختطوه لمقاتلتهم ونظام ريهم العجيب الذي كانوا يبلغون به مياه الجداول الصغيرة الى الحقول بما كانوا يحتفرونه من الخنادق ليخصبوا به من الأرضين ماصار بعدهم محلا - كل ذلك مما يحمل على الاعتقاد بأن الأجيال الاصلية التي كانت متوطنة وسط أمريكا أوقفت في سبيل تقدمها بحلول الجيل الابيض الذي انقض عليها في بلادها انقضاض العقاب فعاقها عن رقيها فانها كانت تسعى اليـه ومن ذا الذي في استطاعتـه أن يخبرنا بما كان يحصل لو أنهم أمهلوا حتى بلغوا مثال تمدنهم الصحيح؟ ربما كان انعكس الامر فذهب مثـل خريستوف كلومب من حمر الجـلود فاكتشف الدنيا القديمة .

قبائل الهنود التي لم تخضع الى اليوم للحكومة الامريكية تحذر ما يقدم لها من الهدايا وما توعد به من المزايا على حد قول القائل

« الروم أخشى » (١)

ولم تفلح الحكومة في ارسال الدعاة اليهم لدعوتهم الى النصرانيـة فانهم يعلمون أن لفظ انجيل في فم الابيض معناه الاستعباد لجيلهم ومصادرتهم في أرضهم .

يعتقد بعض أهل ليما أن من المدن البيروية أو المكسيكية القديمة مالا تزال موجودة لم يبلغها الفاتحون من اسبانيا واذا سألتهم أين هـذه المدن لاتجد منهم أحدا يستطيع أن يجيبك عن هـذا السؤال ثم اذا قلت

---

(١) الروم أخشى جزء من بيت شعر لشاعر لاتيني أذكر منه شطره الاول وترجمته:
« الروم أخشى وان هم قدموا تحفا »

كيف أن أحدا من سائحي اليوم لم يعثر عليها أجابوك إن هؤلاء الاقوام القدماء سكان تلك المدن مكنوفون من كل ناحية بالصحارى والآجام والمستنقعات وسلاسل الجبال وغيرها من العقبات الكثيرة وبذلك حفظوا استقلالهم . على أن الوصول اليهم يقتضي وطء قبائل متوحشة تمنع الاجانب من دخول أرضها وتجزي عليه بالقتل مثل الهنود البسلاء (انديوس برافوس) وهم جيل حربي يسكن الهضاب الواقعة شرقي البيرو والقونشوس ويقال إنهم من أكلة لحوم البشر .

ولقد ذهب فريق آخر من البيرويين في دعاويهم الى ماهو أبعد من ذلك فلم يقتصروا على القول بوجود المدن المذكورة بل قالوا إن بعض ركاب التعاسيف الخاملي الذكر والمترفقين من التجار وطلاب المهن زاروها المرة بعد المرة ومن هؤلاء الزوار من انقطع ذكرهم فلم يسمع عنهم شيء ومنهم من حكوا ماعاينوه منها فهم مصدر ماعرف عنها غير أنهم لبعدهم عن الحضارة بل وعن العلم لم يخبروا بما اكتشفوه الا بعض التجار الرحل أو الصيادين ولم يستطع هؤلاء عند حكايتهم لما وعوه أن يؤدوا لمن سمعوا منهم الا أخبارا مبهمة جدا والذي ينبغي أن يعتقد في مثل هذه الاحاديث هو أنه يحسن قبل نبذها واعتبارها من الاساطير أن يفكر فيها مرتين لانها على كل حال ليست بعيدة عن الحقيقة بعد ان اكتشف استفنس[1] وغيره من السائحين الذين جابوا وسط أمريكا ما اكتشفوا من الآثار الحقيقية وبعد الابحاث التي حصلت وسط الغابات الكثيفة ولم يشهدها الا الببغاآت والقردة وخصوصا بعد ان ثبتت للعالم صحة بعض الآثار

(١) استفنس هو سائح امريكي شهير

المروية عن الهنود ثبوتا واضحا من اطلال المدن المكتشفة مثل قوبان وقيشي واوقوزينجو وبالانقا وغيرها من المدن الكثيرة المدفونة تحت جذور الاشجار من قرون طويلة .

ثم إن موضوع البحث والنظر هاهنا ليس مدنا بائدة بل هو مدن حية قد يعثر فيها إن وجدت على تاريخ جيل من أجيال البشر برمته ومعابدهم وآلهتهم وقسيسيهم وشرائعهم وعوائدهم .

ربما مال « اميل » و« لولا » اذا سمعا مثل هذه الحكايات فاتقدت بها مخيلتهما الى أن يباشرا البحث عن تلك المدن المجهولة فان من هو مثلهما في سن المراهقة لا يفكر في العقبات ولا يحسب لها حسابا فهما من هذه الجهة شبيهان بعامة الناس ولو اني ثبطت عزم هذه القرنين الصغيرين وأخمدت توقد ذهنهما لمت نفسي على ذلك ولكني انتهزت هذه الفرصة فقلت لهما إنه لا يزال في بلاد البيرو كما في غيرها كثير من الاشياء التي يلزم اكتشافها غير انه يجب على الانسان قبل كل شيء أن يعرف كيف يزن قواه بطبيعة ما يريد مباشرته من الاعمال ٠ اه

الشذرة الثامنة والثلاثون

« التربية بالتأثيرات الطبيعية »

يوم ١٤ أغسطس سنة ـ ١٨٦

صادفنا غداة اليوم على مقربة من ليما زنجيا آتيا اليها يلتمس رزقه من عرض حيوان يسمي البوما وهو المثل للاسد في أمريكا كانت قبيلة

من المتوحشين اصطادته حيا وكان ربه وهو شبه مشدوه يؤمل أن ينال بعض النقود من عرضه على النظّارة (اي المتفرجين)

كان هذا الرجل على شدة فاقته وعجزه عن القيام بنفقة نفسه مصحوبا بصبية زنجية عليها طمر أزرق رأيت في مشيتها نزلا فسألتها بالاسبانيولية التي لا أحسنها عما أصابها فجعلها تعرج كما رأيت فكان جوابها أن أرتني احدى ساقيها فاذا فيها جرح دام ورأيت قدميها قد ورمتا ورما مفرطا ولما أمعنت النظر في ساقها المجروحة عثرت على طرف شوكة غليظة في لحمها وهي التي تسبب عنها الجرح قطعا ثم خبث بما اعتوره من المشي والوصب ولدغ الحشرات فان هذين المسافرين كانا آتيين من مسافة بعيدة جدا .

مازلت بهذه الشوكة حتى نجحت في سلها ثم ضممت أجزاء الجرح بعضها الى بعض ولما لم أجد خرقة أعصبه بها ناولتني «لولا» منديلها ولم تقتصر على ذلك بل دعتها رحمتها بهذه الفتاة الى خلع نعليها ووضع قدميها المرضوضتين فيهما فلاءمتاهما أشد الملاءمة كأنما صنعتا لهذه المسكينة فأعربت «للولا» عن شكرها ثم غادرناهما ومضينا في سبيلنا .

انبعثت « لولا » الى عملها هذا بباعث من بواعث الخير القلبية الا أنها ما لبثت أن أدركت صعوبة الاحتفاء في أرض صلبة خشنة كأرض البيرو فان طرقها لا مشابهة بينها وبين مخارف البساتين الكبرى في انكلترا

أنشأ « اميل » أولا يسخر من حيرة صديقته في مسيرها حافية ولكنه لتأثره من صنيعها دبت فيه النخوة فاحتملها على ظهره فقبلت ذلك مبتسمة .

لم يكن الباقي من طريقنا طويلاً جداً ومع ذلك وقف «اميل» في

اثنائه للاستراحة مرتين أو ثلاثا متبعا في ذلك نصيحتي وفي آخر وقفة منها بصرنا من بعيد بالمشعوذ يقود اليوما وعرفت « لولا » الصبية الزنجية وقد خلعت النعلين وحملتهما في يدها فما كان أشد غمها لهذا المرأى. انظر كيف بخستها عطيتها وكيف استعملتها .

فسريت عنها ما خامر قلبها من الكدر بأن قلت لها إن العادة طبع ثان وإن هـذه الصبيـة لا بد أن تكون تعبت من الانتعال لاعتيادها الاحتفاء على أن نية اسداء المعروف للناس محمودة على كل حال ولو اخطأ صاحبها فيما يتخذه من الوسائل لايصال النفع اليهم .

والذي رأيته خيراً من هذه العظة كلها هو أن ماوجده قلبها الطاهر من السرور باحتمال « اميل » إياها قد ذلها فيما أرى على أن الانسان لا يخسر شيئاً مما يسديه من المعروف . اه

الشذرة التاسعة والثلاثون

« بيان فخامة مشاهد الجبال »

يوم ٢٨ اغسطس سنة ـ ١٨٦

زرنا بعض اجزاء من جبال القوردنير ولم يكن سبق « لاميل » أن شاهد مثل هذه الجبال التي يصح أن تسمي بالالب [1] الامريكية فراعه كل الروع ما لهذا الخلق الماثل من مظاهر الفخامة والعظم مع أننا لم نبلغ منها الا أدنى شعافها

لا بد ان الاحظ هنا أن القدماء كانوا قليلي التأثر بما للجبال الشامخة

---

(١) جبال الالب هي سلسلة جبال عظيمة في أوربا

من المحاسن الرائعة فانا لم نر لشعراء اللاتين من الكلام فيها الا النذر اليسير ومعظم ما قالوه استهجان واستقباح وقد يحدوبي ذلك الى القول بأنه كان يلزم ان يدهمهم من الكوارث المحزنة ما تهتز له نفوسهم وان تستضيء بصائرهم بنور العلم وتتمكن منها الاستعداد للبحث والتنقيب الذي هو من مزايا العصور الحديثة ولو تم لهم هذا لادركوا أن في سيارنا الذي نعيش على ظهره (الارض) من المظاهر الهائلة البديعة مايدعو الى الاعجاب الحقيقي. اه

الشذرة الاربعون

« انتهاء قضية لولا بالصلح وعزم الدكتور اراسم على العودة الى أوربا »
« وتركه قويدون وزوجته هناك »

يوم ٢ سبتمبر سنة ـ ١٨٦

كسبت « لولا » دعواها وان شئت قلت خسرتها فكلا القولين صحيح باعتبار جهة النظر .

اضطررنا الى المصالحة في هذه القضية الكثيرة الارتباك لما يقتضيه الفصل فيها من الانتظار أشهراً بل سنين فعرض علي الخصم أن يعطوا بنت السفان مقداراً زهيداً من النقود وبعض ما كان لوالدها من الارضين والارض هاهنا لاقيمة لها اليوم أصلاً مالم يستغلها صاحبها بنفسه أو بواسطة وكيل له يقيم في هذه البلاد .

فأما أنا وهيلانة فما جئنا لنقيم في « ليما » بل قد انتهت مهمتنا ولم يبق الا السفر لا سيما وقد تلقيت مكتوباً من الدكتور وارنجتون يدعوني الى لوندرة لامور نافعة لي بينها فيه .

وأما قوبيدون وجورجية فانهما خبيران بفن الزراعة خصوصاً زراعة الاقطار الحارة وليسا من ذوي العقول الضعيفة وأمانتهما تقوم بكل ما في بلاد البيرو من الذهب ولا أري ما يمنع من العهد اليهما بزراعة أطيان « لولا » .

وإنه ليشق علي مفارقة هذين الشهمين غير أني أرى أن إقليم انكلترا لم يخلق لمثلهما من الزنوج وأما اقليم جنوب أمريكا فانه يؤذن بأن سيكون لهما فيه بتوالي الايام مناخ جميل ووطن سعيد . اه

الشذرة الحادية والاربعون

بيان ماعاد على «اميل» من الفوائد في هذا السفر

يوم ١٠ سبتمبر سنة ـ ١٨٦

رجعت السفينة التي كانت حملتنا من لوندرة الى قلاو منذ ثلاثة أسابيع ويعلم الله متى يكون مجيئها ولهذا رأينا بدلا من اجتياز رأس القرن ان نركب هذه المرة في سفينة تجارية على نهير الامازون[1] تسير بنا والشاطيء حتى نبلغ سواحل البرازيل حيث نجد سفينة تكون مسافرة الى انكلترا فان هذه الطريق أقصر من الاولى بمسيرة عشرين يوما .

تنوى «لولا» ان تعود معنا الان بلادها لقلة ماعرفته منها لم تبعث في نفسها شيئا من الرغبة في وطنها ولانها تعلم فوق ذلك اننا نحبها.

«١» المعروف ان الامازون اكبر انهار الدنيا ولعل المؤلف يريد بقوله نهيرا أحد فروعه القريبة من ليما

ماندمت على هذا السفر بحال «فاميل» قدمضى وقته هنا في الالتفات الى العلم والامعان في مسائله فهو يعود الى بلاده الآن ناقلا اليها مجاميع في علم التاريخ الطبيعي بل حاملا ماهو خير له منها: ضروب الانفعال الكثيرة بما رأى، وصنوف الذكر لما وعى، وقد تربى طبعه في مدرسة الاختبار والحياة التي لا يربي الرجال غيرها .

نعم اني لا أعني بهذا القول ان ألزم جميع من هم في سنه من المراهقين ان يبتعدوا عن أوطانهم بقدر ابتعاده ولكن رأيي الذي لا أحول عنه هو انهم لو خرجوا قليلا من اصدافهم ورأوا الكون في الكون قبل ان يروه في الكتب لغنموا من ذلك اكثر مما يخطر في الوهم اهـ

الكتاب الرابع

في تربية الشاب

الرسالة الاولى

(من « اميل » الى والده)

عن مدينة بن في ٨ يناير سنة — ١٨٦

وصف معيشته — نادي الطلبة الالمانيين ومحاوراتهم — تهافتهم على خدمة الحكومة
تفكر « اميل » في أمره — تألمه من عدم فهمه اللغة الالمانية
ذكره « لولا » — استيحاشه من غربته

انتظمت في سلك المدرسة الجامعة بعد امتحان كان لا بد من

تأديته وصرت أدعى منذ اسبوع بالسيد الشاب .

من المفروض عليّ ان اكاشفك بشيء من تفاصيل معيشتي وأنا طالب أما نهاري فاصرفه في تلقي دروس الحكمة والتاريخ والقوانين وعلم تركيب الحيوان والنبات ومنافع اعضائهما والمقارنة بين اللغات وغير ذلك وأما ليلي فأقضيه في مسكن استأجرته ستة أشهر بنحو مائة وخمسين فرنكا وأما طعامي فأتناوله في مطعم على مائدة جامعة في مقابل أربعة وعشرين صولديا [1] وبعد العشاء تارة آوي الى حجرتي وطورا اتنزه في المدينة ولما أطلع على أسرار طائفة الشبان كلها لكوني أجنبيا على ان أحدهم قد أخذني معه ذات ليلة الى مدخن (مكان لتدخين التبغ) يجتمع فيه بعض الطلبة الالمانيين فما فتح بابه حتى رأيتني تائها مغمورا بسحاب مركوم من الدخان حال بيني وبين رؤية جدران المكان وسقفه بل رؤية المكان برمته وكان يخيل الي انه يمتد الى غير نهاية وكنت أسمع أصواتا واغاني وقهقهات ولا ابصر شيئا من الصور الحية وأرى اضواء حمراء تبدو في بعض جهات هذا المكان يغشاها ذلك السحاب كأنما تسبح منه في بحر لجي وكنت أمشي كخابط ليل وراء الدليل وعلى مقربة منه بين صفين من الموائد خيل اليّ انها تعوم في الضباب ورأيت عليها رؤية غير مستبينة آنية من القصدير كان لمعانها المعدني يجهد في صدع حجاب الظلام الدخاني المنسدل على القاعة كلها. ثم لمحت من خلال هذه الآنية وجوها آدمية لان بصري كان يتدرج في اعتياد هذا الجو الغريب والانس به ولم يكشف عني الحجاب كشفا تاما الا عندما بلغت نهاية القاعة حيث أقيم مصطلى عظيم فرأيتني في جمع حافل

(١) الصولدي جزء من عشرين جزأ من الفرنك فقيمة طعامه هي فرنك وربع

من الشبان على رؤسهم القلنسوات وفي أيديهم أكواب الجعة وفي أفواههم المداخن وبين هذا التشويش واللغط عثرت على حلاق (جمع حلقة) من الطلبة قامت بينهم مناظرات في مسائل مهمة ولم تعقهم عن مداومة الشرب والتدخين •

لم تعتد أذنى سماع الاصوات الالمانية اعتيادا يكفي لمتابعة مجرى الحديث وفهمه . على اني فهمت من فحوى ماسمعته انهم يتناظرون في مقاصد ووسائل بعضها أسمى من بعض تتعلق باصلاح أحوال البشر وكانت البراهين والنكت والمعاني تنبعث من أفواههم كأنها سهام نارية تتقذف بين أنفاس الدخان ولما أنصف الليل غادر القاعة جميع الطلبة ورأيت بعض من لاحظت فيهم الحمية والغيرة على مصالح الانسان منصرفين الى بيوتهم وقد جعلوا يغنون جهارا في وسط الشارع أغاني مبتذلة ولم يبد عليهم حينئذ مايدل على أنهم ذاكرون لما تعاهدوا عليه من اصلاح شؤون الكون.

أخص غاية للطلبة من اختلافهم الى المدارس الجامعة هنا بحسب ما سمعت هي أن يلوا عملا من أعمال الحكومة فكلهم يؤمل أن يكون خادما لها على تفاوت بينهم في ذلك فاذا حصل أحدهم على لقب دكتور مثلا رأيته يتقدم اليها حاملا شهادته راجيا أن توليه أحد الاعمال الخالية في ادارتها ومعظم هذه الاعمال لا يولى الا بالامتحان ولا يناله الا من يظهر انهم أعلم من غيرهم وحينئذ يعول الذين يخيبون فيه على الاشتغال بالاعمال المستقلة ولا أدري أهذه الحالة وهي فرط الرغبة في تقلد المناصب العامة هي التي ينبغي أن ينسب اليها التغير الذي يحصل في عقول شبان الدكاترة عند خروجهم من الجامعة أم له سبب آخر .

فالواقع هو أنه ليس بين أخلاق الطلبة واخلاق غيرهم من الالمانيين أدنى مشابهة :

الطلبة يتظاهرون بالتنفج [١] والشذوذ والعربدة ويخيل الى من يرى غيرهم من الالمانيين انهم ممتلئون سكينة بل جودا وبلادة .والاولون مشهورون بالميل الى الثورة وبحب الحكومة الجمهورية وبعدم المبالاة بالخوض في أي بحث نظري وبالهجوم على جميع المسائل سياسية كانت أو دينية أو قومية بما يدهش من جرأة الجنان، وبقية الامة يظهر عليها التشدد في الاستمساك بالعوائد القديمة وبالحكومة الملكية . وترى الطلبة يتباهون باحتقارهم جميع المميزات التي لا منشأ لها الا اتفاق النسب على حين أن أواسط الناس يجلون ألقاب الشرف اجلالا لا حد له فترى الفريقين كأمتين متمايزتين. وليس للطلبة في الحقيقة ارتباط بباقي الامة الا رغبتهم العظمى في أن يلوا لهم بعد مبارحة الجامعة أعمالا رسمية على أن هذا الارتباط كاف في عدم اكتراث الحكومة كثيرا بما يبدونه من حدة افكارهم الحرة .

دعتني سيرة هؤلاء الشبان الى التفكر في سيرتي فاني قد بلغت التاسعة عشرة من عمري ولا مقام لي بين الناس بل لم يقف بي الاختيار حتى الآن على صناعة نافعة اشتغل بها واذا أردتني على الاقرار لك بما أجده قلت اني أحيانا آنس من نفسي فتورا في الهمة وضعفا في العزيمة وأسائلها عما أصلح له من الاعمال وأنا ضائق بذلك صدرا .نعم انك قد رأيت مني تقدما سريعا مناسبا لحالي في العلوم ودرس كتب المتقدمين في أربع سنين أو خمس

(١) التنفج افتخار الانسان بأكثر مما عنده

مضت وما ذلك ولا شك الا من الطريقة التى أهلتني بها انت ووالدتي للعمل العقلي وهي مراقبة الامور والاسفار وما تلقيته منكما من الدروس النافعة ولا أشك ان لي طمعا في العلم ولكني أجهد فكري فى استقصاء مايعوزني من الخصائص فآونة أتوهم اني أحس في نفسي بروح إلهي يقدرني على كل شيء، وساعات يخيل الي اني قد فنيت في عجزي وتجردت من حولي وقوتي، وتارة تملكني الافكار، وطورا يستحوذ علي وجدان الحاجة الى العمل . والذي اراه يقينا اني لم أجد الى الآن استقامة واستقرارا فما لنفسي من القوى ان صح ان يطلق ذلك على مالشاب مثلي من الشهوات القوية التي تدعوه الى السعي لادراك مقامله في هذه الدنيا .

لما بلغت ليا منذ شهرين كنت أعتقد اني على علم باللغة الالمانية لما قرأته منها فى الكتب فما لبثت ان تبين لي خطأي في ذلك ومنشأ هذا الخطأ اني كنت أحسن قراءة الصحف وعناوين الحوانيت واسماء الشوارع وما على الجدر من الاعلانات فان الجدر هنا كما تعلم تتكلم بالالمانية. فاذا جرت حولي المحاورات اصغيت اليها وما كنت اسمع الا اصواتا لا افقه شيئا من معانيها فكنت مطلق البصر اسير السمع لان من الاسر المعنوي الحقيقي ان يعيش الانسان بين قوم لا يفهم لغتهم. كان الغلام الذي في الثالثة من عمره - وهو في هذه السن لا يعرف من تلك اللغة الا التلعثم ببعض ألفاظها - يعرف منها أكثر مما أعرف حتى اني لما كنت احاول مخاطبته كان ينغض الي رأسه استهزاء كانه يقول: « اليك عني فلست افقه لك قولا »

كنت بين اولئك القوم كالاصم الابكم الذي فقد كل وسيلة للتفاهم حتى لغة الاشارات فهل يمكن أن ينشأ عن الامواج الصوتية اذا اختلف

انتقالها الى الاذن اختلافا يسيرا باختلاف كيفية تحريك الشفتين مثل هذه الحوائل والحجب التي تبعد الناس بعضهم عن بعض .

استأت جداً من هذه العزلة فجاهدت جهاداً عظيماً في التجرد من الانكماش الذي أجده من حيائي الطبيعي وانشأت اليوم أنطق بالالمانية نطقامفهوما وإني لاعلم أنه لايزال يعوزني تحصيل الكثير منها ولكن من هو في مثل سني قد يبعد أن لا يحصل في قليل من الزمن لغة هو لا ينفك يسمع اصواتها من افواه جميع الناس في هذه البلاد . وليس أصعب ما في هذه اللغة التكلم بها فيما أرى بل هو فهم ما يسمع من التحاور بها بين اثنين من أهلها فقد كنت ذات مرة في الملعب وكان اثنان من الممثلين يتحاوران فما استطعت في سرعة تحاورهما أن أفهم كلمة منه اللهم الا ماكان من تحية المساء وهي ليلتك سعيدة .

مثل اللغات الاجنبية ان لم اكن واهما كمثل دخان التبغ بالنادي الذي حدثتك عنه في كونه كان يحجب عني بادىء بدء رؤية ما كان فيه من الاشياء والاشخاص فهي حجاب سيزول على التعاقب وآمل أن سيظهر لي النور عما قليل .

أرجوك ان تنوب عني في تقبيل « لولا » وأود لو أدري هل هي مواظبة على سقي الازهار وتمام العناية بالطيور وتنسيق مجاميع الاعشاب والدفاتر؟ وآمل منك ايصاءها بأن تذكرني كما أذكرها . اه

اذا أنا كتبت اليك فقد كتبت الى والدتي فانما في قلبي لا تفترقان ولهذا لا أزيدها شيئا الا أسفي على حرماني من حجرتي الصغيرة التي كنت أسمع منها حركة غدوكما ورواحكما في البيت وعلى أنسي بقربكما عند

اصطلاء النار ليلا فاني هنا في وحشة أي وحشة . اختم لك هذا المكتوب في الساعة الحادية عشرة من الليل على ضوء مصباح يعلوه عاكس ضوئي يسقط منه نور ضارب الى الخضرة وفي إحدى زوايا حجرتي ساعة دقاقة من الصنف الذي يصوت كطير الكوكو عند انقضاء كل ساعة تكرر تكتكتها التي لا تتغير واسمع حسيس احتراق الحطب في التنور وصرير الباب من صفق الريح إياه وأرى البدر من خارج الحجرة شاحب الوجه يرنو الي من خلال ستارتين كبيرتين موشاتين بالاشجار والازهار ما بين بيضاء وحمراء وقد احسست باغريراق عيني مع أن هذه الاشياء في ذاتها لا تدعو الى الحزن ولكن لا تلمني فاني مازلت طفلا ولست آسى على بلادي وانما آسى على مفارقة مهدي فاني احبكما وأرجو من هذه الجهة على الاقل أن اعيش طول عمري طفلا . اه

الرسالة الثانية

« من اراسم الى اميل »

عن لوندرة في ١٣ فبراير سنة — ١٨٦

فراق الوالد لوالديه سنة فطرية — العلم في ألمانيا — نقد الطالب مايقرؤه من أفكار غيره — القصد في علوم المعقولات — نفع الامة بالقيام بالواجب على قدر الطاقة — اختيار الشاب العمل الذي يشتغل به بعد — بيان انه لاحرية لامة يتكالب شبانها على تولي أعمال الحكومة — التحذير من الملحدين — بيان أن الرأي العام لاقيمة له الا اذا كانت الحكومة شورى — خدمة الامة لذاتها لا للجزاء .

اذا كنت ياعزيزي « اميل » تألم من استيحاشك فنحن نألم من فراقك

ولكن يجب علينا التسليم والرضا بما لابد منه وأعلم أنه لو كان في وسعي ان أبرح لوندرة واخاف من أقوم عليهم من المرضى لمرافقتك الى حيث انت الآن لكنت فيه متردداً فقداً آن لك ان تتعلم كيف تسير سيرة الرجال. الطيور تحب افراخها ولكنها متى آنست فيها من القوة ما يكفي لاستقلالها بنفسها في الطيران شجعتها على تجريب اجنحتها فيه سنة الله الذي أراد أن يهب الحرية لجميع البرايا .

أنت تعلم حق العلم أني لم أرسلك الى «بن» الا لأسهل عليك درس لغة الالمانيين واخلاقهم وافكارهم وأنا أعلم انك الى الآن قد استقللت بنفسك في تعلمك فكنت في باطن الامر وحقيقته استاذاً لنفسك ومرشداً وليس ما أخذته عني من الدروس شيئاً يذكر ولكن قد اقتضت احوال هذا العالم أن توجد مذاهب وطرق لا بد في تعلمها أن تلتمس من ينابيعها وألمانيا في يومنا هذا هي مقتبس نور العرفان وهي البلاد التي يجب أن يعرف لها الفضل في الحكمة والعلم والنقد وآداب اللغة ومدارسها الجامعة محط رحال الكثيرين من أفاضل الاساتذة وجهابذة العلماء ولست مع ذلك أدعوك الى قبول تعليمهم على غير بصيرة وتلقي أقوالهم وآرائهم قضايا مسلمة اذن أكون قد تخليت عن جميع الاصول التي أسير عليها . فللانسان شيء لا ينبغي أن يسمح به لاحد الا وهو حرية الفكر فالعلوم التي تتلقاها في الجامعة لا يمكن أن يتسع بها نطاق عقلك ويقوي بها ادراكك مالم تراقب مافيها من أفكار غيرك مراقبة ذاتية . واياك ثم اياك أن تنهك قواك التي أنت محتاج اليها في العمل بفرط الانكباب على دراسة المعقولات بالغة مابلغت من الطلاوة وبعد الغور فان البحث في المعقولات لا قيمة له

الا اذا أدى الباحث الى وسيلة ينفع بها نظراءه والمحب لنفسه من يقصر ثمرة فكره ودرسه عليها . لامراء في ان الاتصاف بالعلم من الامور الحسنة ولكن اجل منه واحسن ان يكون الانسان محبا لوطنه نافعا لاهله ولا يعزب عن ذهنك ان المانيا ليست بلادك وان آثار سلفك هي حكمة القرن الثامن عشر وان امك هي الثورة الفرنسية .

آلمتني عبارة من مكتوبك وهي قولك « اني احيانا آنس من نفسي فتورا في الهمة وضعفا في العزيمة واسائلها عما أصلح له من الاعمال وانا ضائق بذلك صدرا » فاعلم انه ليس من الضروري لتحقق النفع في الانسان ان يكون من كبار الرجال فأيما رجل صدقت نيته في فعل الخير وصح قصده للنفع فانه يغير من حالة القوم الذين يعيش فيهم بقدر ما من التغيير وعلى كل حال ليست الحياة الا نتيجة القيام بفروض صغيرة فمن أداها كلها بما في وسعه من الوسائل كان في الغالب افضل ممن يسعى في الاشتهار بعمل خطير. وليس شيء من افكارنا ولا من اعمالنا بضائع علينا فان آثارها تظهر فيمن حولنا من الناس أو فيمن يخلفوننا ومن ذا الذي يستطيع ان يقول ان الحركات الكبرى التي غيرت أحوال العالم من جهة السياسة والعمران لم يكن فيها للمستضعفين الخاملين من الخدمة والعمل ما للرؤساء المسيطرين كلا بل ربما لم يكن ظهور هؤلاء واشتهارهم الا صورة منعكسة لفضائل اولئك ومساعيهم المحمودة .

اقنع بأن تكون كما أنت مع مواصلة السعي في تنمية غرائزك وتوسيع نطاق مواهبك بالدأب في العمل والمدارسة واذا احتجت في بعض اوقاتك

الى تكبير دائرة وجودك فتصفح دواوين الشعراء الحقيقيين وكتب أئمة النظار المشهورين وتمتع بما تجده في نفسك عند مطالعتها من عظم القدر وسمو المكانة الذي يسري اليك منهم فان في ذلك غبطة لايحيط بها الوصف فاذا هبطت من هذه المقامات العلي لم تعدم حولك من النفوس الصغيرة المحتاجة للاستضاءة بنور العلم من يغنيك الاشتغال بهم عن الاهتمام بغيرهم ومن صنائع البر مافيه تسلية لك عما يعوزك من الخصائص . واعلم انه لا يتألم مما في عقله من مواضع الضعف والقصور الا محب لنفسه أو خبيث وأما من يستسلم ويرضى بقسمته ويتعلم ليعمل فانه لا يطلب فوق ماقسم له من العقل شيئا بل يكون مغتبطا به غير حاسد لغيره .

أراك ايضا تغلو في الاهتمام باختيار ماتمارسه من الاعمال فانه وان كان مما لامرية فيه ان كل فرد من الناس يجب عليه ان يعيش من كسبه وكده واني أغتم لو رأيتك مفرّطا في هذا الامر الذي هو اول فرض على الانسان . ينبغي أن تعلم ان جملة الدروس التى تتلقاها الآن مع كونها تؤدي الى جميع الحرف لا تفتح لك باب واحدة منها ولا ارى في ذلك مايدعو الى كدرك لان كل علم تحصله هو ذخيرة لعقلك فان لم يفدك في نفسك فقد تجد فيه وسيلة لنفع غيرك . على ان مافى الكون من طوائف الامور المختلفة وطبقات الحوادث المتباينة مرتبط بعضه ببعض فلا بد في معرفة امر منها معرفة صحيحة من معرفة امور كثيرة لها بهذا الامر تعلق بعيد. ولست بهذا القول ألزمك السعي في تحصيل مايسمى بالعلم العام الذى هو ضرب من الخيالات والأوهام وإنما اريد به تفهيمك ان للعلوم قضايا عامة لا بد لك من تصور حدودها الاصلية قبل تفرغك لتحصيل علم منها على حياله .

أنت ولي أمرك في الحكم على ما يلائمك من الاعمال وليس عليّ الا أن اسألك عدم التأسي في ذلك باخوانك من الطلبة فكن كما يرشدك اليه خلقك وميلك اما طبيبا أومحاميا أو مهندسا أو صانعا أو آليًّا أو غير ذلك ولكني أسألك بالله أن لا تكون عاملا للحكومة .

أي حرية ترجى لقوم يتطلع المتعامون من شبانهم الى الانتظام في سلك عمال حكومتهم؟قد كان فن ظلم الحكام للناس في الايام الخالية من الفنون الصعبة الكثيرة المشكلات التى يلزم لتعلمها استعداد خاص ونفس كنفس مكيافيل [(١)] واما الآن فيظهر من أحوال الرعية أنهم يعنون أشد العناية بكفاية حاكمهم مؤنة استعبادهم بالحيلة أو القهر لانهم يتهافتون على احتمال نير عبوديته.فأي ملك أو عاهل يجد حول أريكته رءوسا خاضعة واطماعا سافلة نهمة كاطماع الكلاب التى لا هم لها الا قضم العظام مادام بين يديه من الاموال الوافرة ماينفقه كيف يشاء ومن المناصب وألقاب الشرف والرتب الكثيرة ما يوزعه على من يريد .

ليس الالحاد والوقاحة مقصورين على أحداث المانيا فانك حيثما حللت تجد من الشبان من لا يعتقدون بشيء ولا يوقرون شيئا فكن منهم على حذر لان هذا الفسوق العقلي يساعد قطعا على تثبيت الاوضاع القديمة ذلك ان هؤلاء الذين يدعون لانفسهم حرية الفكر لم يخلصو من قيد الاثرة ومن هذه الجهة تأخذ الحكومة منهم بالنواصي والاقدام أعني أن عبادتهم لنجح مساعيهم وطمعهم في الوصول الى ما يبتغون وظمأهم

(١) مكيافيل هو أحد رجال الحكومة الايطالية ومن كتابها المشهورين ومن كتبه كتاب الامير وهو مختصر في السياسة المفسدة للاخلاق

الى المناصب والتمتع بمرتباتها الجسيمة لا تلبث أن تدعوهم الى توقير النظام الذي سنته الحكومة واجلاله وإني لا أعتقد بجراءة العقل مالم تصحبها بسالة النفس وتنزهها عن الاغراض ثم إنه مهما كان بلوغ كل أمنية في الدنيا ممكنا بمحض هوى الغير ورضاه لم يعدم المستبدون عبيدا متحمسين في خدمتهم يعملون لهم ما يشاؤن وتجد من كانوا من الشبان بالامس منطقيين متحذلقين يصبحون وهم أكثر الناس سجوداً للقوة واستكانة للسلطان .

ولاية أعمال الحكومة هي بلاء الامم في هذه الايام فالبلاد التي رئيس حكومتها هو الذي يوزع مناصبها لا يمكن أن تكون آراء الناس فيها الا نتيجة عمل حسابي لما يربح منها فاذا وقع خطأ سياسي أو ديني من الحاكم وكان ينتج للموافقين عليه بعد الحساب عشرة آلاف فرنك مثلا فانه يصير حينئذ صوابا واذا أتى أمرا خسيسا ودفع ضعف هذا المقدار قيل انه قام هذه المرة بما تدعو اليه الهمة والبسالة فيجب الاخلاص له .

يلهج الناس كثيرا بذكر الرأي العام ويقولون إنه أقوى كفالة للحق والحرية وهو صحيح اذا كان أمر الامة بيدها وكانت هي التي تلي شؤون إدارتها وأما اذا كان حالها غير هذا فالرأي العام نفسه قد يكون فيها آلة للاستبداد فان أكفل وسيلة لظلم الامة هي إعدام شرف النفس من أفرادها وازهاق روح الاستقلال بينهم بتحبيب الحكومة القائمة اليهم وحملهم على رجاء بقائها . ورب قائل يقول ان عدد العمال في الحكومة لا يذكر في جانب السواد الاعظم من الامة : فأجيبه ان هذا الاعتراض عبث لانه قد نسي أن بازاء كل عامل نال منصبا ألفا من الناس

يطلبونه ويرجون رجاء قويا ان ينالوه يوما من الايام فعالم العمال يكاتفه عالم آخر من السائلين ومن ورائهم جميع طلاب الاموال . واذا كان تحرير الناس من الاستعباد لا يتأتى الا متى أعانوا عليه بارادتهم فأي وسيلة تبعثهم على ارادة التفصي من ربقته اذا كان فريق منهم وهم الذين تقوم لهم الحكومة بنفقات مطعمهم وملبسهم ومسكنهم قد بلغت بهم الحال الى ان يكون استعبادهم قوام معيشتهم والفريق الآخر يغبطونهم على هذه النعمة ولا يأسفون الا على عجزهم عن مشاركتهم فيها .

لست اقصد بهذا القول ان من لوازم المناصب العامة تصغير نفوس القائمين بها أو الساعين في تقلدها . حاش لله فانها في الحكومات الحرة كحكومة أمريكا مثلا من شأنها ان تنمي فيهم قوة العزيمة ومكارم الاخلاق لان الحكم في اختيارهم راجع الى انتخاب الامة ولانهم انما يعرون بالاعمال مزورا ولان جميع الولايات لا تلبث ان يعود أمرها الى الامة فتقلدها من تشاء. ومن هنا يعلم اني لا أتكلم عن الامم التي حكوماتها مؤسسة على الشورى وانما اتكلم عن الحكومة التي تولى الاعمال فيها بالمحاباة والهوى فشبانها يتدلون ويصغرون بسعيهم في تقلد تلك الاعمال لان حكوماتها لا تبغي في الحقيقة الا نفوساً سلسة القياد تلصق بما جرى عليه العمل من التقاليد الادارية وطباعا لينة عطفت على كل ناحية فلم تبق لها وجهة ذاتية وعقولا مثقفة ولو لم تسم عن عقول العامة تستعمل زخرف القول في تصوير ماوضع من النظام بصورة معقولة .واني لعمري بي ساعات احدث فيها نفسي بأن من ظلم الشعوب ان يلوموا حكامهم على استعبادهم فأي معنى للومهم اذا كانوا قد جعلوا مقادتهم بأيديهم وكان الآباء لا يتمنون لابنائهم الا تقلد

المناصب ذات الرواتب العظيمة التي لا عمل فيها بدلا من صرفهم الى وجوه الكسب الاخرى بل اذا كان كل الناس يؤملون ان يكونوا عالة على المصلحة العامة ويودون لو ان للحكومة من العقل والوداعة ما يكفي لمنعها من الانتفاع بما يقدمونه لها من الفوائد فما أسخف عقولهم اذ جعلوا انفسهم ترابا ثم هم يدهشون من وطء الحكام اياهم .

أنا لا انكر ان نيل الشاب منصبا من المناصب الكثيرة المقررة في الحكومة أسهل عليه كثيراً من ان يفتح لنفسه بابا للكسب في قومه بجدارته واهليته الذاتية ولهذا لا يلبث الانسان ان يعرف الامم التي اعتادت الارتزاق من حكوماتها لما يكون فيها من فقد الاستعداد لانشاء الاعمال وابتكارها فترى فيها الصناعة والزراعة والتجارة تنساق في مجرى العادة بتكلف وجهد والاموال تحذر الخروج من جيوب المتمولين والتقاويم التجارية التى تأبى الحكومة حمايتها يشق عليها كما يقال ان تطير بأجنحتها والصناعات الحرة تحوم حول السلطان لنيل الاعمال والمحاباة وترقب فرصة التطفل على مائدة المصلحة العامة وآداب اللغة والفنون تتأثر بقوة السلطان وتتدلى بتدلي الحياة العامة التي يحطها سلطان رجل واحد وحاجة التغذي من يد الحكومة تزيد على الدوام عدد طائفة الندمان والمتملقين .

كأني بك تقول لي ان ذلك الذي وصفت عيب في شكل من أشكال الحكومة وذنب لمجموع الامة التي ترتضي هذا الشكل وأنه ليس مما يعتد به كثيرا ان يزيد عدد عمال الحكومة واحدا أو ينقص واحدا لانهم جيش لا يعد : فأجيبك على هذا بأني لست أجهل ان واحدا من الناس ليس فى قدرته ان يغير أحوال أمة بأسرها ولكن اذا ارتكن كل فرد من أفرادها

على هذه المغالطة فاستسلم للتيار المحتوم الذي يسوق غيره فلا ينبغي أن يرجى شرف الاوضاع القومية ولا حرية للناس . ان الامم اذا تدلت وفشت فيها عدوى التأسي وجب على كل انسان حقيق بأن يسمى انسانا ان يرفع لها من نفسه لواء المجد ويدعوها الى النهوض فانها لا تنهض من انحطاطها الا بالمجاهدة وبذل القوة الذاتية . وكم من رجل يشكو من خسة السرائر في قومه ويتألم من دناءة نفوسهم وهو شريك لهم بالواسطة في فعل ماأدام الى هذه الحالة بكثرة خشيته وتحرجه في سيرته فانه اذا تعفف هو عن تولي المناصب الرسمية قد يريدها لابن أخ له أو لاحد اللاثذين ببيته وبهذا يصير شريكا في الضرر الذي يندب سوء مغباته

هذه يابني أفكاري قد أفضيت بها اليك صراحية فان كنت راغبا في بلوغ منصب رسمي، فوسيلتك اليه ميسرة جداً وهي أن تذل وتستكين وأما اذا فضلت كرامة نفسك واستقلالك وشرفك على المزية التي تجدها في سهولة فتح باب الكسب وسرعته فاني أهنئك عليه من صميم فؤادي ولكن لابد لك حينئذ أن تعرف ما أنت داخل فيه فانك بتنازلك عن رعاية الحكومة تضطر الى كسب قوتك بالعمل والجهاد ولا تجد من أحد حمدا على كدك ونصبك وترى كثيرا من الناس يسخرون من بسالتك واقدامك فعلام يحبونك اذا كنت تسفههم وتزري عليهم بالنهج الذي تسير عليه في عملك وفكرك .

اخدم الامة ولا ترج منها جزاء ولا شكورا فانها لا تملك ما تجزيك به لانه ليس بيدها شيء من أموال البلاد ولا من ألقاب الشرف ولا من وسائل التنويه واعلاء الذكر . على أنها قد تنكر مالك من حسن

النية في خدمتها فليس عليك حينئذ الا الاعتماد على قواك الجسدية والعقلية . . . وانه ليس في هذا الانكار المتوقع ما ينبغي أن يريعك فليست أهم مسألة للانسان في حياته أن يبلغ مقاماً سامياً بل المسألة الكبرى هي أن يكون قدره أعلى من المقام الذي يشغله .

وأما أخبار البيت فمنها أن «لولا» عهدت الي إعلامك بأن طيورك وزهورك في حالة راضية وان دفائنك بعد أن حفظت في بطن الارض مليونين أو ثلاثة من السنين سالمة من التغير تغيرت قليلا من غبار لندرة وذخانها وبأنها قد رتبت مجموع حشائشك وانها أشد لك ذكرا منك لها .

وفي الختام أقبلك أنا وامك قبلة الوداع ونرجو ان نكون دائما على علم بدروسك ومقاصدك وحالة معيشتك فكل ما يتعلق بك يعنينا . اه

الرسالة الثالثة

من «اميل» الى أمه في ١٢ مايو سنة — ١٨٦

افضاؤه اليها بحبه لفتية من الممثلات — كيف تعلق قلبه بها — استعلامه سيرتها تمنيه انقاذها مما هي فيه — طلبه المغفرة من أمه بعد اعترافه لها بالحب

اني منذ عرفت نفسي ابثك جميع ما يسوءني وما يسرني وما أكره وما أحب وأكاشفك بالخير والشر ولا اكتم عنك شيئاً حتى اني لما كنت بحضرتك ما كنت في حاجة الى البيان لانك كنت تطالعين افكاري في عيني وتبصرينها تجول على جبيني وهذه اول مرة لي في حياتي اسررت فيها سرا . . . وليت شعري أأبوح به الى قصب نهر الرين ؟ اذاً لتضاحك

مني كما تضاحك من اذني الملك ميداس [1] ام اشبه الى القمر ؟ كلا فقد سمع كثيرا من امثاله، ام اكنه في قلبي ؟ اذاً لأ نبتني عليه سريرتي، ما انا بفاعل شيئا من ذلك بل اريد ان اودعه صدر امي .

على ان الافضاء به ليس من السهولة بالمقدار الذى كنت أتوهمه فاني ماانشأت أخط هذه السطور الاولى من مكتوبي حتى ارتعشت يدي وخفق قلبي ولست إخالك الا ساخرة مني ولكن أقل ما أنا واثق به منك أنك لن تجدي عليّ أن صدقتك الخبر واذا كان الامر كذلك فلابد من افشائه وهو اني احب !

الآن أراك تسأليني من هي التي تحبها وأين رأيتهاوكيف عرفتها ؟ وفي هذه الاسئلة مايزيدني حيرة وارتباكا .

في مدينة بُن ملعب من الطبقة الثانية غير انه مشهور بحسن اختيار القصص التمثيلية فما يمثل فيه قصة مريم استوارت [2] وقصص

(١) ميداس بحسب ماجاء في أساطير اليونان هو ملك فريجيا وهو قطر من أقطار آسيا الصغرى اشتهر بواقعتين نذكر احداهما فقط لاختصاصها بهذا الموضوع وهي أن أبولون بن المشتري حكمه في المناظرة التى قامت بينه وبين بان اله الرعاة في الموسيقى والشعر والفنون وكان بان صديقا للملك فحكم له فلم يكتف أبولون في الانتقام من ميداس بسلخ جلده حيا بل جعل له بدلا من أذنيه أذني حمار فغطاهما ميداس بتاج حتى لاتظهرا للناس ولما علم أن حلاقه لا بد له من رؤيتهما عاهده على كتمان أمرهما ولكن الحلاق لم يلبث أن ثقل عليه الكتمان فاحتفر حفرة في الارض بمعزل عن الناس وأسر فيها قوله «إن للملك ميداس أذني حمار» فاتفق بعد حين أن نبتت في هذا المكان قصبات كانت كلما هزتها الريح كررت هذا القول .

«٢» مريم استوارت هي بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسيا ومريم لورين.=

شيلار [١] وقصة غويت عن فوست ومرغريته [٢] وغيرها من القصص الشهيرة وللموسيقى والاغاني الموقعة عليه في هذا الملعب يومان أو ثلاثة تحل فيها محل الاديبات والوقائع التمثيلية وأنا أذهب اليه في بعض الاحيان لسببين أولهما ترويح نفسي من عناء الدرس وثانيهما ايلافها أصوات اللغة الالمانية. فمن نحو شهر ابتدأت قينة بافييرية [٣] فتية تغني على الموسيقى هناك وكان اول ماغنته قصة النبي من توقيع ماربير فبلغت من الاجادة في تغنيتها الى حد ان جميع طلبة الجامعة كانوا يلهجون بذكرها كانها آية من الآيات فجريت معهم في مساق الاعجاب بها ولما انطلقت الى الملعب ورأيتها داخلة في باحة التمثيل كان كلي عيونا تبصر وآذانا تسمع وليس صوتها هو الذي اشتد اعجابي به مع كونه من اندى الاصوات واندرها بل الذي ملأني اعجابا هو مافي تغنيتها من الروح بل مافي خلقها من الحسن والاتقان فبت ليلي كله احلم بها ولا يفارقني طيفها وكنت اراها بين الافلاك السماوية واسمع انغام الكواكب الموسيقيه فكأن فيثاغورس [٤] كان يحب قينة مثلي

= ولدت سنة ١٥٤٢ م وماتت سنة ١٥٨٧ م تزوجت بولي عهد فرنسا (من أول حكم فرنسيس الثاني) وبعد موت زوجها رجعت الى ايقوسيا وتزوجت بهنري درنلي ثم بالكونت بوثويل ثم ثار عليها رعاياها فلاذت باليصابات ملكة انكلترا التي حبستها ١٩ سنة ثم أمرت باعدامها «١» شيلار شاعر ألماني شهير ولد سنة ١٧٥٩ م ومات سنة ١٨٠٥ ومن أشهر قصصه المحزنة النهبة ووالانشتين وغليوم تل «٢» غويت واسمه جان ولف جانج هو أكبر كاتب ألماني ولد في فرنك فورسيرلين سنة ١٧٤٩ م ومات سنة ١٨٣٢ م وفوست اسم لشخص خرافي مشهور في حكايات الالمان بأنه تعاهد مع الشيطان . «٣» نسبة الى بافيير احدى ولايات ألمانيا

(٤) فيثاغورس فليسوف يوناني ولد في ساموس سنة ٥٦٩ م ومات سنة ٤٧٠ م أقام بمصر وبابل مدة طويلة ثم رجع الى بلاد اليونان وأسس مدرسة في كروتون وهو أول من قال بالتناسخ وعرف نظام العالم الحقيقي.

عند ما كان يحدث تلاميذه عن حسن ألحان النجوم.

ولخوفي من انقضاء اعجابي بها فيما يلي من التمثيل عاهدت نفسي على ان لاأختلف الى الملعب ليالي تغنيتها ولكني مااستطعت ان أوفي بعهدي وقد انتفى عني كثيرا خوف اقلالي من التحمس في حبها بما اكتشفته فيها على توالي الايام من الخصائص الجمة التي لم اكن لاحظتها من قبل ولا بدمن الاعتراف لك بأني كنت أجلس في الصف المواجه لباحة التمثيل بحيث أكون مرئيا لها وقد حسب لحظي مرة أو مرتين انه لاقى لحظها . . . ولكن ربما كان هذا ضلالا ومع ان التمثيل كان يمكث أكثر من اربع ساعات كنت دائما أجده في غاية القصر وأغادر مقعدي في ختامه وقلبي مفعم بما لايوصف من الاضطراب

خطر في ذهني أن أخاطبها بأبيات من الشعر أنظمها وأرسلها اليها غير ممضاة مني على يد بواب الملعب الهرم ففعلت وكنت أقول في نفسي وقت نظمها أقل فائدة لي منها أن تعلم ان واحدا من الناس يحبها ولكنها كانت أبياتا رديئة وأقر بأنها ما كانت تؤدي نصف ما كنت أضمره لها من عواطف الميل وهذا مادعاني الى عدم اعتقاد صحة ما قيل من أن الشعر من لوازم الحب كما قرأته ذات مرة في بعض الكتب وليس في قدرة أحد ممن عدا المصطفين من الخلق أن يعبر عن كل مايجده في نفسه وياليتني كنت واحدا من هؤلاء النوابغ الممتازين .

كنت من مساعيّ في القرب من هذه الفتاة واقفا عند الحد الذي بينته لك فبينما أنا في يوم من أيام الآحاد أجوب المتنزّه الذي تجتمع فيه نساء المدينة في نحو الساعة الثانية بعد الظهر اذابها اقبلت آخذة نحوي في

مخرف فخطر ببالي أولاً أن اتنكب هذا المخرف بسلوك احدى السبل المقاطعةله لانه كان يخيل لي أني سأصفق مما قام بنفسي من ضروب الانفعال والاضطراب غيراني تبتُ ومشيت مِشية الجندي الباسل الذاهب الى حومة الوغى فرأيتها في بزة بالغةمن الرونق غايته على بساطتها . واوباه! كم وددت لو كنت في تلك الساعة قفازها او زهرة قلنسوتها او مظلتها التي تقيها حر الشمس ؟ أقول ذلك وانا اعلم انه كان مني قبيحا ولكن لا ينبغي ان اكتم عنك شيئا من مواضع ضعفي .

في اللحظ خاصة الجذب فاني كنت آنس من لحظي اذا رنوت اليها أن كله اقرار وتصريح بالحب ولما مر كل منا حذاء صاحبه جري على وجهي لألاء حسنها كما يجري لمعان البرق ولم اجسر على الالتفات خلفي الا بعد ان جاوزتها بثلاثين خطوة فرأيتها قد بعدت عني مهرولة غير اني بصرت في المسافة التى بيني وبينها بشيء أبيض يخفق خفوق جناح الحمامة من صفق الريح إياه فما تريثت فى التقاطه فاذا هو منديلها قد سقط منها . . . أو تعمدت اسقاطه . فعدوت خلفها ودفعته اليها فأظهرت الدهش من ضياعه وتلطفت في اسداثي الشكر على رده وراقني أن سمعتها تحسن التكلم بالفرنسية فلاح في ذهني أن أعرفها اني صاحب الشعر الذى أرسل اليها ولكني كنت من شدة الاضطراب الذي استولى على نفسي بحيث لم استطع تحريك شفتي بكلمة ولا بد ان تكون حسبتني ابله .

يزعم العارفون بتركيب الحيوان ومنافع أعضائه ان الذاكرة لا تحفظ الروائح وعذرهم في ذلك انهم لم يحبوا في حياتهم فان منديلها وهو قطعة

من النسيج الباتستي [1] الرقيق كان يتضوع عن عطر لطيف لن انساه مادمت حيا . وفى اليوم التالي لهذا اللقاء انطلقت الى ماحول المدينة من الربى الزاهرة فجنيت باقة من ألطف ماوجدته من الزهور البرية وادلها على العفاف ولما حان وقت التمثيل خبأتها في قلنسوتي المدرسية واخذت مجلسي في الملعب فغنت كعادتها بصوت يسمو بسامعيه الى السحاب ولكن كان يخيل الى ان هذه المرأة التي لاقيتها في الطريق أمس ذلك اليوم أكمل من قينة وان كان استعدادها للتغنية مثارا للاعجاب. وبعد ان انتهت من غنائها وانصرفت استعادها جميع السامعين فهطلت حولها باقات الزهر من غرف الملعب والكراسي المقابلة لباحته وآن لي ان ألقي اليها باقتي فاهتمت غاية الاهتمام بأن تبصرني عند إلقائها مع تظاهري بالاختفاء خلف جيراني وما أدراك مافعلته حينئذ ؟ لقد اهملت كل ماألقاه غيري من الازهار النادرة مثل زهر الكاملية [2] وزهر التين الهندي والورد ذي الاشنة وعمدت الى باقتي الحقيرة المؤلفة من ازهار برية فتناولتها وضمتها الى قلبها. أفلا ترين في ذلك برهانا على حبها لي؟

ستقولين لي أنت لا تعرفها وقد تكون مخالفة تمام المخالفة لما تخيلته منها وانه كان ينبغي لك قبل ان تعلل نفسك بالاماني والاوهام ان تكون على بينة من أخلاقها وكيفية معيشتها فاجيبك ان هذا أيضا لم يفتني وأقر بأني لم اقف من تحري سيرتها الا على اخبار لا يزال فيها شيء من الغموض ولم يجتمع لدي في هذا الصدد الا أقوال فى غاية التعارض والتناقض فانت تعلمين

«١» الباتستي نسبة الى باتست وهو أول صانع لهذا النسيج «٢» الكاملية زهرة يابانية جلبها الى اوروبا مرسل ديني اسمه كاملي فنسبت اليه ·

مقدار ماللشبان فيما بينهم من القسوة على النساء ولاسيما الممثلات فقد بلغ الحسد من افساد خلق الانسان الى حد ان جعل من لذاته تمزيق اعراضهن مع مالهن من الملكات التي هي مناط الاستحسان العام ولست بمخف عنك شيئا مما يقولون فبعضهم ينسب لها من هنات الشباب مايغير دمي ويثير غضبي وبعضهم يقول انها تعيش مع أمها في حي منعزل عن المدينة وقد اراني الطلبة هذه الام تصحبها ليلا عند خروجها من الملعب فلم اجد بينهما مشابهة ما وان اردت الوقوف على شيء من نعتها فتخيلي امرأة ضخمة من عامة النساء قد ذر شاربها واني لمتألم من تصور أن مثل تلك الزهرة، قد نبتت من هذه المدرة، ومهما يكن من وضاعة أصل تلك الجارية فمن الفضل أن تعامل بجميع مايجب لفتاة مخلصة مثلها من صنوف الرعاية والتكريم.

على أننا ان سلمنا حصول أسوأ مايتأتى حصوله منها وفرضنا أن سيرتها لم تكن دائماً مرضية أفلا يكون الذنب في ذلك على مهنتها وعلى من يعاشرونها من الناس ؟ إني أراها بالغة من الظرف والكياسة مبلغا أستبعد معه أن لاتكون لها نفس زكية وربما لم يتفق لها في حياتها أن تمثل لها الحب الصحيح المطهر للنفس بشرا فاضلا كريما . وارباه أي فخر أنا له لو أتيح لي ان امد يدي الى تلك الروح الملكية فأنتاشها من درك الانحطاط الذي هبطت فيه لتعود الى نور الهدى والفضيلة .

ها أنا ذا قد كشفت لك مكنون سري ونجوت بهذا الاعتراف من شديد زجر سريرتي والآن أقم بين يديك راجيا منك غفران خطيئتي.

الرسالة الرابعة

(من هيلانة الى ولدها)

عن لندرة في ٢٣ مايو سنة ـ ١٨٦

في بيان وجوب عدم تداخل الوالدين في حب ولدهما
وتلطف الأم في نصحه وبيان انخداعه

لقد راقني منك يابني العزيز صراحتك وموافقة سرك لعلانيتك واني مجتنبة كل الاجتناب ممازحتك في غانيتك التي نطت بها أمانيك ومع اعترافي بأن ماقصصته علي في شأنها لا يخلو من أمور تدعوني الى التفكر وتبيح لي ان انبهك في أمرها الى تفاصيل اخالها مريبة أتحامى أن أجرد تلك الاماني من زهورها واعريها من روائها فليس عليك الا ان تذكر انك شاب غِرٌّ لما تختبر شيئا من أمور الدنيا وانك واأسفي لسرعان ماتتعلم أن لا تغتر بالظواهر وعسى الله أن لا يجعل في ذلك خساراً عليك .

قد تعاهدت أنا وابوك على عدم التداخل في محباتك بحال من الاحوال فانت حينئذ آمن من ضروب عذلي وتأنيبي ولكنك بما صرت ولي نفسك مسئول عن جميع مايقترفه قلبك في سبيل الحب من الآثام واعلم ان من هو في مثل سنك يكون شديد الارتياح الى الاغترار والانخداع فكم شاب يحسب من الحب ماليس هو الا اضطرابا في مشاعره وسرابا يبدو لحواسه لان الحب الصحيح هو الاستيلاء على نفس

المحبوب ولا يبلغه الا من كان حقيقا به واهلا له .

لم يعلق بنفسي أدنى أثر مما للناس في المثلات من الاوهام وانهم لظالمون في حكمهم على كثير منهن وحاشا أن أحكم على تلك القينة التي فتنتك بمحاسنها وأنا لا أعرفها وانما أنبهك الى انك ليس لك حتى الآن ادنى وجه صحيح في ان تستنتج من بعض احوالها معك انها تفضلك على غيرك من عبادها فمن غرور الشبان أن يعتقدوا انهم محبوبون لانهم محبون . على اني اسلم لك ان قلبها ملبّ لعواطفك فالذي تعرفه منها والذي تلمسه من وراء حبها ليس من الخصائص المقومة للمرأة في شيء لانك انما تعشق منها تغنيها وحسنها ودعابتها وهي مزايا تستفيد العامة منها اكثر مما يستفيده الرجل الذي قد تصير صاحبة له فهل تدري ما يبقى لتمثال حبك الذي تعبده من المحاسن اذا زال عنه زخرف الملعب ورونقه وغرور العشق وخدعه ؟

أنت تفسك فيما يظهر لي مرتاب من ماضي سيرتها لانك تتمنى لو أتيح لك انقاذها من الدرك الذي هي فيه وهي فكرة كريمة جعلها أدباء العصر بدعة من البدع ومعاذ الله صيانة لشرف المرأة نفسه ان اعتقد ان ذنوبها لا تكفر بل أسلم ما قلته من ان الحب قد يمحو بعض الادناس ولكنا لا نعلم كثيراً من أمثال النساء اللاتي أبن الى الرشد بعد الغي . ثم اني لاظنك فكرت فيما يعترض مقصدك الدال على البسالة من الصعوبات والعوائق فان انقاذ الخاطئات الذي يحسن الطيش لبعض الشبان الاغرار ان يدعوه لانفسهم يلابسه في معظم الاحيان من الكبر والعجب أكثر مما يصاحبه من الاخلاص الحقيقي فكأنهم بهذا يعتقدون ان ملائكة العشق اللاتي

اهبطن الى حضيض الرذيلة ليس لهم من الصلف والإباء مثل مالهم .

ان من يحاول ذلك العمل يجب ان يكون بالغا من قوة النفس ولطف الذوق مبلغا عظيما يسمو به عن النغض من المرأة الخاطئة واذلالها. ثم هل أنت في سنك هذه تأنس من نفسك قوة وإقداما على كتمان الغيرة فانها تبكيت ومؤاخذة للمرأة التي لم تكن طول حياتها عفيفة وهل لك من السلطان على نفسك مايكفي لإخفاء مايكون في معظم الاحيان مثارا للريبة منك وهو ندمك على اجلالك لمثل تلك المرأة مع انه لا يسمح به عادة الا للزكية الطاهرة؟ فاذا كنت لم تستكمل هذه الصفات فخل الجهاد عنك لانه لا يكون من ورائه الا زيادة من تزعم انقاذها خسراً.

من الامهات من يكتبن لابنائهن في هذا الموضوع على أسلوب مغاير لهذا تمام المغايرة فقد يؤنبنهم ويجتهدن في تخويفهم من عواقب طيشهم وغير الامهات ربما لا يرين في كل هذا الا مقدمة لواقعة من الوقائع الشائع حصولها بين الشبان وهفوة عادية من هفوات الطلبة وربما قلن فوق ذلك وهن مبتسمات: تهوينا تهوينا فمن الواجب اقالة عثرات الشبان. وأما أنا فاعلم انك جادّ فيما كتبت والا لما افضيت اليّ بسرك ولهذا اجبتك بالجد ولست أخاف عليك الا ان تكون خدعة لما في خيالك من التوقد الذي هو من لوازم سنك ومن العبث القول بالتسامح في أمر الحب فليس أحد يسلم عليه بالاستخفاف به لانه اذا لم يرفع النفس ويزكيها فانه يسفلها ويدسّيها وحسبي ماقلته في هذا الموضوع فلا أزيدك عليه شيئا.

جاءتنا أخبار من اليرو فقد كتب الينا قوييدون وجورجية بأنهما

يذكرانك انت و«لولا» ذكرا كثيرا .

ومما ينبغي أن تعلمه أيضا أن «لولا» تفكر في اختيار مهنة لها فقد قالت لي من أيام مضت «اريد أن أتعلم حرفة من أجل أن...» وماعتمت أن فرت الى حجرتها قبل أن تتم كلامها وقد احمر وجهها خجلا .

وأراني أدركت مرادها وهو أن المرأة التي لامال لها ولاحرفة ليست حرة فاذا تزوجت فانما تتزوج في الغالب مقام زوجها ومكانته و«لولا» لعزة نفسها وإبائها تتذمر من هذا الاحتياج ولا ترضى الاستكانة له فهي تريد أن تقول يوما ما لمن يروقها من الناس ان في استطاعتي أن أعيش بعملي واني اذا أخلصت في تحصيل الاغتباط والسعادة لك فذلك لاني أحبك .

استودعك الله يابني العزيز وأوسع صدري على الدوام لتلقي اسرارك ومشاركتك في آلامك وابعث لك في هذا قبلة الحب الذي لا يتغير الا وهو الحب الذي لك في قلب أمك . اه

الرسالة الخامسة

من «اميل» الى أبيه

المدرسة الجامعة

في ١٠ يوليه سنة — ١٨٦

كلفتني بأن أجملك على علم بدروسي فموافاة لرغبتك اقول : الجامعة التى أختلف اليها بناء في غاية الجدة وتفتح قاعاتها للتدريس في فصل الصيف

من الساعة السابعة صباحا الى الساعة الاولى بعد الظهر ومن الساعة الثالثة بعده الى الساعة السادسة وتنقسم دروس الاساتذة فيها الى عامة وخاصة فالاولى تلقى بالضرورة مجانا ويدفع الطلبة في مقابل تلقي الثانية «فريدريكين» ذهبا (٥٠) فرنكا كل ستة أشهر وتنقسم جامعة «بن» مثل كل الجامعات في ألمانيا الى أربع مدارس اختيارية احداها للقوانين والثانية للحكمة والثالثة للطب والرابعة للالهيات ويتعلق بكل من هذه المدارس الاربع فروع مختلفة يدرسها فيها رجال مخصصون بها .

الجامعة تخلي بيننا وبين حرية التصرف في وقتنا اما باضاعته أو بالانتفاع به لاني لا أرى لاحد منها أدنى تفتيش ولا أقل هيمنة علينا في سيرنا على اني أعتقد ماقلته لي كثيرا من أن النظام التأديبي الناجع هو مايفرضه الانسان على نفسه ويلتزم اتباعه .

لا مراء في أن أساتذة جامعتنا متضلعون من العلوم غير اني كثيرا ماشق علي أن استتبع سلسلة أفكارهم في الدروس لسببين أولهما أن هذه الافكار ليست في ذاتها واضحة وثانيهما اني لقلة تعودي تصوير فكري بالالمانية حتى الآن أجد من الصعوبة في فهم تلك الافكار أكثر مما يجده غيري من المتعودين ويدهشني من أمر هؤلاء العلماء انهم على سمو مكانتهم في العلم وبعد صيتهم مغبونون في أجر عملهم اذا استدللت على هذا بما يبدو عليهم من رقة الحال وبقناعتهم باليسير من العيش ورثاثة ملبسهم الذي يكاد يكون وسخا وفقرهم هذا يؤلمني ويزيدهم في نفسي إجلالا على اجلالهم الذي تدعوني اليه معارفهم فأولئك رجال يحبون العلم لا لكسب المال ولا للتمتع بالحطام وانما يحبونه لما يحصله للعقل من لذاته وضروب اغتباطه .

ثم إن بعض المدرسين يرتجلون الدروس مطنبين فيها وبعضهم وهم الاكثرون يأتون بها مكتوبة فيلقونها على الطلبة وهؤلاء يصغون لما يلقي عليهم ويكتبون ما يلقونه منه وقد وضعت لنفسي نمطا في اختزال الكتابة وهو وإن كنت لا أشك في قصوره لأ وليته يمكنني من إثبات الحدود الاساسية لما اسمعه من الجمل.

ينقسم الطلبة باعتبار مذاهبهم الى كاثوليكيين و بروتستانتيين متشددين يعد بعضهم نفسه للاعمال الخطابية وحكماء يجتهدون في تأويل المذاهب تأويلا مطابقاً للعقل وماديين وهم قليل يصرحون بأن زمن الديانات قد انقضى وانه لا ينبغي إضاعة الوقت في العكوف على ما لا حقيقة له من هواجس القرون الوسطى وأحلامها .

رأيتك دائماً تجتنب الخوض معي في المذاهب والاسرار الدينية واستنتجت من سكوتك عنها أنك قصدت مني الاستقلال بنفسي في الاعتقاد ولقد حملتني عظيما فاني حتى هذا اليوم في غاية البعد عن معرفة ما يستقر عليه فكري في كثير من المسائل التي ترجفني محاولة سبر غورها. على أنه لا بد من الاقرار لك بأني لست مطرحاً هذه الطائفة من الافكار ولا مغفلا لها فكم من مرة نظرت الى السماء في سكون الليل وحاولت على حداثة سني وجهلي أن اقرأ في نجومها حلا للغز هذا العالم وإني منذ اليوم الذي شهدت فيه إلقاء جثة الملاح فى البحر – وا خالك تذكره – لا ينفك عني التفكير في سر الموت حتى فى احلامي وقد سألت القبور أن تكشفه لي فلم تحر جواباً فعمدت من عهد دخولي الجامعة الى مطالعة ترجمة

الفيدا[1] الألمانية والزنداويستا[2] والتوراة فأثرت قراءتها في نفسي تأثيراً بليغا وكان يتراءى لي منها عالم جديد ولكن من خلال ظلمات لا يسعني الا الاقرار بأنها لم تنقشع ولست أدري أأعكف على دراسة هذه الكتب أم أعدل عن إماطة هذه الظلمات عما لا يتناهي فلا اشتغل الا بما هو ثابت محقق من نتائج العلم .

أنا الآن أحوج الى ارشادك والاستضاءة بنور علمك مني فيما مضى ومن ذا الذي استرشده واستهديه سواك .

جميع الطلبة يتعلمون المجالدة والمناضلة وأنا مقتد بهم فى ذلك فلي كل يوم ساعة أو ساعتان اقضيهما في ممارستها لان في هذه الممارسة تمرينا مفيدا في تقوية الاعضاء وتنميتها ويؤكد العارفون من الطلبة ان أمهر المجالدين من يندر التحرش به . ومع اني لا أرجو مطلقا ان ابلغ في المجالدة والمناضلة مبلغ الفارس سان جورج[3] اودّ لو اثبت في قاعة الممارسة ثبوتا كافيا. اني على علم باستعمال السلاح حتى يحسب الطلبة حسابي فلا يستخفون باغضابي فان المبارزة كثيرة الوقوع بينهم وهم يجرحون فيها احيانا ولكن يندر والحمد لله ان يقتلوا ومن يجرح منهم لا يبالي بخدش وجهه بل يعتبر ندب المجروح على مافيها من التشويه لخلقه من موجبات اجلال النساء له.

اختم مكتوبي راجيا ان تثق مني بدوام محبتي لك وتعلق قلبي بك. اه

«١» الفيدا كتاب الهنود المقدس وهو اسم عام تحته أربعة كتب خاصة وهي الريجفيدا والسامافيدا والياجورافيدا والاثارفيدا (٢) الزاندا ويستا مجموع مالاتباع زردشت من الكتب المقدسة «٣» سان جورج شخص يذكر في الاساطير انه أمهر المجالدين والمناضلين

الرسالة السادسة

من اراسم الى « اميل »

في التربية الدينية والفلسفية

قد حزرت يا ولدي مقاصدي في تربيتك الدينية فاني أردت أن أخلي بينك وبين عقائدك مع علمي بمخالفتي في هذا مخالفة تامة لما تجري عليه الامور عادة . ذلك أن الطفل لا يكاد يولد حتى ينسب الى احد المذاهب التي تتنازع حكومة الدنيا فيتكفل والداه بتقليده دينا محتجين فيه بعدم أهليته (وهو أمر بين البداهة) لان يحكم بنفسه ويسبق عرف بلاده وعوائد قومه وتقاليد بيته الى تحديد الدين الذي يجب انتسابه اليه وهو الاستيلاء على نفسه . قد يقول قائل ان الوالدين اذا فعلا ذلك فهو لانهما يعتبران أنفسهما نائبين عن الامة في القيام على المولود قبل أن يعرف نفسه بنفسه. فأجيبه : أسلم لك ذلك ولكني أقول إن كان من حق الأمة أن تؤدي الى المولود ديناً كان حقا عليها أيضاً أن تختار له حرفة او عملا من أعمال الحكومة واذاً نصير في حكومة دينية اشتراكية .

لا ينبغي ان تجعل ولادة المولود سبباً لسلب حريته فان انقسام الوالدين في ضروب الوجدان واختلافهما في الانظار حتى فى أيامنا هذه يجعل ولايتهما عليه مشكلة مرتبكة : ذلك أنه لا حرب إلا حرب البيوت فان شأن الوالدين في الدين غالبا أن يكون الاب كافرا والأم مؤمنة[1]

«١» هذا شأن خاص بالافرنج ومن قلدهم بلا بصيرة من المسلمين

فكيف يكون الولد اذا تنازعه هذان المؤثران ؟ أقول انه يكون كأهل زمانه حيران عاجزاً فإنا كثيراً ما نلاقي في الناس شباناً مشغولين بترقيع سرائرهم بخرَقٍ من مذاهب المتدينين ، يخيطونها مع آراء الاحرار من المفكرين ، ونصادف آخرين شاكين حائرين ، مع بقاء استمساكهم بأوهام الواهمين ، وقد فشا في الناس التباين والتناقض وعم بينهم التشوش والاختلاط.

وأما أنت فانك والحمد لله لم تبتل بشيء من هذه المحن لاني وأمك لم نعتقد أن من حقنا أن نغتنم فرصة نوم عقلك فندعوك الى اتباع ما نحن عليه بدون أن يكون فيه رضاك واعلم أن لي ككل أنسان غيري رأيا في المذاهب الدينية والحكمية التي يختلف الناس فيها وهو لا يلزمك شيئاً ولا ينبغي أن تحفل به .

«أكرم أباك وأمك» ولكن لا تطع الا قلبك فأنت حر ومن حقك أن تسعى وراء معرفة الحق مستعيناً في ذلك بالهمة والبسالة والنزاهة ولقد كان هذا السعي الى اليوم خارجاً عن وسعك وبعيداً عن مقدورك فيجب الآن أن يكون هو عملك في جميع حياتك .

ومن المفروض عليك قبل أن تقتنع بشيء في مثل هذه المسائل الخطيرة أن تبحث فيها وتدرسها فان مثل من يرفض المذاهب الدينية أو الحكمية على غير علم بها كمثل من يقبلها بدون بحث فيها ولا نظر كلاهما مناقض لنفسه ، غير مسدد في رأيه ، ولا شيء في الحقيقة أدعى الى الضحك من وقاحة أحداث الدكاترة الذين يجهرون بأن المباحث النظرية التي ارتاض

بها امثال ديكارت [١] واسبينوزا [٢] وباسكال [٣] ولاينتز [٤] وهيجل [٥] ليست خليقة بالتفاتهم وميلهم فللجهلة الاغبياء منهم كلمة يطنطنون بها في هذه الايام وهي قول أحدهم وهو لم يفتح في حياته صحيفة من كتاب الكون « مالي ولإضاعة وقتي في حل مالا يسبر غوره من مسائل وجود الله وخلود الروح ووحدة الروح والجسم أو تغايرهما فحسبي الاشتغال بالعلم »

أنا لا أشك في أن العلم الآن مشتغل باستئناف عمل الديانات سالكا فيه طرقا أخرى مغايرة لطرقها كل المغايرة فانه يرجو من البحث في الحوادث بحثا تجريبيا ومراقبتها مراقبة قريبة ان يصل الى حق اليقين الذي كان أهل الدين يرجون بلوغه من طريق الهداية الالهية واني لجازم بأنه قد سلك أقوم المناهج لبلوغ الحق وان كان من المتعسر معرفة النتائج التي يؤدي اليها بحثه . واذا فقهنا حالة المعارف على ماهي عليه الآن وجدنا شأنه المطرد انه لم يفدنا في بعض ماقد يهمنا استقصاؤه من المسائل الاشيئاً من المعرفة قليلا جدا فانا اذا استثنينا علم تركيب الحيوان لانه قد أمكنه ان يؤدي الينا معنى من معاني الانسان على مافيه من المذاهب المتعارضة والآراء المتناقضة وعلم

«١» ديكارت هو عالم رياضي مهندس طبيعي وأخص ما يعرف به أنه فيلسوف فرنسي شهير يدعونه أبا الحكمة الحديثة لكلامه عن طريقة البحث عن الحق ولد سنة ١٥٩٦ م ومات سنة ١٦٥٠ م «٢» اسبينوزا فيلسوف ولد في امستردام سنة ١٦٣٢ م ومات سنة ١٦٧٧ م «٣» باسكال هو مهندس كبير وكاتب شهير ولد في كلير مونت فراند سنة ١٦٢٣ م ومات سنة ١٦٦٢ اثبت ثقل الهواء في سنة ١٦٤٨ وفي سنة ١٦٥٤ اعتزل في بورروبال دوسان حيث كتب اقليمياته وافكاره «٤» لايبنتز هو عالم شهير ولد في لايبزج وهو مخترع حساب الفروق الدقيقة «٥» هيجل فيلسوف ألماني ولد سنة ١٧٧٠ ومات سنة ١٨٥١ م

طبقات الارض لانه قد فتح لعقولنا منافذ نلمح منها على بعد منشأ الحياة رأينا ان العلوم الصحيحة لم تكشف لنا الستار حتى الساعة عن علة مّا من العلل الاولى التي هي اهيج لشوق العقل من سواها ولكن قد يجيبني مجيب بأن هذه العلل لا ينبغي الاشتغال بها قطعا لانها ليست من متناول العقل فأقول له ماهي غاية علمك في هذا؟ أتظن أن ماحصل من تجارب الانسان في بضعة آلاف من السنين يسوغ تحديد قواه وملكاته المتزايدة أم تريد أنه يكفيه على كل حال أن يسدل الحجاب على ما يجهله لينيم طمع عقله ويخمد شوق ادراكه؟ أنا لا أعتقد من هذا شيئاً بل أقول إن الانسان لا يسهل عليه الاستخذاء للجهل والاستكانة له اما لشرف في طبعه أو لخسة فيه.

ولو أنه كان يكفي للتخلص من المسائل المحيرة أن توصف بأنها معضلة لاحل لها لكان التفصي منها في غاية السهولة. كل حي يطلب النمو لجسمه ماعدا الانسان فانه هو الذي يختص من بين سائر الكائنات العضوية بطلب الارتقاء بفكره الى ما وراء حاجاته المادية فطلبه الارتقاء الفكري موجود فيه سواء سمي خيالا أوغريزة دينية ولست أدري مطلقا ماعسى أن يعود على العاملين على إزالته من العائدة بتكلف احتقاره والزراية عليه ومن ذا الذي في وسعه منهم أن ينتزعه من النفوس البشرية فان تطلع الانسان الى ماوراء حدود عقله من مقتضيات خلقته وليس من حقنا أن نعتبر بعض الامور التي يتطلبها الفكر خادعة أو وهمية لمجرد انها تحير عقولنا أو تنبو عن ادراكنا فاما ان كان قصدهم تجريد ما يتصوره العقل من منتهى غايات الكمال مما يقارن تصوره من مروعات الوساوس والاوهام

والاعمال المنبعثة عن النفاق والرياء فيها ونعمت وأما مدركات العقل التي شغلت من التاريخ مكانا كبيرا فلا ينبغي التعرض لهـا بل لابد أن يكون لها أيضا محل في تربية الناشئين .

ومن هذا ترى انه لا يزال من حق الحكمة أن توجد مع العلم وانه ليبعد عليهما التنافر والتنافي ، لان من شأنهما التضافر والتوافي .

إن كثيراً ممن يميـلون الى محو دراسة المذاهب الدينية والحكمية منقادون في هذا الى حاجة طبيعية للانتقام وهم لا يشعرون فانهم قد رأوا الحكماء ورؤساء الاديان المقررة في أيامنا هـذه بلغوا من تعاطيهم للمظالم ومتاجرتهم بالسرائر ومقارفتهم للفظائع مبلغا لجأ بالعقل في اشمئزازه من سيرتهم الي الجحود المطلق فالقسيسون هم دعاة الإلحاد لا الماديون

ومن اللغو تجسيم أمر الالحاد فانه ذنب ضعيف في ذاته يتزلزل مذعورا امام وجدان الانسان وانما الآثام المبينة والجرائم القوية الحقيقة بأن تدافع نور الهداية والعرفان هي التى تجرأ أصحابها عند اقترانها على التستر برداء الدين . نم تلك الآثام هي التى تمتاز بذلك الامتياز الهائل وهو قلب شؤون الدنيا وتشويش أحوالها فمن ذا الذي لا يحارحين ارتكابها من الابهـة الباطلة التى تسري من عقائد مرتكبها الى بعض مايغتصبونه من ضروب السلطة والقوة . تسمع بعض النظار اذا راعهم تغلب الشر على الخير يصيحون قائلين لأن لا يكون لنا اله خير من وجود اله ظالم (١)

«١» أجدر بمثل هؤلاء النظار آن يسموا عميا فانهم عموا عن سنن الله تعالى في الكون وجهلوا ان الشر الذي يضجون منه انما ينتج من مخالفة الناس لتلك السنن فهم الذين جلبوه على أنفسهم « وما ربك بظلام للعبيد » « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » تعالى الله عن الظلم علوا كبيرا . اه

ويعيب آخرون على المذاهب الدينية والحكمية أنها لم تبين للناس بيانا مقنعا شيئا من المسائل المتعلقة بنظام العالم وتنازع الخير والشر والاضطرار والاختيار وأنا أسلم لهم ذلك غير اني أقول ان كلا منها قد سما بفكر الانسان الى العلى وغير أحوال الامم وهدى الناس الى طرائف الفنون وأحيا من الطرف والملح مالولاه لظل محجوبا في مجاهل العدم وكم نرى ممن يودون محو الدين المسيحي من تعليم الناشئين من لم يحسن التفكر فيما كان لهذا الدين من التأثير في آداب لغتنا واخلاقنا وعوائدنا فهم يقولون إنه رؤيا خبيثة رآها النوع الانساني في منامه وانه بنشأته في طور التدلي والهمجية حبس روح الشعوب في ظلمات الجهل . وكل ذلك محل للنظر والبحث ولكن هيهات أن يقنعوا واحدا من الناس بأن التيار الفكري الذي جاء به ذلك الدين فغير كل مافي الدنيا لم يكن ثم موجب لوجوده .

أنا أدعوك الى دراسة هذا الدين الذي أنشأ مدنيتنا الحاضرة انشاء حسنا أو سيئا خلافا للقائلين بابطالها وأحثك على أن تأخذ فيها بالجد وترجع فيها الى أصوله لان مايخلص اليك من مطالعة الاناجيل لا شبه بينه وبين مايؤخذ عن رجال الدين بحال من الاحوال فانت ترى في الاناجيل مثلا ان المسيح كان يأبى دائما امتثال أي عمل من الاعمال الظاهرة وكان يستهدف لزراية اليهود عليه ولومهم له بمخالفته لهم كل وقت في السبت والصوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام وغير ذلك من الاعمال المشروعة . واذا كان القلب يهتز لسماع بعض المواعظ الانجيلية فليس ذلك ببدع فان المسيح انما جاء ليعلن للناس شرف صغارهم وسمو المستضعفين منهم ووجوب تكريم الطفل والحنو على المرأة الخاطئة وانك لاتجد في غير كتابه اكثر

مما تجده فيه من الميل العاطف الى كل مكروب والرحمة لكل مهان ومحتقر ولا أكثر من ضروب الحرمان للمتكبرين المستأثرين الذين يبتغون العلو على غيرهم من المخلوقين .وقد كان لحبه للفقراء ولكونه نفسه فقيرا يتتبع الاغنياء على الدوام دون غيرهم بنُذُره وامثاله الرائعة . ولا شك أن تمكن النصرانية مع مثل هذا الادب الذي جاء به المسيح من تقوية امتياز الدرجات في الامم الحالية وتأييد مزايا الانساب وفرط التغاير في الغنى لم يحصل الا ببلوغ رجالها في المكر حد الاعجاز فتلك الامم التي تسمى نفسها مسيحية وتعتقد انها على دين المسيح لم يدخل الايمان في قلوبها قط .

اعلم أن معرفة الشيء في وقت ما من أوقات وجوده لا تعد معرفة وانما يعرف اذا عرف أصله وتاريخه ومصيره وقد نتج من اتباع البحث في الحوادث الكونية على هذا الترتيب علوم كلها جديدة كعلم تكون الارض وعلم الاجنة فطرق البحث هذه هي التي ينبغي عليك تطبيقها على دراسة المذاهب الدينية والحكمية وليس علي ان أتعرض بالتصويب أو التخطئة للنتائج التي يؤديك اليها بحثك اذا حسنت فيه نيتك وصحت عزيمتك وغاية ما أبتغيه منك ان لا تقبل من الاصول على انه صحيح الا ما تكون قد عرفت الحق فيه بنفسك .

أقول ذلك وأنا أعلم اني أطلب اليك أمراً عظيما ولكن ماحيلتي ولا وسيلة غيره لتنوير عقلك وهدايتك. نعم ان في الدنيا كثيراً من العلماء الثقات المشهود لهم قد عهد اليهم تحديد العقائد الصحيحة في الدين والحكمة والسياسة والاخلاق فهم يعرفون كل شيء ويعلمون الناس كل شيء وهذا هو السبب في أن نصف المتعلمين من الناشئين يعتادون أن يفكروا بمخاخ

بعض أفراد من الناس ـ ان صح لي التعبير على هذا النحو ـ على أن ثمة أمراً لن تتعلمه قطعا في مدرستهم الا وهو علم الحرية فاذا كنت تطلب الحرية فعليك ان تطلب الحق في نفسك مستعينا في طلبه بجميع مالديك من عدد الاستدلال والنظر. وانك سيحصل لك غير مرة مع احتراسك وتيقظك ان تعتقدان آراء غيرك هي آراؤك وتخطيء في كثير من المسائل قبل ان تعرف أغاليطك ولكن لا تنس ان قوت العقل كقوت الجسم لا يكسب الا بعرق الجبين وان من أخلص فى البحث عن الهدى فقد أظهر بهذا البحث نفسه انه جدير بالاهتداء

وفي ختام مكتوبي أقول لك من صميم قلبي اني وليك الحميم. اه

هامش المنار على هذه الرسالة — لقد نطق هذا الفيلسوف بالحكمة اذا بان ان من غريزة الانسان ان يبحث عما وراء حاجته المادية وان هذا الارتقاء الفكري مما يمتاز به وهو مبدأ الدين في نفسه وانه مادفع الناس الى الجحود الاسوء حال رجال الدين في اتجارهم بالدين وان وجدان الدين يزلزل الالحاد لأنه ذنب ضعيف في نفسه وانما الذنوب القوية التي يعز زلزالها هي التي تقترف على أنها من الدين وهي ذاهبة بنور هدايته ومنفرة عنه حتى يقول العاقل ان عدم الدين خير من هذا الدين. ثم انه اخطأ في موافقة القائلين بأن الاديان لم تبين شيئا من نظام العالم وتنازع الخير والشر والاختيار والاضطرار وعذره أنه لم يطلع على نهاية ارتقاء الدين لجهله بالاسلام، على انه احسن في الرد على القائلين بترك دراسة الدين وفي استخراجه محاسن الاناجيل وتصريحه بان النصارى غير مسيحيين ومن اراد تفصيل هذه المسائل فليرجع الى مقالة «العقل والقلب والدين» من المنار (ص١٨٦م٩) واحسن في دعوة «اميل» الى الاستقلال وترك التقليد وتقدير الحرية العقلية قدرها .

الرسالة السابعة

من «اميل» الى أمه

عن مدينة بن في ٢٨ سبتمبر سنة ــ١٨٦

« في ابتداء العشق وغرور الشاب الغرّ بالمشوقة »

لقد كان قولك حقا أيتها الوالدة العزيزة فاني قد خدعت نفسي ولا حق لي في الشكوى على حال مّا ممن كنت أحبها لانها لم تكن التزمت لي شيئا ولا وعدتني الصدق في حبي بل هي بما كانت مغمورة فيه من ضروب التبجيل والتكريم تفضلت فقبلت مني اغتباطا صنوف اجلالي ودلائل اعظامي وقد كان هذا منها لي تشريفا كبيرا وأظن ان من كفران نعمتها ان اتهمها بخيانتي فانه لم يكن من ذنبها أن كنت جادًّا فيما لم يكن يأتيه غيري الا هازلا .

على اني ان قلت لك اني كنت أفكر في أمرها دائما على هذا النحو كنت كاذبا فان الصدمة التي هدمت صرح غروري بها نلتها ساعة دهش وذهول خيل لي فيها أن السماء خرت على رأسي وصرت كأني في حيز الفناء. وانك قد تقولين إنك لست أول من ابتلي بهذه الضروب من انكشاف الاباطيل وزوال الاوهام. وهو قول لا ريب عندي في صحته غير ان ما ينتاب الانسان لاول مرة في حياته يخيل له انه لم يحصل لاحد غيره في الدنيا فكنت أسائل نفسي هل يمكن أن يوجد في البرية من يبلغ مبلغها في الخيانة؟ أوليس الحسن الا نقابا للنفاق ؟ وأقول انها لَشَدّ ما سخرت مني لسلامة نيتي وسرعة

تصديقي . . . . واحس بقشعريرة الغيرة تدب في جسمي حتى تبلغ نخاع عظامي .

واول يوم قامت بنفسي فيه الريب من صدقها فررت من المدينة هائما على وجهي كالمجنون أخبط خبط عشواء وقد تعاقبت على بصري في مسيري مشاهد جمة من سنابل الحنطة المدركة ، والقنابر المغردة ، وما في الهواء من الروح الخافق وجداً وحباً ، والمزارع والطواحين التي تنكشف للرائي في أمكنة مختلفة من خلال حجب الاشجار وقد مزقتها يد الريح ، وخرير الماء المتدفق من ينابيعه المنتحبة تحت الخضرة ، والديكة المغتبطة المتغطرسة واقفة على الدمن ورافعة عقيرتها بزُقائها النفاذ في كبد السماء ، واسراب العصافير ثائرة متعاقبة في الجو متناقرة ، وغير ذلك من المناظر التي لولا هذه الاحوال لهزت نفسي وشرحت صدري فلم تلفتني عن هذه الفكرة الثابتة في ذهني وهي انها تغشني .

لما رجعت الى المدينة كان الليل قد جن فلمحت شبحا مبهما يسري وجدرانَ البيوت كانه ظل فلما بلغ منعطف الشارع سقط عليه ساطع نور الغاز المنعكس فأراني انه فتاة شاحبة اللون رثة الثياب تحمل طفلا على يديها ولست أدري تمام الدراية لماذا خطر بفكري لرؤيتها انها خدعت ثم هجرت وسألت نفسي سؤال محنق هل تنقسم النساء في هذه الايام الى طائفتين طائفة خادعة وطائفة مخدوعة ؟ تأثرت هذه الفتاة بعضا من الزمن يجذبني اليها نوع من العطف لا أعرف سره حق المعرفة فلما كانت تمر على نور مصباح كنت اخالني أقرأ في وجهها خاطر الانتحار وقد كنت من تسخطي لحالتي بحيث اني كنت أود لو أجد السبيل الى عمل من

أعمال البر، وما عتمت الفتاة ان دخلت في مأزق من حارات ضيقة مظلمة ينتهي الى فناء تكتنفه اطلال دارسة وفي ركن من هذا الفناء بئر سدت فوهتها بغطاء غليظ من خشب مسوس مشقق فرفعت الغطاء باحدى يديها العاريتين واتكأت بمرفقيها على فم البئر وأرسلت بصرها في غيابتها وعليها سمة القنوط وفي هذه الساعة انفلت القمر من قبضة السحاب فالقى نوره الاغثر على بلاط الفناء المتوحل وكنت اذ ذاك مختفيا خلف جزء من جدار اتتبع جميع حركات الفتاة المسكينة بامعان لانيلم يكن بقي عندي ريب في انها قد صممت على الانتحار ـ وكنت أقول في نفسي أقل ما في الامر اني هاهنا لامنعها منه وما كنت أجسر حتى هذه الساعة ان اظهر لها خشية أن تزيدها رؤيتها لمن شاهدها في هذه الحالة غضاضة وذلة فبعد ان تروت هنيهة كان جبينها الكثيب في اثنائها مسرح الانفعال والاضطراب نظرت الى ولدها وهمهمت بكلمات مبهمة وهى تهز راسها ثم هرولت داخلة احد الاكواخ الحقيرة واغلقت بابه عليها .

هذا كل ماعلمته ويحتمل ان يكون كل ماسأعلمه من أمر هذه البائسة في حياتي وقد كنت تلك الليلة غير أهل لفعل الخير اذا فرض ان من الخير تنجية نفس من الموت كانت تؤمن بالحب ثم اضطرت الى الكفر به ولعنه

كاني بك تسألينني كيف ظهر لك انك كنت ألعوبة لهوى امرأة طائشة أجيرة فاستأذنك في تنزيهك عن سماع تفاصيل هذا الامر لانها لاتليق بك ويكفيني في ذلك ان أخبرك بأنها كانت تحرض طالبين أو ثلاثة غيري على التقرب منها في وقت واحد بقبول مساعيهم وهذا بقطع النظر

عن أمير ورتمبورغي [1] يقال انها تحبه لماله فليت شعري هل أبصر أحد في حياته نظيرة لتلك المرأة ؟ .

لم يكن همليت [2] مثلي في سوء الحظ لما كان يقول لمشوقته «أوفيليا» «أيتها المرأة اسمك الخور» فان اسم صاحبتي هو الكذب والمكر والغش. هذا هو التمثال الذي بخرته بخور أمانيّ وجعلت له بين الالهات العفيفات مكانا وكنت أتمنى لو دنت مني الكواكب فانتزعتها من نظامها ونظمت له منها إكليلا . على ان لي أمرا يسليني وهو اني لم أدنس الحب في حال جنوني به .

فاعلمي ياأماه أنه لايزال من حقي ان أنظر اليك غير خجل لان خطيئتي انما كانت سوء حكم لاارتكابا لشيء من الخنا ولكن هذا لايقلل من استماحتي لعفوك فاغفري لولدك هفوته حتى يمكنه ان يغفرها لنفسه.اه

الرسالة الثامنة

من هيلانة الى «اميل»

عن لوندرة في ١٠ اكتوبر سنة ١٨٦

« غرور الشاب في الحب وبيان حقيقته »

اعلم ياولدي العزيز ان مانقع فيه من ضروب الغي هو الذي يهدينا

«١» ورتمبورغي نسبة الى ورتمبورغ احدى ولايات المانيا «٢» همليت هو أمير جوتلاند الذي تظاهر بالجنون ليأخذ بثار أبيه الذي قتله أخوه بالسم وهو الذي كتب عنه شكسبير قصته التمثيليه المشهورة وجوتلاند شبه جزيرة بالدنمارك عدد سكانها ٩٤٢٣٦ نفسا وعاصمتها فيبورغ

سبيل الرشد وان ما نقترفه من الذنوب هو الذي ينبئنا اذا تألمت منه ضمائرنا بأن لنا في نفوسنا قانونا زاجرا وان الحكمة في رأيي هي ان نستفيد من كليهما لنتعلم .

لم تدهشني نهاية قصتك وسأتحامى كل التحامي أن أعيب سيرتك فيها لانك قد عبتها بنفسك ولم يكن كل ما كان في وسعي تأديته اليك من النصائح قبل ختامها المحزن ليساوي ما وعظتك به تجربتك الذاتية . ان في أمور الكون لعدلا وان الدهر يضطرها الى ان تظهر للناس على حقيقتها وان كان يلذ لمخيلة الانسان ان تزينها بالالوان المموهة وتغشيها بالاستار الحاجبة وبهذا كان الدهر استاذنا جميعا .

على أني ان لم أقرّ لك بأن مكتوبك الاول سبب لي أشد ضروب القلق والحيرة كنت قد كتمتك بعض الحق . نعم قد كان لي من الثقة بطيب عنصرك وبما أعرفه فيه من أصول الشرف ما كان يكفيني للثقة بأنك لا تتسفل لارتكاب دنيئة ما ولكني كنت أخاف عليك وأنت في هذه السن خدع القلب وجمحات العجب المفتون وأماني البسالة الخادعة فمما يوجب الأسف ان اصدق الناس في الحب وأخلصهم له هم كذلك أشدهم تعرضا لمخاطر دسائسه وأما الشبان الذين يتخذون ما عليه الناس قدوة لهم في سيرتهم فان قلوبهم الجامدة لا تخدع بكذب الظواهر وهم الذين جعلت لهم المحبات المهيجة كما جعلت الخمور المتبلة للسكيرين .

تراهم يبذلون من الهمة والنشاط في تحصيل الغبطة أكثر مما يلزم وهم مع هذا في أسوأ عيش وانكده . هؤلاء الجوالون في ميدان الغرام المتماطون لدسائسه قد اعتاضوا عن الحب بظله أعني الظرف والكياسة في معاشرة

النساء وان خسة عواطفهم لتدل على خلوهم من الادراك وهم شبيهون عندي بأشجار الصفصاف الجوفاء التي تصادف على حافة السواقي (الانهار الصغيرة) في أنها لتعفن قلوبها لم يبق لها حياة الا في قشورها .

الامم التي لا يجل رجالها نساءها ولا نساؤها انفسهن غير جديرة بالحرية .

يدلك على ذلك ان جميع عصور الاستعباد وانحطاط النفوس كانت هي عصور فساد الاخلاق والانهماك فى الرذائل فاذا زالت هيبة الدين من النفوس وانعدم إحساس الناس بما عليهم من الفروض الكبرى رأيت الناشئين اذا اعوزهم مايضيعون فيه أوقاتهم يتصيدون الملاذ السهلة فاربأ بنفسك عن هذه الردغة (١) فلا مقر لك فيها .

إني ربما كنت أعرف منك بنفسك لانه يتفق كثيرا لمن هم في سنك ان يضلوا فيشطوا في طلب مثال من الواقع لما يتخيلونه من منتهى الكمال فيمن يريدون أن يجعلوها مناطا لحبهم وهو قريب المنال منهم حاضر بين ايديهم . ارى انك نوق حنقك علي من غرتك نادم على ان كنت غير صادق في محبتك فتأمل فى باطن ما تحفظه ذاكرتك تجدني قد اصبت المرمى فيما أقول فانك تعلم بوجود ذات من اترابك تفكر فيها ولا تتكلم في شأنها وتذكر ملامح وجهها وابتسامها وجرس صوتها وكل مايتعلق بها حتى ثنيات حلتها تمام الذكر وان مثالها الطاهر ليسري سريان الشعاع فوق كتابك اذا فتحته لتقرأ فيه ماصنفه الشعراء وانت تود لو تشاهد معها كل مافى الكون من الجمال وتسمع جميع ما للبرية من الاغاريد وهي التي ينطبق عليها ما تتخيله من معنى الفضيلة وتود من أجلها لو تكون أفضل

(١) الردغة الماء والطين والوحل الشديد

الفضلاء فتلك الذات هي التي تحبها. فان لم تكن تأنس من نفسك شيئا من هذا لم تكن حتى الآن الا طفلا ولم يأن لك أن تعتقد في نفسك أنك محب فالحب الحقيقي هو الذي يرفع النفس ويبعث على طلب الخير وعلى ان يقتضي المحب من نفسه لمحبوبه كل مايقتضيه لنفسه منه لان الحب هو انصاف القلب .

فاذا تربصت حتى يحصل في نفسك هذا الوجدان الطاهر فاياك أن تدنس اسمه باجرائه على لسانك قبل حصوله والا ندمت فيما بعد أن لوثت شفتيك بالكذب .

وللشبان خطأ آخر في الحب وهو توهمهم أنه اذا حصل بدسائس ووقائع كالتي تروى في القصص ازدادت لذته وكثر الابتهاج به فليس الامر كما يتوهمون لان في الحب من العظمة الذاتية مايغنيه عن زخارف الخيال . فالفلاح البار اذا راح الى بيته مساء بعد الفراغ من عمله وجلس لتناول مرقته وأخذ يلحظ زوجته وهي تغزل أو تخيط بجانب المصطلى ثم يمسح رؤوس أولاده غلاظ الوجنات مناديا كلا منهم باسمه ويذكر في نفسه زمن ترقبه لزوجته « جنة » يوم الاحد فى ظل شجرة الدردار الكبرى في المزرعة ويراها لاتزال غضة الحسن موفورة الشباب كان أبهج خيالا اضعافا كثيرة من حظي الاهة من الاهات الحب الجديدة .

الشباب هو سن الاماني والاحلام وطور الخيالات والاوهام ثم ان كثرة المطالعة لاثمرة لها فى أغلب الاحيان الا افساد حكم القلب . على ان الحب فى غاية الغنى عن القصص الخرافية لانه عبارة عن تاريخ لاصح مافي فطرتنا من ضروب الوجدان واشدها استقلالا فويل لمن لا يعشق ويتوله الا فى

الحلم لانه لايلبث ان ينكشف وهمه اذا حان وقت انتباهه .

يجب عليك قبل اهتمامك باختيار امرأة تحبها ان توجد لنفسك بين الناس مقاما فان كل عمل تعمله في سبيل تحصيل العلم ورفع شأنك في نظر نفسك ومغالبة ما للاثرة من أنواع الميل الاعمى وبلوغ ما للانسان من الشرف يفيد المرأة التي ستحبها كما يفيدك وكن واثقا بأن هذا لا يعد منك في حقها كثيرا اذا كان يهمك ان تكون أهلا لاجلالها لك حفظا لشرفك وصونا لعرضك .

حاشية :فاتني ان اخبرك بأن «لولا» تتعلم من أجل ان تقبلها جمعية الطبيبات بلوندرة في عدادهن وكلنا نحبك(*) . اه

الرسالة التاسعة

من « اميل » الى ابيه

عن هيد لبرغ في ١٨ يناير سنة — ١٨٦

« الاستقلال في العلم — فلسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية »

« الاعتماد على العقل دون الخطابة — حب الوطن »

غادرت مدينة بن ونقلت كتبي (وهي كل ما املكه تقريبا) الى مدينة هيدلبرغ. ومن نظام المدارس الجامعة في ألمانيا انه يجوز لطلبتها مطلقا ان ينتقلوا من احداها الى الاخرى من غير ان يكون في ذلك ضياع لحقوقهم

(*) هامش المنار : ليتأمل اللبيب هذا التذكير اللطيف «بلولا» التي بث معها «أميل» مثل تربيته بعد بيان من تستحق الحب وبيان حقيقته وغرور الشبان فيه فلله ما هذه الحكمة في هذه البلاغة . اه

فيما نالوه من الدرجات . على ان هذا التنقل يمكن الطلبة من الاختلاف الى درس أنبغ الاساتذة وأشهرهم في كل فرع من فروع العلوم البشرية .

اخالني تعلمت كثيرا من دروس هؤلاء الاساتذة المفيدة ولكني كل يوم اتبين ان تعليم المدارس بجملته لا يمكن ان يقوم لطالب الحق مقام عمله الذاتي الذي يجري فيه على ماترشده اليه سريرته .

أرى مذهبين يتنازعان عقول البشر أعثر عليهما أينما وجهت فكري فأجدهما في العلم والحكمة والدين والسياسة ومقتضى المذهب الاول ان العالم خلق مقسورا أي ان كل مافيه خصص بارادة أزلية وان صور الحياة في الكائنات الحية ثابتة لا تتغير فتندمج الاصول بعضها في بعض وتنتج الفروع ناقلة مخصّصات كل نوع عن مثال أزلي له. ومقتضى المذهب الثاني انه وجد مختارا بمعنى ان الكائنات لم توجد من العدم بل استحالت من طور الى طور وان القوى لم تسبق في الوجود بل نمت وان الانواع النباتية والمعدنية (هكذا في الاصل ولعل صوابه والحيوانية) مستمرة البقاء غير أنها تتغير وترتقي على مقتضى نواميس طبيعية .

واذا انتقلت من العلم الى التاريخ وجدت هذا الخلاف بعينه في آراء الناس فيرى بعضهم ان التمدن قديم وجد مع الانسان يعني ان الاجتماع أوجدته قدرة أعلى من قدرة البشر وان أية أمة من الامم ليس لها ان تختار قوانينها وأوضاعها وان للحكومة مثلا لا تحيد عنها الامم حتى تسقط في مهاوي الفوضى . ويرى بعض آخر خلافا للاولين ان الانسان نشأ متوحشا أي انه كان فردا متقن الخلقة فقر من بين الحيوانات وانشأ على التعاقب قوانينه ومعايشه ومكانته في البرية بعد ان خلق نفسه — ان صح

التعبير على هذا النحو . وان الامم قدمرت في أطوار نموها بيدايا أوضاع لم تلبث ان ابتعدت منها بتأثير الترقي الذي لا راد له فكما ان الارض كانت بنفسها يكون الانسان بنفسه ويؤلف مجتمعه بقواه الذاتيه .

واذا رجعت الى الديانات وصدقت أقوال مؤوليها كانت كلها موحاة من الله فاذا سألت خصومهم عن رأيهم فيها قالوا انها أمور طبيعية تدخل في قوانين ادراك الانسان المألوفة .

وما أشد التباين وأوسع مسافة الخلف اذا سألت أهل وطني عن آرائهم في الامور السياسية . وقد استخلصت من اختلاف طرق النظر هذه نتيجة هي اني مع بحثي في أفكار غيري وآرائه لا ينبغي لي ان أعول الا على شهادة عقلي وسريرتي . هذه هي السبيل التي صممت على سلوكها وهي التي أوضحتها لي انت أيضا ويبعد كل البعد ان تكون هذه الضرورة الملجئة لي الى الحكم بنفسي على الامور مدعاة الى الكبر والصلف بل هي تبعث في نفسي الذلة والاستكانة لاني أكون مضطرا في كل وقت الى الاعتراف لنفسي بأني لا أعرف شيئا وانه يجب علي ان اتدرع بالاقدام وان أوسع نطاق معارفي واختلس من النظر في الحوادث مقدمات اقتناعي وأما البراهين الخطابية التي كنت أعتقد في ساعة من الساعات اني أدرك بها ما لا حد له من العوالم فقد تبين لي انها شبيهة بتلك الاصداف التي يتناقلها الاطفال في أيديهم ويضعونها على آذانهم متخيلين انهم يسمعون فيها اصطخاب البحر .

على اني لا أدرس وابحث من أجل أن اكون عالما فكل ما ينتهي اليه طمعي ينحصر في فهم حاجات العصر الذي اعيش فيه والاخذ بناصر

الحق وهيهات أن أنسى بلادي أو أعيش غير مبال بمجاهداتها فاني وان ولدت في بلاد اجنبية اجد فرنسا حيثما نظرت فانها تبدو لي في انتصارها الكثير الذي انتشر في ارجاء الدنيا وأراها حتى في مصائبها التي نزلت بها عقابا لرجل من رجالها على تغطرسه وتجبره . هـذا الوطن الذي ما رأيته في خيالي هو في نسبته الي أمي الثانية فلا يذكر الا ويقشعر جلدي لذكره ولا ينتقص الا ويتبيغ دمي كله انتقاما له . وليس الذي يثير اعجابي منه هو غزواته ووقائعه الحربية وانما هو تاريخ مكافحاته وثباته الباسلة في طريق الحرية واني أحب مفكريه الذين يعملون فيه وهم يضحكون ، واعجب بكتابه الذين يهيجون القلوب وهم لنور العلم يبثون ، فأنا من صميم قلبي ملك له وبما في نفسي من الامل في خدمته يوما ما تجدني مغتبطا ومعتزا بالانتساب اليك . اهـ

الرسالة العاشرة

« من اراسم الى ولده »

عن لوندرة في ١٥ فبراير سنة — ١٨٦

بيان وجوب ان يكون الشاب المتعلم رأي في سياسة بلاده

لا حق لك ياعزيزي «اميل» في أن تكون بلا رأي سياسي فايما رجل يعيش في قوم ويظهر معتزلا لما يتعارض بينهم من المصالح غافلا عما يتقاسم عقولهم من المذاهب فهو في غاية الحقارة والخسة وكان حقه أن ينشأ بين المتوحشين بل المتوحشون يشتغلون بمصالح قبيلتهم بغيرة وحمية .

نعم قد كان رؤساء الحكومات أكدوا للناس في الازمان الغابرة انهم

مرسلون من عند الله لسياستهم وتدبير شؤونهم وكان عمل الرعايا على هذا الفرض قد قصر على الطاعة المطلقه لاوامرهم فكانوا ملكا للولاتهم وخاصتهم كما تملك الارض ولا حق للارض في أن تثور على اليد العاملة فيها . وأما الآن فلم يبق في البلاد المهتدية بهدي العلم من أنصار هذا الحق الالهي الذي يزعمه الملوك الا النزر اليسير وقد قضى العقل على بعض المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ثم دل التاريخ على أن السلاطين كانوا يسقطون من عروشهم ولم تكن عناية الله تأخذ سلاحها لنصرهم وانه كان من الميسور للامم كل اليسر أن يستغنوا عنهم (١)

هذا السلطان المعصوم الذي لم يكد يبقى للانسان جراءة على ادعائه للاشخاص في وجه عبر التجربة الزاجرة لايزال يدعي للاوضاع البشرية فلا تكاد اية حكومة من الحكومات تستقر حتى تدعي انها حلت محل المحكومين في أفكارهم وعزائمهم .

---

(١) ما ادعاه الكاتب من تأكيد الملوك لرعاياهم أنهم مرسلون من عند الله أمر ثابت في التاريخ بل قد بلغ الغلو في هذه الدعوى ببعضهم ان ادعى الالوهية والصحيح المعروف لذوي العقول المطهرة من رجس مذهب الماديين أنهم عبيد استخلفهم الله في الارض بمقتضى طبيعة أهلها لحفظ نظامهم فان احسنوا الخلافة سعدوا وسعد بهم رعاياهم وان أساؤها شقوا وشقوا بهم «ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ومايزعم من قضاء العقل على المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ليس صحيحا على اطلاقه فان القوانين الالهية المحفوظة من التحريف هي أس العدل والحرية . واستشهاده بسقوط الملوك من عروشهم وعدم نصر الله لهم وسوء تعبيره عن ذلك لايدل الا على أنه جهل أن الله لاينصر الا من نصره باتباع أوامره وحسن السيرة في خلقه وانه تنزه ان يحتاج في النصرة الى الاستعانة بعدة أوسلاح اهـ

ولا يخفى أن البلاد التي وضعت حكومتها على هذا النمط يكون من عادة شيوخ بيوتها لفرط حرصهم وبلوغهم فيه حد الجبن أن يعظوا شبانها بأن لا يشتغلوا بالسياسة .

تسمع الاب منهم يقول لابنه «يابني ان لك أن تغتني وتتزوج وتجعل لنفسك في الناس ذكرا وليس من حقك الاشتغال بما وراء ذلك لوجود رجال عهد اليهم الحاكم بمحض ارادته أن يفصلوا في جميع المسائل ويوزعوا المثوبات والعقوبات على الناس فهم كما تقول التوراة انفاس منخريه التي تحرق أموال المعاندين للنظام المقرر كما تحرق السموم نبات المزارع . فالاحزم لك أن تخلي بين الحكومة وعملها واذا كان لابد لك من رأي فلا بأس من أن تختار لنفسك مايلائمها من الآراء على شرط أن تقصره عليها لانه لا فائدة للمرء من الاشتغال بمصالح غيره « والعاقل من يتوقى ادخال أصبعه بين الشجرة ولحائها»[1]

وأما الامم الحرة فالامور فيها تجرى على ما يخالف ذلك كل المخالفة فلا يكاد طالب العلم فيها يملك اليسير من فصاحة المنطق حتى يمارس المناظرة فى المصالح العامة وكل فرد من أفرادها اذا أراد أن يكون شريفا وجب عليه أن ينتمي الى حزب من الاحزاب وهم بعيدون كل البعد أن يعتقدوا أن في مجاهدات المعيشة السياسية ضررا بالمعيشه البيتية بل هم يجلون الفضائل الخاصة على نسبة اتساعها وامتدادها في ميدان الفروض العامة ولو ان وجدان العدل كان قاصرا على المعاملات الخاصة لعد من الظلم في حق عامة الناس .

«١» المثل العربي «لاتدخل بين العصا ولحائها »

اذا تقرر هذا قلت إن جميع الامم خلقت لتكون أحراراومن العبث أن يزعم زاعم ان منها من هي مفرطة في الطيش ومنها من هي غالية في التحمس ومنها من هي غاية في الجهل ومنها من هي متنطعة في التأنق فقد فقد نسي أن الوسيلة الى ترقية أخلاق الامم انما هي ترقية أوضاعها وقوانينها ولا مراء في أن هذه الاوضاع المؤسسة على الحرية لن تنزل من السماء وانه من الحمق والجنون أن ننتظرها أمة من حكامها لان جميع الحكومات المستبدة مبنية على قاعدة أن الناس عاجزون عن سياسة أنفسهم فكيف يرضى الحكام حينئذ أن يكذبوا أنفسهم بالتخلي عنها؟ وقد يرخون زمامها أحيانا حذقا منهم في تصريفها وحزما ولكنهم يعرفون عند الحاجة كيف يرتجعون تصريف شكيمتها الى أيديهم . ليست الحرية بجميع أنواعها مما يعطي ويوهب بل هي مما يغنم بالجهاد والمكافحة فشدة كفاح العقول والعزائم وجملة إخلاص المخلصين الخاملين وتصلب من لا يستخذون للذل من أفراد الامة هي التي بضرورة الاحوال نفسها تكره غاصبي حق الحرية على ارجاعه الى نصابه ورده الى أربابه. وما يحصل من التعذير في اثناء الجهاد لا يلبث أن يزول وما يعقبه من الرقي دائم لا فناء له فان القاطع يبلى بعمله في المقطوع .

ليس من قصدي مطلقا أن أبعث في نفسك كراهة الامة التي خلقت للمعيشة فيها فانت صاحب الحكم على أهل زمانك ولكن حذار من الاحتقار لغيرك والاستخفاف به فان عصرنا سيشتهر في التاريخ بخطوبه ومصائبه لاننا قد عملنا في الحكومات التي تعاقبت على البلاد وهي حكومة الاصلاح والحكومة المقيدة والجمهورية وحكومة نابليون.

وليست العصور التى تغمني وتؤلمني هي التى تسعى فيها أمة عظيمة للحصول على الحرية من خلال الحوادث وانما هي التى تخلد فيها الى الدعة من غير أن تنال حريتها .

ان لداتي من جيل بذل نفسه في سبيل الحرية وأنا أشتهي بمجامع قلبي أن يكون الناشئون أسعد منهم حظاً واوفر غبطة ولكن ينبغي لهم أن يستفيدوا من زلاتنا وتجاربنا .

نحن غلونا فيما رجوناه من تصاريف الزمان وكلما سألت نفسي عن سبب مصائبنا خلتني أجده في عيوب تربيتنا السياسية فاشدنا بعدا عن الايمان يؤمن بالمعجزة ذلك انه يعتقد إمكان تغيير أحوال الأمة بأمر من أوامر حاكم مطلق مؤقت الحكومة أو على الاقل بأمر مجلس حاكم . شهدت فرنسا غير مرة تلاشي بيوت حاكمة كانت تعتقد متانة دعائمها وحبوط مقاصد لبعض الطامعين من رجالها الذين كانوا يدعون المستقبل لانفسهم ثم انها لما انتصرت انتصارها العقيم القصير المدة كان اشتغالها بتحرير نفسها واستخلاص مصايرها أقل بكثير من اشتغالها باختيار الرجال الذين ألقى اليهم الاتفاق زمام سياستها . نعم ان شكل الحكومة واختيار الرجال الذين يصرفون زمامها ليس مما لا يعبأ به ولكن ينبغي ان تكون الامة هي المنشئة لحريتها على اختلاف ضروبها . مضى زمن المسحاء فلن يرى بعد الآن لا في شكل حكومة منتخبة ولا في صورة حكومة تأتي الى الدنيا بالنور والهدى فعلينا ان نخلص انفسنا من خداع الناس ونطهرها من وثنية الاوهام لان الامم لا تنال حريتها باتفاق ولا بسلطة غيبية فائقة

للطبيعة [1] ولا بالبخت فلتنظر فرنسا في نفسها تجد ان بختها هو عزيمتها .

أنت حدث ومغترب عن بلادك فوسيلتك الى خدمتها هي ان تنفي عن عقلك الجهل والاوهام والاضاليل التي تبذر في الدنيا بذور الطغاة الناشمين . اذا فعلت ذلك كنت قد أديت في سعيك الى الحرية شيئا من العمل . التعلم اثمار بالشر لاستئصاله فلو لم يكن نظام تربيتنا برمته من شأنه تجريد ابناء الوطن من ملكة الاستقلال بالفكر والارادة لكانت فرنسا قد اهتدت الطريق الى الحرية من زمان بعيد . فاما ان يكون هذا هو ينبوع ما أصابنا من ضروب العجز وإما ان أكون مخطئا خطأ فاحشا . لا حق لنا ان نعيب على الاتراك [2] اعتقادهم بالقضاء والقدر فنحن أثبت منهم فيه ألف مرة ذلك اننا تابعون لبخت يومنا خاضعون لمقدور سياستنا مؤدون ميثاق الطاعة لحكومتنا حتى لو انتقلت الى أيدي الكفار . وقد أصبح خمود الهمم وانحلال العزائم ملاذا يلوذ به أشدنا أنفة واباء . تراهم لما حل بهم من الكآبة وكسوف البال يحولون وجوههم عما يجري بين أيديهم من الامور كما لو كان لاي واحد من الناس ان يقنط من أهل زمانه ومن بلاده . اذا ظهر الشر والفساد في الامة كان حقا على الانسان ومن مقتضى عظمته ان يجاهد في ازالة سببه وليس يكفي الرجل الصالح افتخاره احيانا بأن يتخيل في نفسه عالما آخر يطوي فيه معتقداته ويشرف من اعاليه على أمور دهره فيحتقرها بل عليه أيضا ان لا يدخر سلاحا في مكافحته .

(١) انكار الكاتب تأثير السلطة الغيبية يعني الله جل شأنه في حرية الامم أثر من آثار المذهب المادي القائل بأن لا وجود لهذه السلطة نزه الله عقولنا من لوثه .

« ٢ » يعني بالاتراك المسلمين

ليست أمة من الامم من هذا العجز في شيء فأنت تعرف كلمة جوفينال [1] اذقال: « لكن لن يعدم المغلوبون سلاحا » فالذي يبقى من السلاح في أيدي الامم المغلوبةهوالخطابةوبث الافكاروالمقاومةالمعنوية ولن تخضع الحكومةرعيتها ماداموالا يستكينون للخذلان نعم انها تستطيع في ليلة واحدة ان تسلب حقوقهم وأموالهم وتعدم من يسخطونها منهم وترهب انذالهم وتخدع جهالهم ولكن هيهات ان يكون هذاهوظفرها النهائي بهم عنوة .لاتظفر بهم الا متى ازهقت روح الكرامة الانسانية من نفوسهم . الامة الحرة وهي أمة المستقبل تزيدوتنمو في ظل حكومة الاستبداد وستنتصر اذا تقوت بما تكتسبه من المعارف وبما يوجد فيها من عواطف الانصاف التي تخلص اليها من البحث في حقائق الامور وبما تستفيده من القوى التي يختلسها العلم من الطبيعة .

لاريب في أنه ليس كل واحد من الناس مخلوقا لان يؤدي عملا سياسيا فلا بد فيه من ملكات وميل خاص ولكن لكل انسان بل عليه أن يرتأي لنفسه رأيا في مصالح عصره وبلاده ولست ملزما بأن تأخذ بشيء من ماضيّ ولا من آرائي فكل جيل مستعد لان يعمل عمله بنفسه وملزم بأن يسترشد فيه بما يستجد من حاجات أمته وانما عليك أن تعلم أنه لا يكفيك أن تطعن في الاوضاع القديمة لهدم بنيانها بل لابد أن يثبت لك العلم كذبها أو عدمها واذا أردت أن تظفر بخصمك فكن خيرا منهم وأنور فكرا .

«١» جوفينال كاتب لاتيني هجائي شهير كان يعيش في آخر القرن الاول من الميلاد ومات في عهد الانتونيين وهم بيت من بيوت الملك في روما .

إن مايشكو منه جميع الناس في أزمان التدلي من خمود النفوس وأثرة التواكل وبله الاستسلام لضرورة الاحوال منشؤه الناس كلهم أيضا فما منهم الا شريك في الهلاك العام إما بسكوته واما بامتناعه اختيارا عن العمل . على أن تلك الازمان هي التي يأتي فيها للنفوس الأبية أن تشتد وتثبت في تيار الدمار. فعلينا ان لم نأنس من نفوسنا كفاية في القوة أن نستمين من سبقت لهم الشهادة في سبيل الحق ومن ماتوا من الكتاب وهم يجاهدون الاستبداد ويعالجون عمى البصائر قبل أن يجنوا ثمار كدهم ومن خروا من منابرهم من الخطباء مخضبين بدمائهم ومن حكم عليهم من العقلاء بشاق الاعمال وشكاوا خلال القرون الماضية في سلاسل العبودية المعنوية ولنتأمل في ماضينا فانا نجد فيه من السجون المظلمة والمنافي وانواع العذاب والنكال ما يشهد لنا بنزاهة مقصدنا نزاهة لاتدافع . ألا ان لواء الحرية يظل جميع المقاومين والمكروبين والمبيضين في سبيل تأدية مافرض عليهم وبهذا اللواء سيكون لنا الفوز والظفر وعلى هذا الاعتقاد أقبلك قبلة الوداع. اه

الرسالة الحادية عشرة

(وهي خاتمة الكتاب)

من الدكتور وارنجتور الى زوجته

« بيان ان من الواجب على كل انسان ان يسعى الى انشاء ولده حرا لتجتث »
« بذلك جرائم الشرور المحزنة للامة »

عن لوندرة في ١٥ مايو سنة — ١٨٦

شهدت بالامس أيتها الحبيبة العزيزة عيدا أهليا أقامه الدكتور

اراسم وزوجته احتفالا ببلوغ ولدهما الواحدة والعشرين من عمره وكان عددنا اثني عشر صديقا .

كان العيد وليمة رجال زانتها المهابة والوقار ولم يمنع كونها كذلك من انتعاش جميع قلوب المدعوين ابتهاجا وسرورا. وفي ختام المائدة ابتدأ رفع الاقداح لتعاطي الراح على محبة «اميل» جريا على العادة الانكليزية القديمة فقام اراسم واستأذن في ان يشرب نخب ولده وما رأيته في حياتي أفصح مقالا منه حينئذ فقد أفاض في القول عن الفروض التي تجب على الشاب في معيشته القومية وعن التربية ووجوب ان تكون عمل كل منا في جميع حياته وعن الازمان الحاضرة واقتضائها من المفكر ان يستمسك بالآراء المؤسسة على البحث والاختبار وان يثبت عليها وبالجملة فليس في وسعي أن أودي اليك أثر هذا الخطاب الابوي الذي كانت مزيته الكبرى أنه لم يكن كخطب الخطباء

وما فرغ منه حتى اتجهت جميع الابصار نحو « اميل » ـ وانت قد استطعت من منذ عوده من انكلترا ان تعرفي ماهو متحل به من ثبات الرأي وعلو الآداب وسعة المعارف ـ فشكر لاصدقاء أبيه ان تفضلوا باجابة الدعوة الى هذا العيد البيتي الحقير بعبارات تشف عن لطيف ذوقه ومزيد تواضعه ثم ارتقى الى الكلام عن بعض المسائل العامة فبين الخطة التي يؤمل أن يسير عليها في الناس بألفاظ جلية مؤدية تمام المعنى

وقد أحس كل من سمع قوله بأن جميع مافاه به صادر عن فكره المستقل

ثم تعاقبت الكؤوس وتوالت الانخاب وبينما كنا على أهبة القيام من المائدة التفت الى والديه وآذنهما بأن لديه خبرا يريد أن يعلمهما اياه

وقد لونت جبينه حينئذ حمرة الخجل مع أن ملامح وجهه كلها كانت تعرب عما فيه من ثبات الرجولية .

ما كان أشد دهشي ودهش الحاضرين اذ سمعناه يقول بصوت قوي على ما فيه من الاحتشام انه من الامس متفق مع دولوريس على التزوج بها .

ثم أعقب هذا الاخبار ان انحنى امام والديه قائلا : « هل لي أن أرجو منكما استحسانكما لهذا الاختيار »

هنالك غشيت وجنتي الفتاة السمراوين سحابة من حمرة الخجل وأغضت عينيها فلألأت بين أهدابهما السوداء الطويلة عبرات الفرح والهناء .

لم تجد السيدة هيلانة جوابا لمسئلة ابنها الا اكبابها على عنقه تقبله وقد كادت تختنق سرورا واغتباطا وأما اراسم فانه مع تأثره مثلها مما سمع من ولده كان أملك منها لعواطفه . أجاب ولده بصوت ينبيء عن سكينته ووداعته فقال : « اذا كنت تحبها فهي ابنتي » ثم قبل هذه الفتاة الحسناء بصدر منشرح ونفس منبسطة .

في خلال هذا المنظر المؤثر طرق البريد باب الشارع طرقتين فاضطرب كل من في البيت وكان يحمل رسالة كان يرى من غلافها أنها آتية من بلاد بعيدة

كانت هذه الرسالة «لاميل» فاستأذن في فض ختامها لانه ما لبث أن عرف في عنوانها خط تويدون وقرأها وكانت بالانكليزية الركيكة

انكليزية زنجي-فاذا هي تتضمن تهنئة من هذا الافريقي البار «لاميل» بعيد ميلاده ورجاءه كما هي العادة عود كثير من أمثاله عليه بالغبطة والهناء وتشتمل فوق ذلك على خبر سار وهو أن الزروع التى زرعت في أرض «لولا» قد نجحت بفضل حذقه وحذق زوجته وانها ربما كفلت لها صداقها عند الزواج .

اني على جذلي باغتباط اصدقائنا محزون لتفكري في مفارقتهم لنا لان هذه الوليمة العيدية كانت وليمة وداع أيضا فهم راجعون الى فرنسا حيث يدعوهم اليها ماوقع فيها أخيراً من الحوادث السياسية وحب مسقط رءوسهم واني مشيعهم بأحسن آمالي لهم ولست أنسى كلمة من كلمات اراسم الاخيرة التى فاه بها عند مصافحتنا بصوت ملؤه الوقار والهيبة وهي قوله : « على كل منا ان يسعى في جعل ولده رجلا حرا فانا بذلك نجتث جراثيم الشرور المحزنة للامة .... اه

المترجم : فرغت من ترجمة هذا الكتاب المفيد قبيل ظهر يوم الاثنين أول جمادى الآخرة من سنة ١٣٢٤ للهجرة النبوية الموافق للثالث والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩٠٦ للميلاد المسيحي

الناشر : تم طبع الكتاب على حدته بعد استخراجه من المنار واعادة تصحيحه في سلخ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ بمطبعة مجلة المنار بمصر القاهرة

فالحمد لله على نعمة التمام

جدول الخطاء والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٢	سياسية	سياسة
١٠	١	الحكام	بالحكام
١١	١٤	سكنانه	سكناته
١١	٢٥	الانكيزيات	الانكليزيات
١٣	٦	الدين	الزمني
١٥	٥	ولا ولا	ولا
١٦	٤	لقارنوا	ليقارنوا
١٦	٧	كل	اكمل
٣٠	٦	بها	به
٣١	٨	واني	وانا
٣٤	١	لنفسي	النفسي
٣٥	١٠	الكلام	الظلام
٣٦	٩	التي	الذي
٤٠	١٢	ركباناها	ركبناها
٥٥	٦	وللاقرار	والاقرار
٧٤٠	٧	الرضوخ	الانقياد
٨٩	٦	ولان	لان
١١١	١	الاغوي	اللغوي
١١٦	١٧	اليقام	القيام
١١٦	٢٠	وأعظ	واعظ
١١٨	١٤	أفراط	إفراط
١٢٤	٤	بحت	بحث
١٣٢	٩	علا	علاً

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤٢	٤	ظرف	طرف
١٤٦	٢٠	والثامنة	او الثامنة
١٤٧	١٦	الناس	الناشئين
١٥٤	١٨	احدها	احداها
١٥٤	١٩	أقليم	إقليم
١٥٤	٢٠	شارتون سور لوستير	شارتون سورشير
١٥٤	٢٠	سانت ارمنر	سانت ارمند
١٥٤	٢١	مشتغل	مستشفى
١٥٥	٤	حسن	احسن
١٥٥	١٠	غرائره	غرائزه
١٦٣	١١	وهو	وهي
١٦٤	١٩	كرامتهم	كرامتها
١٦٥	١١	بدل	يدل
١٥٦	١٤	لا زال	لا تزال
١٦٦	٧	ذك	ذلك
١٧٠	٣	سنتين	سنين
١٧٠	١٦	ترفعك	تريضك
١٧٤	١٧	المدلول	والمدلول
١٧٧	١٤	على النظر	النظر
١٨٢	٧	العشرون	والعشرون
١٨٣	٩	الفسقية	السقيفة
١٨٤	١٧	منهم الواحد	الواحد منهم
١٨٤	٢٠	وان	ان
١٨٤	٢١	البسط	البط
١٨٧	١٤	كان	كاد
١٨٩	١٧	والخسائر	والخسار
١٩٠	٤	الزمن	الزمني

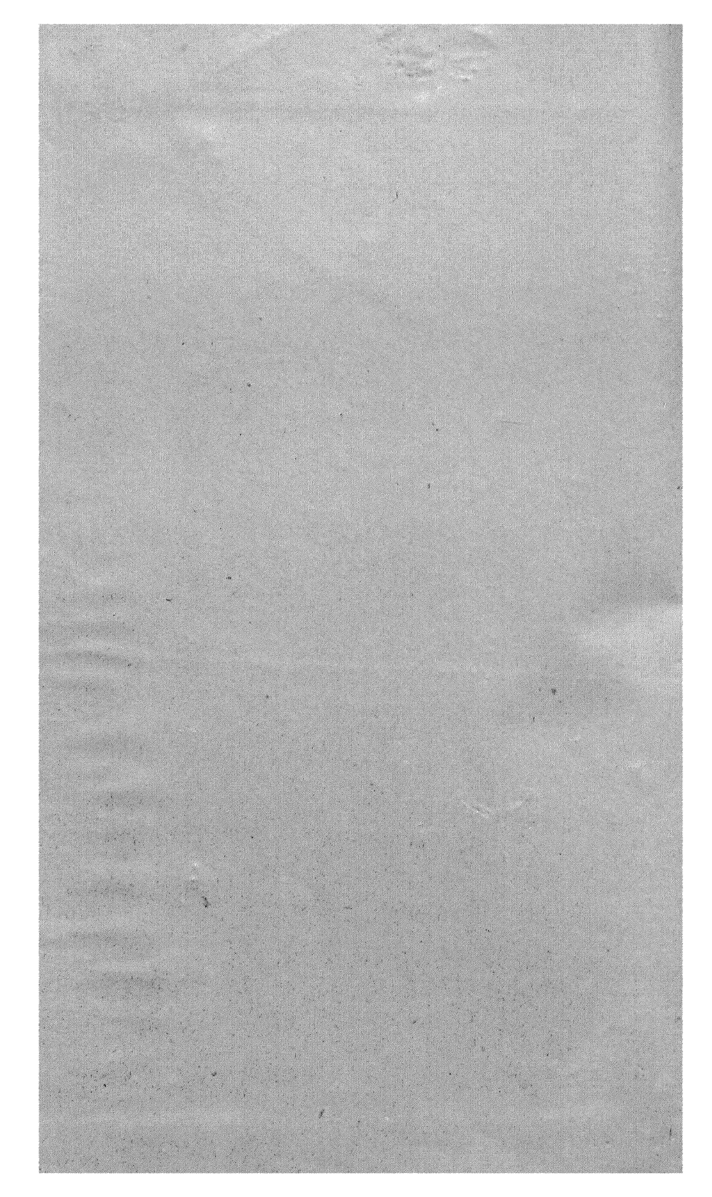
صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٩١	١٧	ينبثا	ينبسا
١٩٥	١٧	فاحبيت	فاصبت
٢٠٩	٢	أفل	اقل
٢١٢	٩	بَعدُ	بُعدٍ
٢١٤	٩	وعدهم	دعواهم
٢١٥	١١	يعلمه	تعلمه
٢١٧	٧	الطريق	الطيران
٢١٨	١٠	هذه هذه	هذه
٢١٨	١٣	أعمال	إعمال
٢١٩	١٥	أنه	إنه
٢٢٢	٣	خرائط	خوارت
٢٢٢	٤	فذميم	فدميم
٢٢٢	٤	الخرائط	الخوارت
٢٣١	٥	الكثيرة	الكثير
٢٣٣	٣	همم	هم
٢٣٣	٨	والعشرون	والعشرين
٢٣٧	٦	ادجير	داجير
٢٣٩	١٣	فكان	فكأن
٢٤١	٦	يجفف	لم يجفف
٢٤٧	٣	« وامبل »	« اميل »
٢٤٨	١٦	خرايشة	خرايشه
٢٥٠	٧	فانكسر	فانكسرت
٢٥٢	٣	فكان	فكأن
٢٥٥	١٩	بينهما	بينها
٢٥٦	٤	اليه	اليها
٢٥٦	١٦	نعم أن	نعم إن
٢٥٧	٦	أن	إن

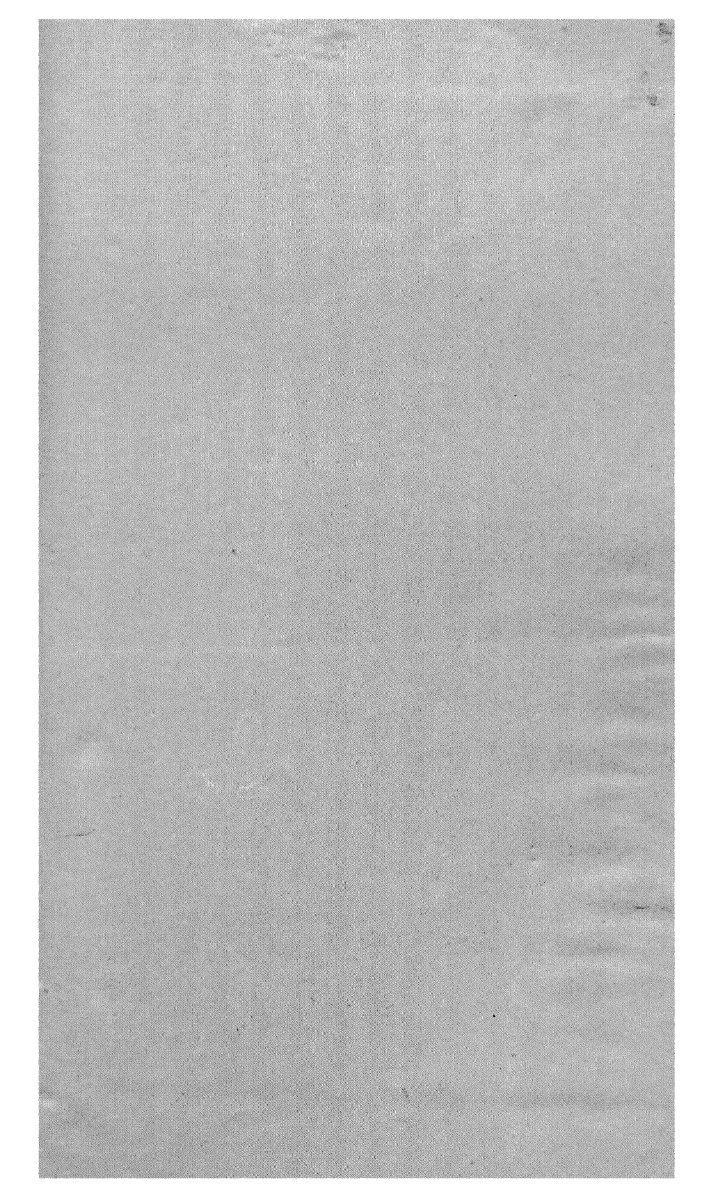
صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥٧	٦	باتباع	اتباع
٢٦٣	١٦	مخابرة	محاورة
٢٦٨	٧	يحملون	يحملوا
٢٦٩	١٤	يجملني	يحملني
٢٧٤	٤	الصغير كنت	الصغير الذي كنت
٢٧٥	١٣	أن لم	إن لم
٢٧٦	٥	يكن	يكن
٢٨٣	١	أنها	إنها
٣٠٥	٤	واجد	واحد
٣٠٥	٨	واستنزلت	واستزلت
٣٠٩	٥	او	ام
٣١٠	٤	كأنما	كانا
٣١٣	٢	علي البسالة	البسالة
٣١٣	٢	ولينها	وليها
٣١٣	٢	وعليّ تعرف	وتعرف
٣١٦	٤	ترقبهم	ترقهم
٣٢٠	٣	ديقونشاير	ديفونشاير
٣٢٠	٦	الدقائق	الدفائن
٢٢٠	١٢	الحزق	الخرق
٣٢١	١١	اياته	آياته
٣٢٢	١٠	من غيره	منهم الى غيره
٣٣٤	٤	الزرايه	والزراية
٣٣٥	٣	مدينون	مدنيون
٣٤١	١	خدعه	خدعة
٣٤٥	١٩	اغطس	اغسطس
٣٤٦	١١	أن	إن
٣٤٧	١٥	التبة	البتة

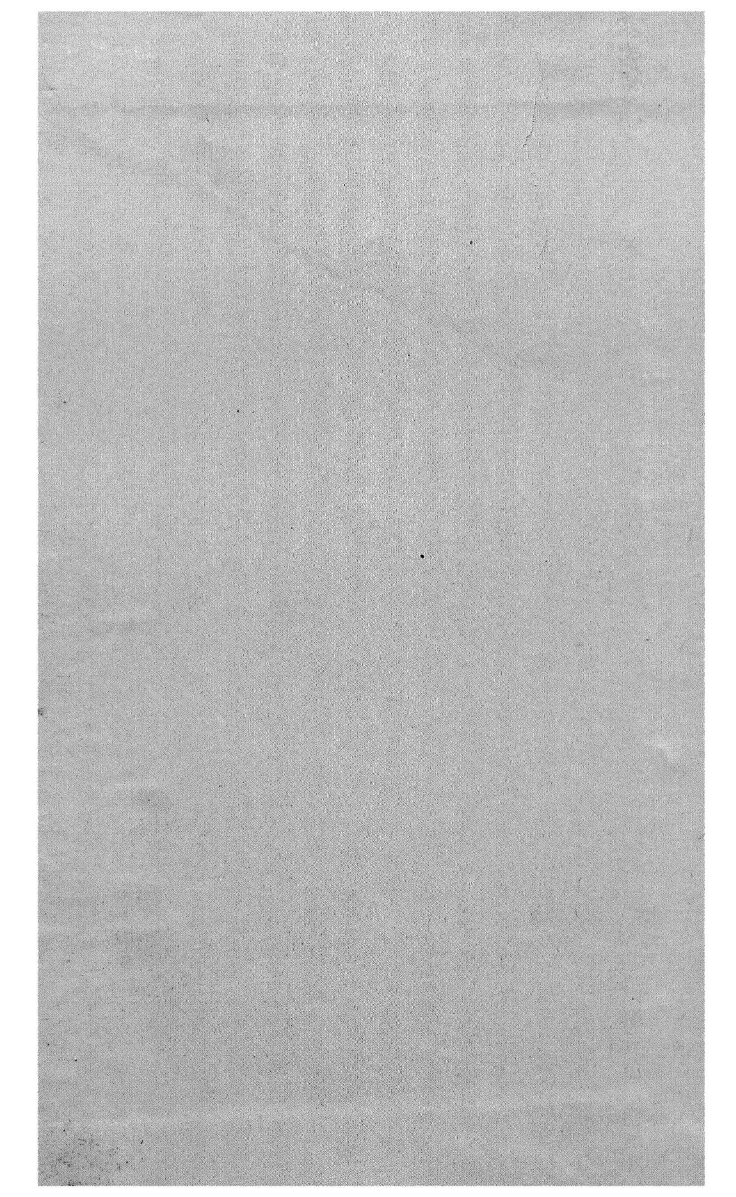
صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٦٦	٢	تلامذة	تلامذته
٣٦٧	١٣	جأ في	جاءني
٣٦٧	١٤	التي	والتي
٣٦٨	١٣	ما رأتها	لما رأتها
٣٦٨	١٥	ضابط	ضباط
٣٧٠	١٨	بزوت	برزت
٣٧٢	١٢	وجحتهم	وحجتهم
٣٧٨	٧	العائشين في السفينة	العائشين في البر يتأكد بين العائشين
٣٧٨	٤	كما كانت	كانت
٣٨٠	١١	فكرة	فكر
٣٨٤	٣	نبس	ييس
٣٩٧	١٣	قدمه	قدمته
٤٠٦	٢	البوما	البوما
٤١١	٥	ادنى	اذنى
٤١٩	١٧	يخلصو	يخلصوا
٤٢٨	٢	سأصفق	سأصعق
٤٢٨	٤	بساطنها	بساطتها
٤٣٢	١٧	لاظنك	لا أظنك
٤٤٦	١٣	نلتها	تلتها
٤٥٣	٢	تربث	تربت

تم

(تنبيه) يرى القراء ان أكثر هذا الخطأ تصحيف أو تحريف يسهل تصحيحه بالقلم قبل قراءة الكتاب فمن يصحح نسخته فانما يحسن إلى نفسه








Bibliotheca Alexandrina
0402710